٢٩٥

الاتجاهات الحديثة في النقد الأدبي

تمهيد

ربما كان سقراط هو أول من فرق بين تأليف الأدب ونقد الأدب وميز بينهما ، وذلك حتى ذهب الى أنه قلما كان يجد من بين الشعراء من يستطيع أن يشرح ما كان يعنيه بشعره . وكأنما كان سقراط يود أن يقول في هذه العبارة أنه لم يكن ثمة من بين الشعراء من يستطيع أن ينقد شعره . وقد أدى ذلك بالأستاذ **لاسيل ابركرومبي** ، وهو يستعرض رأى سقراط في مقاله الرابع من قواعد النقد الأدبي الذي نقله الى العربية منذ سنوات طويلة المرحوم الدكتور محمد عوض محمد الى أن يميز بين ثلاثة أنواع من القدرات هي : **القدرة على تذوق الأدب ، والقدرة على تحليل الأدب تحليلا منطقيا ، ثم القدرة على نقد الأدب** ، وحاول ابركرومبي أن يرد هذا التمييز بين القدرات الثلاثة الى وجود ثلاث ملكات مختلفة هي ملكة الانشاء أو الانتاج الأدبي ، وملكة التذوق ثم ملكة النقد . وهذه الملكة الثالثة يمكن أن تكتسب وأن تنمي بالدرس والممارسة والمران ، وان كان هذا لا يمنع من أن الناقد يكون غريزيا في كثير من الأحيان ، وأن يصدر على ما ستري عن القارئ بطريقة تلقائية دون أن يعد لممارسة هذا العمل اعدادا متعمدا مقصودا .

ومهما يكن من امر ، فالمهم هو ان « الناقدعادة يكون مدركا » للخطة التي يتبعها في نقده ، وان هذه الخطة تعتمد على قواعد منطقية خاصة قابلة لان ترتب بحيث يتألف منها نظام خاص . ومن الممكن دراستها وتطبيقها في دقة وعناية » بينما ليس هناك في رأيه « قواعد ترشدنا الى كيفية ابتكار الادب ولا الى كيفية الاستمتاع به » . بل الاكثر من ذلك ان النقد الادبي يعجز تماما من « ايجاد هاتين الملكتين عند الناس اذا لم يكن لهما وجود من قبل ، فهو يفترض الان وجودهما افتراضا » (انظر كتاب **قواعد النقد الادبي** ـ دار التأليف والنشر والترجمة ـ القاهرة ـ صفحتا ٤ ، ٥) .

ولكن على الرغم من اختلاف القدرة على النقد الادبي اختلافا تاما عن القدرة على ابتكاره والقدرة على تذوقه فليس ثمة ما يمنع بطبيعة الحال من امكان اجتماع القدرات الثلاث في شخص واحد « بحيث يكون الاديب قارئا للادب وناقدا في الوقت ذاته . وعلى اي حال فان النقد يبدأ بمجرد ان يأخذ قارىء الادب نفسه بالتزام « قواعد معينة » يطبقها اثناء قراءاته ويستعين بها في تذوق الادب مع تقدير ما يقرأ بحيث يصبح الاستمتاع بالقراءة « مبنيا على اساس من الفهم وحسن التخير » وبذلك يكون النقد عبارة عن « اسئلة معقولة يسألها المرء عن كل شيء يتعلق بالادب ثم الاجابة عنها كذلك اجابة معقولة » (ص ٧) سواء اكانت هذه الاسئلة والاجوبة متعلقة بنظرية الادب ذاتها ، او بما يسموله « بالنقد الاساسي » او النقد الخاص لاعمال ادبية معينة ومحددة بالذات ومع التسليم بهذا كله فليس ثمة ما يمنع من ان يكون النقد الادبي على ما ذكرنا من قبل « عملا شخصيا كالتأليف الادبي سواء بسواء ، ويكون كالادب وليد النبوغ العبقري » بحيث يصدر عن مواهب معينة قد لا تستند الى اي قواعد راسخة ثابتة او مدروسة ، بل وقد تنفر من مثل هذه القواعد الجامدة فلا تلتزم بها ، وبذلك لا يتمسك الناقد بنظرية محددة او بمبدأ معين بالذات يلتزم به طول الوقت ويحاول تطبيقه على كل ما يقرأ . وهذا هو ما يسميه ابركرومبي **بنقد الالهام** الذي يصدر عن الخصائص والمميزات والقدرات الذاتية للناقد ، وان كان هذا النوع من النقد لا يعتبر في رأي الكثيرين ، وبخاصة من المهتمين بنظرية النقد الادبي وممارسته اهم انواع النقد ، لان الذي يهوق ذلك هو مدى ما يضيفه النقد والناقد الى قواعد النقد وطرائقه واسهامها في شرح تلك القواعد والطرائق وتفسيرها والعمل على ارتقائها وتقدمها . فمثل هذه الجهود هي التي ادت وتؤدي الى ظهور الاتجاهات المختلفة وتنوع المدارس والمناهج في النقد الادبي . **وسوف يجد القارىء عرضا لبعض هذه الاتجاهات والمذاهب في هذا العدد .**

• • •

والواقع انه ليس هناك اسلوب او منهج واحد « صحيح » لمعالجة مشكلات الادب ، كما انه لا يوجد مدخل واحد يمكن اعتباره محكا ومعيارا لتقييم كل انواع الادب وكل الكتابات الادبية على اختلافها . ذلك لان الاعمال الادبية كثيرة ومتنوعة الى ابعد حدود الكثرة والتنوع ، وتغطي حقبة طويلة جدا من تاريخ الانسان والحضارة . ومع الاعتراف بالدور الذي تقوم به الدراسات النقدية ، وكذلك نظرية الادب في توضيح ماهية الادب ومساعدة القارىء على فهم طبيعته وعلى الوصول الى درجة اكبر من الاستمتاع والتذوق من قراءته للاعمال الادبية ، فان من الخطأ الزعم بأن التذوق والاستمتاع والتقدير لهذه الاعمال لن تتاح للقارىء الا عن طريق الالمام بنظرية الادب او الدراسات النقدية فيه . وكما يقول ديفيد ديتشس David Daiches انه من السخف ان نزعم ان اليونانيين القدامى لم يستطيعوا الاستمتاع باعمال سوفوكليس وتذوقها وتقديرها حق قدرها قبل ان يجيء ارسطو ويكتب كتابه الشهير عن الشعر Poetics ، او ان نزعم انه كان يتعين على رواد المسرح في بريطانيا ان ينتظروا مجيء برادلي A. C. Bradley او الاستاذ هيلمان Heilman حتى يمكنهم الاستمتاع بمسرحية « الملك لير » . ذلك ان التذوق والتقدير يمكن ان يكونا مستقلين تمام الاستقلال عن نظرية النقد ، ولو ان الاستعانة بهذه النظرية قد تساعد على توضيح معنى العمل الادبي وبالتالي تساعد على الاستمتاع به ، والتعرف الى اعماقه . وهذا معناه ان النقد الادبي لا يمكن ان يكون غاية في ذاته ، او انه حسب تعبير T. S. Eliot ليس غاية ذاتية autotelic وانما هو بالاحرى وسيلة للوصول الى فهم اعمق للعمل الادبي والى تحقيق درجة اكبر من التذوق والاستمتاع ، ويحقق النقد وظيفته بتحقيق ذلك الهدف .

والذي لا شك فيه هو ان الفن اكبر بكثير من شراحه على ما يقول Daiches ايضا ، وانه ليس هناك من بين النقاد من يمكنه ان يزعم انه استطاع ان يحدد قيمة الفن الادبي ومعناه بكل ما تحتوي عليه من معنى . فنظريات النقد نظريات جزئية ومتحيزة وذاتية وقابلة للمناقشة والاختبار ، وان كان هذا لا يعني انه لا توجد مقاييس او معايير للقيمة ، او انها تعتمد فقط على الذوق الخاص او الانطباعات العامة الباهتة . وكل مايعنيه ذلك هو انه لا يوجد حكم نقدي لاي عمل ادبي يمكن ان يكون حكما كاملا مطلقا وصحيحا او مقبولا من الجميع ، ومع انه يمكن من الناحية النظرية البحته ـ وضع بعض المبادىء العامة القويمة فالواقع ان الاحكام التي تصدر من الناقد عن اي عمل ادبي هي بالضرورة احكام تقريبية ، وانه على الرغم من كل ما يبذله الناقد من جهود للكشف عن طبيعة العمل الادبي وماهيته فلن يستطيع في الاغلب ان يحيط بكل جوانبه واعماقه . فالعمل الادبي مجموعة متشابكة ومعقدة من الافكار والآراء والاحاسيس والمواقف والتجارب التي خضع لها الكاتب او الشاعر ، ومن الصعب ان لم يكن من المستحيل ، ان يصل الى كل جزئيات

تلك التجربة ، وأن يتعرف في دقة وعمق على كل جوانبها ودقائقها . ومن هنا كان النقد الأدبي أقرب في طبيعته الى الفن منه الى العلم ، ومن هنا أيضا كان الناقد الذي يحرص على اخضاع الأعمال الأدبية لعدد من المبادىء الجامدة المطلقة ويعمل على تطبيق هذه المبادىء بطريقة منهجية دقيقة وصارمة عرضة لكثير من المخاطر ، كما يشوب عمله كثير من أوجه العيب والنقص .

ومع أن بعض النقاد المحترفين قد يميلون الى وضع قواعد ومناهج ومبادىء محددة لكي يسترشد بها المبتدئون في فهمهم لأصول فن النقد الأدبي وللاستعانة بها في خطواتهم الأولى فكثيرا ما تنقلب الأوضاع وتخرج هذه القواعد والمناهج عن الأهداف التي وضعت من أجلها ، بحيث يصبح دراسة النقد الأدبي في آخر الأمر مجرد دراسة للأسلوب الذي يتبعه الكاتب والعبارات التي يستخدمها وما الى ذلك وبدلا من أن يكون دراسة لطريقة الكاتب في عرض تجربته بوضوح وعمق ، وأداة لمساعدة القارىء على فهم تلك التجربة وادراك أعماقها وجوانبها المختلفة .

ومن هنا كان لا بد من أن نفهم وظيفة الأدب أو على الأقل الغرض منه . ولقد اختلفت الآراء في ذلك اختلافا كبيرا . ولكن الظاهر أن من أهم هذه النظريات التي يعتنقها فريق كبير من المشتغلين بالنقد الأدبي والتي نجد لها صدى عند كثير من علماء الأنثروبولوجيا والاجتماع المهتمين بدراسة الأدب وتحليله وعلاقته بالمجتمع ، الاتجاه الذي يذهب الى أن الغرض الحقيقي من الأدب هو « التعبير » « والتوصيل » فالأدب نوع من التعبير عن تجارب المؤلف وخياله وأحاسيسه وانفعالاته وما يدور في نفسه وعقله من مشاعر وأفكار ، كما أنه في الوقت ذاته وسيلة لتأدية هذه التجارب والانفعالات والأفكار الى الآخرين بنفس القوة التي يشعر بها الكاتب الذي يمر بتلك التجربة . والاخفاق أو الفشل في ذلك يعني الاخفاق والفشل في انتاج أدب يستحق أن يطلق عليه هذا الاسم .

هذه الوظيفة المزدوجة للأدب (أعني **التعبير والتوصيل**) تكشف لنا عن الجانبين الأساسيين اللذين يجب توفرهما في أي عمل أدبي ، وهما الجانب الذاتي للأديب والجانب الموضوعي وتوكيد أحد هذين الجانبين أو الآخر والاهتمام به وابرازه هو الذي أدى الى ظهور مذهب الرومانتزم من ناحية ، والمذهب الواقعي من الناحية الأخرى ، والجمع بين هاتين الناحيتين (الذاتية والموضوعية) هو الذي يتمثل في اعتبار الأدب نوعا من توصيل أو نقل التجربة الحية العميقة التي يمر بها المؤلف التي يعبر عنها في كتاباته ، وليست العبارة اللفظية في آخر الأمر سوى « أداة » ووسيلة لتحقيق هذه العملية .

٦

وعلى هذا الاساس فانه يمكن القول مع ابركرومبي – مرة اخرى – ان الادب يفترض وجود اطراف ثلاثة هم المؤلف والقارىء ثم العبارة اللفظية – او الكلام – الذي يكون بمثابة الوسط بين هذين الطرفين . وليس المقصود بالتوصيل هو توصيل (المعلومات) كما هو الشأن في الكتب العلمية، فنحن لا نحكم على الكتابة الفنية او العمل الادبي بمدى صحة ما قد يكون به من (معلومات) ؛ وانما الذي نأخذه في الاعتبار والذي تصدر عنه احكامنا هو مدى صدق ذلك العمل الادبي في التعبير عن التجربة التي يمر بها الكاتب بكل اعماقها وقوتها ، وقدرة ذلك العمل الادبي على نقل هذه التجربة الذاتية بكل جوانبها وتنوعها واصالتها .

فالناقد الان ينظر الى التعبير على ان له قيمة ذاتية خاصة به بصرف النظر عن الاحكام التي قد يتضمنها ؛ وذلك على الرغم من كل ما يقال عن الادب التطبيقي الذي قد يهدف الى الاقناع ، والى قبول قضية او رأي او حكم .

« فالغرض الان من الادب الصرف » هو « ان يؤدي عمق الاحساس دون ان يكون له غرض اخر غير مجرد وجوده ، كما ان الحكم عليه بالقوة او الضعف انما يكون بالنظر الى قدرة الكاتب على توصيل تلك التجربة والتعبير عنها » .

وما دام العمل الادبي تعبيرا عن تجربة معينة مر بها الكاتب فان النظرة الى ذلك العمل وتقديره وتقييمه يجب الا تكون مجرد نظرة جمالية خالصة وانما لا بد من ان تأخذ في الاعتبار المناخ العقلي والثقافي والحضاري الذي تم انتاجه فيه ، ومحاولة التعرف على العوامل السيكولوجية والظروف الاجتماعية التي خضع لها الكاتب . فهذه كلها امور من شأنها ان تزيد قدرة القارىء على فهم ما يقرأ والاستمتاع به وتقديره ، وعلى الغوص الى اعماق التجربة الانسانية التي يعكسها الكاتب على ما يقول ديتشيس .

فكان الادب على ما يذهب اليه انصار هذا المذهب ، ومعهم المهتمون بالدراسات الادبية من علماء الاجتماع والانثربولوجيا – هو عمل اجتماعي ثقافي الى جانب كونه انتاجا فنيا او جماليا . ومن الطريف ان نذكر هنا ان الكثيرين من علماء الاجتماع والانثربولوجيا الذين تعرضوا لهذه المسألة ينظرون الى الكاتب او الاديب على انه انسان يمارس حرفة او مهنة معينة . والى العمل الادبي على انه وسيلة للاتصال ، اي سلعة ثقافية ، والى القارىء على انه مستهلك لتلك السلعة الثقافية بشكل او بآخر .

والمعروف انه منذ عهد حاول شوكنج L. L. Schücking على ما يقول سكاربت Robert Escarpit في مقاله عن « الادب » في **الموسوعة الدولية للعلوم الاجتماعية** ـ ان يضع نظرية من علم الاجتماع الادبي او سوسيولوجيا التذوق الادبي . ومع ان هذه المحاولة صادفت كثيرا من الصعوبات ، على الاقل في بداية الامر ، فانها اثارت الاهتمام بالموضوع لدى عدد من المفكرين الاجتماعيين الذين اهتموا بالتعرف على العوامل الاجتماعية التي تؤثر في العمل الادبي ومدى تعبير الادب عن الواقع الاجتماعي وانعكاس البيئة الاجتماعية للكاتب في كتاباته ، واثر البناء الاجتماعي عموما في الانتاج الادبي . ثم بدات بعض المدارس التي تأثرت بكتابات الفيلسوف المجري **جورجي لوكاش** Gyorgy Lukács تنظر الى المجتمع على انه هو الحقيقة الواقعية التي تختفي وراء مظاهر الادب ، وان كان ذلك لا يتنافى في الوقت ذاته مع اعتباره الادب غاية في ذاتها . وقد بلغ الامر ببعضهم الى حد اغفال دور القارىء في عملية الاتصال الادبي ، بل ان منهم من انكر ان يكون الادب عملية اتصال بالمرة ، وبذلك انكروا وجود ما يمكن تسميته بالاتصال الادبي .

وهذا موقف متطرف يتعارض تماما مع موقف كاتب مفكر مثل **جان بول سارتر** Jean-Paul Sartre الذي يرى في كتابه « ما هو الادب » والذي صدر عام ١٩٤٨ ان العمل الادبي الذي هو نتاج مكتوب للفكر لن يكون له وجود واقعي الا حين يقرأ بالفعل ، لان الكتابة بغير القراءة هي مجرد لغو ، كما ان الكتاب الذي لا يجد من يقرؤه لن يكون اكثر من مجموعة من الاوراق الملوثة بالحبر . وعلى هذا الاساس فانه لا يمكن اعتبار الظاهرة الادبية مجرد حصيلة للفن نفسه ، وانما هي اتفاق او تقابل ، بل واحيانا صدام بين فعلين صادرين عن الحرية ، الاول فعل الناتج والآخر فعل استهلاك ، بكل ما يقتضيه هذان الفعلان من نتائج وآثار على العلاقات الاجتماعية والاخلاقية . وعلى اية حال فلا بد من ان يكون هناك دائما « رجل آخر » في الادب : كاتب بالنسبة للقارىء وقارىء بالنسبة للكاتب .

• • •

وهذا كله معناه ان من الخطورة الى حد كبير اخضاع النتاج العقلي المكتوب للمحكات الجمالية وحدها او اغفال غيرها من المحكات الثقافية والاجتماعية والاخلاقية ، خاصة وان اداة الادب هي اللغة والكتابة ، وهما اداتان اجتماعيتان .

وليس من شك في ان الكاتب يأخذ في اعتباره معظم الاحوال والافكار والاحكام والقيم التي تسود في مجتمعه ، فضلا عن الاحكام التي يصدرها القراء انفسهم على ما يكتب . فالتفاعل بين الكاتب

والقارىء قائم وقوي ويعمل في اتجاهين متكاملين ، بحيث يلعب الكاتب دورا ايجابيا يتمثل فيما يحاول توصيله من « رسائل » او تجارب انسانية الى جمهرة القراء الذين تصدر منهم « استجابات » لهذه « الرسائل » تتمثل في الاحكام التي يصدرونها على ما يكتب والتي تنعكس بدورها على كتاباته الاخرى وهكذا .

ولقد كان من الطبيعي ازاء ذلك أن يشغل دارسو الادب انفسهم بوضع الحدود واقامة التمييزات بين « التاريخ الادبي » و « النقـــد الادبي » .

فالتاريخ الادبي على مايقول الاستاذ بيتشون Bateson يعلم بشيء أن استمد من ب ، بينما النقد الادبي يحاول البرهنة على ان أ افضل من ب ... التاريخ الادبي يعالج حقائق مؤكدة ، او يمكن البرهنة عليها ، اما النقد الادبي فيتناول امورا تتصل بالاعتقاد او الرأي ، وقد تتعلق باصدار الاحكام التقويمية . وهـــذه تمييزات معقولة ومقبولة الى حد كبير ، وان كانت المناهج والاساليب المتبعة كثيرا ما تختلط بينهما ، كما انه كثيرا ما يصعب تصور تاريخ الادب بغير الرجوع الى نظرية الادب او النقد الادبي ، او ممارسة النقد بغير الرجوع الى نظرية الادب وتاريخه . وليس من شك في ان النقد الادبي يأخذ في الاعتبار الاحكام التي كانت تسود في عصور انتاج العمل الادبي الذي يتعرض له بالمراجعة والنقد ، ويحاول ان يتمثل في فهم اتجاهاتها ومواقفها وفلسفاتها ويتعرف على المعايير الادبية والفنية الموجودة عندئذ ، ويعرف هذه النزعة بوجه عام - كما يقول ويليك Wellek ووارين Warren في كتابيهما عن نظرية الادب Theory of Literature بالنزعة التاريخية Historicism . وكانت هذه النزعة سائدة في المانيا بوجه خاص في القرن التاسع عشر رغم اعتراض الكثيرين عليها ، ثم انتقلت من المانيا الى انجلترا فالولايات المتحدة ولا يزال الكثيرون من « مؤرخي الادب » يتمسكون بها ، وادى ذلك الى ظهور ما يعرف باســـم « النسبية النقدية » Critical Relativism على ما يسميها فردريك بوتل F. Pottle وهذه التسمية تتضمن الاعتراف بوجود نوع من عدم الاستمرار في تاريخ الادب ، ما دام النتاج كل عصر سوف يقاس بمعايير عصره فحسب .

ومع التسليم بما في هذا الموقف من وجاهة ، فقد تعرض لكثير من الهجوم والنقد ، على اعتبار انه يغفل اذواق القراء المعاصرين ، ويحصر العمل الادبي داخل اطار ضيق من الوحدة الزمانية والمكانية ، وبذلك يسلبه خاصية العمومية او الكلية التي يجب ان يتصف بها اي عمل ادبي جيد . فالعمل الادبي يجب للحكم الصحيح عليه ان يخضع لمعايير ، وان يدرس من جانبين متكاملين هما الذوق الفني الذي كان يسود عصر انتاجه ، ثم الذوق الفني او الادبي العام ، ما دام

الادب يعبر عن تجربة انسانية ، حتى وان كانت هذه التجربة تتمثل في شخص المؤلف الذي يجب ان يبرز النواحي الانسانية العامة العميقة في تلك التجربة .

ونحن حين نقرأ اي عمل ادبي انما نقرؤه في ضوء عصره ومجتمعه وثقافته على ما ذكرنا ، ولكن ايضا في ضوء التجربة الانسانية العامة وفي ضوء المواقف والاتجاهات الحديثة . وهذا الموقف المزدوج له ما يماثله في الدراسات الانثروبولوجية مثلا ، حيث ينظر الباحث الانثروبولوجي الى اية ثقافة في ضوء الظروف التي انتجتها وكذلك في ضوء ثقافته هو نفسه ، على اعتبار ان تلك الثقافة الجزئية التي يدرسها ما هي الا مظهر من مظاهر الثقافة الانسانية ككل . وكذلك العمل الادبي ما هو الا تعبير عن جزء معين من التجربة الانسانيـــــة العامة ، بقدر ما تعرض لها الكاتب .

فكان من الصعب الفصل فصلا قاطعا وحاسما بين وجهة النظر التاريخية والمعاصرة في دراسة الادب دراسة نقدية ومحاولة تقييمه ، ومع ذلك فانه يتعين على الناقد ان يعمل على ان يتجنب بقدر الامكان الوقوع في براثن « النسبية النقدية » او في « النزعة المطلقة Absolutism » بحيث يتخلص من قصور النسبية دون ان ينزلق الى الاحكام المطلقة الجامدة التي تعتقد ان الطبيعة الانسانية ثابتة لا تتغير . فالعمل الفني او الادبي (ابدي) (تاريخي) معا ، وليس من السهل الجمع بين هذين (البعدين) ، ولكنه امر لا بد منه اذا اريد فهم العمل الادبي فهما صحيحا يزيد من معرفة الانسان بطبيعة النفس البشرية وعمق التجربة الانسانية وامتدادها .

* * *

محمد زكي العشماوي

الشكل والمضمون في النقد الادبي الحديث

شغلت قضية الشكل والمضمون في الادب المشتغلين بالدراسات الادبية والنقدية على مر العصور ، لا في الآداب الاوروبية وحدها ، ولكن في ادبنا العربي كذلك ، وخطورة هذه القضية انما نشأ من ارتباطها الوثيق بتقدير قيمة العمل الادبي وتبين تأثيره . فان اي خلط في فهم طبيعة العلاقة بين الشكل والمضمون سيؤدي بالضرورة الى الخلط في الحكم على الآثار الفنية ، والى اختلاف النقاد والادباء في حقائق ؛ ان جاز الاختلاف فيها في العصور الماضية فلا يجوز أن يختلف عليها احد اليوم . وعلى الاخص بعد ان تطورت دراسات علم الجمال الحديث وبعد ان وضحت من خلال هذه الدراسات الاسس التي ينبني عليها الفن ايا كان نوعه .

وقبل ان نبدأ في دراسة هذه القضية وتتبعها في مراحلها المختلفة يحسن بنا ان نحدد ما يعنيه النقد الحديث باصطلاحي الشكل والمضمون او الشكل والمحتوى ، وقد يستخدم احيانا اصطلاح الصورة بدلا من الشكل فيقال : الصورة والمضمون .

والشكل عندهم هو الصورة الخارجية ، او هو الفن الخالص المجرد من المضمون والذي تتمثل فيه وتتحقق من خلاله شروط الفن الادبي ، سواء اكان قصيدة غنائية أم قصة أم مسرحية . فاذا حكمنا على قصيدة غنائية من حيث الشكل مثلا قصرنا احكامنا على كل ما يتصل بتحقيق الصورة

الخارجية لهذا الفن من وزن وموسيقى وصور شعرية ، وصياغة فنية ، وبما قد يتحقق من خلال ذلك من جمال او انسجام في الوحدة او تناظر في الاجزاء . وبالجملة كل ما يتصل بالعنصر الشعري الغنائي في القصيدة وصياغته واسلوب تصويره . وكذلك الحال في المسرحية ، فالشكل فيها هو كل ما يتصل ببنائها الدرامي وتماسك هذا البناء وتدرجه من بداية ، الى وسط ، الى نهاية ، ثم التحام اجزائه وروعة تصويره بغض النظر عما يشتمل من مضامين او يثير من قضايا انسانية او اجتماعية او نفسية او اخلاقية .

اما المضمون او المحتوى فهو كل ما يشتمل عليه العمل الفني من فكر او فلسفة او اخلاق او اجتماع او سياسة او دين ، او غير ذلك من موضوعات ذات شأن تاريخي او وطني . ومن هنا يكون المضمون او المحتوى هو في غالب الامر المادة الخام التي يستخدمها الاديب او الشاعر ، والتي يشكلها الفنان في الصورة التي يريدها .

وانقسم النقاد وفقا لهذا التمييز بين الشكل والمضمون الى مدرستين : احداهما مدرسة الشكل والاخرى مدرسة المضمون . واتخذت كل مدرسة تقيس الفن بمقاييسها الخاصة . فاصحاب الشكل لا يرون في المضمون اية قيمة فنية ، ويحصرون احكامهم في دائرة الصياغة الفنية وما يتحقق عنها من جمال . واصحاب المضمون يرون ان الفن كل المضمون ، وحددوا المضمون كما يقول **كروتشه** تارة بما يلذ ، وتارة بما يتفق مع الاخلاق ، وتارة بما يسمو بالانسان الى سماوات الفلسفة والدين ، وتارة بما هو صادق من الناحية الواقعية ، وتارة بما هو جميل من الناحية الطبيعية المادية » (١) .

والمسألة مرتبطة في جذورها بفلسفة ادراك الاشياء : هل ماهية الشيء متحققة فيه ؟ او ان الماهية فكرة منفصلة عن الشيء ؟ او بمعنى آخر : هل المدرك الحي الذي امامنا يحمل في ذاته حقيقة كامنة فيه أم انه يمثل ظلا زائلا لحقيقة منفصلة عنه وبعيدة عن كيانه ؟

اما ارسطو فيرى ان الماهية ليست فكرا منفصلا عن الاشياء ، والحقيقة عنده كامنة في المدرك الحسي ، ومن ثم فان جوهر الشيء عنده لا ينفصل عن تحققه المادي ، ومن هنا كان عالم الشعر عند ارسطو كامنا في الظاهر الحسية ، ويستطيع الباحث ان يستنتج من نقد ارسطو انه مؤمن بالتلازم بين الصورة والهيولى .

والذين يفصلون الشكل والمضمون انما يعزلون الى حد كبير بين الافكار او المعاني وبين المدركات الحسية .

والكلمات لا تعني الدلالة على اشياء ، وانما تعني افكارا او اشياء في الوقت نفسه . فاذا ذكرنا كلمة اسد يتداعى الى الذهن شيئان :

اولا جملة الصفات التي تحدد شكل الاسد وتكتسب عن طريق الملاحظة والتفرقة بين الصفات الجزئية والعرضية والصفات المشتركة :

---

(١) المجمل في فلسفة الفن – تأليف بندتو كروتشه – ترجمة سامي الدروبي ص ١٥

وثانيا جملة الارتباطات والانطباعات القائمةحول الكلمة ، او بمعنى آخر ما يمكن او تضيفه الكلمة من احساس. من اجل ذلك كان من الصعب ان نفصل بين ماهية الاسد وبين الاحساس المرتبط بما تثيره الكلمة في النفس من ايحاءات خاصة الا في نطاق التقسيم النظري بين ما يدرك بالعقل وما يدرك بالحس . وقد يمكن القول بأن ماهية البدر مستقلة عن جمال البدر الذي يستمد عادة من جملة الايحاءات والارتباطات ، وفي وسع اي انسان ان يقول ان استدارة البدر واستنارته شيء وجماله شيء آخر ، كما في وسع الدراسة النظرية البحتة ان تقول ان وصفنا للبدر بالجمال شيء نابع من الذوق . اما ماهية البدر التي تتمثل في فكرته كجسم مستدير مستنير في السماء ليلا فشيء آخر اكتسبناه من طول النظر والتأمل لا عن طريق الذوق .

ومن الممكن ان نقول ذلك ، وان نفصل بين ماهية الشيء وبين الانطباعات او الارتباطات القائمة حوله ، ذلك اذا اردنا ان نفرق بين الادراك العقلي المحض وبين الادراك الحسي . (٢)

ولكننا في مجال اللغة والادب نخضع لمبدأ هام لا ينبغي الاختلاف عليه وهو مبدأ رمزية اللغة، فليست الكلمات في اللغة والشعر مجرد علامات او اشارات نتخذها لنشير بها على وجود شيء او سواه ، وانما هي رموز تتضمن شحنا من المشاعر والاحساسات .

« فالرموز بالمعنى الدقيق هي تلك التي لا يكتفي فيها على مجرد الدلالة بحيث يكون هناك طرفان فقط : طرف العلامة الدالة من جهة ، وطرف الشيء المدلول عليه من جهة اخرى ، بل يضاف الى مجرد الدلالة شحنة عاطفية من نوع معين مقصود يراد لها ان تثور في نفس الرائي او السامع كلما وقع على رمز معين ، فعلم جمهورية مصر العربية ـ مثلا ـ له ما لهذا الاسم من دلالة على البلد المراد الدلالة عليه ، لكنه يضيف الى مجرد دلالة الاسم على مسماه ضربا من الشعور يراد له ان ينشأ في النفوس كلما وقعت العين على ذلك العلم . . . والهلال رمز الاسلام ، والصليب رمز للمسيحية ، فكلاهما كلمتان ، لكنهما يزيدان على كونهما مجرد كلمتين لكل منهما مدلوله المعين ، اذ هما تضيفان الى عملية الدلالة موقفا شعوريا خاصا » (٣)

فالكلمات اذن ليست قطعا من الخشب او الفسيفساء يوضع بعضها الى جانب البعض ، وانما الكلمات ارواح تختزن في داخلها مشاعر واحساسات . وهي بتفاعلها مع غيرها في داخل سياق لغوي قادرة على منح بعضها البعض دلالات وفاعليات خاصة . وبذلك تكون اللغة في يد الكاتب او الاديب في حركة خلق مستمرة ، والفن الادبي استثمار لامكانات اللغة التي لا تنتهي عند حد .

واذا فهمنا رمزية اللغة على هذا النحو يصبح الفصل بين الفكر الخالص المجرد ، وبين الشعور او الاحساس او ما تتضمنه كلمات القاموس من ارتباطات او ايحاءات امرا يبعدنا كل البعد عن المفهوم الحقيقي لاثر اللغة فنيا .

---

(٢) نظرية الفن في النقد العربي ص ٧٠ وما بعدها ـ دكتور مصطفى ناصف .

(٣) فلسفة وفن ص ٢٠٤ ، دكتور زكي نجيب محمود.

من اجل هذا حق لارسطو الا يفصل بين **الصورة والهيولى** ، **ولكن فهم ارسطو للغة** لم يصادف هوى عند مدرسة اللغويين الاسكندريين ،وعند **هوراس وشيشرون** فقد راى هؤلاء ان الشعر عالم من الالفاظ ، واختلط عندهم مفهوم الشعر بمفهوم الخطابة ففصلوا بين الشكل والمضمون تحت اصطلاحي الالفاظ والاشياء (RES) ، واستمر هوراس فمن جاء بعده وحتى في عصر النهضة فاصبح النظر الى الشعر يتساوى مع النظر الى الخطابة والمنطق وفلسفة الاخلاق (٤) .

ومن الغريب ان يمتد هذا التأثير الى القرن التاسع عشر فينقسم فلاسفة الفن في هذا القرن الى مدرستين : مدرسة الشكل ومدرسة المضمون ، والاعجب من هذا كله ان نرى بيننا اليوم من المعاصرين من **يفهم الشعر والادب على انه شكل ومضمون او لفظ ومعنى** ، ويرجع الفضيلة فيه الى الشكل دون المضمون او الى المضمون دون الشكل . فما اكثر ما نسمع من النقاد ان قصيدة ما جيدة فيما تشتمل عليه من احساسات ومشاعر ، ولكنها فقيرة من ناحية اسلوبها او صياغتها ، وكثيرا ما نسمع بعض النقاد يتحدثون عن مسرحية ما فيقولون انها سليمة من حيث البناء الدرامي ، ولكن يعوزها الموضوع الهادف الشأن التاريخي او الوطني او الاجتماعي .

وهذه جميعها اخطاء يأباها الذوق بل ويرفضها العلم والفهم الصحيح **لعمليتي الخلق الادبي** والنقد الادبي على السواء .

وليس من شك في ان هذا الخلط في مفهوم العمل الفني خلقا ونقدا انما يرجع الى ظهور النظريات الكثيرة مثل نظرية المحاكاة ، والنظريات الاخلاقية والدينية في الفن وغير ذلك كما يرجع اساسا الى اهمال العنصر الفني اما اهمالا او عمدا ، الامر الذي جعل اصحاب النظريات يعتبرون الفن مصدرا للاخلاق او للتعليم .

وليس هناك ما هو اشد حسما للخلاف القائم بين انصار الشكل والمضمون من نظرية الخيال عند **كولردج** فقد حددت النظرية الخطوط الاساسية التي ينبني عليها الخلق الادبي بحيث لم يعد هناك مجال بعدها للتشيع او الانقسام . فقد عرفنا ان الخيال هو الذي يبدع الشكل العضوي ، وهذا الشكل العضوي ينبع من داخل العمل الفني ، كما انه خاضع للتجربة الشاملة لا لشيء آخر يفرض عليه من الخارج . ومن هنا اصبح الشكل الخارجي في الشعر ليس بذي قيمة في ذاته ، ان قيمته في اتحاده اتحادا عضويا مع سائر العناصر المكونة للعمل الفني . واعتماد كل جزء من اجزاء العمل الفني اعتمادا كليا على الاجزاء الاخرى هو معيار جودة الشكل عنده . ولقد نتج من هذا كله نتائج غاية في الاهمية نجملها في النقط الآتية :

اولا : اصبح نقد العمل الفني عند كولردج يقوم على اساس هام هو ان الشكل والمضمون يتحدان اتحادا تاما ، وان الشكل العضوي امر في مكتسب ، وليس مصنوعا صناعة آلية ولكنه في باطن العمل الفني ويتحدد في تطوره من الداخل ومعنى شكله هو بالضبط اكتمال نموه (٥) .

---

(٤) فن الشعر ص ١٩١ ، ١٩٢ دكتور احسان عباس

(٥) كولردج ص ٩٢ الدكتور مصطفى بدوي

ولو كانت الكلمة مجرد رمز يشير الى معنى او فكرة فحسب لكان يمكن للكلمتين المترادفتين ان يتساويا او ان تحل الواحدة منهما مكان الاخرى. ولكننا عرفنا ان الكلمة ليست مجرد اشارة باردة لمعنى او فكرة ، وانما هي نسيج متشعب من احساسات . بل ان لكل كلمة تاريخا طويلا مرت به ، وظروفا نشأت فيها ، وارتباطات احاطت بها، وهذا كله كفيل ان يزيد الكلمة خصبا وحياة ، وان يجعلها شخصية متميزة تماما وهذا هو ما نشده كولردج بقوله :

« ولا يتضمن معنى اللفظة في رأيي مجرد الموضوع الذي يقابلها ، بل يشمل ايضا جميع الارتباطات التي يبعثها اللفظة في اذهاننا . فطبيعة اللغة لا تمكنها من نقل الموضوع فحسب ، وانما تجعلها ايضا قادرة على نقل شخصية المتكلم الذي يعرض الموضوع ونواياه » (١٠) .

يتضح لنا من كل ما سبق ان علاقة اللفظ بالمعنى عند كولردج علاقة حية ، وان ارتباطهما وثيق بحيث لا يمكنك ان تغير اللفظة او تنقلها من مكانها او تستبدلها الا اذا تغير المعنى .

رابعا : من النتائج الاخرى الهامة التي تولدت عن مفهوم كولردج للشكل والمضمون اعتباره الوزن الموسيقي في الشعر جزءا لا يتجزأ من التجربة الشعورية ، وعنصرا ملتحما التحاما كليا بسائر العناصر الاخرى المكونة للقصيدة . بل ان الوزن عنده ثمرة من ثمار الخيال ، يقول :

« انني اعتقد انه من العلامات الرئيسية لجداول الشباب الولع بالصوت الفني المطلب حتى وان كان في ذلك افراط معيب . ذلك بالطبع لانه كان من الواضح ان الموسيقى في شعره اصيلة ، وليست نتيجة تقليد آلي سهل . . . فالصور الشعرية (حتى ولو كانت منتقاة من الطبيعة ولا سيما حين يكون مصدرها الكتب مثل كتب الاسفار والرحلات وعلوم الاحياء) شأنها شأن الاحداث المثيرة ، والافكار الصادقة والمشاعر الشخصية او العائلية الشيقة . كل هذه الاشياء بالاضافة الى فن جمعها او صياغتها في صور القصيدة ، قد يستطيع اي فرد موهوب ، وعلى قدر من الاطلاع ان يكتسبها بالجهد المتصل مثلما يكتسب المرء حرفة من الحرف . اما الاحساس بالنغمة الموسيقية بالاضافة الى القدرة على توليد هذا الاحساس لدى الغير فانما هي هبة الخيال وحده . ومن الممكن تنمية هذا الاحساس وتثقيفه، ولكنه يستحيل تعلمه ، مثله في ذلك مثل القدرة على خلق اثر موحد من الكثرة ، وعلى تعديل سلسلة من الافكار بواسطة فكرة واحدة سائدة او انفعال واحد مهيمن . ان هذه هي الاشياء التي يصدق عليها المثل القائل بان المرء يولد شاعرا . ولا يمكنه ان يصبح شاعرا عن طريق الصنعة » (١١) .

ومصدر الوزن عند كولردج هو العاطفة او الانفعال بمعنى ان الذي يختار الوزن الشعري انفعال الشاعر نفسه فعندما تثور في نفس الشاعر عاطفة جياشة يلجأ الى الوزن او الى الموسيقى لانهما اقرب الوسائل للتعبير عن العواطف المشبوبة ولانها هي الاخرى بدورها

---

(١٠) المرجع السابق ص ٩٧

(١١) كولردج ص ٩٩

اكثر الوسائل قدرة على تبليغ العاطفة واثارتها عند القارىء او السامع . على ان الوزن الذى هو وليد الانفعال والعاطفة المشبوبة بحاجة الى ان يفرض عليه الشاعر درجة من التوازن ، وهنا تتدخل الارادة التي تستطيع ان تحول العاطفة الثائرة المشبوبة عند الشاعر الى ارتفاع محدد خاضع لنظام ، وليس مجرد تفجر عاطفي غير خاضع لسيطرة الارادة . ومن ثم لا يتحقق الوزن في الشعر الا نتيجة لدرجة من التوازن بين العاطفة والارادة . وفي هذا يقول كولردج :

« وبما ان الوزن نتيجة فعل ارادى لاجل مزج اللذة بالانفعال فانه يجب ان تكون اثار هذه الارادة واضحة في سائر اللغة المنظومة حسب تدخل هذه الارادة » (١٢) .

ويربط كولردج بين الكلام المنظوم ولغته ، وهو يرى ان اى كلام موزون بحاجة الى لغة خاصة تناسبه ، فلما كان الوزن وليد الانفعال وصادرا عن عاطفة الشاعر فكذلك لغته . هذا بالاضافة الى ان جزءا هاما من موسيقى الشعر نابع من علاقات اللغة واصواتها ونبراتها ، وما تحمله تلك النبرات والاصوات من مشاعر . ومن هنا نشأت العلاقات العضوية الحية بين الوزن وغيره من مقومات العمل الفني وعلى الاخص اللغة التي هي مستودع الانفعال والموسيقى والصورة .

اما تأثير الوزن عند كولردج فيجيء من ناحيتين : الناحية الاولى ناشئة من تكرار وحدة موسيقية معينة تنتشر في العمل الفني كله وتعمل على تشويق القارىء ودفعه للقراءة واثارة حب الاستطلاع في نفسه . اما الناحية الثانية فهي النغمة غير المتوقعة ، والتي لا تنشأ عن التشابه بين وحدات موسيقية متكررة وانما هي التي تنشأ من عنصر المفاجأة او خيبة الظن كما يحلو لريتشاردز ان يسميها . فالايقاع عندئذ لا يتحقق من قانون التوقع وحده وانما يتوقف على قانون المفاجأة او خيبة الظن . يقول ريتشاردز :

« والنسيج الذى يتألف من التوقعات والاشباعات او خيبة الظن او المفاجآت التي يولدها سياق المقاطع هو الايقاع . وربما كانت معظم ضروب الايقاع تتألف من عدد من المفاجآت ، ومشاعر التسويف وخيبة الظن لا تقل من عدد الاشباعات البسيطة المباشرة . وهذا يفسر لنا لماذا سرعان ما يصبح الايقاع المسرف في البساطة شيئا تمجه النفس » (١٣) .

وهذه النغمة الناشئة عن عدم التوقع او المفاجأة هي التي تولد الدهشة وتثيرها لدى القارىء في الكلام المنظوم .

ومجمل القول في الوزن عند كولردج انه جزء لا يتجزأ من التجربة ، يصدر عن درجة عالية من التوازن بين العاطفة المشبوبة والارادة الواعية ، ويثير في النفس حب الاستطلاع والتشويق والدهشة . وبتآلف الوزن مع مادة القصيدة يمكن للشاعر ان يحقق عملا فنيا رائعا

---

(١٢) المرجع السابق ص ١٠٠

(١٣) مبادىء النقد الادبي — تأليف ريتشاردز ترجمة د. مصطفى بدوي ص ١٩٢

اما الوزن وحده فلا يمكنه ان يحقق قيمة شيئ ذاته . من اجل ذلك يشبهه كولردج بالخميرة فيقول :

« ان الوزن اذا ما قصد استعماله لاغراض شعرية اشبه ما يكون بالخميرة ، فالخميرة في ذاتها عديمة القيمة ، بل انها كريهة المذاق ، ومع ذلك فهي تضفي على الشراب الذي تمتزج به بنسب معقولة روحا وحيوية » .

ومن هذه العبارة الاخيرة يتضح لنا ان قيمة الوزن في الشعر لا تتحقق الا اذا استطاع ان يتحد ببقية العناصر في القصيدة اتحادا تاما .

الشكل والمضمون عند كروتشه :

ومن اهم من عرض لقضية الشكل والمضمون في العمل الفني الفيلسوف الإيطالي المعروف بندتو كروتشه واضع كتاب « علم الجمال » وصاحب مدرسة كبيرة في الدراسات الجمالية والفنية .

ولقد لاحظ كروتشه ان هناك ثلاثة تمييزات خداعة تملأ ساحة فلسفة الفن وتغوي المرء بسهولتها وبداهتها الظاهرة وكلها يتعلق بالشكل والمضمون واشهر هذه التمييزات هو التمييز بين المضمون والصورة (١٤) .

وخطورة هذا التمييز في رأي كروتشه يرجع الى ان الناقد سوف يجد نفسه امام قيمتين اثنتين للعمل الفني لا قيمة واحدة ، احداهما ترجع للشكل والاخرى للمضمون ، فيرى اشياع المضمون ان الفن هو العنصر الصوري المجرد ، ويرى اشياع الصورة ان الفن هو العنصر المجرد من المضمون .

ويسخر كروتشه من هؤلاء وهؤلاء ، حين يتتبع دراستهم وفلسفاتهم ويجد في نهاية الامر ان كل ما دار من جدل حول المدرستين لم ينته الا الى حقيقة واحدة هي ان اصبح اشياع المضمون ، على غير ارادة منهم ، اشياعا للصورة ، واصبح اشياع الصورة على غير ارادة منهم اشياعا للمضمون . وهكذا وقفت كل من الطائفتين موقف الاخرى ، ولكن على غير استقرار ولا اطمئنان ، لم تعود الى موقفها على غير اطمئنان ولا استقرار كذلك .

ولكن قضية الشكل والمضمون عند كروتشه قد وجدت الحل النهائي في تفسيره للفن وتحديده لمفهومه . ولقد عرفنا ان الفن حدس عند كروتشه ، وعرفنا ما يعنيه بكلمة الحدس ، وادركنا ان تعريفه للفن بانه حدس قد ميز الفن من المفاهيم المنطقية والفلسفية والاجتماعية ، كما ميزه من اللذة والاخلاق ، ولكنه مع تمييزه للفن من كل المفاهيم فهو لم يقلل من شأن المضمون بل انه جعله للطالبه التي تتفرع منها التجربة والحقيقة التعبيرية او الفنية . ولكنه مع ذلك لم يجعل للمضمون خصائص فنية سابقة على العمل الفني . فاذا كان المضمون قيمة فهو لا يكتسبها الا من خلال العمل ذاته .

---

(١٤) يستخدم كروتشه (الصورة) بدلا من (الشكل) .

وينتهي كروتشه في مناقشته لموضوع التمييز بين المضمون والصورة الى الحقيقة الآتية ، فيقول :

« والحقيقة هي ان المضمون والصورة يجب أن يميزا في الفن ، لكن لا يمكن ان يوصف كل منهما على انفراد بأنه فني ، لان النسبة القائمة بينهما هي وحدها الفنية ، أعني الوحدة ، لا الوحدة المجردة الميتة . بل الوحدة العيانية الحية » (١٥) .

ويقول في موضع آخر :

« فسيان الآن (او قل انهما وسيلتان من وسائل التعبير الموافق) ان نعد الفن مضمونا او صورة ، شريطة ان يكون المفهوم دائما ان المضمون قد برز في صورة ، وأن الصورة متمثلة بالمضمون ، اي ان الشعور هو الشعور المصور ، وان الصورة هي الصورة المشعور بها » (١٦) .

ويقول كذلك :

« والعاطفة او الحالة النفسية ليست مضمونا خاصا ، وانما هي الكون كله منظورا اليه من ناحية الحدس ، وليس في وسعنا ان نتصور خارجها اي مضمون آخر ليس في الوقت نفسه صورة مختلفة عن الصور الحدسية :

لا الافكار التي هي الكون بأسره منظورا اليه من ناحية العقل ، ولا الموضوعات الفيزيائية والعناصر الرياضية التي هي الكون بأسره منظورا اليه من ناحية الارادة » (١٧) .

وبهذه العبارات الاخيرة المحددة يحسم كروتشه القضية كلها حسما يربط بين المضمون والصورة هذا الربط المحكم ، فلا يمكن تصور مضمون مهما يكن شأنه خارجا عن الصورة الحدسية . وما الفكر والعقل ، والتخطيط والتجربة ، والارادة الا وسائل خادمة للفن ولكنها ليست بذاتها فنا .

اما التمييز الثاني الذي لا يقل عن التمييز الاول خداعا والذي تمتلىء به ايضا ساحة فلسفة الفن فهو التمييز بين **الحدس والتعبير** او بمعنى آخر التمييز بين الصورة وترجمتها المادية .

فمن الناس من يميز بين التجربة باعتبارها موضوع الانفعال والتصوير وبين ما يستخدمه الفنان من كلمات او اصوات الوان للتعبير عنها . ويرى هؤلاء ان الاولى هي باطن الفن والثانية هي ظاهره . ويعتبرون الاولى هي باطن الفن والثانية هي مادته .

ويرد كروتشه على هؤلاء فيرى ان التفريق بين الباطن والظاهر قد يكون سهلا امره ولو في القول على الاقل ، ولكننا اذا انتقلنا من عملية التفريق الى تقرير النسبة او التركيب فسوف نصطدم بعوائق تخيب الظن وتحطم الآمال ، والا اننا ندرك ان تمييزنا كان خاطئا . يقول :

---

(١٥) المجمل في فلسفة الفن ص ٥٥
(١٦) المجمل في فلسفة الفن ص ٦٦
(١٧) المجمل في فلسفة الفن ص ٥٦ ، ٥٧

« فانى لشيء خارج من الداخل وقريب منفال يجتمع الى هذا الداخل ويعبر عنه ؟ كيف يمكن لصوت او لون ان يعبر عن صورة مجردة من الصوت واللون ؟ كيف يمكن الجسم ان يعبر عما ليس بجسم ؟ باية طريقة يمكن ان يساهم في فعل واحد الخيال التلقائي والتفكير والنشاط المادي ؟ متى فرقنا الحدس عن التعبير ، وجعلنا طبيعة الاول مختلفة عن طبيعة الثاني ، لم نجد هنالك حدا وسطا يستطيع ان يجمع بينهما ويلحم احدهما بالآخر . ولا تستطيع جميع نظريات التداعي والعادة والآلية والنسيان التي اراد علماء النفس ان تحل مسألة الاتصال هذه بين التعبير والصورة . وهذا ما اضطر بعضهم الى افتراض ان في المسألة سرا ... فمنهم من راى ان هذا السر لزواج عجيب ، وهؤلاء من اصحاب الذوق الشعري ؛ ومنهم من راى انه نوع من الموازنة النفسية الجميلة .

وكان ينبغي قبل ان نلجأ الى السر ان نبحث هل كان تفريق العنصرين صحيحا ، بل هل يمكن ان نتصور حدسا من غير تعبير . وفي رأيي ان ذلك لا يقل امتناعا على التصور من تصور نفس بلا جسد ... والواقع أننا لا نعرف الا حدوسا معبرا عنها . **فالفكرة لا تكون بالنسبة الينا فكرة الا اذا امكن ان تصاغ بالفاظ ، ولا اللحن الموسيقي يمكن ان يكون لحنا موسيقيا ما لم يتحقق بانغام ، ولا الصورة التجسمية يمكن ان تكون صورة تجسمية مالم تظهر بخطوط والوان .** ولسنا نحتم ان تنطق الالفاظ جهارا ، ولا ان تعزف الموسيقي على آلة ، ولا ان تثبت الصورة على خيش ، ولكن من المحقق انه متى بلغت الفكرة حد النضج واصبحت فكرة حقا دارت الالفاظ في كياننا كله ، فحركت عضلات الفم ، ورنت في داخل الاذن ، ومتى كانت القطعة الموسيقية قطعة موسيقية حقا رأينها تترنح على الشفاه ، وتحرك الاصابع حتى لكأن الاصابع تلعب على اوتار خيالية » (١٨) .

ويقول كذلك :

« انك لو جردت الشاعر من ابحره والفاظه وقوافيه . لما بقي هنالك فكرة شعرية كما يخيل الى بعضهم ، بل لما بقي شيء البتة . فالماشأ الشعر مع هذه الالفاظ وهذه القوافي وهذه الابحر . وليس في وسعنا كذلك ان نقول ان التعبير اشبه بالبشرة بالنسبة الى الجسم . اللهم الا ان نقول : ان الجسم كله ، في كل خلية من خلاياه ، وفي كل عنصر من هذه الخلايا ، هو في الوقت نفسه بشرة » (١٩) .

وهكذا ينتهي كروتشه في مناقشاته بفكرة الفصل او التمييز بين الحدس والتعبير الى حقيقة هامة مؤداها : انه لا يمكن تصور الفصل بين الفن ومادته طالما كانت العبقرية الاصيلة لدى الفنان هي في الحقيقة كامنة في قدرته الفائقة على استغلال مادة فنه واستثمارها على النحو الذي يبلغ به درجة عالية من الكمال ، اذ كيف يمكن لانسان ان يكون شاعرا عظيما وهو يسيء نظم الشعر أو مصورا كبيرا وهو لايجيد الملاءمة بين الالوان ، أو موسيقيا موهوبا وهو لا يحسن تحقيق

---

(١٨) المرجع السابق ص ٦٠ ، ٦١

(١٩) المرجع السابق ص ٦١

الناظم بين الاصوات ، او يكون فنانا كبيرا وهولا يحسن التعبير ؟ من أجل ذلك قالوا ان روفائيل لو لم يكن له يدان لظل مصورا عظيما ، فيراهم لم يقولوا لو لم يكن له احساس بالرسم لظل مصورا عظيما » [٢٠]

اما التمييز او التفريق الثالث الذي ملأساحة فلسفة الفن والجمال والذي خدع الناس طويلا وما زال يخدعهم ، والذي يحرص كروتشه على ان ينبه الاذهان اليه لخطورته على نظرية الفن ، وعلى المذاهب النقدية هو موضوع التفريق بين **التعبير والجمال** .

وهؤلاء : في نظر كروتشه ، يقسمون مفهوم التعبير الفني الى لحظتين « لحظة التعبير بالمعنى الخاص للكلمة : يعني الوصول الى التعبير ، ثم لحظة جمال التعبير : يعني زخرفة التعبير . وعلى هذا الاساس سنقوا التعبيرات في زمرتين : التعبيرات العارية، والتعبيرات المزخرفة » [٢١] .

ويرى كروتشه ان هذا الاتجاه في التفريق بين التعبير وزخرفة التعبير منتشر في ميادين الفن المختلفة : ولكنه قد نما واتسع في ميدان الفن الجميل خاص ، بل انه يحمل اسما مشهورا هو اسم البلاغة . ذلك لان البلاغة في اعتقاده هي الميدان الذي تنفصل فيه الصورة البيانية عن التعبير . فكثيرا ما نرى الدارسين في الميادين البلاغية يعنون عناية خاصة بزخارف التعبير من تشبيه واستعارة ومجاز ، ويفردونها بالبحث والدراسة ، وكثيرا ما يقتنون منه علم الصور وفقات خاصة يتناولونها منفصلة عن التعبير مما جعل بعض الناس يظنون ان للصور البيانية قيمة مستقلة عن التعبير الذي وردت فيه .

ويعلق كروتشه على هذا الاتجاه بقوله :

« وقد كان للبلاغة تاريخ طويل منذ بقائها اليونان الى ايامنا هذه ولا نزال تدرس في المدارس ويعنى بها في الكتب ، بل في المباحث اللغوية التي تزعم لنفسها انها علمية ، فضلا عن الافكار العامية بطبيعة الحال ، ولو انه فقد في ايامنا هذه كثيرا من قوته الاولى ، وقد قبله الناس من اهل الذكاء والحصافة لا ادرى امن كسل ام لقوة التقاليد ، وتركوه يعيش قرونا طويلة ، ولم تكد تحاول الثورات النادرة التي قامت في وجهه ان تشيد لورثها مذهبا ، وان تنتزع الخطأ من جذوره . ولم يقتصر شر البلاغة التي تقول بوجود فلسفة مزخرفة « مختلفة عن اللغة العارية وسامية عليها » لم يقتصر شرها على ميدان فلسفة الفن ، بل عداه الى ميدان النقد » [٢٢] .

وليس من شك في ان المنهج البلاغي الذي يرجع مقياس الجمال والجودة في الشعر او في النثر الى ما فيه من صور بيانية منهج لا ينطوي على اساس من فهم صحيح للادب . ولقد نبه

---

(٢٠) المرجع السابق ص ٦٢

(٢١) المرجع السابق ص ٦٤

(٢٢) دلائل الاعجاز ـ عبد القاهر الجرجاني ـ ص ٧٩

عبد القاهر الجرجاني الى خطورة هذا النهج في القرن الخامس الهجري ، وذلك عندما قضى على فكرة التفريق بين التعبيرات العارية والتعبيرات المزخرفة بقوله :

« ان من الاستعارة مالا يمكن بيانه الا من بعد العلم بالنظام والوقوف على حقيقته » . (٢٣)

وقد كان لناقدنا العربي الكبير منهجه الخاص في دراسة البلاغة وهو منهج يختلف كثيرا عن منهج من استمسكوا بالتقسيمات البلاغية الشكلية من امثال السكاكي والقزويني .

وما نظن ان هناك اليوم من النقاد المحدثين من يجادل في ان الجمال ليس محصورا في الزخرف او الاستعارة . ومن البديهي ان يخلو بيت من الشعر من الصور البيانية ويحقق قمة الجمال في الجمال في التعبير الفني ، بل ان من الشعر مالا يعدو مجرد التعبير عن حالة نفسية تعبيرا بالغ التأثير قوي الايحاء ، وهو بهذا وحده قادر على ان يبلغ الجودة لسذاجته وصدقه ، ويقول كروتشه في هذا :

« ان التعبير المناسب اذا كان مناسبا ، كان جميلا كذلك ، لان الجمال ليس الا القيمة المحددة للتعبير وبالتالي للصورة . ولهذا كنا نعني بتصنيع العرض انه يعوزه شيء يجب ان يتوافر فيه . فمعنى ذلك في هذه الحالة انه ليس مناسبا ، او انه ليس تعبيرا ، او لم يصبح بعد تعبيرا . وكذلك التعبير المزخرف ، فانه اذا كان تعبيرا في كل اجزائه لم نستطع ان ننعته بانه مزخرف ، بل بانه عار كالاول وانه سليم كالاول كذلك » (٢٤)

ويقول :

« ليس التعبير والجمال مفهومين اثنين وانما هما الا مفهوم واحد يمكن ان ندعوه باحد اللفظين على السواء . ان الخيال الفني لا يكون بدون جسد ، ولكنه ليس بدينا ، ولباسه من ذاته ، لا يلبس شيئا غيره ، وليس اذن بمزخرف (٢٥) » .

ويرى كروتشه أن موضوع التفريق بين التعبيرات العارية والتعبيرات المزخرفة يرجع في الحقيقة الى تأثير المنطق والفكر على دراسي الفنون وعلمائها الذين كثيرا ما دارت بينهم المناقشات حول علاقة الفكر بالخيال والفلسفة بالشعر ، والمنطق بالفن ، والجدل بالبلاغة . ووجد هؤلاء ان التفريق بين الفكر والخيال يقتضيهم ان يصنفوا اللغة الى لغتين : الاولى لغة الفكر والثانية لغة الشعر . وذهبوا الى ان التعبير العادي او العاري هو المطابق للفكر والفلسفة ، وان التعبير المزخرف هو المطابق للخيال والشعر . واستمسكوا بهذه القسمة النظرية التي ان جاز لها ان تصح في مجال التفريق بين لغتين ، احداهما لغة عملية عارمة تستخدم خارج ميدان الشعر ، والثانية لغة الانفعال التي تستخدم في ميدان الادب والشعر . ان مثل هذه القسمة لا يجوز لها ان تصح ، هذا ، اذا قصرنا كلامنا على ميدان التعبير الادبي سواء منه المزخرف او غير المزخرف . وذلك اننا في مجال

(٢٣) المرجع ص ٦١

(٢٤) المجمل في فلسفة الفن ص ٦٥

(٢٥) المجمل في فلسفة الفن ص ٨٦

الادب لن نجد الا خيالا وشعرا وفنا ؛ وان ادخال المنطق او الفكر الفلسفي المجرد هاهنا ؛ خليق كما يقول كروتشه ان يلقى ظلا خادعا ؛ حقيقا بأن يلبس الامر على العقل ، ويوقعه في الاضطراب ؛ ويحول بينه وبين رؤية الفن في كامل حياته ونقاوته بدون أن يريه منطقا ولا فكرا . (٢٦)

ثم يزيد كروتشه الامر توضيحا حين يهاجم النظرة المنطقية الى اللغة تلك النظرة التى فصلت بين النحو والبلاغة . فقد ظن اصحاب هذه النظرة انه ما دامت اللغة نحوا فينبغى ان تكون نظرتنا اليها نظرة منطقية . والذى زاد الأمر فظاعة انحدار النظرة المنطقية للغة قد فرضت هى الاخرى سلطانها على منهج البلاغة ودراستها . وحين يهاجم كروتشه هذه النظرة المنطقية الى اللغة انما ينبه الى خطورتها على مناهجنا في دراسة الأدب والبلاغة يقول :

« على ان أسوأ الشرور التى سببها مذهب التعبير «المزخرف» لتصنيف صور الفكر الانسانى تصنيفا نظريا هو ما تعلق بنظرة أصحابه الى اللغة . فانّنا اذا سلمنا بوجود تعبيرات عارية نحوية فحسب ، وبوجود تعبيرات أخرى مزخرفة أو بلاغية لزم عن ذلك أن ترجع اللغة الى تعبيرات العارية وان ترد الى النحو . وبالتالى ؛ (اذا مكان للنحو في البلاغة ولا في الفن) الى المنطق حيث يسند اليها دور ثانوى . والواقع ان فساد اللغة المنطقى مرتبط ارتباطا وثيقا بالمذهب البلاغى في التعبير ، وهو يتقدم معه جنبا الى جنب ؛ فقد نشأ معا في العصر اليونانى القديم ، ومما يعيشان في أيامنا هذه ؛ ولم تفارق الأول مع الآخر . وقد كانت الثورات على النظرية المنطقية في اللغة نادرة جدا ؛ ولم يكن لها نتائج ذات بال ؛ شأنها شأن الثورات التى قامت في وجه البلاغة .

وظل الأمر على هذا المنوال حتى العهد الرومانطيقى ؛ فأصبحنا نرى لدى بعض المفكرين او في بعض المراكز المصطفاة ؛ شعورا قويا بما تمتاز به طبيعة اللغة من قوة خيالية او مجازية ، وبما هنالك من روابط تجعل اللغة أوثق بالشعر منها بالمنطق .

على أن كثيرا من خيرة هؤلاء المفكرين ممن ظلوا يرون في الفن رأيا خارجا عن الفن « كالمذهب الفهومى أو المذهب الاخلاقى او مذهب اللذة » ظلوا كذلك ينفرون نفورا واضحا من **التوحيد بين اللغة والشعر** . وفي رأينا ان هذا التوحيد محترم وسهل معا ؛ ما دمنا فهمنا الفن على انه حدس ؛ وفهمنا الحدس على انه تعبير ، ووحدنا بذلك ؛ ضمنا ؛ بين التعبير واللغة ؛ اذا فهمنا اللغة بمعناها الواسع . فما قصرنا تحكمنا على ما يدعى باللغة الملفوظة ؛ ولا حذفنا منها ؛ تحكما عنصر النبرة والاشارة ؛ واذا فهمناها بكامل قوتها ؛ اى اذا فهمناها في واقعها ؛ من حيث هى فعل الكلام نفسه ؛ فما خلطنا بينها وبين مجردات النحو والمفردات . ولا خلطنا ـ يا للحماقة ـ أن الانسان يتحدث وفقا للنحو ووفقا للمفردات . ان الانسان يتحدث في كل لحظة كما يتحدث الشاعر لانه كالشاعر ؛ يعبر عن تأثراته وعواطفه في هذه الصورة التى يسمونها كلامية او مألوفة ؛ والتى لا تفصلها أية

(٢٦) المجمل في فلسفة الفن ص ٦٨

قوة من سائر الصور التي يسمونها نثرية ، او نثرية شعرية ، او قصصية ، او ملحمية او حوارية درامية ، او غنائية او موسيقية وما الى ذلك . ولئن كان لا يسيء الانسان ان يعد كالشاعر (وهو في الحق كذلك ، لكونه انسانا) فما ينبغي ان يسيء الشاعر ان يجمع الى عامة الناس ، فان هذا الجمع يفسر لنا لم كان للشعر الراقي سلطان عظيم على كافة النفوس الانسانية ، فلو كان للشعر لغة خاصة ، لو كان « لغة الآلهة » لما استطاع البشر ان يفهموه . لئن كان الشعر يسمو بالبشر ، فانه لا يسمو بهم فوق ذواتهم ، بل داخل ذواتهم ؛ وهكذا نرى الديمقراطية الحقة والارستقراطية الحقة ، في هذه الحالة ايضا تلتقيان : فيلتقي الفن باللغة ، وتلتقي فلسفة الفن بفلسفة اللغة حتى ليمكن ان تعرف كل منهما بالاخرى ، اي ان تعدا شيئا واحدا ... وان هذا التوحيد بين الشيئين يعود على الدراسات الفنية والشعرية بفائدة عظيمة ، فيخلصها من رواسب النظريات المفهومية والاخلاقية ، ونظريات اللذة التي لا تزال تلاحظ بوفرة عظيمة في النقد الادبي والنقد الفني . كما انه يعود بفائدة عظيمة على الدراسات اللغوية التي يحسن ان نخلصها من المناهج الفسيولوجية والنفسية الفسيولوجية التي تجرى الآن مجرى الموضة ، وان نحررها من نظرية الاصل الاصطلاحي هذه النظرية التي ما تفك تتجدد والتي تستتبع ورائها المراوحات الغيبية بين الصورة والاشارة ، لان اللغة لا تفهم على انها اشارة ؛ بل على انها صورة اشارة ، اي على انها اشارة للصورة ذاتها ؛ وبالتالي صورة ذات لون موسيقي وغناء ... ان الصورة هي نتاج عفوي للخيال ، لان الاشارة التي يتفاهم بها الانسان مع الانسان ، تفترض مقدما وجود الصورة وبالتالي وجود اللغة (٢٧) » .

هذا العرض الجامع الذي عرضه علينا كروتشه للنظرة الجمالية للغة ، وما ترتب عليها من آثار في المذاهب البلاغية والنقدية جدير بان يلقي الضوء على كثير مما التبس على اذهان الدارسين حين يفرقون بين لغة الخيال ولغة المنطق ، وحين يفصلون بين اللغة والشعر ، وحين يميزون بين اللغة العارية واللغة المزخرفة وحين يراوحون بين الصورة والاشارة ؛ وكلها تقسيمات خطرة تعود على النقد الادبي والبلاغة بالضرر البالغ ، وتباعد بين الدارسين وبين الفهم الصحيح لطبيعة اللغة الادب .

ولما كانت هذه الافكار وثيقة الصلة بدراساتنا البلاغية ومنهج العرب القدماء في درس البلاغة ، وفي تصورهم للغة ، فقد حرصنا كل الحرص على ان نثبت هنا ما قاله كروتشه كاملا حتى ينتبه مؤرخو البلاغة الى ما ينهض من مناهج البلاغة على مبدأ سليم ، وما لا ينهض منها الا على ضيق في النظرة وفساد في الحكم .

الشكل والمضمون ووظيفة الادب

تؤمن المدارس المثالية في الادب بان الاثر الادبي ـ ايا كان نوعه ـ انما يصدر عن تجربة خيالية او حدسية تلتمس لذاتها ولا تهدف لغاية من ورائها ، اللهم الا ما في التجربة ذاتها من جمال

(٢٧) المرجع السابق من ص ٦٦ ـ ص ٦٩

أو لذة أو جدة . وبمعنى آخر وعلى حد قول ووالتر باتر ، ليست الغاية في الأثر الفني هي ممارسة التجربة بل التجربة ذاتها . وواضح أن أصحاب هذه النظرة لا يعنون في التجربة الشعرية أو الأدبية إلا بقيمتها الجمالية والفنية وحدهما ، والفن عند هؤلاء ليس وسيلة للتعبير عن المشاعر الخاصة ، بقدر ما هو وسيلة لخلق صور وأخيلة وإحساسات تبعث على اللذة ، وتنشر الجمال الجمال وحده . أما ما في العمل الفني من نشاط آخر عقلي أو اجتماعي ، أو فلسفي أو أخلاقي فليس له علاقة ذاته ، وفي هذه الحالة لا تتوقف قيمة العمل الفني على ما فيه من خير خلقي أو اجتماعي أو فلسفي ، ولا يتوقف معيار صدقه على أي شيء يقع خارج العمل الفني نفسه .

وواضح أن أصحاب هذه النظرة لمفهوم الأثر الأدبي وطبيعته ووظيفته قد تورطوا في خطأ جوهري ، فهم بهذا الاتجاه إنما **يعزلون مادة الفن عن صورته ، ولا يلقون بالاً لكل ما يتضمنه الأدب من أمور تتعلق بالمجتمع والأخلاق** وسائر **مقومات الحياة الفكرية العميقة** ، وما يتصل بالحياة الإنسانية من مشاكل هي في الحقيقة من صميم تفكير الفنان . وإذا كانت مشكلة الفنان الحقيقية هي في محاولته الربط بين شعوره بغرابة الحياة ، وبين حقيقة العالم حواليه ، فإن الشاعر الذي يغدو في وصفه العالم مغرقاً في الرومانسية والخيالية إنما هو شاعر لم يصب إلا قسطاً ضئيلاً من النجاح ، بل لعله لن يكون في بعض الأحيان عاجزاً عن محاولة الخوض في موضوعات تحتاج إلى تقمص مشاعر الآخرين ، وإلى قدر من الخيال التي يفقدها لا تتوافر للأدب أصالته وقدرته . أضف إلى هذا أننا لا نستطيع أن نتصور دولة للجمال أو سيادة للجمال ، وأن الجمال وحده هو غاية الغايات في دولة مستقلة ذات سيادة ، فقد تحولت الأدب عن معارضة الحياة ، بل في جعلنا الحياة شيئاً سانجاً لا يستحق أن يعاش .

وفي هذا يرد عليهم الناقد التركي **جوزيف فريمان** بقوله :

« إن الناقد الليبرالي يطلب منا أن نعتقد أننا حين نكتب عن رياح الخريف وكيف حيث يشعر فتاة ، أو نكتب عن النهود العطشى ، إنما نكتب عن تجربة . فإن كتبنا عن ثورة أكتوبر أو مشروع السنوات الخمس أو عن شنق الزنوج في جنوب الولايات المتحدة أو عن إضراب سان فرانسيسكو ، فهذه الموضوعات لا تسمى تجربة » (٢٨) .

وفي هذا أيضاً يقول **ستيفن سبندر** : « الشعر ليس مجرد تصوير لحظة احمرار وجنات الحبيبين أو رؤية جمال الزهرة أو روعة لون الغروب ، بل الشعر هو الذي يمتد سلطانه فيشمل الحياة بأسرها ، بل وما بعد الحياة ، هو ذلك النهر الهائل الذي يروي الحياة كلها ، لا يحتقر التفصيل التافه ، وإن كان يتجاهل التافه » (٢٩) .

---

(٢٨) الاشتراكية والأدب ص ٥٢ د . لويس عوض

(٢٩) الحياة والشاعر تأليف ستيفن سبندر ترجمة وتقديم د. مصطفى بدوي ص ١٨

عندما وقع فيه الغالون من خطأ ــ اليساريون المتطرفون فخطأهم لا يقل فداحة عن خطأ المتطرفين من اليمينيين. فاذا كان اليمينيون قدعبدوا الجمال والفرد وحدهما، فان اليساريين قد احلوا عبادة الجماعة محل الفرد، وعبادة المادة محل الجمال، وجعلوا ظواهر المجتمع بشتى صوره السياسية والاقتصادية غاية يسخر لخدمتها الانسان، وليست وسيلة تسخر لخدمة الانسان.

وما نظن ان القضية بحاجة بعد هذا التحليل الى ان ينقسم فيها النقاد الى فئتين، احداهما تقول بوجوب ان يكون الادب هادفا، والاخرى تنادي بضرورة ان يترك الادب حرا من قيود الاهداف، ذلك ان جذور الخلاف كامنة كما يقول الشاعر الالماني الحديث « اريك نوساك » في خلط الناس بين مفهومين متميزين: مفهوم « الانساني » ومفهوم الاجتماعي ولو ادركنا في وضوح ان « الاجتماعي » وسيلة لتحقيق لنا « الانساني » لزالت عن المشكلة عقدتها، لو ادركنا ان كل ظواهر المجتمع بشتى صورها السياسية والاقتصادية انما جاءت، او يجب بها ان تخدم الانسان ــ والانسان لا يكون الا فردا ــ لادركنا تبعا لذلك ان الادب لابد ان يكون هو الانسان المعين المتجسد. فاذا شغل الاديب نفسه بأحداث عصره، فانما يشغلها بها من الجانب الذي يصور لنا وقفة الانسان ازاء هذه الاحداث، بحيث اذا زالت الاحداث، واختفت اثارها، بقيت صورة الانسان حياة الى عصر ولا نشأن الظروف (١).

وما دام التوجه الى الانسان هو غاية الادب الحقيقية في كل عصر وكل زمان، بغض النظر عن اتجاهات الادب ومدارسه، فان الادب العظيم هو الادب الذي يشمل العالم والانسان وقوانينه، ويتساءل لماذا تجري الامور على هذا النحو، والادب الباقي هو الذي يستمد قوته من الحياة والجمال معا، وهو الذي ينظر بعين يقظة الى المجتمع الانساني، فيناصر من هذه المجتمعات ما يتمشى مع القيم الانسانية، وما يساير الحق والعقل والجمال. فالاديب الحق يحرص على ان يكون لنظم المجتمعات غاية تمكس ما في نفوس البشر، وافراد المجتمع الواحد من هموم وامال والشعور بالحب والحاجة الى التطور والتقدم.

على ان التوجه الى الانسان ــ أيا كان محتواه الفكري او الفلسفي او الاجتماعي ــ لا يرقى الى مستوى الفن الا اذا توافرت فيه شروط العمل الفني، ذلك اننا نعلم ان الذي يحدد القيمة النهائية لاي عمل فني هو ما يحتوي عليه من قيم فنية وجمالية. ومهما كان قيمة المضمون واهميته فلا بد له في النهاية ان يتحول الى فن، والعمل الذي لا يقنعنا فنيا يظل قاصرا عن بلوغ كماله.

---

(١) الفلسفة والفن ص ٢٢٥

عبد العزيز الدسوقي

نحو علم جمال عربي

« تصور وتطبيق »

● تمهيد ...

شغلتني – عبر أعوام طويلة من حياتي – فكرة ظلت تلح علي الحاحا متواصلا ، وكانت تتجسد بين الحين والحين في بعض كتاباتي بطريقة نظرية او تطبيقية ، وكان تفجر في نفسي هذه الفكرة ، سؤال الشيته على نفسي بالصادقة : لماذا لا يكون لنا « علم جمال عربي » ؟

ووجدتني أبحث عن تحديد دقيق لهذا المصطلح ، وعثلت في البداية ان اكتفي بالتعريفات العامة المبسطة فعرفت هذا المصطلح بأنه « النسق الفكري المترابط الذى تبحث من خلاله عملية الابداع الفنى ، وتختبر على ضوئه طبيعة الاعمال الفنية في اللغة العربية ، وسيكلوجية مبدعها ، والعناصر التى تكفل تذوقه بطريقة شاملة » .

ويمكن أن نحدد هذا التعريف بعض التحديد ونعتبر علم الجمال العربي : هو « مجموعة الأسس النظرية والقواعد والقوانين التى تدرس على ضوئها التجربة الجمالية »

ونمتحن من خلالها الخبرة الجمالية ، ونتذوق عناصرها الفنية ، وقيمها التصويرية والتعبيرية والتشكيلية » . فعلم الجمال العربي ـ الذي يؤدي الى ادراك ماهية الجمال الفني ، في الأجناس الادبية والفنية المختلفة .

ورحت أفتش عن سبب لاختفاء هذا اللون من ثقافتنا العربية المعاصرة . على الرغم من انها حفلت بكل الأجناس والانواع الادبية ، حتى تلك الاجناس الادبية ـ التي قيل ان تراثنا العربي قد خلا منها خلوا تاما ، او على الاقل ، لم يعرفها بصورتها المتطورة الناضجة ـ كالرواية والاقصوصة والمسرحية ، عرفتها ثقافتنا العربية الحديثة ، وطورتها ، واصلتها والضجتها ، وتحولت الى اجناس ادبية عربية ، لها اصولها الجمالية وتقاليدها الفنية .

فلماذا خلت ثقافتنا العربية الحديثة من هذا العلم ، مع انه ضارب بجذوره في حضارتنا العربية ، وتراثنا العربي ؟

من الممكن ان نؤجل الاجابة على هذا السؤال ، حتى نتعرف على بذور هذا العلم وجذوره الناشئة في تراثنا العربي القديم .

● تاريخ وموازنة ...

ولكي تتضح في الاذهان الصورة كاملة نشير الى نشأة علم الجمال وكيف انتقل الى الحضارة الاوربية وكيف تطور في الثقافة العربية . . . وبدون الدخول في تفصيلات ، نحب ان نقدم عرضا سريعا بين يدي القارىء ، تحدد له طبيعة هذا العلم ونشأته ومساره في الحضارات القديمة والحديثة .

نشأ هذا العلم نشأة طبيعية في حضن الثقافة اليونانية القديمة ، وكان طبيعيا أن يكون فرعا من فروع الفلسفة . وقد اهتم به **سقراط وافلاطون وارسطو** ، وبحثوا في ماهيته ووضعوا له الحدود والتقسيمات . وتشير الكتب التي اهتمت بفلسفة الفن وعلم الجمال الى بذور هذا العلم في المحاورة التي جرت بين **سقراط** وتلميذه « **هيباس** » عندما سأل سقراط تلميذه .

ـ ماذا عسى ان يكون الجمال ؟

ـ واجاب (هيباس) استاذه ، بأن راح يعدد له بعض الاشياء الجميلة .

فلم يجد سقراط بدا من ان يلفت نظر تلميذه الى انه لم يكن يسأل عن « الجزئيات » التي تنطبق عليها صفة الجمال . وانما قصد من وراء سؤاله : معرفة ماهية ذلك (المدرك) الكلي الذي نسميه باسم (الجمال) . فليس من شأن فلسفة الجمال ان تبحث في احصاء انواع الجمال ، وانما تنحصر مهمتها في تعريف ماهية الجميل » (١) .

---

(١) الدكتور زكريا ابراهيم : فلسفة الفن في الفكر المعاصر (مكتبة مصر سنة ١٩٦٦) .

ويحدثنا **الدكتور زكريا ابراهيم** في كتابه « فلسفة الفن في الفكر المعاصر » ان هذا المفهوم الافلاطوني الذي اشرنا اليه في المحاورة السابقة «ظل كما هو في الفكر الاوربي الحديث ، وبخاصة عند هؤلاء الفلاسفة المثاليين فهو « بعينه فهم **هيجل** في القرن التاسع عشر لمهمة (علم الجمال) ، ففي كتابه (دروس في علم الجمال) ، اكد : انه لابد من ان نتخذ نقطة انطلاقنا من (الجمال) بوصفه (فكرة) او حقيقة كلية لاننا بذلك ، وبذلك فقط نستطيع ان نتجنب الوقوع في الكثير من المآزق التي تسببها لنا كثرة المواضيع الجميلة . او تعدد مظاهر الجمال في الطبيعة والفن على السواء » (٢) .

ثم تطور هذا العلم بعد ذلك في الثقافة الاوربية تطورا كبيرا ، وبخاصة في القرنين التاسع عشر والعشرين ، على أيدي الفلاسفة والمفكرين ، وتنوعت اتجاهاته ومدارسه وتصوراته حسب فلسفة كل فيلسوف من فلاسفة هذين القرنين . ويبدو ان ازدهار هذا العلم في أوروبا في هذين القرنين يعود الى ازدهار فلسفاتهم وتطورها الكبير ، وكان من الطبيعي ان يهتم الفلاسفة بفلسفة الفن وعلم الجمال ، لأنهما من العناصر التي تدخل في مجالات بحوثهم واهتماماتهم . وكان اهتمامهم بدراسة الظاهرة الجمالية والنفاذ الى باطن العمل الفني لا يعني وضع معايير الجمال يطبقها منتجو الأعمال الفنية ، بل كان مجرد دراسة نظرية معرفية .

فعالم الجمال « ليس بمثابة متخصص كل مهمته في الادراك الحسي ، كما أنه ليس بفنان يصدر في عمله عن الهام فني ، وانما هو باحث يتمثل وظيفته في فهم الظاهرة الجمالية ، والعمل على توضيحها في اذهاننا ... فليس (علم الجمال) علما معياريا يبين لنا ما ينبغي ان يكون عليه العمل الفني ، وانما هو علم وصفي يدرس العمل الفني باعتباره ظاهرة بشرية تدخل في صميم النشاط الروحي للموجود البشري ... وعالم الجمال لا ينصح الفنان بشيء ولا يلزمه بشيء ، بل يقتصر على دراسة النشاط الفني ، والنفاذ الى المعنى الباطني العميق للعمل الفني » (٣) .

ثم اخذت نظرة الفلاسفة المحدثين لدراسة علم الجمال تتطور وتأخذ مسارات جديدة . فبعضهم اعتبرها مجرد دراسة تجريبية للذوق الانساني . والبعض الآخر يحولها الى دراسة لسيكولوجية الابداع الفني والتذوق الجمالي . والبعض ، من الذين يهتمون بالتغيرات الاجتماعية ، ربطوها بالنشاط الحضاري ، وغدت دراسة تعنى بالبحث في العلاقة بين منتج الفن وجمهوره . وقد كانت هذه التحولات ثمرة من ثمار اهتمام الادباء وغير الفلاسفة ببحوث علم الجمال . وان كان من الحق ان تقرر ان الفلاسفة والمهتمين بالدراسات الفلسفية ظلوا على اهتمامهم بدراسة علم الجمال ، والاهتمام بالخبرة الجمالية في حد ذاتها ، باعتبارها نشاطا انسانيا يؤكد حرية الفرد وقدرته الابداعية .

---

(٢) المصدر السابق والصفحة

(٣) المصدر السابق ٧ — ٨ (بتصرف)

على ان اهم تحول طرأ على دراسة علم الجمال ، هو ما حدث في مطلع القرن العشرين ، او في ربعه الاول على وجه التحديد ، وعلى ايدي مجموعة من الباحثين الالمان من امثال « دسوار » و « اوتيتس » ، وغيرهما ، فقد حولوا (علم الجمال » وفلسفة الفن وبحث الظاهرة الجمالية، الى (علم عام للفن) وهجروا بصورة نهائية هذه التسميات السابقة : « علم الجمال » او « الاستطيقا » لتصورهم ان التسميات الاولى غير محدده وغير علمية ، وترتبط في اذهان الناس بالتأمل الفلسفي المجرد . في حين انهم كما يقول الدكتور (زكريا ابراهيم) « قد ارادوا ان يجعلوا من (علم الفن العام) دراسة وصفية تستوعب شتى مظاهر الخبرة الجمالية دون ان تصطبغ باية صيغة معيارية » (٤) .

وقد كان هدف هذه الدراسة الوقوف على نشأة الظاهرة الفنية وتقويمها « ومعرفة وظائفها البدائية وبيان علاقتها بما عداها من الظواهر الحضارية الاخرى . وقد كتب **(اوتيتس)** مجلدين ضخمين بعنوان « اسس علم الفن العام » حاول ان يبين ـ فيهما ـ ان الفن لا يمثل ظاهرة نوعية مستقلة . . . بل هو واقعة من وقائع الحضارة او الثقافة بمعناها العام . . . وليس علم الفن العام مجرد دراسة علمية وصفية ، او موضوعية للظاهرة الجمالية ، تختفي فيها شتى التاملات الفلسفية حول طبيعة الجمال ، وتنعدم فيها كل الاحكام التقويمية ، بل هو ايضا دراسة بشرية عامة ، تظهرنا على الوظائف الدينية والقومية والنفعية والوجدانية » (٥) .

واذا كان هذا الاتجاه في دراسة الظاهرة الجمالية قد حاول ان يحولها الى علم تجريبي وضعي فان الفلاسفة ظلوا يعرضون للخبرة الجمالية على ضوء المفاهيم الميتافيزيقية ، والرؤى العميقة التي استلهموها من التراث اليوناني ، وواجهوا « المشكلة الجمالية في ضوء فهمهم العام لطبيعة الوجود البشري ، ولصلة الخبرة الجمالية بما عداها من خبرات بشرية اخرى . ومن هنا فقد ظلت فلسفات الفن في القرن العشرين متأثرة بالتيارات الفكرية التي ظهرت في هذا العصر ، مطبوعة بطابع الاتجاه المذهبي لكل فيلسوف من الفلاسفة على حدة . والا فهل يمكننا ان نفهم نظرية **برجسون** في الفن ، ان لم نكن على علم بمذهبه العام في (الحدس) ؟ . . . وهل يكون في وسعنا ان نقف على جوهر « (الخبرة الفنية) عند **جون ديوي** ان لم نكن على دراية واسعة بنزعته التجريبية المتطرفة واتجاهه البرجماتي الواضح ؟ . . . وهل يتسنى لنا ان ندرك معنى العمل عند (هيدجر) اذا لم نكن على وعي تام ، بنوع اتجاهه الفكري، وطريقته (الفنومنولوجية) في تحليل الظواهر البشرية » (٦) .

ومن خلال هذه التيارات والاتجاهات المتعددة في دراسة الظاهرة الجمالية تغيرت المفهومات التي كانت سائدة قبل القرن العشرين، على يد مجموعة متنوعة من الفلاسفة ودارسي فلسفة الفن من امثال **« بندتو كروتشه » او « جورج سنتيانا » و « ديوي » و « الان » و « مالرو » و « اليركامي » و « ميرلوبونتي » و « سارتر » و « مارتن هيدجر » و « ارنست**

(٤ ـ ٥) المصدر السابق (١٠)

(٦) المصدر السابق (١٠ ـ ١١) « بتصرف »

كاسيرر » و « سوزان لانجر » و « هربرت ريد او « سوريو » و « باير » وغيرهم من الفلاسفة والباحثين الذين تناولهم الدكتور زكريا ابراهيم في كتابه القيم « فلسفة الفن في الفكر المعاصر » .

ولم يكتف هؤلاء الباحثون في فلسفة الفن في القرن العشرين باعادة النظر الى المفاهيم التي درج علماء الجمال على استخدامها مثل مفهوم (التعبير) ومفهوم « الصورة » ومفهوم (الحدس) ومفهوم (الرمزية) . . . بل ربطوا علم الجمال بمباحث اخرى مثل (علم اللغة) و « علم النفس » وغيرهما من العلوم التي تهتم ببحوث الذكاء والعبقرية ، والابداع الفني . تلك هي الصورة العامة لنشأة علم الجمال وتطوره وتأثيره على الفكر الاوربي الحديث ، لنعترف انها اثرت تأثيرا كبيرا في دراساتنا الادبية والنقد الادبي ، ولكنها لم تبلور تيارا محددا واضحا من تيارات علوم الجمال كما حدث في البلاد الاوروبية .

وان كانت هناك بعض الجهود الفردية التي قامت بترجمة بعض بحوث علم الجمال من اللغات الاوروبية الى اللغة العربية ، وجهود اخرى قام اصحابها في تأليف بعض البحوث القريبة من مباحث علم الجمال ، وان كانت اقرب الى النقد الادبي ومناهج التحليل النفسي منها الى علم الجمال ومن هؤلاء ، وهؤلاء على سبيل المثال : يوسف مراد وامين الخولي والعقاد وزكي نجيب محمود ومحمد خلف الله احمد ، ومحمد النويهي ومصطفى ناصف وعز الدين اسماعيل وزكريا ابراهيم واميرة مطر ومصطفى سويف وفؤاد البهي السيد وغيرهم من بعض اساتذة الجامعة الذين قدموا دراسات جامعية في الابداع الفني .

ولكن كل هذه الجهود العلمية المبارك فيها المخلصة ، لا تشكل ما يمكن ان نطلق عليه (علم الجمال العربي) وهي في معظمها دراسات متأثرة تأثرا شديدا بعلم الجمال الاوربي وبتياراته واتجاهاته ، ويمكن ان ندرجها في مجال النقد الادبي والدراسة الادبية .

ويبقى السؤال قائما : لماذا لا يكون لنا علم جمال عربي ؟ وهل اختفى هذا العلم من ساحتنا الثقافية الحديثة ، لأن رواد الحضارة العربية القدامى لم يلتفتوا اليه ؟ وهذا التساؤل الاخير لا يمثل الحقيقة ولو رجعنا الى تراثنا العربي ، فسنجد كثيرا من فلاسفة الاسلام والمتكلمين والعلماء والادباء من اجدادنا ، قد عرفوا هذا العلم معرفة دقيقة ، وهم الذين نقلوا هذا العلم الى العالم الاوربي القديم ، قبل النهضة الاوربية الحديثة ، فقد ترجموا كثيرا من تراث اليونان الفلسفي والادبي . وقد تأثروا بهذا التراث ، وهم الذين ترجموا اهم كتابين من كتب « ارسطو » يعتبران اساسا هاما من اسس علم الجمال ، هما كتاب « الخطابة » و « فن الشعر » ، وهذا الكتاب الاخير ترجمه ولخصه من فلاسفة الاسلام « ابو بشر متى » و « يحيى بن عدي » و « الكندي » و « الفارابي » و « ابن سينا » و « ابن رشد » ، ولا شك ان هؤلاء المفكرين والفلاسفة ، قد عرفوا افكار الفلاسفة والشعراء والخطباء اليونان ، ووقفوا على كثير من اتجاهاتهم الادبية والعلمية . وكان يمكن ان يفيدوا فوائد كبرى في مجال علم الجمال والنقد الادبي . ولكن اهتماماتهم كانت تتجه في المقام الاول الى الفلسفة والمنطق وعلم الكلام ، وجاءت اهتماماتهم الادبية والجمالية على هامش رسائلهم الاساسية وتبعا لها .

ولكن هذا لا يمنع من أن نجد عند هؤلاء ومن تأثر بهم من الكتاب والأدباء العرب القدامى بذورا تعتبر أساسا نظريا لعلم الجمال ، ازدهرت على أيدي بعض الفلاسفة المسلمين ، وبعض رجال المعتزلة والأشاعرة ، وبعض فلاسفة المتصوفين .

وكان هم هؤلاء جميعا الوصول الى التذوق والتأثير في الناس واقناعهم بأفكارهم ، وكان سبيلهم الى ذلك التأثير والاقناع ، هو الكلمة الواضحة ، أو الكلمة الملهمة المؤثرة ، ومن هنا جاء اهتمامهم بدراسة عناصر الإبداع الفني في الكلام ، ووجوه تأثيره والهامه وايحائه . وتحولت نظراتهم في هذا المجال الى تأصيل فكري لعلم الجمال .

ويمكن أن نشير على سبيل المثال الى كاتب موسوعي كبير **كأبي عثمان الجاحظ** ، وهو من فرقة من فرق المعتزلة ، كيف شغل هذا الكاتب الكبير ببعض الموضوعات التي تعتبر على نحو ما ، من بحوث علم الجمال ، ومن امعان النظر في كلامه عن هذه الموضوعات نشعر أنه كان يمتلك تصورا فكريا لعملية الابداع الفني ، فهو يرى مثلا أن الموهبة الفنية هي الأساس في كل ابداع فني ، وان الكاتب الموهوب يندفع بفطرته الفنية الى ابداع أعمال أدبية متكاملة الأداة قادرة على التأثير في الناس . ومعيار جودة العمل الفني عند الجاحظ هو هذا التأثير في نفوس الناس أولا ، ثم يأتي بعد ذلك ما في الكلام من صواب ومنفعة . ونستطيع أن نجد دليلا على هذا الكلام في تلك النصيحة التي يسديها الى الناشئين من الأدباء يقول « فإذا أردت أن تتكلف هذه الصناعة ، وتنسب الى هذا الأدب ، فقرضت قصيدة أو حبرت خطبة ، أو ألفت رسالة ، فإياك أن تدعوك ثقتك بنفسك أو يدعوك عجبك بثمرة عقلك الى أن تنتحله وتدعيه ، ولكن اعرضه على العلماء في عرض رسائل أو أشعار ، أو خطب ، فإن رأيت الأسماع تصغي له ، والعيون تحدج اليه ، ورأيت من يطلبه ويستحسنه ، فانتحله . فإذا عاودت أمثال ذلك مرارا ، فوجدت الأسماع عنه منصرفة ، والقلوب لاهية ، فخذ في غير هذه الصناعة ، واجعل رائدك الذي لا يكذبك ، حرصهم عليه أو زهدهم فيه » . (٧)

وحول استقباح الجفاف العلمي في الشعر وعدم بناء القصيدة على الأفكار وحدها ، يقول **الجاحظ** : « لو أن شعر صالح بن عبد القدوس كان مفرقا في أشعار كثيرة ، لصارت تلك الأشعار أرفع مما هي عليه بطبقات ... ولكن القصيدة إذا كانت كلها أمثالا لم تسر ، ولم تجر مجرى النوادر ، ومتى لم يخرج السامع من شيء الى شيء ، لم يكن لذلك عنده موقع » . (٨)

ويمكن أن نجد في كتابات الجاحظ أفكارا كثيرة حول « الوحدة العضوية » وحول « اللفظ والمعنى » وحول « فكرة التأثير » أو « الخيال » وغيرها من الأفكار التي تعتبر من مباحث علم الجمال .

---

(٧) الجاحظ : البيان والتبيين جـ ١ ٢٠٣ (تحقيق عبد السلام هارون)

(٨) المصدر السابق ٢٠٦

فحول اللفظ والمعنى يقول « والمعاني مطروحة في الطريق يعرفها العجمي والعربي والبدوي والقروي والمدني، وانما الشأن في اقامة الوزن وتخير اللفظ وسهولة المخرج وكثرة الماء، وفي صحة الطبع وجودة السبك ؛ فانما الشعر صياغة ، وضرب من النسج ، وجنس من التصوير » ؛ (٩) ؛ فالجاحظ في هذه العبارات يتحدث كعالم من علماء الجمال القاطبين الذين يرون ان العمل الادبي لا يكتمل الا من خلال البناء الفني والموهبة التي تلتقط المعاني المطروحة في الطريق فتصوغها وتنسجها في كلمات وتعبيرات شفافة ، تبرز جمالها وتزيد في تأثيرها. ولا اعتقد ان الجاحظ كان يهدف من وراء هذه الأفكار وأمثالها الى تفضيل اللفظ على المعنى ، كما ذهب الى ذلك كثير من دارسينا ؛ ولكنه كان يؤكد تلك الفكرة الجمالية التي ترى اننا لا نستطيع في مجال الإبداع الفني ، ان نفصل اللفظ عن المعنى ، او نفصل المعنى عن اللفظ ، فهما مقترنان ممتزجان، ولعل هذه الفكرة هي التي الهمت — فيما بعد — **عبد القاهر الجرجاني** في نظريته عن « النظم » التي تعتبر بكل المعايير من مباحث علم الجمال ، وهي تلامس كثيرا من افكار علماء الجمال المحدثين ، والذين يعاودون النظر في كتابي « اسرار البلاغة » و « دلائل الاعجاز » لعبد القاهر يتأكدون من صحة كلامي هذا .

ويمكن ان نشير الى حكيم آخر من حكماء المعتزلة هو بشر بن المعتمر ، وقد كانت له نظرات في علم الجمال والنقد الأدبي ، وصحيفته التي سميت باسمه تحمل تلك الافكار والنظرات ، يقول في هذه الصحيفة حول قضية اللفظ والمعنى « التوعر يسلمك الى التعقيد ، والتعقيد هو الذي يستهلك معانيك ، ويشين الفاظك ، ومن اراد معنى كريما فليلتمس له لفظا كريما فان حق المعنى الشريف اللفظ الشريف » (١٠).

ويحدثنا عن مناسبة المعاني للألفاظ بقوله لابد « ان يكون لفظك رشيقا عذبا فخما سهلا ، ويكون معناك ظاهرا مكشوفا وقريبا معروفا ، اما عند الخاصة ان كنت للخاصة قصدت ، واما عند العامة ان كنت للعامة اردت ؛ والمعنى ليس يشرف بأن يكون من معاني الخاصة ، وكذلك ليس يتضع بأن يكون من معاني العامة ، انما مدار الأمر على الصواب واحراز المنفعة مع موافقة الحال ، وما يجب لكل مقام من المقال » (١١) .

وهناك كثيرون من الفلاسفة والادباء والباحثين العرب القدامى يمكن ان نستشهد بأقوالهم في هذا المجال من امثال (**الآمدي**) و (**قدامة بن جعفر**) و (**ابن طباطبا العلوي**) و (**ابن رشد**) و (**ابن سينا**) و (**الكندي**) و (**الفارابي**) . ولكن المجال لا يتسع لهذا .

---

(٩) **الجاحظ : الحيوان** جـ ٢ ، ١٣١ – ١٣٢)

(١٠) نقلا عن البيان والتبيين جـ ١ ص ١٣٨ – ١٣٩

(١١) المصدر السابق

وكذلك الامر بالنسبة للمتصوفة .. ولكن لابد من ان نقف عند قضيتين هامتين فى هـذا المجال هما :

قضية اعجاز القرآن

وقضية الرموز الفنية عند فلاسفة المتصوفين

فقد ثارت حول القضيـة الاولى قضايا كثيرة ، والفت مباحـث متعددة . وكان من الطبيعى ان يهتم اصحاب هذه القضايا والمؤلفات بدراسة الظاهرة الجمالية فى التراكيب الادبيـة حتى يتمكنوا من فهم المغزى الادبى والفنى لاعجاز القرآن الكريم .

وقد الف كثير من علماء الكلام من المعتزلة والاشاعرة واهل السنة . كتبا تدور حول اعجاز القرآن ، ويعنينا هنا بصفة خاصة كتابان بعنوان « اعجاز القرآن » الاول « **لأبى سليمان الخطابى** » والثانى « **لأبى بكر الباقلانى** » .

ولست اقف عند هذين الكتابين لاعرض رأى الخطابى والباقلانى فى قضية الاعجاز ، ولكن لابين **موقفهما** من فهم الظاهرة الجمالية فى نتاج الادباء . ففيهما افكار وتصورات فى الابداع الفنى والتشكيل البيانى وروعة التجارب الادبية تحتاج الى تأمل ودراسة ، فالخطابى (مثلا) له مفهوم عام لاجناس الكلام ودرجات بيانها يحددنا متهيئين له « ان اجناس الكلام مختلفة ، ومراتبها فى نسبة التبيان متفاوتة ، ودرجاتها فى البلاغة متباينة غير متساوية ، فمنها البليغ الرصين الجزل ، ومنها الفصيح القريب السهل ، ومنها الجائز الطلق الرسل ، وهذه اقسام الفاضل من الكلام ، فالقسم الاول اعلى طبقات الكلام وارفعه ، والقسم الثانى اوسطه واقصده ، والقسم الثالث ادناه واقربه . فحازت بلاغات القرآن من كل قسم من هذه الاقسام حصة ، واخذت من كل نوع من انواعها شعبة ، فانتظم لها بامتزاج هذه الاوصاف نمط من الكلام يجمع بين صفتى الفخامة والعذوبة ، وهما على الانفراد فى نعوتهما كالمتضادين ، لان العذوبة نتاج السهولة ، والجزالة والمتانة فى الكلام تعالجان نوعا من الوعورة ، فكان اجتماع الامرين فى نظمه مع نبو كل واحد منهما عن الآخر ـ فضيلة خص بها القرآن » (١٢) .

ويمكن ان نقف عند معنيين هامين فى هذا الكلام للخطابى هما « الجمال » و « الجلال » واثرهما فى النفس الانسانية ، وهو يعبر عن الجلال فى الاثر الفنى بالرصانة والجزالة والفخامة والمتانة وعن الجمال بالعذوبة والسهولة والسلاسة .

ومما يلفت النظر فى كلام الخطابى حول الابداع الفنى : ادراكه العميق للمعاناة التى يتحملها مبدع العمل الادبى وما يجب ان يتوافر له من ثقافة وبراعة وقدرة على تحمل المعاناة وبصر بمواضع التراكيب ونظمها . وهو يحدثنا عن كل ذلك بقوله « وامر معاناة المعانى التى

(١٢) اعجاز القرآن ـ الباقلانى . تحقيق السيد صقر ص ١٦

تحملها الألفاظ شديد ، بالغ الشدة ، لأنها نتائج العقول ، وولائد الأفهام وبنات الأفكار ... وأما رسوم النظم فالحاجة الى الثقافة والحلق فيها أكثر ، لأنها لجام الألفاظ وزمام المعاني ، وبه يتصل أخذ الكلام ، ويلتئم بعضه ببعض ، فتقوم لـه صـورة في النفس يتشكل بهـا البيان » (١٣) .

وهذا كلام لا يختلف كثيرا عن نظرات بعض علماء الجمال في الحضارة الاوربية الحديثة ، عن علاقة المعاني بالالفاظ التي تحملها ودور الثقافة ، والتقاليد الفنية الخاصة بنظم الكلام .

أما « **الباقلاني** » فهو عالم من أهم علمـاء الاشاعرة ، وكتابه (**اعجـاز القرآن**) مـن أدق الكتب العلمية المبكرة التي تناولت بالتفصيل هذه القضية ، ولكنه تناول الى جانب ذلك ، كثيرا من قضايا النقد وعلم الجمال . وتعرض في معظم صفحات كتابه لدراسة الخبرة الجماليه عنـد الشعراء والادباء ، والموازنة بينهما وبين أساليب القرآن الكريم في التصوير والتعبير ، وطريقته في عملية النظم ، وقد تحول الكتاب الى ممرس أنيق للتذوق الشعرى العميق .

ويمتاز الباقلاني عن غيره من المتكلمين ومن كثير من اللغويين والكتاب ، بأنه كان يختار نصا كاملا يجرى عليه تجاربه في التذوق الفني ، أو نقده ، « معلقة امرئ القيس » . واستشهد بأشعار كثيرة تناولها في دراسته ووازن بينها وبين البلاغة القرآنية .

وفكرته عن أسلوب النظم في الكلام جيدة ، وآراؤه حول اللفظ والمعنى ، وعملية الابـداع الشعرى ، سليمة مستقيمة تدل على ذوق مرهف وحس فني عميق . وهو يميز تمييزا كبيرا بين ذوق العلماء ، وذوق الأدباء والشعراء في عملية التقويم الشعرى والتذوق الفني . وله تصور فني متكامـل لطبيعـة التعبير الأدبي والفني .

فالكلام عنده موضوع للإبانة عن الأغراض التي في النفوس . وإذا كان كذلك وجب أن يتخير من اللفظ ما كان أقرب الى الدلالة على المراد ، وأوضح في الابانة عن المطلوب ، ولم يكن مستكره المطلع على الأذن ، ولا مستنكر المورد على النفس ، حتى يتأبى بغرابته في اللفظ عن الافهام ، أو يمتنع لعويص معناه عـن الإبانة . ويجـب أن يتنكب ما كان عامي اللفظ مبتذل العبارة ، ركيك المعنى ، سفساف الوضع ، مجتلب التأسيس ، على غير أصل ممهد ولا طريق موطد » (١٤) .

يبقى أن أشير في نهاية هذا العرض السريع لجذور علم الجمال وجذوره في تراثنا العربي ، الى قضية الرموز الفنية عند فلاسفة المتصوفين . وهي قضية هامة ومتشعبة تحتاج وحدها الى دراسة متخصصه وتكاد تكون نظرية مستقله في علم الجمال ورائد هذه النظرية بلا مراء ، هـو الشيخ الاكبر « **محيي الدين بن عربي** » . فقد اهتدى هذا الفيلسوف المتصوف ، الى نظـام رمزى كامل ، طبقه على اللغة والفكر ووصل من خلاله الى كشوف فكرية وفنية كبيرة .

---

(١٣) المصدر السابق ١٧

(١٤) المصدر السابق ١٧٨ .

وقد درس (ابن عربي) هذا النظام الرمزي في موسوعته الكبرى « الفتوحات المكية » ، درسه في السفر الاول تحت عنوان « علم الحروف » وعاد اليه في السفر الثاني بالبحث والدرس . ولست بصدد تقويم هذا النظام الرمزي الذي اهتدى اليه ابن عربي ، فهذا الامر محتاج الى فترة طويلة للتفرغ الكامل لهذا النسق المعقد الذي استغرق مئات الصفحات في الفتوحات المكية ، ولكن الذي لاشك فيه ان قدرة ابن عربي على التذوق الفني والادراك الجمالي ، تسلكه في زمرة علماء الجمال ، وان كان الرجل لم يكن يقصد الى هذا ولا يسره ان ينال هذا اللقب ، فقد كان همه الاكبر الوصول من خلال هذا كله الى علم الباطن ، ليكون طريقه الى الروح الاعظم ، وسر الاسرار ، الذي كان الهدف من كل مكابداته الصوفية ، واشواقه الروحية .

• • •

اذن لماذا اهملنا كل هذا التراث الرائع .. ؟ ولماذا لم تتطور هذه النظرات العميقة في دراسة الخبرة الجمالية ، كما تطورت في الحضارات المختلفة ؟

ولماذا بقينا بلا علم جمال عربي حتى الآن ؟

ولا اريد ان اغامر بالرد على هذا السؤال ، فليس يكفي ان نقول ان انقطاع تيار الريادة في مجال الفلسفة الاسلامية والعربية كان وراء هذا الامر ، فلاشك ان عندنا مجموعة من المفكرين والدارسين للفلسفة الاسلامية والمهتمين بالادب والتذوق الجمالي والفني ، كان من الممكن ان يقوموا بتأصيل نظري حديث لعلم الجمال العربي في ساحتنا الثقافية .

وعلى كل حال فليس المهم ان نجيب على التساؤلات التي نثيرها ، ولكن الأهم ان نفجر المزيد من هذه التساؤلات ، ثم نترك الاجابة عليها للتطورات الفكرية والروحية واحداث الحياة وتقلباتها ، ومرور الايام وكر الليالي . فهي كفيلة بان تحل اعقد المشكلات ، وتجيب على اصعب الاسئلة .

وقد نجيب على السؤال بطريقة اخرى ، وذلك بان نقوم بمحاولات في سبيل الوصول الى علم جمال عربي . ولقد قمت ـ على امتداد عشرين عاما ـ بمحاولتين ، او بمعنى ادق بمغامرتين في هذا السبيل لا مفر من ان اعرضهما مادمت اتحدث عن خلو ساحتنا الثقافية من « علم جمال عربي » .

واتمنى ان تثير حول هاتين المحاولتين مزيدا من الجدل والحوار والنقد والتفنيد حتى تتبلور هذه الافكار وتحدد المصطلحات ، مادمنا نسعى الى « علم جمال عربي » .

محاولتان :

المحاولة الاولى :

اما المحاولة الاولى فقد عرضت لي وانا اقوم بدراسة تفصيلية في شعرنا المعاصر سنة ١٩٥٨ وكنت اقف عند شعر الرائد الكبير **محمود حسن اسماعيل** طويلا ، اعيش بين صوره واتذوق

تجاربه الفنية ، واحلل طرائقه التعبيرية وقيمه الجمالية . ولكن كنت احس في شعر محمود حسن اسماعيل بشيء آخر غير كل هذا ، شيء يغمر نفسي ، ويهز وجداني ، ويحرك عقلي . واحيانا كنت اسمع همسه واضحا في اذني .. ما طبيعة هذا الشيء ؟ هل هي القدرة اللغوية الفائقة عند الشاعر ؟ هل هي الطاقة الشعرية ؟ هل هو قاموس محمود حسن اسماعيل المتفرد ؟ هل هي طريقته في تشكيل صوره الفنية ، وتراكيبه وتعبيراته ؟ هل هو مزيج من كل هذا .. !

ووجدتني ابحث عن تصور جديد لاكتشاف هذا الشيء . وبعد معاشرة طويلة لمعظم شعر محمود حسن اسماعيل ، وجدتني اهتف : حقا لقد وصل هذا الفنان الكبير الى درجة « الوجد الشعري » وسحرتني رنين هاتين الكلمتين ، وفرحت بهما فرحا كبيرا فقد مهدا لي الطريق الى المحاولة الاولى . واكتشفت ان الفنان الموهوب لابد ان يصل في مرحلة من مراحل حياته الى ذروة النضج الفني ، وكما يصل المتصوفة والسالكون الى الوجد الصوفي يصل الفنان الى شيء قريب من هذا ، لابد من الكشف عنه وتحديده بطريقة موضوعية .

الوجـد الفـنـي

وقررت ان اطلق على هذا الشيء اسم « الوجد الفني » .

واعترف ان فكرة (الوجد الفني) هذه تراءت لي في الاصل خاطرة صوفية عابرة ، في لحظة من تلك اللحظات المرهفة النافذة المضيئة الشبيهة بالاشراق الصوفي ، وقد اقتنصت تلك الومضة الحالمة ومزجتها بحقيقة الجمال ومصطلحات النقد الادبي ، واستغللت وحي العلم وتذكرت خلو ساحتنا الثقافية من مصطلح عربي ، فحاولت ان اجعل من تلك الومضة العابرة لبنة من لبنات هذا العلم . فاستعرت مصطلح « الوجد » من قاموس المتصوفة والسالكين واسندته الى التجربة الفنية فصار « وجدا فنيا » . ورحت ادرس على ضوء هذا الاكتشاف « جهاز الابداع الفني » وطبيعته وطريقته في ابداع التجربة الفنية وادوات الابداع التي يعمل من خلالها هذا الجهاز . وجعلت اتساءل عن اللغة وما يحيط بها من اشعاعات وظلال ، وما تفجره من شحنات وصور ورموز ، هي ادوات هذا الجهاز ؟ وكيف يعمل هذا الجهاز من خلال هذه الادوات والرموز ؟

وما علاقة كل هذا بالعالم الخارجي ، أو عالم الفنان الباطني ؟

ثم عكفت ـ بعد ذلك ـ على وضع بعض الاسس الموضوعية لهذا [الوجد الفني] من خلال دراسة التجربة الفنية في مراحلها المختلفة حتى تصل الى ذروة التوهج والاشراق ونقلت معنى كلمة « الوجد » من قاموس الفلاسفة الالهيين والمتصوفة وحولته الى مصطلح جمالي يحدد ارتباط مبدع الفن بتجربته الفنية ارتباطا عضويا حميما متوهجا ، فيه جدة الفن وعمق الشعور ونضج الاداة الفنية . وحددت السمات والخصائص التي تميز الوجد الفني . ومنها :

التنبه الحاد المصحوب بيقظة الحس ورهافة الشعور وعمق الاحساس بالحياة .

جيشان النفس واحتدام العاطفة ،والروح الانساني العميق الذي يحتضن الوجود بما فيه من كائنات .

غزارة الموهبة ، **وثراؤها** ،**واكتمال الاداة الفنية** ، مع الاحساس بالدهشة الدائمة من مظاهر الوجود ومرائي الطبيعة .

ووضحت ايضا الزوايا المتعددة التي يمكن أن نطل منها على الوجد الفني والتي يمكن ان يتحول اليها :

فقد يكون معيارا فنيا نختبر من خـــلاله التجربة الفنية ، وندرس ظروف مبدعها وطبيعته

وقد يتحول الى **فلسفة جمالية اذا درسنا** على ضوئه ، تصور الفنان الجمال ، وادراكه العلاقات والنسب التي تشكل معمار العمـــل الفني .

وقد يصبح حالة تلم بالفنان ، فتغير نظرته الفنية ، وتوسع ادراكه للاشياء **ونظرته للعلاقات** الانسانية .

وقد يتحول الى سمة من سمات العمق الفني ، وخصيصة من خصائصه ، ويكون ادراك تلك السمات والخصائص الجمالية منهجا نقديا يمكن ان نقيم به ونقف على اصوله الاعمـــال الادبية والفنية . على ان هذه التحديدات السابقة لم تمنعني من القيام بعمليات متعددة من التذوق الجمالي من خلال منهج الوجد الفني ، فقمت بدراسة شعر محمود حسن اسماعيل بعنوان « الوجد الشعري عند محمود حسن اسماعيل » ، وقمت على ضوئه بمس التجارب الصوفية كاحياء علوم الدين ومشكاة الانوار **للغزالي** .والرعاية لحقوق الله **للمحاسبي** والرسالة القشيرية **للقشيري** . والفتوحات المكية **لمحيى الدين بن عربي** .

وقمت بدراسة **فكرة الموت** على ضوء منهج الوجد الفني . ومن خلال هذا المنهج تذوقت القصيدة العينية لابن سينا « هبطت اليك مـــن المحل الارفع » ، **وهي تجربة عميقة تمتزج فيها الرؤية الفكرية بالرؤية الفنية** امتزاجا تاما ،حتى ليصعب علينا ان نفصل فيها بين التفكير والتصوير والتعبير . ولعل ذلك يعود الى ان الشاعر كان قد وصل الى تلك الحالة المتوهجة المشرقة ، التي لم يعن يصلون الى درجة الوجد الفني ،فتحولت الفكرة في وجدانه الى تجربة مشبوبة في اعماقه ، تخرجت القصيدة الى الوجود على هذا النحو المركب الذي تسوده وحدة عضوية ووحـــدة فنية ووحدة شعورية . وقد تراءت لي اشـــياء جديدة في اثناء الدراسات التطبيقية التي كنت اقوم بها على ضوء نظرية « الوجد الفني » .

مثلا . وانا ادرس الفتوحات المكية لابن عربي تبين لي انه اصل مجموعة من النظـرات الجمالية . ووضع نسقا متكاملا للمعرفة يلائم مع افكاره وتصوراته . وتوصل الى مجموعة من الرموز الفنية في الباب الذي سماه « علم الحروف او « علم الاسرار » . واشاع مجموعة من المصطلحات الفنية واللغوية من الممكن ان تكون نواة صلبة لعلم جمال عربي . الى جانب ما توصل

اليه من رموز واشارات ، واستخدامات للغة تمكنه من ابداع مجموعة من النصوص الادبية والفنية ؛ اعتقد انها تثرى نقدنا العربي الحديث،لو صبرنا على فهمها وسبر أغوارها ، واخضعناها للذوق العصري .

واكتشفت وانا ادرس (مشكاة الأنوار)للامام ابي حامد الغزالي ، انه توصل الى النور الباطني والظاهري وربط بين الذين يدركون هذه الانوار وبين من يتذوقون الموسيقى ويدركون طبيعة الالحان ويتذوقون الاغاني ويميزون بين الاوتار وقال « فانظر الى ذوق الشعر كيف يختص به قوم من الناس ؛ وهو نوع احساس وادراك . ويحرم منه بعضهم ؛ حتى لا تتميز عندهم الالحان الموزونة المنزحفة . وانظر كيف عظمت قوة الذوق في طائفة حتى استخرجوا بها الموسيقى والاغاني والاوتار » .

وقد نشرت بعض هذه الدراسات التطبيقية التي قمت بها . ولفت نظرى بصفة خاصة ما اثاره البعض حول دراسة التراث العربي واستلهامه واستيحائه على ضوء هذا المنهج ، فقد ظن البعض أن هذه حيلة الجأ اليها لاحياء التراث العربي ، ولا ادرى لماذا نحتال لاحياء تراثنا ؛ وهو واجبنا جميعا . ولكن الحقيقة المجردة ان « الوجد الفنى » معيار نقدى يصلح لدراسة الادب المعاصر والادب القديم على السواء .

فليس طريقا لتلخيص آراء العرب القدامى في علم الجمال وتصورهم للسفته .

وليس منهاجا لاعادة النظر في مدلول كلمة الوجد عند الصوفية على اختلاف مدارسهم وتصوراتهم .

وليس دعوة تلفيقية لربح أفكار مختلفة من مدارس علم الجمال في الحضارة الاوربية ؛ وخلطها بأفكار مشابهة في تراثنا العربي .

فالوجد الفنى معيار نقدى معاصر استلهم البداية التراث العربي ، ثم تحول بعد ذلك الى مصطلح جديد له اسسه وخصائصه وسماته التي حددتها في هذه الدراسة .

وهذا في نظرى ؛ هو المعنى الحقيقي لاستلهام التراث ؛ فنحن نعمل عقولنا وذوقنا المعاصر في خامات مشعة حية من تراثنا ؛ لتحولها بعد ذلك الى شيء جديد ؛ له غزارة الإيحاء وعبق التراث في اطار المنهج العلمي الحديث .

ليس معنى ذلك انني لم استفد من نظرات العرب القدامى في علم الجمال وتصورهم للعملية النقدية ؛ او لم استفد من معاني الوجد عند الصوفية ؛ او من افكارهم في الذوق والجمال والخير والحب والوهم والخيال ، والابداع الفنى . في الصحيح ان هذه الاشياء كلها ؛ كانت الخميرة الاساسية لهذه الفكرة ؛ اختلطت بهذه العناصر كلها وانطلقت فيها فانتجت هذا الذى تسميه « الوجد الفنى » .

واعتقد انني افدت كثيرا من تطبيق (معيار الوجد الفنى) على الاعمال الفنية والادبية للمتصوفة والسالكين ، لان اصحاب تلك التجارب وصلوا في معظم الاحيان الى حالة من الوجد

الصوفي ، وهي وقدة روحية مشحونة بالانوار والظلال تهز النفس الانسانية وتفجر كل طاقات الابداع ، ومن ثم تكون الاعمال التي يبدعونها ،على هذا المستوى المشحون المتوتر المتوقد ، وانتهيت من هذا الى ان كل اديب لا يصل الى تلك الوقدة الروحية والشعورية وهو يبدع عمله الفني ، لا يكون اديبا بالمعنى الحقيقي . فقد ينتج في غير هذه الحالة اعمالا كثيرة ، ولكنها تظل اعمالا فاترة ، لا تهز الوجدان ، ولا تلذ العقل ، ولا تسر القلب ، ولا تثير الشعور ، ولا تلهب الخيال ، ولا توصلنا الى هذه الغبطة الفكرية والجذل الروحي ، الذي نشعر به عادة بعد ان نقرأ الاعمال الادبية الشامخة .

وتبين لي ـ بعد ان وصلت الى هذا الحد ـ ان « الوجد الفني » معيار خاص لا يصلح لسبر اغوار كل التجارب الادبية ، فهو يهمل التجارب المتوسطة والجيدة ، وينأى عن التجارب العادية . ويسقط من حسابه كثيرا من الادباء والفنانين الذين لم يصلوا الى تلك الحالة من التوهج والاشراق التي تصاحب عادة من يصلون الى درجة الوجد الفني . وبذلك يكون معيارا خاصا بالقمم والشوامخ والاعمال الادبية والفنية الكبرى .

على اية حال ليس عيبا ان يكون الوجد الفني معيارا خاصا . وليس عيبا ان يصل الفنان ومبدع الادب الى تلك الحالة ، من التوهج والاشراق التي تسميها وجدا فنيا ، لانهما عندما يصلان الى تلك المرحلة ، يبدعان اعمالا فنية رفيعة ، تمتزج فيها التجربة الشعورية بادوات الفنان والاديب التعبيرية والتصويرية والتشكيلية وتنصهر في باطنهما التجربة القوية بالتجربة الشعورية ، ويخرج العمل الفني موجيدا متلالا في ناطقة رؤية الفنان ممتزجة بادواته القوية ، وصوره التعبيرية وبدفقه الشعوري .

ولكن هذه الخصوصية في المعيار تستلزم خصوصية فيمن يستخدمه ... واذا كان مبدع الفن قد وصل الى حالة الوجد الفني ، فلابد ان يكون الناقد الذي يتناول عمله ، قد وصل هو الآخر الى تلك الحالة من التوهج والاشراق ، اي قد تربع على قمة الوجد الفني .

ولا شك ان الذوق الجمالي في الحروف والاصوات والانغام والاضواء والاشكال ، يعطي الناقد رصيدا من التجارب المتعددة والدربة والخبرة في استكناه اسرار الجمال في العلاقات بين الاشكال وبمضي الزمن والنضج واكتمال الاداة ، والامعان في دراسة الخبرة الجمالية ، تتحول هذه الخبرة عند الناقد الى « حدس فني » وبذلك يصل الى درجة التوهج والاشراق والوجد الفني ، التي يصل اليها مبدع العمل الادبي والفني . وبذلك يتساوى ـ حيال معيار الوجد الفني ـ الفنان المبدع مع عالم الجمال والناقد الذي يتناول الاعمال الفنية ، ويصبح الناقد والدارس للخبرة الجمالية فنانا مبدعا ، لا فرق بينه وبين الفنان المبدع الا ان الاول يأخذ تجاربه من الحياة مباشرة ، بينما يأخذ الفنان الناقد تجاربه الابداعية من الاعمال الفنية . على انني اعترف ان معيار « الوجد الفني » لم يستكمل حظه من الدراسة ، ولم يتحدد بصورة نهائية . ولعل ذلك يرجع الى انني عنيت في المقام الاول بالدراسات التطبيقية على ضوء الاصول النظرية القليلة التي اهتديت اليها . ولم انشغل التفرغ للتاصيل النظري في بداية الامر ، وتركت

الباب مفتوحا امام الجديد الذى اكتشفه على ضوء الخبرة الجمالية ومن خلال تذوق الاعمال الادبية . وظل الأمر على هـذا النحـو حـتى استغرقتنى الشواغل ، وانصرفت نهائيا عن « معيار الوجد الفنى » ولم أعد أتناوله فى مجال التنظير ، أو فى مجال الدراسات التطبيقية .

ولكن يبدو ان فكرة « علم الجمال العربى » ظلت تقبع فى اللاشعور ، ولم تفارقنى ابدا ، حتى اتيح لها ان تخرج فى شكل جديد يختلف عن « معيار الوجـد الفنـى » وكان ذلك نواة المحاولة الثانية .

المحاولة الثانية :

منهج الرؤية الفنية

ولهذه المحاولة قصة ، فقد اكتشفت أنناق مجال الدراسة الأدبية لاعلام شعرنا العربى لا نزال نجتر الأفكار التى اهتدى اليها الرواد فى مطلع هذا القرن والعقود الثلاثة التى تلت ذلك ، وقد نستثنى بعض الدراسات القليلة التى حاولت ان تضيف جديدا ، او تقدم شيئا مبتكرا ، مع ان الدراسة الادبية تطورت فى العالم تطورا كبيرا واحتدمت الساحة الثقافية فى اوربا وامريكا بالنظريات النقدية الكثيرة والحديثة .

ثم رأيت ما طغى على معظم دراساتنا الادبية من وقوع فى براثن المناهج الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ، فوقعت فى خلط كبير اصاب التذوق الجمالي بنكسة كبرى ، وحولت معظم دراساتنا الادبية وخاصة فى الثلث الثانى من القرن العشرين الى وثائق سياسية وتفسيرات فى الاجتماع والاقتصاد .

وهنا لى ان اقف مع القلة القليلة من الاساتذة الجامعيين الذين لا يزالون يولون القيم الجمالية عناية كبرى . ويحاولون اعادة الدراسة الأدبية الى طبيعتها الاصيلة .

وفكرت فى القيام بعمل ايجابى يجمع بين امرين . **الامر الاول** : اعادة دراسة اعلام شعرنا العربى من جديد ، حتى هؤلاء الذين درسوا على ايدى الرواد وأعلام النقد العربى الحديث ، فى محاولة لتقديمهم للأجيال الجديدة من خلال تصور جديد يستلهم ما جد من تطورات على مناهج النقد والدراسة الادبية فى العالم .

والامر الثانى : ان اصطنع منهجا جديدا يتيح لى ان انفذ من خلاله الى جوهر التجربة الفنية لهؤلاء الشعراء ، وان اقدم شيئا جديدا يحمل بعض النظرات المبتكرة .

واخترت ان ابدأ دراساتى هذه ، بتقديم شاعر من اكبر شعراء العربية على امتداد عصورها هو « **ابو الطيب المتنبى** » وكان السبب فى اختيار هذا الشاعر ، وتقديمه فى طليعة هذه الدراسات لونا من المغالطة ، ونوعا من التحدى ، فهـذا الشاعر بالذات حظى بدراسات كثيرة والفت حوله مئات الكتب فى القديم والحديث . والاقبال على دراسته من جديد ، يؤكد للاجيال الجديدة ان طبيعة الدراسات الانسانية تختلف عن طبيعة العلوم ومناهجها ، وان أحدا لا يستطيع ان يقول فيها الرأى الاخير ، وان التجارب الفنية والادبية مهما قيل حولها ، فى حاجة دائمة الى من يقول

فيها رايا جديدا . واهتديت — بعد معاناة — الى منهج متميز ، تناولت على ضوئه المتنبي ، وسميته « منهج الرؤية الفنية » . وقمت بتحديد هذا المنهج تحديدا نظريا ، وفصلت قواعده واسسه العلمية . وان كنت في دراستي لعالم المتنبي الشعري لم اشا ان اثقله بتلك التفصيلات النظرية ، وهذه الاسس الفكرية (١٥)

واكتفيت بتقديم بعض الاصول النظرية العامة في مقدمة المقالة الاولى من هذه المقالات التي نشرتها عن المتنبي ودخلت فيها عالمه من خلال رؤية فنية .

وكنت اشر بين الحين والحين — وفي اثناء الدراسة ، بعض ملامح نظرية لهذا المنهج .

معالم منهج الرؤية الفنية

ويمكن في هذا المجال ان اتناول بصورة عامة معالم منهج الرؤية الفنية ، واحدد سماته المميزة ، واشير الى بعض ادواته وبعض مصطلحاته الجمالية .

ولا اريد ان اضع له تعريفا جامعا مانعا منذ الوهلة الاولى ، واقتصر على وصفه حتى نتيح له النمو بعد ذلك . وهو على اية حال « منهج ينظر الى العمل الادبي من الناحية الفنية والادبية . وليس مقيدا بصورة سابقة ولا بنمط فكري معين » او مذهب سياسي او اقتصادي او عقيدة من العقائد ، ولكنه يتجه مباشرة الى داخل العمل الادبي مجردا من كل الافكار السابقة ثم يحاكم العمل من خلال مقاييسه الجمالية والفنية ، ويصل الى اهدافه ومراميه من خلال معايير فنية بحت .

ولكن ليس معنى ذلك ان هذا المنهج يتنكر للظروف السياسية والاجتماعية والاقتصادية والنفسية لمبدع العمل الادبي والفني ، فلا شك ان هذه الظروف تؤثر تاثيرا عميقا بصورة او باخرى على الاعمال الادبية والفنية ، وتشكل طابعها العام ، وملامحها الاساسية ، وتميز تقاليدها الجمالية في عصر من عصر آخر . ولكن هذا التاثير لا يكون بصورة مباشرة فقد يكون بذرة صغيرة تنمو داخل التجربة الادبية والفنية وتحول مسارها وجهات متعددة ، وقد يكون هذا التحول ملائما لطبيعة هذه الظروف ، وقد يكون على النقيض منها ، وقد يكون مزيجا مركبا من هذين النقيضين ، المهم ان الفنان عندما يجسل تجربته الفنية ، لا يصوغها من جزئيات العالم الخارجي بطريقة مباشرة ، ولكنها تتحول جزئياتها وعناصرها داخل جهاز ابداعه الفني هذه التحولات المركبة المعقدة ، ثم يزداد تعقيدها بما يحيط بها من عناصر الابداع الاخرى غير المنظورة والتي ترجع الى طاقة الفنان وموهبته .

ومن اجل هذا كان على الناقد الذي يتناول عملا ادبيا او فنيا ، ان يطرح كل افكاره السابقة، ويدخل مباشرة الى داخل العمل الادبي والفني يتذوقه ويتعرف على عناصره الجمالية والفكرية، ويعرف طبيعته الفنية وتقاليده الجمالية . ولاشك ان كل عمل فني له عالم خاص مستقل

---

(١٥) الثقافة — مايو سنة ١٩٧٢ وراجع الاعداد ٤٤ ، ٤٧ ، ٤٨ ، ٤٩ ، ٥٠ ، ٥١ من مجلة الثقافة .

كل الاستقلال من كل الظروف الخارجية ، ولمعاييره ومقاييسه الخاصة به ، وقد يكتشف الناقد ان جزئيات العمل الادبي والفني الذي يعيش في داخله ، قد تشكلت من بعض عناصر العالم الخارجي ، ومن كل عناصره ، وقد يجدق داخل العمل اصداء واضحة للظروف السياسية والاقتصادية والعقائدية التي احاطت به . هنـالا يمكن لمنهج الرؤية الفنية ان يتنكر لهذه العناصر التي اكتشفها الناقد من باطن العمـل الفني والادبي .

ولكن منهج الرؤية الفنية يتنكر كل الانكار لما شاع في بعض الدراسات الادبية التي تصطنع المناهج الاجتماعية والعقائدية فيما يسمى بالحتمية والجدلية) بين ظروف مبدع العمل الادبي والفني وبين ظروفه السياسية والاجتماعية والاقتصادية وطبيعة حياته ونزعاته . لان الذين يقولون بهذه الحتمية ، مقيدون بمعايير اخرى ، تختلف عن معايير العمل الادبي والفني ، ثم هم يبدأون دراستهم من خارج النص الادبي والفني ، فاذا دخلوا الى باطن العمل الفني ، فلكي يبحثوا فيه عن السياسة والاقتصاد والاجتماع واصداء المذاهب والافكار ، ويقيسوا على ضوئها شعر الشاعر وعمل الاديب وفن الفنان ، ويبحثوا عن مطابقة هذه الاعمال لتلك الظروف الخارجية ، فاذا طابقتها فهي اعمال ادبية صادقة وممتازة ، واذا لم تطابقها فهي في تقديرهم اعمال غير صادقة او ضعيفة او زائفة . وبذلك تتحول الاعمال الادبية والفنية ، عند هؤلاء الى وثائق سياسية وتاريخية واجتماعية وفي بعض الاحيان الى وثائق نفسية .

ولكن منهج الرؤية الفنية يتنكر كل الانكار وجذريا من تصور هؤلاء ، يختلف في طبيعة عمله ، وفي تصوره وفي ادواته الفنية . فهو – كما قلنا سابقا من داخل العمل الادبي والفني نفسه فهذا العمل الادبي والفني في نظره ، كون مستقل عن عناصره الاولى وجزئياته التي اسهمت في تشكيله ، كون خاص له قوانينه الموضوعية وتقاليده الجمالية الخاصة به . فشعر المتنبي مثلا عالم لغوي جمالي ، مستقل كل الاستقلال من عناصره الاولى التي شكلته ، وهي ظروف الشاعر السياسية والاجتماعية وتأثره بافكار عصره ومقائد مجتمعه ، هو خلق لغوي مستقل ، ولكن يعود في داخله كل ما يمور في الحياة من تيارات ، ولكنه ليس الحياة ذاتها ، وقد نصل من خلال هذا العالم الفني الى احداث وظروف تطابق احداث حياة الشاعر وظروف نفسه ، وقد نصل الى احداث تناقض الاحداث التي نعرفها عن الشاعر لان الشاعر عندما يشكل تجربته الشعرية تتفاعل وتتحول الى خلق لغوي وعالم فني مستقل عن جزئياته التي شكلته ، فظروف الشاعر واحداث حياته ، قد تكون مجرد مثير للتجربة ، وقد تلهمه تلك الظروف والاحداث صورا عكسية ، وقد يحور الشاعر في تلك الاحداث وقد يضيف اليها احداثا من عنده يخترعها اختراعا ، وقد يطمس كل الاحداث الخارجية طمسا تاما . ولهذا فالربط الحتمي الساذج بين الظروف الخارجية وبين العمل الفني ، عمل تأباه طبيعة (منهج الرؤية الفنية) . وهذا هو الفرق الاساسي الذي يميز هذا المنهج عن بقية مناهج الدراسة الادبية التي تهتم بالرؤية الاجتماعية .

(الرؤية الفنية) منهج فنى يهتم بالعمل الفنى وحده ومن داخله يصل الى كل القيم الفكرية والجمالية . وقد تكون هذه القيم من عالم السياسة أو من عالم الاجتماع أو من طبيعة النفس البشرية ، المهم أن نتوصل اليها من داخل العمل الفنى وفى اطاره ، وبهذا يختلف منهج الرؤية الفنية أيضا عن مناهج الدراسة الادبية ، التى لا تهتم الا بالنواحى الجمالية أو تصطنع مناهج التحليل النفسى ، أو التحليل اللغوى .

انه منهج يجمع فى اطار واحد بين جوهر كل تلك المناهج ، ولكنها تتفاعل وتتوحد وتتحول الى معيار واحد هو ما أطلقت عليه « منهج الرؤية الفنية » .

لقد افاد هذا المنهج من كل مناهج النقد الموضوعية والتاريخية والجمالية والاجتماعية والنفسية . ولكنه فى النهاية حدد لنفسه نستامعينا ميزه عن كل هذه المناهج ، وجعل له طبيعة مختلفة ووظائف متمايزة .

على أن هذا المنهج لم يقتصر فى تناوله للاعمال الادبية والفنية على الادوات المتعارف عليها فى مجال الدراسات الادبية ، ولم يكتف بمصطلحات البلاغة القديمة ولا مصطلحات النقد السائدة . وانما اصطنع لنفسه مصطلحات جديدة وصفت لعبرات جمالية جديدة ، ولوع فى استخدام الادوات النقدية وافاد فى كل ذلك بعلم اللغة الحديث والدراسات الصوتية . كما افاد من مجالات فنون اخرى كالفنون التشكيلية والموسيقى والتصوير .

وقد كانت الدراسات التطبيقية محك الاختبار لهذا الفكر الجديد وامتحان المصطلحات الجديدة التى حاولت ان احكمها . لان الاصول النظرية لاى منهج من المناهج ، تظل قيما جامدة ساكنة ، لا تنبض فيها الحياة الا اذا توافرت لها ساحة الاستعمال التطبيقى . وقد اتاحت لى دراسة شعر المتنبى من خلال منهج « الرؤية الفنية » ان اختبر بصورة تطبيقية معظم هذه المصطلحات الجديدة . فاسهمت بشكل جيد فى حل كثير من المشكلات التى كانت تواجهنى ، وانا اقوم بعملية التذوق الفنى ، قبل ان اهتدى الى هذه المصطلحات . وارجو ان استشهد فى غير هذا المجال بنماذج تطبيقية تبين كيف كنت اتغلب على هذه المشكلات . لاننى خصصت هذه الدراسة للجانب النظرى .

ولست ارغب فى استقصاء كل المصطلحات التى حددتها خلال « منهج الرؤية الفنية » ويكفى ان اذكر اهم هذه المصطلحات مع التعريف به .

ولعل من اوائل المصطلحات التى اهتديت اليها مصطلح « **التشكيل اللغوى** » والفنان العظيم يملك الى جانب موهبته الفنية وطاقته الابداعية موهبة التشكيل اللغوى ، وهى التى تعينه على تشكيل العمل الادبى والفنى من خلال الصور ، او من خلال براعته فى استخدام الكلمات وتتابع المقاطع ، والقدرة على استخراج ظلال الالفاظ وايحاءاتها وجرسها ، واكتشاف المعانى الساكنة فى باطن الكلمات .

وهناك مصطلح آخر يتصل بفكرة التشكيل اللغوى فى الشعر اطلقت عليه « **بناء القصيدة على طريقة اللوحة** » فالشاعر الذى يملك القدرة على هذا التشكيل الفنى . يبنى قصيدته بالطريقة

التي يشكل بها الفنان لوحته . فكما يهتم الفنان، وهو يبدع لوحته بالاضواء والظلال ،والفراغ والنسب في المساحات والالوان ومعالم الاطار الذي يضم كل هذه العناصر ، يهتم الشاعر بكل هذه الاشياء . ولكن في حدود وسائله التعبيرية والتصويرية ؛ فادواته التي يبني منها قصيدته على طريقة اللوحة : هي الحروف والالفاظ والمقاطع . والشاعر الذي يملك هذه القدرة الفنية ، يستطيع أن يشكل عمله من خلال تتابع الحروف وانتقاء الالفاظ والمقاطع . يستطيع أن يحدث ظلالا وفراغات ومساحات ويغير فيها الضوء . وقد يستخدم موهبته السمعية والبصرية في مراعاة النسب في القصيدة وادراك التوازن والتباين والتدرج والايقاع والتماثل في الاطار العام الذي يشكل فيه القصيدة وبذلك تتحول القصيدة الى لوحة نبحث فيها عن كل هذه العناصر التشكيلية . وقد اتاح لي هذا المصطلح ان اسمي قصائد المتنبي لوحات .وحللت بصورة تفصيلية على ضوء هذا المصطلح الجديد ثلاث لوحات من شعر المتنبي ، هي اللوحة الاولى وهي قصيدته التي مطلعها

« ضيف الم برأسي غير محتشم والسيف أحسن فعلا منه باللمم »

واللوحة الثانية : قصيدته التي مطلعها

« واحر قلباه ممن قلبه شبم ومن بجسمي وحالي عنده سقم »

واللوحة الثالثة : قصيدته التي مطلعها :

« ليالي بعد الظاعنين شكول طوال وليل العاشقين طويل »

وقد تبين لي بعد تذوق هذه اللوحات الثلاث ان المتنبي يملك حسا فنيا متفوقا وقدرة باهرة على الاحساس بالالوان والظلال في الكلمات ،ولقد كان يشكل منها لوحاته الفنية تشكيلا خلاقا جذابا لا يتأتى الا لفنان موهوب يملك ناصية اللغة ،ويعرف كل مفرداتها ، ويفهم دلالاتها المختلفة.

هناك مصطلح آخر اطلقت عليه « الاشعاع الفني » وهو مترتب على سجية شخصية تكون في الفنان الموهوب . وهي « جاذبية الشخصية الفنية » . والفنان الذي يملك جاذبية الشخصية يتمكن بسهولة من ادراك الالفاظ والتعبيرات والحروف والمقاطع التي تسهم في عملية البناء الفني وتزيد في حيوية العمل الفني ، ولكن هذه الجاذبية تتحول الى شيء آخر عند الفنان المبدع هو الذي نسميه « الاشعاع الفني » . وهو شيء لا يمكن أن نقف عنده في تعبير او تصوير او تركيب أو صورة ، ولكننا نحسه عندما نقرأ العمل الفني ساريا كالنور يضيء بين اجزائه وفصوله ،ونعرف آثاره بالتذوق ، متمثلا في تلك النشوة والنشوة والجذل الروحي ، الذي نحس به بعد قراءتنا من قراءة عمل فني ممتاز .

انا نحس آثار هذا « الاشعاع الفني »ونطرب لها ؛ لا مجرد طرب حسي عابر ، ولكنه طرب على صورة جيشان فكري وروحي وفني ، يلازمنا وقتا طويلا ويغيرنا . وبذلك نصير شيئا آخر غير الذي كنا عليه ، قبل القراءة .. شيئا جديدا يضيء داخلنا ذلك (الاشعاع الفني) الذي سرى الينا من العمل الفني العظيم .

• • •

هذه أهم المصطلحات الجديدة التي أضافها(منهج الرؤية الفنية) ، الى مصطلحات النقد الادبي وعلم الجمال .

وهناك مصطلحات أخرى ثانوية وغير دائمة تجيء من داخل العناصر التي تشكل العمل الفني او من الافكار التي يحتوي عليها العمل .

مثلا « فكرة الزمن » قد تتحول عند فنان موهوب من مجرد فكرة تدل على معنى محدد ، الى مصطلح جمالي يسهم في تشكيل العمل الفني كله ، فتصهر كل الادوات التعبيرية والتصويرية وتذوي فكرة الزمن في كل جزئية من جزئيات العمل الفني .

ولا اريد ان اتابع الحديث عن هذه المصطلحات الثانوية ويكفي هذا المثال دليلا عليها .

ونعود مرة أخرى الى منهج (الرؤية الفنية) بعد ان عرفنا طبيعته ووظيفته وادواته التي يستخدمها صاحب هذا النهج في تذوق الاعمال الفنية ، لنتساءل :

هل هذا منهج جديد حقا ؟ ! وهل من حق الباحثين والدارسين ان يحاولوا اصطناع مناهج جديدة في النقد الادبي وعلم الجمال ؟

وسأترك الرد على الشق الاول من السؤال للقارىء ، الذي عرف هذا المنهج من هذا العرض النظري ، وتابع تطبيقاته التي نشرتها في مجلة الثقافة الكويتية . واتخذت شعر المتنبي مجالا لتطبيقه ، وتمحيص قيمة الفنية ، واختبار معاييره الجمالية .

اما الرد على الشق الثاني من السؤال ، فيتلخص في أن من حق كل باحث او دارس في كل عصر من العصور ان يتذوق العمل الفني بالطريقة التي تروق له ، وان يعيد قراءة الاعمال الفنية القديمة ، قراءة جديدة ، وان يستخرج من تجربة الاديب والفنان ، ملامح جديدة في الابداع والفن ، وان يعيد تحليلها وتركيبها على ضوء قراءته الجديدة من خلال ما يصطلح من مناهج .

وهذا هو العمل الذي يعمله منهج « الرؤية الفنية » والذي حاولت استخدامه .

قراءة جديدة للتجارب الادبية والفنية ، وتحليل لمكوناتها الجمالية ، وتفسير لخصائصها الفكرية والروحية ، وتركيب جديد ــ على ضوء هذا التحليل والتفسير ــ حول التجربة الفنية والحديث عنها ، الى شيء جديد . وبهذا يتحول العمل النقدي الى عمل فني ابداعي ، يثير من الامتاع واللذة العقلية والفنية ، ما تثيره التجربة الأصيلة من متعة جمالية وروحية . وتتحول ــ بذلك ــ التجارب النقدية الى تجارب فنية . وبقدر ما تتعدد الاعمال الفنية ، يجب ان تتعدد الاعمال النقدية التي من هذا الطراز الفني ، بل يمكن ان تتعدد الاعمال النقدية تعددا كبيرا حول عمل فني واحد . فالعمل الفني لا يبوح بكل اسراره لناقد واحد مهما كانت مواهبه وقدراته واكتمال ادواته . وسيظل لكل ناقد جديد ــ عنده ــ سر جديد يبوح له به دون غيره ، ومن الممكن ان يظل العمل الفني محتفظا بأعظم خصائصه واجمل سماته واكبر اسراره لناقد معين قد لا يجيء الا بعد ألف عام او اكثر .

ولعل هذا ما يفسر لنا ما نراه الان من جدة وطزاجة وابتكار في دراسات نقدية جديدة ، تعرض لاعمال جاهلية وعباسية واموية . كما تجدق دراسات الدكتور مصطفى ناصف عن الشعر العربي ودراسات الدكتور عبد القادر القط عن الادب الاسلامي والاموي ودراسات الدكتور محمد النويهي عن الشعر الجاهلي ، ودراسات الدكتور ابراهيم عبد الرحمن . وغيرها من الدراسات التي تتناول جوانب الادب القديم .

لكن يبقى ان اطرح على نفسي سؤالا ، هل هاتان المحاولتان اللتان قدمت لهما تاصيلا تطبيقيا في هذه الدراسة يمكن ان تكونا نواة لعلم جمال عربي ؟

* وهل تصلحان اساسا نظريا لمزيد من الدراسات التطبيقية ؟
* وهل تصمدان للنقد والتمحيص ؟
* وهل حقا هما محاولتان جديدتان ؟

وادع الاجابة على كل هذه الاسئلة للمتخصصين في الفلسفة والنقد الادبي وعلم الجمال وعلوم اللغة ، ولا شك انني سأفيد من توجيهاتهم فائدة كبرى .

ولكن ردي على السؤال بصفة مبدئية انني لم انظر الى هذين المنهجين الا على انهما محاولتان . وهذا وحده يؤكد انني لا ازال في مجال المحاولة والتجريب . وقد امل في يوم ما الى اساس نظري متكامل يصلح ان نقول عليه : هذا هو علم الجمال العربي ، ولكن هاتين المحاولتين ـ وحدهما ـ لا تصلحان اساسا لهذا العلم الذي نصبو اليه ، ونسعى الى تأصيله في ساحتنا الثقافية ، ولكنهما بالتأكيد خطوة نحو علم جمال عربي .

تقويم المحاولتين ....

واذا كان لي في نهاية هذه الدراسة ، ان اقوم بنقد هاتين المحاولتين ، فانني اعترف اولا بالعيب الاساسي ، الذي تسلل اليهما ، على الرغم من محاولاتي الشديدة لتجنب الوقوع فيه ، وهو الاختلاط وعدم التحديد الدقيق للمصطلحات ، وان كان هذا الامر في النهاية سيتيح لي ان امعن النظر طويلا حتى انتهي الى التحديد الدقيق للمصطلحات ، والتعريف الجامع المانع لها .

وهناك مشكلة تثور حول هذين المنهجين ، ومن الممكن ان تكون عيبا ، ما لم تحاول العمل على تحديد حجمها وتوضيح ما تثيره من الخلاط .

وهذه المشكلة تتلخص في ان هذين المنهجين يتشابكان مع مدلول « النقد الادبي » بشقيه النظري والتطبيقي .

ففي رأيي ان النقد الادبي يقف على ارض مشتركة مع « علم الجمال » وهناك مساحات كبيرة يتجولان عليها معا .

على ان علم الجمال ظل لفترة طويلة فرعاً من فروع الفلسفة ، وعندما انفصل عنها احتضنه النقد الادبي ، وظل رافداً من روافده حتى الآن ، والنقد الادبي نفسه ظل ممتزجاً لفترات طويلة بالدراسات الادبية والادب المقارن وتاريخ الادب والنظريات الادبية . ولم يستقل كل علم منهما استقلالاً تاماً الا بعد تقدم الدراسات العلمية وقيام المتخصصين بتحديد دقيق صارم لكل نوع من هذه الانواع .

ولهذا لم افزع كثيراً اذا وجدت هاتين المحاولتين تدخلان على نحو ما في مجال النقد الادبي .

وان كنت اعتقد انهما اقرب الى علم الجمال منهما الى النقد الادبي ، لانهما تحاولان اساساً البحث في ماهية الجمال ، والخبرة الجمالية في الادب والفن .

و (معيار الوجد الفني) موغل في القرب من علم الجمال ، لانه يقوم في البداية على اساس فكرة فلسفية ، اقتبستها من قاموس فلاسفة المتصوفة . ولان الاسس التي يقوم عليها اقرب الى التنظير الفلسفي ، وهو من هذه الناحية يكاد يكون علماً معيارياً ، وان كانت له جوانبه الاخرى التمثل في الادوات الفنية التي يستخدمها لدراسة الخبرة الجمالية ، وتذوق النصوص الادبية والفنية ، وهذا الجانب يقرب من النقد الادبي ، يجعل « الوجد الفني » يلامس مناهج العلوم الوصفية .

اما منهج « الرؤية الفنية » لعلي المكتشفين (منهج الرؤيا الفني) جانبه الاهم ، موغل في القرب من النقد الادبي وهو الجانب الذي يهتم بتذوق العمل الفني من خلال ادوات النقد الادبي ، ولكن يغلب عليه من الناحية الاخرى الاهتمام بدراسة الظاهرة الجمالية ، وتحديدها تحديداً علمياً كلون من الوان المعرفة الفلسفية ، وهو صميم علم الجمال .

وهناك عيب اعترف به في نهاية هذا التقديم وهو الحماس الشديد الذي غلب على بعض اجزاء الدراسة في هاتين المحاولتين ، وقد كان هذا الحماس ناشئاً من احساسي بانني لا بد ان آتي بشيء جديد ، ولعل هذا الاحساس هو السبب الرئيسي في كل العيوب التي لحقت بالمنهجين .

ولكن حسبي ـ في هاتين المحاولتين ، انني بذلت جهدي ، واستنفدت ، في البحث والتذوق طاقتي ، فان اخطأت فلي اجر المحاولة ، وان اصبت فلي اجران ، كما يقول العلماء ، والله من وراء القصد ، وما توفيقي الا بالله عليه توكلت واليه انيب » .

* * *

عبد العزيز محمد الزكي

يحيى حقي بين المصرية والتركية

لا جدال في أن دراسة فن يحيى حقي الأدبي يستلزم التعرف على نشأته وأساليب تربيته ، خاصة وأنه نشأ وتربى في أسرة ذات أصلاب تركية ترعرعت في أحضان المجتمع المصري ، وتعرض بذلك لكثير من الصراع بين المصرية والتركية ، كما تراوحت حياته بين الاتجاهات الصوفية الاسلامية والبوهيمية الرومانسية .. وأساليب التفكير الشرقي والحياة الغربية الحديثة ، ثم محاولاته للنجاة من تلك التناقضات في رحاب حرية الفنان .. ومع ذلك فاذا كان هذا البحث يركز على مشكلة صراع يحيى حقي بين تركيته الموروثة ومصريته التي يحياها فان الهدف الأخير منه هو أن يبين كيف انتصر يحيى حقي على ذاته ووصل الى نوع من السلامة النفسية التي شق على الكثيرين من أقرانه الوصول اليها . وقد حقق له ذلك الكثير من وضوح الرؤية ونفاذ البصيرة مما جنبه التخبط والضياع ، وعاونه على ممارسة الفن وهو متحرر من مختلف العقد الموروثة والمكتسبة ...

— ١ —

ان جذور يحيى حقي ليست مصرية صميمة ، فقد نشأ جده « ابراهيم حقي » في بلاد المورا بجنوب اليونان ، في حين كانت تنتشر أصول العائلة في ربوع تركيا وفروع منها في مصر .

وشاهد ابراهيم حقي من قرب بعض نواحي النهضة الاوروبية الحديثة الى ان بدأت أوروبا تضيق الخناق على العناصر التركية في حركة مناهضة الحكم العثماني بقصد تحرير بلاد اليونان ، وصاحب ذلك هجرة الكثيرين من الاتراك من اوروبا الى تركيا وغيرها من اقطار الدولة العثمانية ، وبذلك رحل ابراهيم الى مصر بعد ان توسطت له خالته السيدة « حفيظة هانم » خازندارة قصور الخديو اسماعيل ، ونجحت في تعيينه في خدمة الحكومة المصرية التي كانت تعاني نقصا في مختلف الوظائف الحكومية التي لا يشغل كوادرها العليا في غالب الاحيان الا من له صلة قرابة بالعناصر المصرية التركية الاصل . . .

وهكذا حضر ابراهيم حقي التركي المقيم في بلاد اليونان . . والجامع بين الحضارة الاسلامية وحضارة الغرب الحديثة ـ الى مصر في عهد الخديو اسماعيل طلبا للدخل المستقر ورغبة في الامن . . . واستلم مهام وظيفته ببلدة دمياط ، واخذ يتدرج في وظائف الحكومة حتى اصبح مدير مصلحة في بندر الحمودية بالبحيرة(١) في ظروف سياسية معقدة تتشابك فيها الصراعات بين العناصر التركية والمواطنين المصريين . . .

وعاصر ابراهيم احداث الثورة العرابية ، وعانى كل ما تعرضت له العناصر التركية من انفعالات ومشاعر ، والساقت فيهن اعمال وتصرفات نتيجة للتطورات السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي تمر بها مصر في ذلك الحين . . ومع ذلك استقر فكر ابراهيم حقي على البقاء في مصر ، وتزوج من [illegible] تركية تعيش في مصر ، انجبا منها ثلاثة من الابناء الكريم محمد والد يحيى حقي ، والثاني محمود طاهر الذي ... الفنيون في ثورة الشيخ ... دنشواي » فانفعل باحداثها وخرج علينا برواية « عذراء دنشواي » وهي اول رواية فيها مشاركة وجدانية وطنية من العناصر التركية للمواطنين المصريين . اما الابن الثالث فهو « كامل » ولا يكاد يذكر منه يحيى حقي شيئا . .

والذي يهمنا هنا هو الابن الاكبر محمد حقي . . . ولقد ولد محمد حقي في مصر ، وحاول والده ان ينشئه في اول الامر نشأة اسلامية صرفة ، فالحقه باحد المعاهد الازهرية حيث حصل على نصيب من الثقافة الاسلامية العربية قبل ان يلتحق باحدى المدارس الفرنسية ، ولكنه لم يلبث ان قطع تعليمه عندما ادرك ان ظروف اسرته المتوسطة الدخل لا تقوى على تكاليف المدارس الفرنسية ، ورضي بوظيفته في وزارة الاوقاف . . ولكن صلته بالثقافة والعلم لم تتوقف ، وحداه طموحه الثقافي الى قراءة عيون الكتب العربية كديوان المتنبي وكتب الغزالي ومقامات الحريري ، استجابة لنزعات دينية وميول فنية ساعدته على حفظ روائع الشعر العربي ، فاكتسب فصاحة في اللسان وقدرة على البيان ، وتزوج محمد حقي ايضا من سيدة البانية الام تركية الاب تعيش مع اسرتها في بندر الحمودية حيث كان والدها يعمل دليل مكتب البريد . . وكانت السيدة / سيدة السيد حسين تجيد القراءة والكتابة ، كما كانت شديدة التدين تقبل على قراءة

(١) يحيى حقي : الشجان عضو منتسب : سيرة ذاتية . . مجلة عالم الفكر ، المجلد الخامس ـ العدد الثالث : اكتوبر ـ نوفمبر ـ ديسمبر ١٩٧٤ ـ الكويت .

القرآن الكريم وكتب الحديث الشريف والسيرة النبوية العطرة ، كما ألمت كذلك بكتب الادب العربي القديم ... وهكذا شب يحيى حقي بين والديه يعشقان الادب ويميلان للقراءات الاسلامية ..

ولقد انجب محمد سبعة من البنين واثنتين من البنات ، وكون أسرة كبيرة العدد تحملت الأم شتى المسئوليات وكثيرا ما اشاد يحيى حقي بتضحيات والدته ودورها الفعال في حسن تربيته هو واخوته واخواته فقال : « ربتنا بيدها تطبخ وتطعمنا متكلفة في ذلك أشد العناء متمايلة الوصول بنا مستورين لآخر الشهر ... ربتنا بشبابها تحت بغير الحاح على الاستقامة والجد والمذاكرة كسوط صاحب الجواد الاصيل له دفع وليس له لسع .. وبيننا بنظرها اذا كنا في تجمع من الناس تحوط علينا وتعلمنا كيف ينبغي ان نجلس وكيف ينبغي ان يكون الكلام المهذب ، تقيد علينا كل زلة لسان وان كانت بريئة، وتنبهنا اليها اذا انفض الجمع .. بل من عادة أمي ان لاتنام الا ان اطمأنت انا عندنا جميعا »(٢)

ولد يحيى ــ وهو الثالث في تسلسل قائمة الابناء في مطلع من يناير ــ الواقع ــ يوم عيد ميلاد السيد المسيح عند اقباط مصر ــ عام ١٩٠٥ ــ وقت أن كانت حركة مصطفى كامل الوطنية على أشدها ، في بيت ضئيل من بيوت الاوقاف بحارة الميضة وراء مقام السيدة زينب المتفرع من شارع السلطية بحي تيسون المعروف حاليا بقسم الخليفة ، وهو حي من الاحياء الشعبية الصميمة .. فشب يحيى حقي في الاجواء الشعبية القاهرية ، وشاهد مثله الصقر « ابن البلد » عن قرب شتى أحواله : في جده ودعابته ، في صرامته وسخريته ، في ذكائه وشقاوته ، في إيمانه وانحرافاته ، فنما في قلبه وهو مازال صاحب ابن البلد وميل الفرقة على الاحياء الشعبية، خاصة بعد أن ترك حي تيسون وسكن بعيدا .. بل ان أول ماعرف قلبه الحب تعلق بحب بنت من بنات البلد رغم انه كان يعيش في اسرة تنتمي الى مجتمع مهاجر يميل لنوع من العزلة الانطوائية، يرقب المجتمعات من بعد دون اندماج ويشعر بأن مستواه الحضاري أرقى من المستويات المصرية ، وان جمعة بين الثقافة الاسلامية والحضارة القرية اعطاه ميزات لا تتوفر في كثير من جماعات عامة الشعب .. ولكنه مع ذلك حرص على الا يظهر بأي مظهر من مظاهر الاستعلاء ، مما يدعوه الى تصنع ضروب من التواضع لا تخلو من تكلف يكشف عن معالم التعالي الكامن .. ومع انه كان لا يتكلم الا باللغة العربية فان الكلمات التركية كانت تظهر عادة في حالات انفعالات الغضب والضيق التي تتحرر من التصنع والتكلف ... وحتى حين كانت تقوم علاقات مع بعض الافراد من عامة الشعب فانها كانت مجرد علاقات سطحية تهتم بتوثيق الروابط مع من يتعاملون معه ، ويقدم لهم خدمات يومية لا يستغنى عنها احد .. ويؤكد يحيى حقي ذلك حين يذكر ان « أسرتي كان يشملها منذ وعيت روح من الديموقراطية الشعبية .. لا ادري من أين جاءتها .. أ هي طبع وخلق

(٢) يحيى حقي ــ خليها على الله : المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر ــ دار الكاتب العربي للطباعة والنشر ــ القاهرة ــ بدون تاريخ .

لا لعزة علم واقتناع ... فما دخل بيتنا خادم والاخالطنا مخالطة الاهل .. ولم ننظر بانفة الى القصاب والبقال وبائعة الجبن والصابون .. ولكننى اظنها ديمقراطية معاملة فحسب »(٢) .

هكذا كانت تعيش الاسر المصرية ذات الجذور التركية سواء من الناحية النفسية او الاجتماعية منذ قيام الثورة العرابية .. ونشأ يحيى حقى وتربى وتعلم وهو يعايش شتى محاولات المعاناة التى كانت تقاسى منها المجتمعات المصرية ذات الاصلاب التركية فى جهودها للمواءمة بين بواعث الاتجاهات التركية واغراض الاستقرار فى مصر ... ويبدو ان يحيى حقى لم يستطع ان يتخطى الحواجز الاسرية وان يندمج فى الحياة المصرية التى لـم يشهد غيرها الا خـلال واقعية روحية بعواطفه وعقله جميعا بعد ان عايشها بكل كيانه وارتضاها طواعية حتى استمد منها رغباته وآماله واحلامه واوهامه ويعكس عليها كـل ماينفعـل داخـله من مشـاعر وافكار وخيـالات وهواجس .. لم يحس اطلاقا فى قرارة نفسه بان هـذا التباين الـذى يوجد بـين حياته التزلبية بتقاليدها التركية وحياته العامة فى مختلف مجالات المجتمع المصرى تدعو الى اى نوع مـن الانفعال ترغمه على ان يستقل بحياة اسرية بعيدة عن مجتمع القاهرة .. ولذلك لا نكاد نلمح اى احساس يجعلنا ندرك انه يشعر باى نوع من التغاير او الاختلاف بينه وبين اى مواطن آخر يزامله الحياة فى المدرسة او فى العمل او فى اللهو رغم معرفته الاكيدة باصله التركى ... بـل يلحظ عليـه احيانا علامات من القرف والتافف اذا ما نبهه احد طرفى بطريقة واخرى من قريب او بعيد الى اصل عائلته الالبانى خاصة اذا مـا كان يحاول ان يشكك فى اصالة انفعالاته المصرية وعمق تجاوبها مـع الحياة المصرية ..

واذا كانت احداث الحرب الالبانية اثارت وجدانه عام ١٩١٢ والهبت مشاعره التركية وهو ما زال صبيا فى السابعة من عمره ، وحثته على قول الشعر ليعلن السخط على الاستعمار الاوروبى الذى يهدد كيان الدولة العثمانية ويعرض مسقط راس اجداده للخطر ، فان فظائع دنشواى ـ التى اطلع على احداثها عـام ١٩١٤ فى قصـة « عذراء دنشواى » التى كتبها عمه محمود طاهر حقى ـ زادت من سخطه على طغيان الاستعمار البريطانى فتعلق قلبـه بجهاد الزعيم مصطفى كامـل الذى يدعو باصرار الى ضرورة جلاء الانجليز عن مصر دون شروط مسبقة .

ولقد سحر مصطفى كامل العناصر التركية ببلاغته الكلامية فى الخطب والمقالات التى اخذت تتصاعد لهجتهـا والشـدة وتقـوى حتى بلغـت الـذروة حـين اعلـن حسرتا لا هوادة فيها ضد احكام الاعدام الظالمة فى حادثة دنشواى . واذا بالعناصر التركية يجرفها تيار المشاعر الوطنية وتجد نفسها تعيش هذه المشاعر بكل وجدانها ، واذا بها تحس بانها اكثر التصاقا بارض مصر مما تظن . ويكاد محمود طاهر ينفرد بعرض هذه المشاعر فى رواية « عذراء دنشواى » . ويرجع يحيى حقى حماس هذه الانفعالات الفنية الى انه قد تم « التحام كامل بين محمود طاهر

---

(٢) يحيى حقى : نصة .. فابتسامة ، روز اليوسف ـ القاهرة ، ديسمبر ـ ١٩٦٥ .

٥٢.

حقي وشعب مصر .. واصبح ابن بلد مصطفى جلبوره الحديثة نزلت الى الطين السفلى المتخلف من ايام الفراعنة حيهات لبد أن تقتلها ؛ أو بلادلد آخر ان يهبها الحياة .. وقد ظهر هذا الانجام في رواية عذراء دنشواى [1] .. ولاشك ان رواية عذراء دنشواى نجحت في تقريب المصريين الاتراك من المصريين الفلاحين اكثر فاكثر .. حتى انه لم يظهر من بين الامر التركية من قبل ان يترافع ضد الفلاحين المتهمين في حادثة دنشواي بخلاف ابراهيم الهلباوى المصرى الصميم الذى ارتضى ان يجرب بلاغته ضدهم ، ويجنى على مواطنين ابرياء من بنى جنسه ويسوقهم الى ساحة الاعدام متملصا من وطنيته .. ولكن بلاغة الهلباوى حفرت له قبره اذ ظلت مرافعته في دنشواى سحابة سوداء تظل على كل عمل يصدر عنه وتشوه اخلاصه وتعترض مستقبل حياته العامة ، حتى فشل في الحصول على الغفران عندما حاول الدفاع عن ابراهيم ناصف الورداني بعد أن اغتال بطرس غالي الذى كان رئيسا لمحكمة دنشواى .

ولقد تصدى الكتاب الاتراك الى هذه النزعات فكتب « ولى الدين يكن » في مقال الشقاق [5] « انا تركى .. واعظم عباد الله الى تركى بعقلى .. احب العناصر العثمانية كلها واخذ بناصر المستضعف منها .. ثم احب العرب حبا خالط الروح وجرى مجرى الدم في العروق .. وانا عربى الادب والقلم ، عربى النزعة ، ومن اشقى العرب فأنا مبغضه .. » ولكن الامر يعود ويقول بعد اغتيال بطرس غالى في مقال رومانسي الافكار والعواطف عنوانه بطرس تاريخ موته الاخير [6] قال القضاة : قتل احد اليائسين بطرس باشا غالي فقيل لقد قتل مصر .. كل قطرة من ذلك الدم البرىء عند الله اجرها وعلى الانسانية والعصر العشرين عارها .. ماذا جنى هذا الفقيد المظلوم .. ؟ صاح الترك مذكرا بحادثة دنشواى تو شنق آخرون بالفاق الكثيرا وقصر على السودان ؛ وشكا قيهم من قانون المطبوعات ..

ولقد تصدى كذلك عبد الخالق ثروت باعتباره النائب العام لمهمة التحقيق في الاعتداء بنفسه ، ثم قام بالمرافعة في الدعوى ضد ابراهيم ناصف الورداني .. واتسمت كلمته بالاعتدال وان استنكرت اغتيال الاكفاء المخلصين ، تحاول من يحل الاشتغال بالمسائل العامة ؛ وترى أن السعي بالطريق المشروعة فيما ترقى به البلاد واهلها من فروض العين على المصرى ؛ وان كل مصرى مطالب بتضحية شيء من وقته وماله وهمته في خدمة بلاده .. نحن أول من يرحب بتنمية الوطنية ورياضة النفوس على احتمال اشق المشقات في اعلاء كلمة مصر وزيادة شرفها ورفعتها ؛ وكذلك نرى من مرقيات الامم الفارج فى رقيها النظر في اعماق القابضين على ازمة الامور فيها ونقدها ... ولكننا لا نسلم بحال من الاحوال ان يتطلع الى مقام ناقد الحكام الى رجل

---

[1] يحيى حقي : عطر الاحباب : دار الكتاب الجديد ، القاهرة ١٩٧١ .

[5] الكتاب الثلاثة : ولي الدين .. المنفلوطي .. العقاد ، جمعه محمد محمد زكي الدين ، الناشر حسين حسنين .. القاهرة بدون تاريخ .

[6] الكتاب الثلاثة : ولي الدين .. المنفلوطي .. العقاد ، جمعه محمد محمد زكي الدين الناشر حسين حسنين .. القاهرة بدون تاريخ .

جمع الى العلم الغزير والحكمة البالغة الاتزان في القول والفعل حتى يقدر الاعمال حق قدرها وينظر الى الامور بفكر صحيح فلا يتعدى حد المشروعية والا انقلبت الخدمة العامة وبالا ، والارادة الخير شرا .. » (٧)

لاشك في ان استنكار الكتاب ، خاصة الاقلام منهم حادث اغتيال بطرس غالي وتولي العناصر التركية مهمة توجيه الاتهام الى الورداني اثار الريب في نفوس الشباب المثقف في مصر بينما كسب الورداني عطف الكثيرين منهم .. فاذا نال ثروت بكلمته الحكيمة المتزنة اعجاب المسئولين وتقديرهم ، الا انها بعثت الضيق والسخط بين الشباب رغم اعجابه بكفاءاته وحسن بيانه كالمسئولين سواء .. ولكن الحكم باعدام الورداني حرك ماخبا في النفوس من مشاعر التذمر والاحساس بالقهر ، والاستبداد وجددت اللوعة من قوة احكام الاعدام الظالمة في حادثة دنشواى .. وسرعان ما اجتاح البلاد حركة اغتيالات اخرى تولى تنفيذها اجهزة سرية اشترك فيها الوطنيون من المصريين والعناصر ذات الجذور التركية على حد سواء .. واذا بها تخطط من اجل التخلص من الخونة على اختلاف اجناسهم ودياناتهم ومناصبهم ، ومن الانجليز الذين يقيدون الحريات في مصر ..

الا ان المحتل البريطاني لم يدع الوحدة الوطنية تسير في طريقها الطبيعي وتحقيق ما اصبو اليه النفوس من اخوة وترابط ولقاء بين كافة المصريين ، واخذ يضرب على وتر فرق تسد .. ولذلك كثيرا ما حاول ان يستغل اى خلاف ظاهرى وغير ضرورى من التناقض ، خاصة بين اعيان المصريين وقادة العناصر التركية حول السلطة فخلقت صراعات انحرفت عن طريق الوحدة الوطنية واثارت الشكوك بين الجميع ، حتى ارتابت كل فئة في نوايا الفئات الاخرى ... ولقد نجح الانجليز بالمماطلة العامة في تفجير حدة الخلافات بين سعد زغلول الممثل الشعبي لكافة المصريين وبين عدلى يكن صهر اسرة محمد على الذى زوج ابنته لشريف صبرى شقيق نازلى زوجة السلطان احمد فؤاد باثارة الاشاعات حول عرض الانجليز العرش على سعد زغلول شريطة قبول الحماية البريطانية وفصل السودان عن مصر مما اشعل مخاوف السلطان فؤاد من اطماع سعد زغلول .. الا ان عدلى يكن ، والحق يقال كان في موقف صعب ، فهو لا يستطيع ان يقف في جانب السلطان والانجليز ويعادى الشعب الذى يمثله سعد زغلول ، وفي الوقت نفسه لا يستطيع ان يجارى الشعب في اندفاعه الوطنية التى لا يقبل الانجليز الخضوع لها ، فلم يجد امامه الا ان يقف موقفا وسطا ، وحاول ان يوفق بين مبادىء سعد زغلول في الوطنية التى تتمسك بالاستقلال التام وجلاء القوات البريطانية وسيادة الشعب المصرى على اقدارة وبين حرص الانجليز على البقاء في مصر بصورة او اخرى يرضى منها جميع الاطراف المعنية ... واستطاع عدلى بموقفه الوسط المرن ان يكسب ثقة السلطان فؤاد وتعاون الانجليز وان يتوصل بمجهوداته

---

(٧) الدكتور محمد حسين هيكل : شخصيات مصرية وغربية .. كتاب روز اليوسف رقم ٩ القاهرة يناير ـ ١٩٥٤ .

الخاصة الى ان يقنع بعض الاعيان الاقطاعيين من المصريين داخل حزب الوفد نفسه ويكسب تأييدهم لسياسته التى تقبل ان تقابل الانجليز منتصف الطريق (٨) .

واحسب ان اسرة حقى ، رغم انها اسرة موظفين يغلب عليها الحياء والانطوائية ، لم تكن فى منأى عن الاحداث سواء التى تقع فى تركيا او فى مصر ... فكانت تتعاطف مع كل ما يدور حول الدولة العثمانية . فما ان نشرت قصيدة احمد شوقي فى البكاء على خلع السلطان عبد الحميد فى الصفحة الاولى من جريدة الاهرام حتى « كان البيت كله يقف على رجل .. كنا نقرؤها بصوت عال . ونحفظها ونظل نرددها فى مختلف المناسبات(٩) » وتعاطف ايضا مع اتجاهات مصطفى كامل التى تتمسك بجلاء القوات البريطانية والعداء للخديو عباس الثاني ، وتستعدى الدولة الفرنسية على الانجليز .. ولذلك كانت جريدة اللواء لسان حال الحزب الوطنى هى جريدة الاسرة المفضلة .. ومع ذلك « لم يمنعنا ذلك من التعلق بسعد زغلول ومتابعة احداث ثورة ١٩١٩ بحماسة شديدة .. فى اكثر ما كنت اصحب ابى وشقيقى ابراهيم واسماعيل الى الازهر او بيت الامة او شادر مقام فى ساحة فسيحة لاستمع الى خطباء الثورة ... واحيانا كان الانجليز يسدون الطرق المؤدية للازهر ليمنعوا الجماهير من حضور اجتماعات الثورة .. فكنت اسير مع ابى واخوى فى طرق ملتوية وازقة ضيقة حتى نصل الى الازهر ونستمع الى خطباء الثورة ونردد مع الجموع اناشيدها ... وكان افراد الاسرة يتخاطفون بلهفة شديدة ما يصل الى ايدينا من منشورات الثورة ... وقد سرت فى بعض المظاهرات الصاخبة التى كانت تكتسح شوارع القاهرة .. وحين كان الانجليز يطلقون علينا النار كنت اجرى مع الجارين ... وفى تلك الايام قرأت كل ما وقع فى يدى من كتابات عبد الله النديم ومصطفى كامل ... وكل ما نشر عن حادثة دنشواى ... وهكذا التحقت بمدرسة الحقوق وقد تشبع وجدانى حتى الثمالة بحب مصر » (١٠) ولكن لما دب النزاع بين سعد زغلول ابن الفلاح المصرى وبين عدلى يكن ذى الاصل التركى « اجتاحت بيتنا موجه عارمة من الكآبة وخيبة الامل لفرقة الصف الوطنى » (١١)

• • •

لاشك فى ان ثورة ١٩١٩ ضد المحتل البريطانى الذى يماطل فى خروج قواته من ارض مصر صهرت كثيرا مما تبقى من مشاعر الفرقة التى كانت تعانى منها العناصر التركية المصرية فى بوتقة الوحدة الوطنية ، واقتربت من التخلص النهائى من نزعات تعدد الولاء لاكثر من وطن ، خاصة بعد انحصار الدولة العثمانية فى نطاق الاراضى التركية فقط .

---

(٨) محمد كامل سليم : ازمة الوفد الكبرى : سعد وعدلى : كتاب اليوم برقم ١٠٧ ، مؤسسة اخبار اليوم ـ القاهرة ـ مارس ١٩٧٦ .

(٩) يحيى حقي : اشجان عضو منتسب : سيرة ذاتية .

(١٠) يحيى حقي : اشجان عضو منتسب .. سيرة ذاتية ..مجلة عالم الفكر ١٩٧٤ .

(١١) نفس المرجع .

واذا ما انتقلنا من المجالات السياسية والعواطف الوطنية الى المجالات والعواطف الانسانية نجد انه ، لكى تستقيم الحياة للعناصر التركية فى مصر ، ينبغى أن يبلغ حبهم المصريين نفس قوة حبهم لارض مصر ووظائف مصر .. ولا يتأتى ذلك الا اذا اتسع حب الوطن بشفافية الحب الانسانى ووداعة الحب الاجتماعى الذى لا يهدف الى اى نوع من السيطرة العسكرية او التفوق الاقتصادى او السيادة السياسية ، ويتجنب بقدر الامكان اثارة التنافس على مراكز القوى السياسية والاقتصادية والعسكرية ويمتد اكثر ما يعتمد على أصول الحضارة المصرية من فكر وفن وادب ، ومن علم وثقافة ، ليحتفظ بدرجة عالية من الرقى الاجتماعى والتفوق الحضارى .. فاقبل أبناء الاسر التركية المصرية على دراسة القانون والهندسة ، لان معرفة القانون تسمح بتولى مناصب القضاء ، والنيابة اخطر المناصب واكثرها رهبة بين عامة الناس .. بينما تسمح دراسة العلوم الهندسية بالتغلغل فى شتى شئون المرافق العامة المصرية فى المدن وفى القرى ، نظرا لشدة حاجة الجميع للخدمات الهندسية ... وكثير من ابناء الاسر التركية لم يقفوا عند حد التعليم العالى فى مصر بل اتجهوا لطلب المزيد من العلم والثقافة والحضارة فى أوروبا .. ولذلك كان هناك تنافس مثير على التفوق الدراسى للفوز بالبعثات المجانية الى الخارج خاصة بين النابهين غير القادرين على تحمل تكاليف العلم فى أوروبا . وبذلك فقد اتيحت للكثيرين منهم فرص الاتصال الوثيق بالتطور الفكرى والثقافى والاقتصادى والاجتماعى فى العالم الحديث .

ولا نعجب اذا ما اعتبرت العناصر التركية بانها اكثر قدرة على خدمة مصر حضاريا من المصريين الاصليين ، لانها تشعر بان لها خبرات اوسع فى المجالات الحضارية الحديثة .. ولقد كان لها بالفعل الاسبقية والفاعلية فى تنشيط كثير من مجالات الحياة الثقافية والاجتماعية فى مصر .. فلم تقف هذه العناصر عند حد التمنى بان تصل مصر الى ما وصلت اليه أوروبا من نهضة وازدهار ، أو تكتفى بان تشيد بذكر حضاراتها السابقة .. بل اخذت تسهم اسهاما جديا فى مختلف مجالات الاصلاح تحت احساسها بانهم على مستوى حضارى متقدم يسمح لهم بسرعة استيعاب الحضارات الغربية مما يعطيهم امكانيات ثقافية تضعهم على رأس قادة الفكر والادب والاصلاح الاجتماعى فى مصر .. واذا بهم يكونون شتى الجمعيات التقدمية الثقافية والاجتماعية ، ويظهرون كثيرا من النشاط الجاد الصادق لبعث نهضة فكرية مصرية تطور المجتمع المصرى وترفع من مستواه الحضارى . ولقد تنافس كل من احمد شوقى ــ وهو من أصل تركى ــ وحافظ ابراهيم ــ وهو من أم تركية ورباه خاله المهندس زميل والده ــ على الترنم بالشعار تسبح بحمد مصر ، وتشيد بمجدها الخالد وتظهر الحب العظيم الخالص لمصر ، والشدو بالوطنية المصرية وتفضيلها على كل وطنية وقومية .. بينما اعطى محمد تيمور ومحمود طاهر لاشين ومحمود طاهر حقى ــ وكلهم من أصل تركى ــ اهتمامات زائدة لواقع الحياة المصرية فى المدن والقرى . وكتب كل منهم قصصا تتناول احوال الفلاحين فى الريف ، وتعرض ميل

ابن البلد في المدن للفكاهة والدعابة ، وتعلقه الزائد بالنكتة الساخرة ، وتمسكه بروح الشهامة التى تظهر في كثير من تصرفاته الانسانية ... كما برز من بين العناصر التركية قاسم امين على رأس الداعين لقضية تحرير المرأة المصرية ورفع الحجاب حتى تستطيع ان تكون اكثر حركة وقدرة على الاسهام في تحرير الوطن والتقدم المجتمع المصرى .

ولكن كيف يمكن لهذه العناصر التركية التي تكاد تعيش في الواقع في شبه عزلة اجتماعية وتعودت على ان تتقوقع داخل نطاق الاسر التركية وتبتعد بقدر ما تستطيع عن كل ما يحيطها من مشاكل يومية ان تفهم واقع الحياة المصرية في الصميم في الريف وفي المدينة ، وتعى ما يدور في خلجاتها الداخلية وهى لاتنظر الى اهل الريف وسكان المدن الا من علو الفكر ؟ ان الحنين الوطن الاصلى لا يمحى من الوعى مهما طال الزمن .. وان اختفى من الوعى الظاهر فلا بد ان يكون كامنا في الوعى الباطن يؤثر في الفكر وفي الوجدان وفي التصرفات .

وليحيى حقى راى خاص يفسر به نجاح العناصر التركية في تناول الحياة المصرية في قصص ومسرحيات .. فرغم ان محمد تيمور وجد ان المجتمع المصرى في المدن والريف قادر على ان يمد الكاتب بقصص تلى مما يشهد على ان نزعته الادبية منبعها حب صادق لمصر واهلها وليس من الغريب كما يقول لاول وهلة ان نشعر هذا الحب كله ويحمل لواء المناداة بالادب المصرى الصميم فتى لا تجرى في عروقه دماء مصرية بل دماء خليط من التركية والكردية والافريقية . هذه ظاهرة طبيعية مألوفة عند الآخرين ، كما عندنا في ان العرق الحديث اشد العروق اعتزازا بحب الوطن الجديد والتباهى بفضائله وجماله .. ولذلك نرى محمد تيمور ، ومن بعده محمود حريصين اشد الحرص على تأكيد خبرتها بعامة الشعب من الفلاحين وفقراء المدن . وليست العبرة ان يولد الكاتب في احضان هذه الطبقات بل في قدرته على الاحساس بها وفهمها بفضل حب وتجاوب روحى . « (١٢) ولكن يحيى حقى يعود ويتساءل « لا ادرى لماذا استشف في كتابات محمد تيمور ـ رغم خفقها وميلها للدعابة نغمة حزن دفين » (١٣) كأنه يريد ان يقول ان اثار مشاعر الغربة الاليمة رغم كل ذلك الحب لمصر والمصريين قد اظهرها الوعى الباطن في تلك النغمة التى تئن بحزن دفين .. !!

الا ان تردد كثير من الافراد من بين العناصر التركية على اوربا واحتكاكهم المستمر باوروبيين اتاح لهم فرص الاطلاع على الدراسات العلمية الغربية في الشئون الاجتماعية والاتجاهات الاقتصادية والمذاهب السياسية التى تتصارع في مختلف مجالات الحياة الاوروبية .. وتكاد هذه الدراسات تتفق جميعا في ضرورة تحقيق نوع من العدالة الاجتماعية ومن المستوى الاقتصادى اللائق بكرامة الانسان ، ومن الحرية التى تساوى الكل في الحقوق والواجبات ..

---

(١٢) يحيى حقي : فجر القصة المصرية .. المكتبة الثقافية رقم ٦ ـ القاهرة .

(١٣) نفس المرجع السابق .

مما حدا ببعض الافراد من هذه العناصر الى الاهتمام بأحوال الفلاح المصري وفقراء المدن .. ومما يثير الدهشة حقا هو الحاح قوم من الارستقراط في الدعوة لرفع مستوى حياة الفلاحين وعامة الفقراء .. !! هل قامت هذه الدعوة تحت تأثير مشاعر من القلق لم ترتح لأوضاع اجتماعية تقسو على الناس وتحرمهم من كثير من ضروريات الحياة وتهدر كرامة آدميتهم ؟ أم ترجع لمجرد بواعث انسانية صرفة نبعثت في النفوس الاحتكاك بالحياة القريبة ويسندها فكر متعال لا يقبل ان يكون ابناءه على هذا الوضع المهين المخجل .. ! ؟ ولكن كيف تحولت نظرة التعالي الى مشاعر من العطف والرحمة والحنان . ؟ هل الاحساس بسوء معاملة الفلاح واستغلاله من قبل الحكام الاتراك وحاشيتهم حرك حقد الذنب وحملهم الشعور بالاثم مسئولية مما انتهى اليه الفلاح من حالات بؤس وشقاء وتخلف .. ؟ هل استيقظ فيهم الضمير الحضاري وحتم الاحساس بالواجب على بذل اقصى ما يستطيعون بذلك من فكر من صيانة انسانية هذا الفلاح وتعويضه عما ضاع عليه من فرص الحياة الكريمة وتخليصه من الهوان الاجتماعي الذي يعانيه حتى يستطيع ان يرفع رأسه ويشعر بتمام المساواة مع جميع الناس .. ؟ ..

لا ريب في ان الدعوة الى الاصلاح الاجتماعي لا تعدو وان تكون مجرد عملية تطهير ذاتية ، قصد بها ممارسة عمل فكري نبيل يعطي نوعا من الامان النفسي والاطمئنان الروحي ، تمنح من السيادة الفكرية والقيادة الانسانية والنفوذ المعنوي ما يعوض العناصر التركية عما فقدته من جاه سياسي وسلطان اقتصادي وزعامة عسكرية ، قد تحقق نوعا من الشعبية تعزز من صدق المشاعر الوطنية ، وتدعو الى مزيد من الالتصاق بمصر وشعب مصر ، يساعد على تحطيم دعائم العزلة الاجتماعية التي تحاصر الاسر التركية المصرية ، وييسر اندماج افرادها في شتى ثنايا المجتمع المصري دون عقد ، وتقاوم كل ما يعترض الاندماج الكامل في الحياة المصرية.

والذا كان جيل الشباب من العناصر التركية في أوائل القرن العشرين أثناء حركة مصطفى كامل الوطنية وثورة سنة ١٩١٩ الشعبية تعرض لهزات نفسية اوقعته في ازمات فكرية ، فاذا به يعاني مرارة حيرة الآباء بين الولاء للدولة العثمانية من جهة وتعلقهم بالقطر الذي ولدوا على أرضه ثم هاجروا منه من جهة ثانية .. بينما يعانون هم انفسهم من تضارب العواطف وتناقض التصرفات ، ولا يدرون كيف يوفقون بين التعالي العالي على عامة المصريين وبين التواضع الاجتماعي في المعاملات اليومية معهامة الناس ، والتعاطف الفكري والمشاركة الوجدانية التي تجاري المصريين في تطلعاتهم وآلامهم .. !! ولا يعرفون كيف يجمعون بين التمسك بالتقاليد التركية داخل البيت وبين مجاراة العادات المصرية خارج البيت ... ويتأملون كيف ذاع الجميع من محاولات المرجين الدعوة للوحدة الاسلامية التي تحث على تكتل الدول الاسلامية في جانب تركيا ضد الاستعمار الاوربي ، وبين ضرورة الارتباط بالوطنية المصرية التي تلزم جميع العناصر والطبقات بالتكتل من اجل مصر ضد اى تدخل اجنبي .

لا شك في ان شباب هذا الجيل وجد صعوبة ما بعدها صعوبة في حفظ التوازن النفسي والتماسك الفكري واليقين الروحي ، الذي يدعو الى التصرف الحكيم السليم في خضم هذه التناقضات الاجتماعية والثقافية والقومية. ولم يكن امامهم لتحقيق مثل هذا التوازن الا الخلال ضروب من التظاهر بدماثة الخلق وأدب الحديث ورقة المعاملة ، لاخفاء معالم التعالي الذي لا يرتاح اليه عامة المصريين .. ويبدون اعجابهم باخلاقيات ابن البلد ، ولا يتورعون من محاكاته في دعاباته وتكاهاته الى حد الرغبة في تقمص هذه الشخصية او اظهار البراعة في تصويرها في أعمال فنية او التخلق بمثالياته في الحياة العملية .. كانهم يحاولون بكل الطرق تعميق احساساتهم المصرية الصميمة، والتخلص نهائيا من التناقض الرهيب الذي يعيشون فيه، وتحقيق نوع من الانضباط السلوكي لا يثير ضيق المواطنين من التصرفات المتعالية . وكل ذلك اكسبهم قدرة على المواءمة بين الشخصية التركية والشخصية المصرية ، بحيث نجحوا في تجنب غضب العناصر التركية المتزمتة من ناحية والابتعاد عن اثارة حفيظة المواطنين المصريين من ناحية اخرى . الا ان كل ذلك لم يحجب عن عامة المصريين وخاصتهم ، وكثيرا ما يلقون عليهم نظرات ارتياب في تمام اخلاصهم للمصريين .. الا ان هذه النظرات تسبب كثيرا من الآلام القاسية ، خاصة لشباب ذلك الجيل الذي ولد ونشأ وتربى في ارض مصر ، ولم يعايش غير المصريين ولم ينصهر في غير مشاكلهم ، ونشأ على مشاعر وطنية لا تحب سوى الوطن المصري .. ولذلك نلحظ كيف يبدو الالم على وجه يحيى حقي عندما يحس بانه ما زال يوجد هناك من المعارف من يعتبره دخيلا على المصريين ، ولاينظر اليه على انه مصري صميم الا بنوع من المجاملة .. وكثير من شباب الاسر التركية كان يحاول ان يتحاشى ذكر اصله التركي ، حتى يتناساه ويغفل عنه الجميع ويبعد شبحه الى الابد ، حتى لا يتعرض لشبهة الاتهام بأنه مواطن غريب دخيل على المصريين .. ولعل مساهمة هذا الجيل اسهاما ايجابيا في ثورة سنة ١٩١٩ عن صدق واخلاص بريئين من كل غرض وطدفيه نوعا من الامان النفسي ، حرره كثيرا من قلق الشكوك وبلبلة الريب التي تراكمت داخله على مر الاجيال ، فانطلقت آماله من جديد واخذ يوسع من دائرة طموحه ، وبعد ان كان يقتصر نشاطه على مجالات النقد الاجتماعي والاشتغال بالآداب والفنون والحرص على تولي وظائف الآداب والفنون والحرص على تولي وظائف النيابة والقضاء والاشغال الهندسية اذا به لا يلتحق بمدرسة الحقوق الا لانها توصله الى مناصب الوزراء او السلك الدبلوماسي ، ولايتردد في دخول المدارس العسكرية رغبة في بلوغ مناصب قيادية في الجيش .. وكاد يختفي ذلك التزمت الذي يقف حائلا في سبيل مصاهرة العائلات المصرية .. وهكذا نجح هذا الجيل في تحقيق خطوات اوسع نحو ضرب من الاندماج يقترب شيئا فشيئا من الاندماج الكامل ، وبدوره تخلص نهائيا من مشاعر الغربة ، واصبح لا يستولي عليه سوى وطنية صادقة خالصة لمصر وشعب مصر .

ولعل المحاولات التي بذلتها هذه العناصر من اجل التوفيق بين الحياة الخاصة للعائلات التركية داخل البيوت والحياة العامة في خضم المجتمع المصري خارج البيوت .. وكذلك

الجهود التى صرفت للمواءمة بين الجاهات الشخصية المصرية ونزعات الشخصية التركية اكسبت افراد الاسر المصرية التركية نوعا من المرونة النفسية ، ورسبت خبرات وقدرات ومهارات تساعد على وضع الحلول الوسط ، وتحقيق نمط من التوازن بين كثير من الاختلافات المتضاربة يرضى عنها الجميع رغم الصراعات التى بينهم .. واذا بالظروف تكاد تلزمهم بان يلتزموا على الدوام بالمواقف الوسط فى المنازعات السياسية التى غالبا ما تنشأ بين المصريين والانجليز حول الجلاء والحرية والاستقلال .. ولذلك ارتاح لهم الانجليز ، واستغلوا وساطتهم فى اخضاع المصريين لمطالبهم ، واطمأن اليهم القصر السلطانى واعتمد عليهم فى المفاوضات مع الانجليز ، بل قدر عامة الشعب وخاصته كذلك مجهوداتهم فى تخفيف حدة التوترات السياسية .. ولا تعجب اذا ماالتجأ اليهم الجميع على اختلاف مواقفهم عندما تستبد بالبلاد الازمات السياسية .. واحيانا كانوا ينجحون فى تخفيف حدة الشقاق وتجنيب البلاد مخاطر التطرف فى اى نزاع ، مما مكنهم من ان يلعبوا على الدوام دورا ايجابيا فى تحقيق ضرب من الوحدة الوطنية تمتص خلافات كل العناصر المتنافرة ، فترضى مواقفهم الوسط جميع الاطراف المتنازعة ؛ على اساس الاعتقاد بان الوحدة الوطنية كفيلة بان تتحدى شتى العقبات ، وقادرة على ان توصل الى الاماني المنشودة ، ونخص بالذكر موقف عدلى يكن الذى حاول ان يوفق بين خداع الانجليز وتمسكهم بالبقاء ، وبين صراحة سعد زغلول ومواجهته الانجليز وتشبثه بتحقيق المطالب الوطنية فى الجلاء والحرية والاستقلال .. وبرغم حسن نوايا عدلى يكن الوطنية ، ورغبته الاكيدة فى تحقيق استقلال مصر فان محاولاته فى غلب الانجليز فى منتصف الطريق ، واتباع سياسة الخطوة خطوة ، وتحقيق الاستقلال على مراحل افسد عليه كل شىء ، وتعرض لمقاومة سعد زغلول الذى رفض فى النهاية التعامل معه ، واثار ضده غضب الشعب الذى اسقطه فى الانتخابات وهو رئيس الوزراء فانسحب من الحياة العامة   ويرجع كل ذلك الى ان جيل العناصر التركية فى هذه الايام برغم قوة نزعاته الوطنية ما زال يعانى من ميول ارستقراطية لم تعايش المشكلات الشعبية معايشة واقعية ، ولم تسمح له بالاندماج فيها اندماجا متكاملا ، وانما سمحت له باندماج محدود يتأملها من علو المفكرون ممارسة شاملة .. ولذلك خلا هذا الفكر من يقين المعايشة ووضوح التجربة .. بل ماشرق استرغاه يحتل بعض المناصب القيادية والرئيسية لتعدد قدراته وكفاءاته وخبراته ، واستعداده لتحمل شتى المسئوليات ، وتفوقه فى الثقافة من علم وفن وادب يحدوه حماس متدفق يرعى النزعات الانسانية الاصلاحية ، دفعته للاشراف على الجمعيات الخيرية التى توزع المساعدة والعون لكل من يستطيع ان يصل اليها بطريق او اخر او لكل من تريد ان تصل اليه لسبب او لاخر .. وحثته كذلك على تنفيذ بعض المشروعات الاقتصادية التى لاتعود مكاسبها الا على فئات معينة دون بقية الفئات الاخرى .. وتعلمه اكثر ما تعتمد فى السيطرة على جوانب متعددة من الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية على نقص الخبرات المصرية وضعف وعيها الحضارى من ناحية ، وانتهاز فرصة

انحسار النفوذ الاجنبى تدريجيا بسبب المقاومة الوطنية لتتسرب بسرعة ، وتستولى على المواقع التى تركها الاجانب قبل ان ينتبه الى خطورتها المواطنون المصريون من ناحية اخرى .. وكل ذلك يتم من ان هناك نوعا من الانانية كانت تتحكم فى تصرفات العناصر التركية ، افقدتها القدرة على الرؤية من بعد ، والتصور السليم ، لتطور المواقف المصرية الصحيحة ، وقدرتها على مواجهة مختلف المصاعب واسترجاع شتى حقوقها المغتصبة .

ولذلك كانت مفاجأة ثورة ٢٣ يوليه التى لم تصدم القوى العالمية والنفوذ الاجنبى وسلطان الاقطاع فقط ، وانما صدمت كذلك العناصر ذات الاصول التركية صدمة مباشرة ، جددت فى نفوسهم كل ما كانت تثيره الثورة العرابية من مخاوف ومواجع وتهديدات .. واذا بهم يرون احمد عرابى جديدا يعود فى ثوب جمال عبد الناصر ، وما لم يستطع احمد عرابى تحقيقه فى المجالات الداخلية استطاع جمال عبد الناصر ان يحققه فلقد اطاح بالنظام الملكى من اساسه ، وازال القصر ومن كان يدور فى فلكه من أمراء وحاشية واتباع دون تمييز بين مختلف العناصر ، سواء أكانت من أصلاب تركية او مصرية صميمة او اجنبية ، دون نظر لثرواتها وامكانياتها الحضارية وسرعان ما الغيت الالقاب المقربة والحق ما تثيره من حساسيات التعالى التى تباعد بين طبقات الشعب ، وضاع كل ما تحاط به من هيبة مفتعلة واصبحت مقامات الجميع على قدم المساواة .. واصل قوانين تحديد ملكية الاراضى الزراعية وتأميم الشركات والمصانع والمصارف وتمصير القطاعات .. كانت من اكثر الثورات التى اثرتها الثورة الناصرية باقتصاديات الاسر ذات الاصول التركية وما ... الاستحوال من مميزات اجتماعية وسياسية واقتصادية .. ولا عرابية ... الطاقة القديمة على المستقبل الامن تعاود الاسرة المصرية التركية من جديد بعد ان ... مستقرة فترة طويلة ...

ولكن ما ان اطمأنت ثورة ٢٣ يوليه الى امكانية السير فى الخط الاشتراكى دون معوقات خطيرة حتى اهتمت بتعزيز الخط الديمقراطى الذى ضحت به بعض الوقت من اجل تدعيم الاصول الاشتراكية فى العقول والنفوس .. وما ان اطلقت الحريات فى حدود القانون ، وامنت الحقوق التى تحقق عليها التحول الاشتراكى ، واستعانت باهل الخبرة بعد ان تبرؤا من مناهل الاشتراكية ، حتى تم اقتناع عام باهميتها فى حل مشاكل الجماهير وزال كثيرا من القلق الذى راود البعض خوفا على المستقبل الامن للابناء ، وبرد الشكوك التى حثت البعض على الهروب ، واخذ الفارون يرجعون ثباتا الى ارض الوطن وهم اكثر اطمئنانا ، لا يبخلون باسهامهم فى حل مشاكل الجماهير . . وهكذا قبلت اخرا العناصر التركية نمطا من الذوبان فى المجتمع المصرى لم يسبق امكان قبلته فى اى عهد من العهود ... !!

- ٢ -

هذه صورة سريعة لتطورات الاسر المصرية التركية النواحى الثقافية والاجتماعية والاقتصادية منذ الثورة العرابية حتى الثورة الناصرية ... وفى معمعة هذه التطورات ولد يحيى حقى ونشأ وتربى وتعلم وتوظف ومارس الادب والفكر والفن وهو يعيش شتى محاولات

الوامعة بين الطبع التركي وتطلعاته في تحقيـق المستقبل الآمن وبين اهتماماته بالاستقـرار في مصر كأبنائها الأصليين ... وشاهد يحيى حقي كيف بدأت دعائم الوحدة الوطنية تتوطد بفضل جهاد مصطفى كامل وثورية سعد زغلول ... والتقف على أيدي أجيال اهتمت بتدعيم التقارب بين مختلف جماعات الشعب المصري ، رغـم اختلافاتها العنصرية والطبقية والاجتماعيـة والاقتصادية والدينية .. وتقلب بين جنبـات الطبقة الوسطى الحديثة التكوين مـن جمـاع المثقفين والأعيان من شتى الفئات ، وسايرها وهي تناضل من أجل تحقيق نوع من التناسق بين اتجاهات الحياة المصرية الحديثة وتأسيس وحدة وطنية مصرية تصرف جهودها نحو بناء مصر العصرية ..

فمنذ البداية شب يحيى حقي في حي شعبي ، واحب ابن البلد ولغته العامية المميزة .. ولكن على قدر ما احب الحي الشعبي وابن البلد كره المدرسة المصرية والمدرسين المصريين .. اذ ما ان بلغ السن الذي يسمح له بتلقي العلم حتى بدأ تعليمه في كتاب السيدة زينب .. ثم التحق بمدرسة ابتدائية مجانية لا يدخلها عادة الا أولاد الفقراء عانى فيها من قسوة ضرب عصا المدرسين ما جعل الدنيا تظلم في عينيه يجبر نفسه اجبارا ويعذبها عذابا شديدا حتى تقوى على حشو دماغه بمعلومات لا يكاد يفهم منها شيئا ولا يدري لماذا يتعلمها ، وذلك لكي لا يتكرر رسوبه كما حدث في السنة الاولى الابتدائية ويطلق سراحه من جحيم المدرسة الابتدائيـة ويرضي امه التي تنصب وتحسر على خيبتها في أولادها الذين رسب أحدهم (١٤) .. وظن انه قد يجد متنفسا أفضل في المدرسـة الثانوية ، الا انه عانى فيها حرمانا في تربيـة الخلق ، وخللا في العلم والتجربة ، وقصورا في الكشف عن المواهب والاستعدادات والقدرات تكتفي بحشو الرأس بالقشور وبالعلم النظري دون ان تعنى بالدراسات الحقلية والتجارب العملية .. تخلو الكتب الدراسية ومناهج التعليم من كل ما يتصل بالموسيقى من قريب او بعيد رغم انها غذاء الروح . وتخلو ايضا من الفنون وهي مهذبة للحس والذوق ومن التربية الدينية السليمة ، ويقتصر التعليم الديني على استظهار بعض الآيات القرآنية ... الا ان يحيى حقي عوض كثيرا مما حرم منه في المدرسة المصرية بما تلقاه من مدرسة الأم التركية .. اذ كانت على قدر من الثقافة الادبية والفنية ، تعطي اهتماما بالاحتفالات الدينية والاعياد الاسلامية خاصـة مولد النبي الشريف ... ولذلك فان اول هزة روحية خبرها يحيى حقي في حياته كانت أيام الطفولة اثناء حفلة المولد النبوي الشريـف التي كانت تهتم الأم باقامتها بالبيت في ميعادها من كل عام ، كما عودته منذ الصغر على زيارة المساجد ، خاصة تلك المساجد التي تقام بها الموالد . ولذلك عشق حضورا احتفالات مولد سيدنا الحسين ليتمتع برؤية ما يستعرض فيها من مشاهد السيرك من العاب الحيوانات ومن تمثيليات بسيطة ومن الاغاني الدينية .. (١٥)

(١٤) يحيى حقي : خليها على الله .
(١٥) يحيى حقي : دمعة فابتسامة .

وما كاد يحصل يحيى حقي على شهادة الكفاءة حتى وقع في حيرة ، اذ كان عليه ان يختار بين القسم العلمي والقسم الادبي .. لقد كان يتمنى في صباه ان يكون طبيبا لان الطبيعة حرة تهتم بدراسة جسم الانسان ، وتكشف عن اسباب علله وامراضه ، فكان عليه ان يختار القسم العلمي ولكنه فضل القسم الادبي خشية ان يرسب سنة او اكثر من ناحية ، وان يحمل الاسرة مزيدا من الاعباء والمصروفات من ناحية اخرى .. فما كاد يحصل على شهادة البكالوريا عام ١٩٢١ حتى التحق بمدرسة الحقوق العليا التي كانت تمثل قمة التعليم العالي في ذلك الوقت ؛ ولا يدخلها الا المحظوظون من الاوائل ، ولذلك اعتبر التحاقه بمدرسة الحقوق شرفا عظيما لا يناله من يدخل مدرسة التجارة العليا او مدرسة المعلمين العليا .. الا انه لم يجد في اساليب الدراسة في مدرسة الحقوق ما يجعلها تفضل عن المدرسة الابتدائية او المدرسة الثانوية ... لقد افتقد فيها علاقات التراحم والانصاف والمساواة بين الاساتذة والطلبة ، ورأى حدة الصراع بين الاساتذة القدامى والاساتذة الجدد . ومع ان منصب الاستاذ لا يعلوه منصب آخر فان اغلب الاساتذة اقرب الى التجار الجشعين وابعد ما يكونون من حملة العلم .. ووجد الطلبة في زحمة الامتحانات في سباق مروع من اجل الظفر بالاولوية دون مرشد يدلهم على احسن المراجع وادقها ، في حين يجامل بعض الاساتذة ابناء الوزراء وكبار موظفي الحكومة الى تعيينهم بمدرسة الحقوق .. ويسرفون وقت الطلبة بالعبث والمماحكة حتى اصبح التعليم ، كما يقول يحيى ، مجرد حشو الدماغ حتى يكاد ينفجر بالتفاصيل والقشور دون ان يتاح للطالب واحد فرصة ليقف ويتكلم امام جمع من الناس وهو حاضر الذهن مالكا لشخصيته واعصابه ، اهم ما يحتاجه دارس المحاماة الا وهو تدريبهم على صنعة الكلام وحسن الخطابة بعد معرفة القانون واجراءاته .. (١٦)

وهكذا كان مجتمع مدرسة الحقوق صورة مصغرة من المجتمع المصري كما شاهده يحيى حقي صراعات غير مفهومة بين الاساتذة المصريين على الربح والمنصب ، ومنازعات بين الاساتذة الانجليز والفرنسيين من اجل توجيه الدراسة في المجالات التي تراعي مصالح بلادهم ، وتنافسا بين الطلبة على الاولوية من طريق التفوق في الامتحانات او الوساطة والمحاباة والمجاملة .. ولقد اكتوى يحيى حقي بنار هذه الصراعات والمنازعات والتنافس التي كانت تثير في داخله تيارات مريرة من القلق والشك وعدم الاطمئنان ...

وانتهت مرحلة الدراسة بمدرسة الحقوق العليا بنجاحه في امتحان الليسانس عام ١٩٢٥ وجاء ترتيبه الرابع عشر ... فبعد ان كان قبل ظهور النتيجة يتمنى فقط مجرد النجاح ولو جاء اسمه في ذيل قائمة الناجحين حتى لا يغضب امه او يجرحها بخيبة الامل . وحتى لا تنعى ضياع جهادها من اجل اولادها او تندب سوء حظها معهم . فاذا به يتطلع ان يكون من بين الاربعة الاوائل الذين سترسلهم مدرسة الحقوق في بعثات الى جامعات اوروبا لاعدادهم لشغل

(١٦) يحيى حقي : خليها على الله .

مناصب الاساتذة تمشيا لحركة تمصير مدرسة الحقوق ، واحلال الاساتذة المصريين مكان الاساتذة الاجانب من انجليز وفرنسيين ...واخذت تراود يحيى حقى آمال لم تكدها له تجربته في المدارس المصرية ، واشعرته بأن لا مجال للتثقيف الحقيقي الا في الخارج ولا فرصة له في اتقان لغة اجنبية الا بالسفر الى بلادها حيث تتوفر مناسبات لمشاهدة ضروب من الفن الرفيع على مسارح الباليه والأوبرا والكونسير...وكم آلمه ان يرسب في الكشف الطبي ويخرج من دائرة المرشحين الاصليين وينزل الى مرتبة المرشح الاحتياطي .. وتحسر على ضياع فرصة كان يأمل ان تعوضه عن كل ما افتقده في المدارس المصرية ، وينعم بالجو العلمي الصحيح ، ويعيش في أجواء ثقافية تنمي عقله وترهف حسه وتنمي ذوقه وتسمح له بالتمتع بمختلف ضروب الفن الرفيـــع ...

ولم يكن هناك بد من ان يقف يحيى حقى في طابور الطالبين للوظيفة . مثله في ذلك مثل جميع أفراد اسرته الذين لا يوجد احد منهم من لجأ واشتغل بالمهن الحرة ... واصبح امله ان يعينه ترتيبه المتقدم للحصول على وظيفة في قلم قضايا الحكومة .. وحيث انه كان يعلم ان وظائف النيابة المختلطة كانت وقفا على اولاد الذوات وعلى من يجيد الحديث باللغة الفرنسية اضطر ان يقدم طلبا للنيابة الاهلية ، فوضع تحت التمرين في مكتب نيابة الخليفة القريبة من مسكنه .. وبدا عملا أصدق وصف له هو « صبي وكيل نيابة » كل مهمته ان يجلس بجوار وكيل النيابة ويراقبه .. قد يسمح له بقراءة بعض التحقيق وابداء الرأى فيه شفويا .. ولكن لا يحمل مسئولية تولى التحقيق ذاته أو ابداء الرأى فيه كتابة . ولم يعد من يحاسبه على الحضور والانصراف فلم يرتح لكل هذا العمل ، وشغل نفسه في الفترة ببعض الدراسات القانونية عن الاحداث والقاء بعض المحاضرات عنها .. كان يطمع عن طريقها ان يتولى وظيفة تسمح له بالاشراف على ملاجىء الاحداث ومواصلة ابحاثه في كل ما يتعلق بمشاكل الحدث . ولكنه وجد السبيل مسدودة لكل هذه الوظيفة . فحاول ان يجرب حظه في المحاماة وهى عمل حر غريب عن أسرته يتطلب اتصالات متشعبة بمختلف فئات المجتمع .. بينما اسرته قليلة العدد منطوية على نفسها في شبه عزلة اجتماعية .. كل رجالها موظفون ، ليس لهم معاملات مع الناس تدعو الى الدخول في خلافات مدنية او منازعات جنائية او حتى مشاحنات مالية تستدعى خصومات شرعية . فلم يجد يحيى حقى من يسنده في القاهرة ، وهى بلد كبير يحتاج فيه المحامي الناشىء الى اتصالات ومعارف واصدقاء لكى يستطيع ان يجد لنفسه مكانا بين كبار المحامين الذين يسيطرون على مختلف القضايا .. (١٧) فاذا به يركب الصعب ويقبل الذهاب الى الاسكندرية وينزل ضيفا عند خال له يعمل بالجمارك ليمارس المحاماة في بلد تكاد تخلو من كبار المحامين الاهليين ، ويكثر بها المحامون الاجانب الذين يسيطرون على سوق محكمة الاستئناف المختلطة . فاشتغل أول الامر في مكتب محامى يهودى وجد فيه كثيرا من مظاهر التقدم اللائق ومن علامات الرقى الحضارى ..ولكن سرعان ما تركه متمعا لم يف المحامى

(١٧) نفس المرجع السابق .

اليهودي بوعده ويدفع له المكافأة في أول الشهر .. واشتغل في مكتب محام مصري وعده بمكافأة شهرية أكبر .. ويبدو انه لم يجد الامان كذلك عند المحامي المصري واذا به ينتقل الى دمنهور وينزل عند احد الساسة البعيدين ويعمل في مكتب محاماة اتاح له صاحب المكتب في تولى امر الدفاع في بعض القضايا الصغيرة .. دعته الى التنقل بين مراكز دمنهور لحضور جلسات محاكمها .. وفي دمنهور تعرف على طباع اهالي البحيرة من خلال خلافاتهم التي تعرضها أمامه ملفات القضايا التي وكلت اليه دون ان يخالط الاهالي مخالطة تعرفه بهم من معاملة وتجربة .. الا انه فزع من قضايا التعصب وما تنطوي عليه من غفلة ورباط متناهية ، ومن لؤم وخسة ودناءة وطمع وجشع من ناحية اخرى .. وتعجب من كثرة ضحايا الخلافات بين الرجل والمرأة ، وما تدعو اليه من خيانات تمس العفة والشرف حتى احس بأن الامانة في هذه الدنيا امر مستحيل .. وليته وجد اي نوع من الراحة وهو يبذل اقصى ما يستطيع من جهد لاظهار الحق ودفع الظلم عن موكليه ، ولكنه تعرض لخداع سماسرة القضايا الذين يعملون كوسطاء بين المحامين والمتقاضين.. كما لم يرتح الى كفالة العدالة بسبب العجلة التي تدار بها جلسات المحكمة وسرعة اصدار الاحكام .. فساعد كل ذلك على ظهور عقدة التركي في مصر التي افقدته الاحساس بالامن والاستقرار ، واغرقته في مشاعر الغربة والخوف من المستقبل. فلم يستطع مقاومة ضغط التخويف العالي من محنة الاستمرار في عمل حتى غير مضمون الجانب خاصة بعد وفاة والده في ١٩٢٦/٨/٢٦ .. وقلق اهله بعد مرور ثمانية شهور على اشتغاله بالمحاماة .. دون فائدة تذكر لوجد نفسه في النهاية يستسلم لاساليب الاقراك في الوساطة والشفاعة لنيل وظيفة ، وان كانت اقل كرامة مما كان يتمنى .. واذا به يقول : « تعرضت لضغط شديد .. خوفت فيه أشد الخوف من المستقبل المجهول .. من أجل أن أرضى بوظيفة في الحكومة ... لم يجدوا لي بعد الوساطات والشفاعات الا وظيفة معاون ادارة ... ان هذه الوظيفة اقل كرامة من وظيفة النيابة .. فلم اقبل المنصب الا صاغرا مستسلما .. » (١٨) .

ولكن ما ان علم انه عين معاون ادارة بمنفلوط حتى احس بأن سفره الى مقر عمله هذه المرة لا يماثل سفرياته الى الاسكندرية ودمنهور حيث نزل عند الاقارب .. واذا به يتهيب السفر الى الصعيد ، ويتوهم انه مهاجر يقيم منفردا في بلد غريب بعيدا عن الاهل ، ويتوجس خيفة من انقطاع صلته بعائلته ، ويضطر ان يعيش وحيدا في بلاد تنتشر فيها جرائم القتل والاخذ بالثأر ، محرومة من وسائل التقدم الحضاري من ماء نقي ونور كهربائي ومجاري .. تزحف فيها العقارب في كل مكان .. كلها حياة خشنة صارمة لا تعرف الزينة ولا تجيز دلع القاهري في طعامه وملبسه وكلامه ونزعاته .. ليلها سجان له يد سوداء تغلق الابواب منذ غروب الشمس على الانسان والحيوان ... فاخذ يحيى حقي يردد اقوالا لا تخلو من دهشة « لا استطيع أن أبين شعوري حين علمت انني مهاجر لاقيم منفردا بالصعيد ..هل هو تهيب من المجهول .. أو هو خوف من

(١٨) نفس المرجع السابق .

الانقطاع والوحدة .. ؟ لم يسبق لي قط ان سافرت للصعيد او خالطت اهله .. صورته المنطبعة في ذهني رسمتها لي اقاويل تقاربتهاويل الاشاعات من جرائم القتل والاخذ بالثأر .. » (١٩) ومع ذلك سافر يحيى حقي الى منفلوط وتسلم عمله كمعاون ادارة في اول يناير سنة ١٩٢٧ ، تحدوه مشاعر « بسعادة الانطلاق .. الى عالم غامض احس بسحره وخطره .. كنت اشتاق اليه من قديم .. وادركت ان مصريتي ومحبتي لبلدي لا تتمان الا اذا انغمست في حوضه » . (٢٠)

لا جدال في ان الشيء الجديد على حياة يحيى حقي في منفلوط هو معيشته وحيدا بعيدا عن الاسرة ، دون تدخل من والدته التي يبدو انها كانت ذات شخصية مسيطرة يعمل لها الجميع الف حساب ... ولقد سكن بمفرده لاول مرة ، اذ لم يكن هناك اقارب ينزل عندهم كما كان الحال في الاسكندرية ودمنهور .. يدخل البيت ويخرج منه بلا رقيب ، لا يحاسبه احد وقت الخروج ولا يجد من يسأله متى عاد .. اذ كانت والدته تحرص على ان تتم على اولادها جميعا قبل ان تنام ، ولا يأتي لها نوم الا بعد ان يدخل كل منهم فراشه .. وكل هذه الحرية اتاحت له الفرصة الكاملة لكي يتخلص من تأثير كثير من تقاليد اسرته التركية ، ويقترب اكثر فاكثر من صميم الحياة المصرية بعيدا عن كل التدخلات الخارجية .. يعيش في صميمة المجتمع المصري صباح مساء ، تحيط به مختلف مظاهر الحياة المصرية من كل جانب .. يستعين باهل منفلوط ويعتمد عليهم كل الاعتماد في مواجهة شتى الحاجات اليومية الضرورية ... وان ظروف عمله كمعاون ادارة جعلته يتصل بالفلاحين الى حد كبير ودفعته لمعرفة طباعهم وعاداتهم في مواقعها الاصلية ، بينما التنقل بين المراكز والقرى لتأدية الواجب الوظيفي جعله يشاهد عن قرب الطبيعة المصرية ويتصل بها اتصالا مباشرا حين يخترق الحقول ويتأمل النباتات ويراقب الحيوان .

وبذلك تكون اقامة يحيى حقي منفردا في منفلوط مدة عامين لمباشرة مهام عمله قد ادت الى احتكاكه الفعال بالانسان المصري والمجتمع المصري والطبيعة المصرية ؛ مما ساعد على تنمية شخصيته المصرية في ظروف لا تسمح بتسرب نفوذ التقاليد التركية ونزعاتها ، وتدعو الى تغليب التقاليد المصرية وتعميق نزعاتها في مختلف تصرفاته .. واذا بالحياة الجديدة تستغرق كل وعيه واهتماماته ، ولا تكاد تفلت منه لمحة من لمحات الريف في الصعيد .. فانتبه الى الماعز من الانسان الساذج المتخلف .. روعه الدجال الدعي الذي يتظاهر بالتقوى ويلبس العمامة الخضراء ليستغل بساطة الفلاحين .. ويبعث الرهبة في قلوبهم ويسلبهم اموالهم ويستدرج نساءهم ... وشغله الحتال الذي يلجأ الى كشف الطالع وادعاء القدرة على شفاء الامراض المستعصية .. فهاله ان ينهزم العقل امام الدجل والاحتيال الذي يوهم بامكانية الكشف عن كنوز مختفية واظهار الغائب البعيد ... وبهره نفوذ رجال الدين على الفلاحين .. ليس فقط في

(١٩) نفس المرجع السابق .

(٢٠) المرجع السابق .

حلقات الذكر وصلوات الجماعة بل على الخصوص في فض المنازعات وإبطال الأخذ بالثأر ، والتقريب بين القلوب وتطهيرها وتقديم النصائح الاخوية التي تمنع الجرائم وتحض على مصالحة المتخاصمين ورد المطلقين ، والسماح بتأجيل سداد الديون .. ولقد أدهشه كيف يعم السلام في القرية طوال إقامة الشيخ بين ربوعها يتنقل من ضيافة الى ضيافة أسابيع وشهورا ، وكيف يتوجس الاهالي خيفة اذا ما عزم على ترك قريتهم ليتوجه الى قرية أخرى .. !! الا انه يلحظ ان قوة هؤلاء الشيوخ لا تتناسب مع ثقافاتهم وشخصياتهم بأنه لا يوجد عندهم علم يبهر ولا قوة روحية خارقة ، وان ولايتهم ليست الا مجرد مهنة متوارثة لكسب العيش بطريق شريف يفيد الاهالي ، ويقوم بدور فعال في تطهير المجتمع من كثير من الشوائب الخلقية والاجتماعية .. !! ولذلك كانت العلاقة بين هؤلاء الشيوخ والفلاحين علاقة مثالية تتسم بالنبل ، ليس فيها استغلال او خداع بل فيها تبادل المحبة والاحترام والثقة والرغبة في تعميم الخير ونشر السعادة والامان والاطمئنان بين الجميع . وذلك بخلاف العلاقة السائدة بين الفلاحين وموظفي الحكومة الذين استقروا في بلادهم ليقدموا لهم مختلف الخدمات .. !!

لقد كانت علاقة الموظفين بالفلاحين تفتقر على الدوام الى الثقة المتبادلة ، مما دعا يحيى حقي لان يشعر بالاسى والاسف لوجود « هوة كبيرة بين الفلاح والحكومة » ولذلك فان « معظم اشغال الحكومة ، رغم حسن نيتها ، يستخدمها .. ويعرقل وهدمها .. » (٢١) وحاول يحيى حقي بكل قواه ان يستولى الفلاح على ثقة به كموظف حكومي ... !! الا اصبح في ذهن الفلاح اعتقاد راسخ بأن الحكومة لا تفهمه .. هو في واد وموظفو الحكومة في واد .. ينظر الى هؤلاء الموظفين على انهم اغراب اجراء ، لايهمهم الا قبض مرتباتهم ، وكونهم ليست معه .. حتى دب في قلب الفلاح ريبة متأصلة في الفؤاد ، وريبة أشد اذا كان الغريب من طبقة الافندية الموظفين ، الذين يعتقدون انه راقد على كنز ، وان خيرات ارضه موفورة ينبغي أن يكون لهم نصيب فيها .. فلا نعجب اذا ما أخذ الفلاح حذره حتى لا يظهر عليه دلائل النعمة فلا يطمع فيه « الشباحون » من الموظفين الذين يتوهمون ان تقدير مهابة وظيفتهم تقاس بما يلقونه من اكرام ، ويقدم اليهم من ماكولات حين ينزلون على الفلاحين لظروف العمل ويضطر العمدة لاستضافتهم ... الا ان « قرافة عين الموظف » ليست السبب الوحيد لعدم ثقة الفلاح فيه .. انما لاهتزاز صورته كذلك امام عينيه ، ما ينشب بين الموظفين من خلافات وخصومات تصل الى حد العداء السافر وكتابة المراكن الكيدية ، فكيف تؤمن جانبه .. ! فقد يلقى الفلاح الموظف الجديد بالترحاب عند قدومه لاول مرة ، ويقبل ان يدخل معه في علاقات طالما انها تعود عليه بالفائدة .. لانه يعلم ان هذا الموظف لم يأت اليهم « حبا في سواد عيونهم » بل لتأدية الواجب مفروض عليه ربما يراه كريها فاذا ما فرغ منه يسرع فيولي ظهره وينفض يديه منهم ... ومن خلال هذه المشاعر كانت تصرفات الفلاح تتذبذب بين عواطف الوفاء ونكران الجميل

(٢١) يحيى حقي : خليها على الله .

... وبين التودد والنفاق .. مما جعل الموظف بالتالي ، يشعر بأن الفلاح رجل لا يوثق به ، عنيد لا يتحول عن طبعه، وان معاملته باللين والانسانية عبث ضائع .. ولكن عدم الثقة المتبادلة وريبة كل منهما في الآخر تفسد كثيرا من مشروعات الحكومة ، خصوصا تلك المشروعات التي لا تراعي أحوال الفلاح المصري الاجتماعية والثقافية ولم يسبقها اعداد الموظف المناسب لحياة الريف المصري ... !!

وفقد الثقة بين الفلاح والموظف ليست المظهر القبيح الوحيد في ريف الصعيد .. فان هناك مشاهد اخرى اشد قبحا تستلفت النظر وتدعو الى التأمل .. فان الفلاح المصري الذي لا يثق في الموظف يتعرض يوميا لضروب مختلفة من الضغط في شتى مجالات حياته العادية : يستغله الموظفون من اكبرهم لاصغرهم ... فان المأمور يفرض نفسه على العمدة لكي يعد له وجبة فاخرة اذا ما نزل عليه لسبب من الاسباب يستدعي البقاء في بلدته مدة طويلة ... فيضطر العمدة أن يستولي على دجاجة فلاحة فقيرة لكي يقدم للمأمور الوجبة الشهية التي يتطلعها ويرضيه على حساب « فلاحة غلبانة » في أشد الحاجة الى العون والمساعدة .. بينما يعامل الطبيب الفلاحين بأساليب تخلو من الانسانية وتتسم بالاستعلاء والغلظة والاستغلال ... فطبيب القرية لا يتورع عن تشريح جثة قتيل في عقر داره امام اهله ، ولا يبالي بحرمة الميت ولا يحترم مشاعر الجماهير ويطرح جثة القتيل على الجسر امام المارة ... ولا يستنكف من أن يسخر من شباب القرية وهو يكشف عليهم طبيا قبيل يوم القرعة ... فلو كان يفحص كلبا جربا لكانت يده احن عليه من على هؤلاء الفلاحين ... يعيش في قصر جميل ، معتزلا القرية ، لانه اقامه وسط غابة واحاطه بالمتاريس ولا يتسع الا له ولأسرته ويخرج منه يوميا للاحتفال لصيد الوحوش لم يعود ليتمتع دون بقية اهل القرية بكل مزايا المدنية المادية والمعنوية. ... يحيا في قصر يسوده السلام والدعة والرقة والنظافة والابهة والرفاهية ولا يمكن ان يتصور أن هذا الطبيب المهذب النبيل داخل بيته هو نفسه الذي يعامل الفلاحين بغلظة وقحة لا أخلاقية ... فيشترط دفع الاجر قبل تقديم العلاج المطلوب او قبل اجراء عملية ، لا هم له الا الاثراء العاجل بأي ثمن بالطرق المشروعة او غير المشروعة على حد سواء دون تمييز بين الخير والشر او الحق والباطل »(٢٢). هذا فضلا عن ان الفلاح كثيرا ما يتعرض لغلظة العمدة بل وظلمه واستغلاله احيانا لتحقيق مأرب شخصية ، او ليظهر مدى سطوته على الفلاحين حتى يرضى عنه الحكام ... فيحتار الفلاح بين مطرقة العمدة وسندان شيخ البلد ، يحاول ان يكسب ود الطرفين المتنافسين دون جدوى .. فلا نعجب اذا ما سرت الغلظة والقسوة في مختلف نواحي الحياة في ريف الصعيد فلا تكاد تموت زوجة الفلاح حتى يتزوج بالخسري مهما كان عدد أولاده ومهما بلغ من الكبر . وسرعان ما يتآمر الاولاد على الاب ويقتلونه . واذا ما فرطت بنت في عرضها فلا يتردد اي فرد من افراد العائلة عن قتلها حفاظا على الشرف

(٢٢) المرجع السابق .

.. ولا سبيل لحل الخلافات على حدود الارض ورى القيطان سوى تبادل اطلاق النار وسقوط الضحايا من هنا وهناك ، صونا للكرامة ودفاعا عن حرمة الارض ... بل ان الفلاح منذ ولادته محروم من حياة الطفولة يقاسي منذ الصغر ويلات العمل في الحقول ، وسرعان ما يصاب بامراض البهارسيا والملاريا التي ترهق بدنه وتغتال حيويته وتسرع به الى شيخوخة مبكرة ، في حين لا تعرف الفلاحة الراقة ، فماتكاد تتزوج حتى تنجب ، ولا تمنعها كثرة الخلفة ومتاعب الواجبات المنزلية امام الفرن وفرص الجلة من مشاركة زوجها في القيط .. وهكذا تستمر في عمل يومي شاق دون توقف منسلة الى الشيخوخة حتى يصعب التمييز بين الشابة والعجوز من نساء القرية « فليس في قبضة الفقر والشقاء الا عمر واحد » . (٢٣) يجد الفلاح نفسه مضطرا لان يهتم بحيوانه الى درجة تفوق اهتماماته باولاده وزوجته .. فاذا ماتت الجاموسة ذرفت عليها الدموع ، ولطمت النساء الخدود ، واقيمت مناحة كبيرة يتقبل فيها العزاء من الاهل والجيران .. ولذلك فليس هناك اشد قسوة في الانتقام من دس السم للبقر والجاموس .. ولن الشرف الوحيد الذي يعرفه فلاح الصعيد الحق القديم المرتدي الجلباب الازرق البالي هو القتل عند الاخذ بالثأر . (٢٤) وبينما تكاد تخلو حياة الفلاح الخاصة من اللهو والمرح ، ولا يسرى عنه الا تزول السيرك الى مولد السيد عبد الرحيم القنائي .. فيتسابق الفلاحون الوافدون من جميع انحاء المركز على مشاهدة الالعاب البهلوانية وعروض التمثيل ومشاهد الفناء والرقص في نشوة ما بعدها نشوة لا تكرر الا نادرا .. الا ان الفلاح لا يعرف شيئا من بهجة الانثى حتى ان الغوازي .. وهن فلال .. يرقصن في الناس يعطي احداهن الى العين في بيوت من القش والطين ثم تا وتستمتع ... فان الحياة الجنسية تلعب دورا هاما في تحريك الحياة في الصعيد ، وتثير متناقضاتها الاهتمام .. ! ! اذ كيف تصبح الست « ظريفة » التي كانت في شبابها غانية من الغوازي .. وليا من وليات الله وشيد لها مقام يزار ويتبرك به .. بسبب ما اظهرته من كرم وتوبة وبتبتل في اواخر حياتها .. ومع ان التقاليد لا تعطي للمرأة التي تفرط في عرضها فرصة التوبة وتقتص بصفاقوا بالاعدام .. كما انها سمحت بوجود نقطة للدعارة الرسمية .. فلم يعترض احد من الاهالي على احتراف الفحشاء او يتحمس لاجبار المومسات على مغادرة البلاد .. بل لم يتأفف فرد منهم من سوق الشرطة لهن لاستقبال قطار الرحلة الملكية واطلاق الزغاريد التي يمتنع احرار نساء الصعيد عن اطلاقها علنا .. ! وكذلك يعرف العمدة وشيخ البلد كل امراة تمارس الجنس سرا ولا يحاول احدهما ان يمنع واحدة من بائعات الهوى عن التردد على بيوت الافندية في الامسيات التالية في الخفاء تحت ستار الليل .. بل لا يتورع العمدة او شيخ البلد من ان يدفع بامراة بحراوية بعد ان يأخذ مأربه منها ليلهى بها الموظفين الذين يتعززون من قذارة المومسات الرسميات اللاتي يكشف عليهن كشفا طبيا شكليا وان كان دوريا ..

---

(٢٣) يحيى حقي : ام العواجز : قصة الاراة ريحة ، الكتاب الذهبي العدد ٩٩ اغسطس ١٩٥٥ ، القاهرة .
(٢٤) نفس المرجع السابق .

بهدف ابعاد خطر استهواء الشبان من الموظفين لبنات القرية ونسائها .. حتى لا يتعرضن لعرج الهم .. مع ان الرعب من القتل يكاد يحد من انحراف النساء الصعيديات .. فاذا ما طاش سلوك واحدة منهن غالبا ماتكون من نوعية معينة كأن تكون ابنة تاجر ثري مشغول بتجارته .. في حياته يسر ، يتمتع بقسط من التحرر يخفف من شدة الرقابة . (٢٥) او تكون بنت مدارس دخلت في علاقات اجتماعية لم تنشأ عليها .. او تكون من اسرة مسيحية يلتحق بناتها بمدارس التبشير التي تسمح بنوع من الاختلاط مع الجنس الآخر (٢٦) وفي جميع هذه الاحوال تنتهي حياة البنت التي لا تحرص على شرفها لسبب او لآخر وان كل ما ينسب الى الصعيد من انحرافات جنسية ينصب في الغالب على نساء بحراويات لاجئين من خارج الصعيد (٢٧) او الى الغواني اللاتي ينشأن على حياة حرة طليقة لا تحافظ على حرمة الجنس وصيانة العرض ، ومستعدة لان تبذل كل شيء في سبيل المصلحة والنفع والمادة (٢٨) .. وهكذا اهتم يحيى حقي بأن يعرض متناقضات القيم الجنسية في الصعيد ويبين كيف انه يحق للرجل الصعيدي ان يمارس الجنس في حرية مطلقة دون قيد اخلاقي او شرط ديني ، ولا يلام اذا ما اشبع نزواته الجنسية بأساليب داعرة رغم تعدد زوجاته ، ولا يشعر بالعار اذا ما رأى الدعارة تطوف من حوله ، ولا يجد داعيا لان يحرك ساكنا طالما انها لا تمس اهله ، بخلاف اذا ما سمحت امرأة من الصعيد لنفسها بممارسة الجنس في غير النطاق الذي وضعه الشرع واستقرت عليه التقاليد فانها تلقى مصيرها من غير تردد او تغاض . . ! !

• • •

الا ان ريف الصعيد ليس كله قبحا فان الطبيعة وهبته من الجمال الشيء الكثير ، ما اجبر يحيى حقي على ان يصف روعة تدفق مياه الفيضان مع احتفال الفلاحين بوفاء النيل ، ويعرض مناظر حقول القطن والبرسيم في لوحات خلابة ، ويتأمل حيوانات الغيط عن قرب ، خاصة الحمار الذي زامله مدة اقامته بمنقلوط ، ويحاول ان يستشف كنه كل حيوان من خلال عينيه « البقرة عين غارقة في احلام لذيذة .. الجمل عين ارقبها القذيا من عل بتوجس وغضب مكتوم ، كانما يخشى ان تلحق بكبريائه اهانة على يد حقراء .. والحصان عين تنم عن الخيلاء والنبل والذكاء تعكس الضوء بالليل فتتقد كالياقوتة الحمرة .. والتيس عين فيها العناد كله ، وحتما الخبث والمؤامرات .. والجاموسة عين منطفئة لا تبعث منها حياة او ارادة الا وهي ترضع طفلها فيتمدد سباتها على الحنان .. اما الحمار فان عينيه ذابلة حزينة تكاد تترقرق فيها الدموع ، يل يخيل

---

(٢٥) نفس المرجع السابق .

(٢٦) يحيى حقي : دماء وطين : قصة البوسطجي .. مجموعة اقرأ ، دار المعارف ، العدد ١٥٤ ، عام ١٩٥٥ ، القاهرة .

(٢٧) يحيى حقي : دماء وطين : قصة « ابو فودة » .

(٢٨) يحيى حقي : دماء وطين : قصة : قصة في سجن .

الى في بعض الاحيان انها معمعة كعيون الاطفال بعد بكاء .. اهذا هو سر لهفه .. ليس في صوت حيوان آخر مثل هذه الحرقة والتفجع والمرارة ، انها صرخة عذاب واستغاثة واشهاد الناس في نوبة متفجرة من بكاء بلا دموع تمزق الهواء لو تذوب كأنها لم تكن .. (٢٩)

لا شك في ان الفترة التي قضاها يحيى حقي في ريف الصعيد ـ رغم قصرها اذ لم تتجاوز العامين ـ قد عمقت مصريته الى ابعاد ما كان يستطيع ان يصل اليها لو بقي في القاهرة بصفة مستمرة ولم يتركها الى الصعيد .. فلقد يسرت عليه فهم كثير من اتجاهات الحياة المصرية ونجح في تصويرها تصويرا واقعيا صادقا في كتابه « **خليها على الله** » .. والهمته باروع قصصه الاولى في « **دماء وطين** » و « **ام العواجز** » كانت صدى لتجارب حية ظلت تتفاعل في داخله وتوحي اليه بعواطف ومشاعر وافكار وحكمة وموعظة وصور وخيالات ، شغلت وجدانه وحركت عقله لمدة طويلة حتى وهو بعيد عن ارض مصر متنقلا بين بلدان اوروبا .. وعلقت قلبه بالفلاح المصري رغم قذارة ملابسه وبيته وضآلة طموحه وسرعة وقوعه في الجريمة والانحراف .. تسخر قلمه القصصي ليكشف عن اسرار طبيعة شخصيته ويدعو الى النهوض به نهضة انسانية وثقافية حتى يرتفع مستواه الحضاري ... الا ان يحيى حقي لم ينظر للفلاح نظرة اهل الحضر وسكان المدن التي لا تستسيغ الاوضاع المتهالكة التي تلبس اهل القرى وسكان الريف ، فكان هدفه من وصف المجتمع الصعيدي الوصول الى نوع من الشمولية يقصد به اولا وقبل كل شيء ، اصلاح حال الفلاح المصري في ضوء المفاهيم الحضارية الحديثة ... ولكن اوصاف يحيى حقي للفلاح والحيوان والحقول تقف عند حد المشاهدات التي سمحت ظروفه حوله بان يتصل بها اتصالات مباشرة او يدخل معها في علاقات عمل او لهو والتقت فكره ووجدانه .. ولا غرابة في ذلك فلقد نشأ يحيى حقي وتربى في القاهرة ، وترجع معرفته بالريف ، قبل ان يذهب الى منفلوط ، الى مجرد رؤية بعض القرويين الذين يدخلون بيته لتقديم حساب المحاصيل واجرة الارض ، او لقضاء عمل من الاعمال المنزلية .. واغلب تصوراته عن الريف استقاها من بعض التهاويل والاشاعات التي استمع اليها من هنا وهناك .. ولا تعني امعاق الريف الصعيدي لم يخالط اهله او يعاشرهم ، انما كانت اغلب اتصالاته مع الدادس الموظفين وبذلك لم يختبر حياة الفلاحين في احضان الريف ، لانه لم يقم في بيوت من الطوب اللبن ويرقد على الارض بجوار الحيوان .. ولم يأكل اكلهم صباح مساء او يشرب من مجاري الانهار ويرتدي زيهم الفضفاض .. ولم يشاركهم في جد هم وعيشهم ، يستهويه ما يستهويهم وينفر مما ينفرون ، يخطط معهم للاخذ بالثأر او يجد نفسه بلا ارادة مندفعا في معركة من معاركهم دفاعا عن الكرامة او الارض .. ولذلك اذا اطلع يحيى حقي على بعض اسرار الريف في الصعيد وراها عن كثب فلم تتح له الفرص الكاملة لان يندمج في عائلة من العائلات الصعيدية اندماجا شاملا يسمح له بالامتزاج التام في خضم حياة

(٢٩) يحيى حقي : خليها على الله ..

الفلاحين ليتعرف على أبسط دخائلهم اليومية التي لا يمكن أن يلمحها القريب مهما بلغ من الوعي والثقافة ودقة الملاحظة .. أو يستجيب لكل ما يشغل وجدانهم ويثير اهتمامهم ويتجاوب مع كل ما يعتمل في قلوبهم من هموم ومخاوف وآمال وتمنيات .. ولذلك لا يكفي أن يحس الفنان بالمشكلة لكي ينفعل بها ويعايش أبعادها معايشة حيوية ليستطيع أن يعبر عنها تعبيرا صادقا ، وإنما يجب أن يعيش هذه المشكلة بكل جوانبها ويندمج فيها اندماجا شاملا في تجربة كاملة لا تقف عند مجرد الانفعال والمعايشة معتمدة على نفاذ البصيرة وشفافية الرؤية .. إذ لا جدال في أن من يعيش التجربة أكثر صدقا وأبلغ دقة وأكثر قدرة على التعبير عنها من الذي ينفعل بها أو يعايشها لفترة من الزمن مهما طالت .. إذ سرعان ما يستولي عليه الملل ويفقد الانفعال حيويته ، وتصبح المعايشة عبئا ثقيلا قد تنقلب الى ضيق وتبرم يتمنى الخلاص من حياة لم يعتدها ... **وإذا حاول يحيى حقي أن يوهم نفسه قبل أن يوهمنا بأنه بلغ أغوار شخصية الفلاح المصري ، وأنه كان في موقع يسمح له بأن يفسر أحوال هذه الشخصية تفسيرا سليما فان نظرته الى هذه الشخصية لم تكن نظرة موضوعية خالصة ، إنما كانت نظرة أثر فيها منطق أهل المدن ، حتى يمكن أن يقال أن نظرة يحيى حقي الى أهل الصعيد أقرب ما تكون الى نظرة هؤلاء المستشرقين أصحاب القلوب الكبيرة العامرة بحب الانسانية التي تقبل طواعية أن تعيش في المجتمعات البدائية أطول مدة ممكنة ، بهدف انقاذ الانسان المتخلف ورفع مستوى حياته وحمايته من الجهل والاستغلال** .. الا ان يحيى حقي يمتاز على هؤلاء المستشرقين بأن بواعثه في الحدب على هؤلاء الفلاحين لا تقف عند حد الاشفاق والعطف خلال نظرة انسانية ، انما تستند كذلك الى نوع من الغيرة الوطنية يحزنها أن ترى الوطنيين على ما هم عليه من تخلف وشقاء ..

وهكذا اكتفى يحيى حقي بأن ينفذ الى أعماق الريف المصري محاولا أن يتسرب الى وجدان الفلاح المصري من خلال تصرفاته الخارجية التي يراها أمامه ولا يقبلها منطق أهل المدن ليفسرها من خلال علاقاته المتضاربة بين الفلاحين أنفسهم من ناحية ، وبين الموظفين من ناحية أخرى ناشدا فهم خبايا الريف وأسرار شخصية الفلاح المصري .. ولكن هذا الفهم كان مقيدا كما ذكرنا بحدود امكانيات نشأته القاهرية في نطاق أسرة ذات أصلاب تركية ..

ولا نعجب اذا ما أخذ يحيى حقي يشكو من مرارات الحياة في ريف الصعيد ، ويئن من قسوة عمله صارخا « حالة أرهقتني وأذاقتني عذاب الجسد والروح أشكالا وألوانا » ثم يستدرك زاعما أنه لولا معاناة مثل هذا النوع من الحياة وممارسة مثل ذلك النمط من العمل ما عرف بلوى أهله ومشاكله وشدة حاجته لمن يأخذ بيده من أبنائه : يترنم بلهجة وطنية ناشدا أن هذا الشعور قد ألقاه من (الضياع) حين وجد في اقامته بمنفلوط (السلامة وراحة القلب بقدر ما في الدنيا من سلامة وراحة قلب) (٢٠) .. الا انه كثيرا ما كانت تستولي عليه مشاعر

---

(٢٠) يحيى حقي : أشجان عضو منتسب : سيرة ذاتية .

الثئور والزهق ، تصور له تلك البلدة على انها راقدة بين الغيطان والنخيل .. حيوان مشوه .. جسم رابض على الارض لا فكر له .. ميناءواسعتان ولكنه اعمى .. يتنفس ويحيا ويجد سبيله في الحياة بفضل غريزة قوية .. نومهوجوم .. استيقاظه تحفز .. سكونه بين هـذا وذاك .. مخاوفه . (٣١) وكم روعه ذلك الفلاحالمعدم الذي يهوى القتل تحت بواعث الاخـذ بالثار ، وكثيرا ما كان يتحسر لعجزه في التمييزبين الشابة والعجوز من النساء في مجتمع يندر ان تظهر فيه المرأة ... واذا بالملل يستبد به فيالنهاية ويشعر بأن يعيش حياة رتيبة كئيبة لا تسرى عنه سوى الجلسة المتشابهة كل يوم فيالقهوة مع الاصدقاء ذاتهم يتحدث معهم في نفس الاحاديث التي لا تتغير ، وعادة تدور حول خباياءالات الزملاء من الموظفين وخاصة حول تصرفات بعض الزوجات المنحرفات (٣٢) فاخذ يتشوقاملل يقلقه من تلك الحياة القاسية الكئيبة ، واذا بالآمال تراوده في البحث عن مستقبل آخريبعده عن هذاالمكان يحرره من اسر الريف ؛وبطالته في عالم اكثر رحابة الى ان صادفه ذات مساءاعلان في صحيفة يومية .. فبينما (كنت راقدا بعد العشاء على السرير بعد نهار الهنا روحيوان له جسدي .. اقلب **ولا اقرا صحيفة يومية واذا بنظري يقع على اعلان لوزارة الخارجية بانها** ستعقد مسابقة بين القارئين فيها بوظائف امناء المحفوظات اي سكرتيرين في القنصليات والمفوضيات » (٣٣) فتيقظت فيه كل الرغبات السابقة التي كثيرا ما شوقته للحياة في الخارج حيث تتوافر مختلف النعم الفكرية والثقافية والفنية وكذلك الحياة المتحررة الراقية التي للمرأة فيه دور بارز وسرعان ما (تقدمت للمسابقة ... ونجحت .. وان جاء اسمي في ذيل قائمة الفائزين .. صدر امر تعييني امينا لمحفوظات القنصلية المصرية في جدة باعتبارها من المناصب الشاغرة وقتذاك) (٣٤) ..

وهكذا حدث الانقلاب الخطير الثاني في حياةيحيى حقي بعد حدث هجرته من القاهرةللصعيد بعامين من الزمان .. فانتقل من حياة يفيض فيهاالملل الزهق من الزمن المحدود الى حياة يفيض فيها الزمن من عمل موهوم .. (٣٥) فلم يتاخريحيى حقي في تسلم المنصب الجديد رغم انه لم يحقق كل طموحه ويرضي تطلعاته ، الا انه عبرعن رضاه بالعمل في جدة بقوله : سازور الحجاز .. وادرس المذهب الوهابي .. واعرف مشاكلالحج والكورنتينات ... وارى جميع الشعوب الاسلامية .. وبعض كبار المستشرقين .. (٣٦)

---

(٣١) يحيى حقي : ام العواجز : قصة : ازازة ريحة .

(٣٢) يحيى حقي : خليها على الله .

(٣٣) المرجع السابق .

(٣٤) يحيى حقي : اشجان عضو منتسب : سيرة ذاتية .

(٣٥) يحيى حقي : خليها على الله ..

(٣٦) المرجع السابق ..

ـ ٣ ـ

ويبدو ان حياته في جدة وهي تمتد من عام ١٩٢٩ الى عام ١٩٣٠ لم تكن اسعد حالا من حياته في منفلوط . فلقد كتب لي اخيرا رسالة خاصة ذكر فيها شيئا من حياته في ذلك الوقت يقول « فقد عشت في جدة وعمري ٢٤ سنة قرابة سنتين ... في جو حار رطب خانق ... بعوض وعرق .. كنت اتعاطى حبوب الكينا يوميا .. انام على مرتبة ساخنة داخل ناموسية .. استحم في طشت بماء من صفيحة .. اشتغل بالليل على كلوب الف شمعة .. ومع ذلك قرأت مكتبة القنصلية كلها .. وتعرفت لأول مرة الى الجبرتي ، وكتبت عدة مقالات وقصص لا اذكرها » .. اذ « في تلك الآونة كان النشاط الدبلوماسي قليلا فرحت اقضي وقت فراغي في مكتبة القنصلية حتى قرأتها من آخرها ـ وفيها اكتشفت تاريخ الجبرتي لاول مرة وفتنت به اشد الافتتان .. فلم اعرف كاتبا او مؤرخا استطاع ان يصور روح الشعب المصري مثله » (٣٧) فلم يتوقف يحيى حقي وهو في جدة عن السعي من اجل تعميق مصريته . فاذا به يعيش مع الجبرتي يحوم حول الروح المصرية ويكتب مجموعة من المقالات في جريدة **البلاغ** تحت عنوان « **الفكاهة في المجتمع المصري** » وقعها باسم « **عبد الرحمن بن حسن** الذي هو اسم الجبرتي نفسه . الخص فيها كل ما ورد في تاريخ الجبرتي من فكاهة . بعد ان حصرت ابوابها وارجعتها الى اصولها النفسية ، محاولا الكشف عن بعض نواحي الشخصية المصرية .

ولعل اهتمامه بالشخصية المصرية وتعزيز معرفته بها في تلك الفترة هي التي **شغلته عما يدور في بلاد الحجاز من حياة** ، فلم ير منها سوى « الساحة التي يلتقي فيها المسلمون من جميع ارجاء العالم ، فيكونون لوحة شاسعة كان لها اقوى الاثر في نفسي » (٣٨) ومع ذلك لا نكاد نعثر له عن اي نوع من الكتابات الوصفية الدارجة الشيقة التي عرف بها ، تعطي لنا لوحة قلمية حول الكعبة الشريفة او الحرم النبوي الكريم رغم شغفه الزائد بوصف كثير من الآثار الاسلامية في القاهرة واستنبول « وان كل ما ظهر له من انعكاسات حياته في جدة لم يتعد كتابة بعض المقالات عن المذهب الوهابي ومشكلات الحج والكورنتينات في مجلة الرابطة الشرقية ، وهو في هذه المقالات يكاد يسير على هداية هؤلاء المستشرقين الذين التقى بهم خلال العمل الدبلوماسي وانجرف بعقليتهم الغربية المنظمة » ..

وهكذا نجد يحيى حقي في جدة منزويا في مكتبة القنصلية بعيدا عن المجتمع الحجازي .. يقرأ ويقرأ محاولا ان يجتر مدى ما توصل اليه من مصرية .. وان ذهب لمشاهدة المسلمين في ساحات الحج الا ان رؤياه كانت رؤية فضول .. وما اقبل على دراسة المذهب الوهابي الا بدافع تفاق يريد ان يتلمس مدى قدرة هذا المذهب على تطوير الفكر الاسلامي في الدين .

(٣٧) يحيى حقي : اشجان عضو منتسب : سيرة ذاتية .

(٣٨) المرجع السابق .

وما أن لم نقل يحيى حقي من جدة الى استانبول في عام ١٩٣٠ حتى اتاه الفرج .. فاذا كان قد حبس نفسه في جدة بمكتبة القنصلية فانه في استانبول خرج الى المجتمع التركي يتصل بالعائلات ، خاصة تلك العائلات التي تمت لحيصلة قرابة ، ويزور الاحياء الشعبية ويتردد على مقاهيها وملاهيها ، ويصف آثارها الاسلامية ويعايش الحركة الكمالية .. لا شك في ان خروج يحيى حقي من جدة الى استانبول اعاد اليه بعض حيويته .. فان قلب يحيى حقي لم ينفض بفكر جديد وهو في جدة ، وان عقله لم ينفعل بحياة اهل جدة ، وعاش على هامش المجتمع الحجازي يتصل اكثر ما يتصل بالمستشرقين الاجانب ، واقتصرت تحركاته على نطاق الاعمال الدبلوماسية .. ولعل ذلك يرجع الى ضرب من الحذر الذي شب عليه يحيى حقي في معاملاته مع كل من لا يجري في عروقه دماء تركية ، خاصة من هم من اصل عربي صرف ، الذين دخلوا معهم خلال التاريخ في صراع مرير على السلطة استمر اجيالا ، فتخوف من أن تظهر العقد القديمة اذا ما دخل في علاقات وطيدة مع الحجازيين ، او اذا ما حاول ان يتعمق في فهم المجتمع الحجازي وبتبين ايجابياته وسلبياته ، وفضل ان يكتم انفاس فكره ويضيق الخناق على نبضات عقله حتى لا يتعرض لاتهامات التحيز .. ولكن بمجرد ان استقر يحيى حقي في استانبول حتى شعر انه يعيش في موطن اجداده الاول ، وانه عاد من المهجر الى بلد له فيه عدد عديد من الذين لهم به صلة رحم .. فلم يعد يحس بأن هناك ما يدعو الى الحذر ، وانطلقت تصرفاته في شتى المجالات يدخل بيوت الاقارب وغير الاقارب من الاصدقاء والمعارف ، ويزور المساجد ويتردد على الآثار الاسلامية .. ويحاول ان يصادق بعض المصريين المقيمين في استانبول ويدخل معهم في علاقات .. يندمج في المجتمع الدبلوماسي ويشارك في كثير من الحركات الاجتماعية .. ينفعل بثورة كمال اتاتورك ولا يتردد في تقويمها .. يقبل على تعلم اللغة التركية لان معرفته باللغة التركية لم تكن تسعفه في التفاهم مع اهله اذ « لم تكن اللغة التركية تستخدم في بيتنا الا للسباب في لحظات الغضب » . (٣٦) وقد استطاع ان يتقن تلك اللغة لدرجة انه تمكن من تذوق الشعر التركي وان يتصل بشعراء تركيا ويتعرف عليهم .. ويتابع بوجه خاص تطورات الحركة الكمالية في منقوانها يرقب محاولات كمال اتاتورك في تحويل تركيا من دولة شرقية اسلامية الى دولة علمانية حديثة ينفصل فيها الدين عن الدولة ، ويشهد مظاهر تحول حكومة شعب مسلم متدين الى دولة تتجاهل دينه وتعاديه وتعتقد ان التمسك بالدين هو سر تأخر الشعوب ، وتحاول ان تزيل كل ما يمت الدين بصلة ... ويقرأ كل ما كتب عن كمال اتاتورك فاستطاع ان يصاحبه يوما بيوم يشاهده وهو يخطب ويجالسه عندما زار السفارة المصرية في انقرة ليسترضي المصريين بعد حادثة اهانة الطربوش .. واذا كانت شخصية مصطفى كمال قد بهرته الا انه اخذ عليه دكتاتوريته ومصادرته للحريات الدينية ومعاداته لرجال الدين وتعطيله اداء فرائض الاسلام ومحاولته اعادة مسجد اياصوفيا الى الكنيسة التي كان عليها اول الامر . ولكنه رغم بحق وسط بأن يكون البناء مجسدا

---

(٣٦) يحيى حقي : اشجان عضو منتسب : سيرة ذاتية .

متحف لا هو مسجد ولا هو كنيسة تبطل فيه الصلوات الخمس ولا تعود اليه تراتيم الصلوات المسيحية .. (٤٠) ولعل محاولات مصطفى كمال لقطع صلة تركيا بالدين الاسلامي ـ رمز الحضارة العربية الاولى ، تهدف الى ازالة كل ما أخذه الاتراك من العرب .. ولذلك اتخذ خطوات ايجابية من اجل تطهير اللغة التركية من الالفاظ العربية وهي تكاد تصل الى ثلث مفرداتها .. والزم عامة الشعب التركي بكتابة اللغة التركية بالاحرف اللاتينية بدلا من الحروف العربية ، بل امر بكتابة القرآن الكريم ذاته والأذان بالحروف اللاتينية كذلك .. وفضل ان يرتمي في احضان الحضارة الغربية املا في التطور والاصلاح والتقدم على ان يظل راكدا جامدا في تكايا حضارة العرب وثقافاتهم المتكاسلة ، رغم انه حارب بشراسة الاحتلال الغربي في بلاده حتى طهرها من التدخل الاجنبي .

ولقد تصور يحيى حقي ان مصطفى كمال كره العرب وحضارتهم وثقافاتهم كرها لم يعرف له مثيلا بلغ الحماقة ، اذ ليس هناك « احمق من رجل يهاجم في العصر الحديث دين رجل آخر ، فما بالك بحماقة من يفعل ذلك بالمسلمين بكرة أبيها » (٤١) واذا لم يثر الشعب التركي ضد مصطفى كمال بسبب نزعته المعادية لدين الاسلام فليس ذلك « خوفا من بطشه انما اكراما له لانه انقذه من التمزق والعبودية واستلاب الاجنبي لارضه .. » (٤٢) واذا استجاب الشعب التركي لاوامر مصطفى كمال بهذا الصدد ، فان قلبه ظل يخفق بدين الاسلام وايمانه به لم يتزعزع وان كانت تصرفاته تجاهل تعليمات الحاكم .. واذا تحسر يحيى حقي على عداء مصطفى كمال للدين الاسلامي وحرمان الشعب التركي من الحروف العربية فانه تطرق الى حد الغضب لانه نوما من العداء للعرب يدوم في العالم لحضارتهم ولعظمة فيهم ثقافاتهم رغم ان تركيا ما استطاعت ان تحكم العالم العربي وتقبل العرب الخضوع لسلطانهم زمنا طويلا الا بفضل تمسكها بالدين الاسلامي ، حين أعلن سلاطين الدولة العثمانية أن يتولوا الخلافة الاسلامية ، لأن سلطات الخلافة الاسلامية تعطى لهم من النفوذ والتأثير الروحي ما يضمن ولاء الاقطار العربية للدولة العثمانية .. ولقد كان الدين الاسلامي دواما من اهم العوامل التى قربت العناصر التركية في مصر من عامة المصريين ، ودفعت المصريين الى حسن استقبال الاتراك كلما نزلوا بديارهم حتى لو بغرض الاستعمار والاستغلال .. ولقد ضحى مصطفى كمال بكل هذه الجذور التاريخية في سبيل اعتقاده بأن حضارة الغرب هي حضارة المستقبل ، وان حضارة العرب آخذة في الذبول ولا حاجة لتركيا فيها وشرورها يفوق نفعها ..

ولكن ما هو الباعث الحقيقي لهذه الغيرة الدينية عند يحيى حقي ... ؟! هل هو باعث روحي صرف ، أو هو باعث يحركه نوع من القلق يخشى انفكاك الارتباط الروحي بين تركيا

---

(٤٠) يحيى حقي : دمعة .. فابتسامة .

(٤١) المرجع السابق .

(٤٢) نفس المرجع السابق .

ومصر ؟ ان هذا الحرص على الدين لم يشرنم بيحيى حقي وهو في الحجاز مسقط رأس الديانة الاسلامية حيث ولد رسول المسلمين عليه الصلاة والسلام .. وانطلقت منه دعوته الى العالم الخارجي .. وحيث الكعبة الشريفة أقدس المقدسات الاسلامية .. وحيث قبر الرسول صلى الله عليه وسلم ومقابر آل محمد والصحابة وشهداء الاسلام الاول .. فان كل هذه المواقع المقدسة لم تخدع حواس يحيى حقي الروحية كما دغدغ وجدانه مسجد اياصوفيا ومسجد الانصاري الصحابي باستانبول .. واذا كان ازدحام ساحات الكعبة الشريفة بالحجاج قد بهره والله الا ان ذلك لم يدفعه الى كتابات اشبه بكتاباته عن ازدحام مسجد اياصوفيا بالمصلين في ليلة القدر .. **فالفترة الدينية هنا تكاد تكون فترة ارتباط .. !! الا شك في ان يحيى حقي يعشق مصر عشقا ما بعده عشق ، ولكنه يود كذلك لو تظل هناك علاقات وطيدة بين مصر وتركيا وخاصة العلاقات الروحية .. وان الدين الاسلامي كان على الدوام من اهم العوامل** التي توثق الروابط بين الشعوب وتجدد حيويتها كلما اعتراها فتور بين المصريين والاتراك .. فلما ما تخلت تركيا عن الدين الاسلامي وارتمت في احضان الحضارة الغربية فان الذي يقلق يحيى حقي في المقام الاول ان هذا التخلي يقضي على ما تبقى من روابط الوصال بين مصر وتركيا والعرب والاتراك .. ويعز على المصريين الذين تجرى في عروقهم دماء تركية ان يشهدوا الصرح الاخير لعلاقات تاريخية قاومت القرون ، وان يستشهدوا على فتور الروابط بين المصريين والاتراك الى حد العدم .. وكل ذلك يضعف من اتصالات المصريين باقربائهم في تركيا ويهدد بقطع العروة الوثقى بوطن اجدادهم .. ولهذا السبب بالذات كان يحيى حقي ضد سياسة مصطفى كمال في معاداة الاسلام وكراهية العرب .. !!

• • •

الا ان اقامة يحيى حقي الطويلة بين الشعب التركي خلال فترة عنفوان الحركة الكمالية ، وما اثارته من تقلبات فكرية ونفسية ، وما خاضته من تجارب اجتماعية وثقافية اتاحت لعين الفرص ما مكنه من ان يدرس جوانب كثيرة من اتجاهات الشخصية التركية السلوكية والاجتماعية ، بينما يشاهد تصرفات الاتراك وانفعالاتهم وميولهم فتكشف له من المفارقات ما لفت انتباهه .. ولعل اهتمامه الزائد بتحليل الشخصية التركية يرجع الى حد بعيد لرغبته في فهم بعض اتجاهاته الداخلية .. ولعل نجاحه في فهم هذه الشخصية يعينه اولا وقبل كل شيء على فهم ذاته فهما يعرفه بنفسه ... توجد ان الشعب التركي « شعب غريب يجمع بين المتناقضات » تتسم شخصيته بسمات متعارضة تجمع بين « القسوة والرقة » ورأى في الافراد « عيون بعد ان تبرق بلهب نظرة النمر الجائع تترقرق فيها السماحة وحب الدعابة ... فرقى الاعتداد بالنفس يعلو في مواسم التأدب الافراطي .. شعب يلوذ في الخيال وترفعه الموسيقى الى السماء لم لا يحيد في نظرته عن الواقع العملي والمنفعة المادية ... شعب تنضج في امانيه الشعبية بدموع البكا على الشهداء الذين سقطوا في ميدان الجهاد ضد روسيا وضد اليونان .. واشدها حزنا البكائيات على الشهداء

في حرب البلقان .. ثم هو في الوقت ذاته يزدري الموتى والقبور ازدراء شديدا .. لم اشهد طوال الماضي اربع سنوات في استانبول جنازة واحدة .. تتم المراسم كلها في المسجد .. بتقبل العزاء ثم انصراف كل حي لسبيله (٤٣) ورغم أنه شعب فشا فيه التصوف وكثرت التكايا وتعددت الطرق الصوفيه .. ومع ذلك فليس في استانبول قبر لولي من هذا الشعب يزار وتنسب له كرامة » ولذلك فلا نعجب اذا ما تقبل الشعب التركي الغاء التكايا .. ووجد يحيى حقي « بين الكتب الرائجة في استانبول تنفر برياء الدرويش الذي يزعم انه يلتزم المسجد واذا سئل عنه وجدوه في الخمارة » وكان ذلك من بين الدواعي التي حثت الحكومة على حل الطرق الصوفيه ومطاردة « المنتمين اليها مطاردتها المجرمين المستحقين للشنق » وكذلك شجعت عامة الشعب على الاستهزاء بالدراويش والوعاظ « وما اكثر هزء نكاتهم الشعبية بالوعاظ ودعاة الفضيلة والكرم وبالوعود المحمولة على الغد لا اليوم » بل ان « مساجد استانبول كلها كانت لا تنطق بشيء عما تنطق به أحجارها .. كلها روائع معمارية فحسب .. مقامة على مقابر العظماء من سلاطين آل عثمان .. لا توحي باية شحنة روحية .. ورغم ذلك لم أر مثيلا لشعب التركي بجبلة وتحيته واعزازه لشخص الرسول بشرا لانبيا فحسب » (٤٤) .. **واذا انتقل يحيى حقي من واقع الحياة الدينية الى عالم الرجل والمرأة وجد ان « استعلاء الرجل على المرأة » في تركيا لا يتمثل الا في اختطافه لفتاة من قريته والهرب بها الى الجبال وتوالها عنوة .. فهذا الاختطاف هو عنده البرهان الوحيد على الرجولة .. »** (٤٥) وشد انتباهه كعادته أحوال بائعات الهوى فيقول « لم أر مثل البغي التركية في ايمانها بأنها ضحية مجتمع الرجال الذي لا يرحم .. » والحسير حين شاهد « في تلك المقاهي الشعبية الصغيرة في استانبول بين ربى التلال المخضرة المشرفة على البسفور أو مرمرة امرأة وتصفيقا لفتاة لم تبلغ سن الرشد .. ولكن خدها مداس للجميع لم ر في ظروفها القاسية عارضا لاحوالها المتضاربة « لم أر انسانا ضعيفا مثلها يجمع بين الابتسام والرعب وبين الصلف والمسكنة .. بين الافصاح والاختناق .. بين الطرب والأنين » وكم افاقه مجتمع الرجال لانهم « تقننوا في تفصيل ثوب لها .. ثوب قنطرية اسمه الذل .. » (٤٦)

هذه هي الملامح الاساسية للشخصية التركية كما تكشفت ليحيى حقي في ضوء تجاربة في استانبول .. ولا شك في أن اقامته الطويلة في تركيا التي بلغت ست سنوات على فترتين متباعدتين في استانبول وفي القرى قد مكنته من ان يتعرف على مدى التفاوت بين الشخصية

(٤٣) يحيى حقي : دمعة .. فابتسامة .
(٤٤) المرجع السابق .
(٤٥) المرجع السابق .
(٤٦) نفس المرجع .

المصرية والشخصية التركية .. كيف ان تعميق معرفته بالشخصية التركية يعينه على حسن التعرف خلال شخصيته المصرية ، ويكتشف لبعض ما خفي عليه من جوانب ذاته الموروثة من الاصول التركية ، فيتمكن من ان يتحرر من ازدواجية الاتجاهات وتضارب الانفعالات وتصادم القيم المصرية والتركية ، ويحقق شخصية واحدة متجانسة ترتاح لكل ما هو مصري ولو رفضها طبعه التركي لسبب من الاسباب .. وان طول اقامته بين اهل اجداده لم يحدث فيه اية رجعة نفسية ارتدت به من مصر .. بل لم تفارقه احساسات الغربة وهو بعيد عن مصر .. فان اتضحت له جذور مقوماته التركية فان ذلك لم يمنعه من ان يتعمق في فهم روحه المصرية في نفس الوقت الذي يتأسى فيه على هؤلاء المصريين الذين يتحرفون عن طريق التفكير المصري الاصيل السليم .. !!

– ٤ –

ولقد قرأ يحيى حقي قصة « عودة الروح لتوفيق الحكيم » قائما بالحنين الى مصر والشعب مصر يعاوده ، واذا به يبعث بمقال عنوانه « توفيق الحكيم .. بين الخشية والرجاء » لمجلة « الحديث » بحلب في آخر سنة له في استانبول عام ١٩٣٤ ، وكانت من اوائل مقالاته التي حاول فيها ان يحدد المسار الذي ينبغي ان يسير فيه الادب المصري حتى يصبح المعبر الحقيقي عن كل ما يختلج داخله من انفعالات وآمال .. فاستهل مقاله بانه « اول الاقلام هو وحده الذي حولني الى كتابة هذا المقال » (٧) وعاب فيه اتجاهات الادب العربي التي تقتصر عليها الميول الفردية من دون الميول العامة التي تعتبر من بذرة كلية في روح الشعب المصري بأجمعه .. ولذلك كانت اغلب الكتابات الادبية في ذلك الوقت مجرد صرخات شخصية تدور في واد لا تجد لها من صدى بين عامة النفوس ... ولقد ذهب توفيق الحكيم باتجاهاته الصوفية في مسرحية اهل الكهف يشيد بأن كل موجود هو من الله .. والله دائم .. فكل ما هو موجود دائم .. ويلوح الى أن الزمن هو احدى خصائص عقل الانسان الذي لا يدرك الا بثلاثة مقاييس .. ولذلك حاول ان يخرج بين المواقف الصوفية والنظرات العلمية .. الا ان هذه المسرحية بملامحها الصوفية العلمي لا تكاد تعبر من قريب او بعيد عن مشاعر الجماهير ولذلك لم يكن لها اي صدى لدى عامة الناس ، ولم يتجاوب معها الشعب المصري كله ، ذلك الشعب الذي كان يمر بمرحلة نضال سياسي واجتماعي واقتصادي يحتاج اكثر ما يحتاج الى عوامل تقوى فيه نزعات الجهاد حتى يستطيع ان يتغلب على مختلف انواع المصاعب التي يضعها الاستعمار لعرقلة نهضته .. وليس في حاجة على الاطلاق لتقوية النزعات الصوفية التي قد تدعو الى نوع من الاسترخاء ، يستمرىء الكسل والخمول ، ويتهرب من المسئولية الوطنية بدوافعها الانانية التي تحث على قطع صلة الفرد بكل ما حوله طلبا للطهر والخلاص ، في ظل وهم نظرية صوفية سطحية .. **ولذلك اعتبر يحيى**

(٧) يحيى حقي : خطوات في النقد ، مكتبة دار العروبة القاهرة – بدون تاريخ .

حقى مسرحية « اهل الكهف » مــن المسرحيات الخطرة على شباب مصر ، اذ قد تستهويه بالميول الصوفية،على حين انه لا خلاص لمصر من الاستعمار ولا نهضة للشعب المصرى من الفقر والتخلف الا على يد جهود شباب مصر الذى يجب ان يبذل كل فرد منه فى تعاون ويشترك اقصى ما يستطيع من جهد ، دون نظر لاى نوعية من المنافع الفردية سواء اكانت مادية او روحية .. ولذلك فاذا كانت مسرحية اهل الكهف بمثابة نجاح كبير لتوفيق الحكيم كفنان فى عالم الادب فانه لا يكاد يكون لها اى دور ايجابى فى المجالات التى تدعم مقومات الشعب المصرى .. ولا نعجب اذا ما شك يحيى حقى فى قيمة مسرحية اهل الكهف بالنسبة لشعب مصر .

واحسب ان يحيى حقى هنا يكاد يكون متاثرا بالحركة الكمالية من جهة ، وبالنزعات التركية العملية من جهة اخرى .. فان مصطفى كمال قد قاوم التصوف بكل صوره ليصرف جهود عامة الجماهير ويركزها فى خدمة تركيا .. ويبدو ان يحيى حقى كان يتمنى فى ذلك الوقت ان يظهر فى مصر شخصية قيادية مثل مصطفى كمال تمثل لشعب مصر من الكرامة والحوافز المادية والمعنوية ما يلهب القوى الكامنة تعمل على رفع قيمة الانسان المصرى .. دون ان تستغرقها قيم غيبية لا تساعد على رؤية اصلاح الحقائق التى يعيش فى قلقها المصريون .

الا ان يحيى حقى تنبه الى ان نزعة التصوف التى تشوب قصة « عودة الروح » لتوفيق الحكيم تتسم بالمحلية خلاف نزعة التصوف العالمية التى تشيع فى مسرحية « اهل الكهف » وهى قصة تقوم على ديانة الفراعنة ايزيس واسطورة اوزوريس وايزيس ، واتخذ من ثورة ١٩١٩ الشرارة التى اوقدت الحياة فى اشلاء مصر المتقطعة الاوصال المفرقة الممزقة الجوانب ، واعادت اليها الروح التى وحدت جميع الصفوف وشملتها تحت راية مصرية واحدة .. وعرضت هذه الافكار تصرفات عائلة مصرية صغيرة .. رغم انها كثيرة الافراد . فلقد كان يعمهم اتحاد ووصال وود .. ولكنهم وقعوا جميعا فى حب فتاة متلاعبة تسكن بجوارهم حاول كل منهم ان يتقرب اليها على غفلة من اخوانه .. فالوشائج الملحة المتضاربة ان تباعد بينهم .. واذا بالثورة المصرية تصفعهم جميعا وتكتسح حبهم التافه ، وتجمعهم على الوفاق من جديد داخل حب كبير هو حب مصر .. فعادت الروح الى مصر التى ظن الجميع انها ماتت ، حتى ان عودة الحياة الى هذه الروح لفتت انتباه اجنبى فرنسى .. **ويرى يحيى حقى فى هذه القصة صورة صادقة للمجتمع المصرى سواء فى القاهرة او فى الريف ، ولذلك لها قيمة واقعية يمكن ان تعود بشىء من النفع ، لانها استمدت اصلا من التراث المصرى القديم من ناحية ، واتخذت من الحياة العالمية الحديثة سبيلا للتعبير عن عظمة الماضى وحيوية الحاضر** .. الا ان يحيى حقى لم يجد فى قصة « عودة الروح » ما يشفى غليله الوطنى ويشبع اتجاهاته المصرية الصاعدة اشباعا قويا . فان القصة تريد بصدق وايمان الجمع بين الروح والجسد .. بين المعانى والزمن .. بين السر والتغير .. بل وتريد كذلك ان تبين لنا كيف تسرى الحياة من جديد فى جسد مصر .. ولكن القصة لم توضح كيف اسهم كل فرد من افراد الاسرة فى الجهاد الثورى .. كما جاءت الخاتمة

بقردة تافهة ليس فيها حرارة الباطن ولا عظمته . تكاد صورة الثورة باهتة مقتضبة كما لو كانت دخيلة على القصة والثورة بالنسبة لموضوعها .. لم تجد مصريا واحدا يليق بأن تعلق على لسانه بأن مصر التى خال الجميع انها ماتت قد عادت اليها الروح واختارت اجنبيا فرنسيا كى يشهد على هذا التحول .. بينما جعلت جميع افراد الاسرة يصرعهم المرض ، وتنتهى القصة وهم الشبه بالموتى ، كل منهم لائذ بفراشه .. وبعنوان القصة توحى بأن مصر لا يمكن ان تحيا الا بعظمة الفراعنة . فلا شك في أن استلهام مجد الفراعنة يثير كثيرا من الاحلام الجميلة .. الا ان اسطورة اوزوريس ما زالت بعيدة عن الوعى المصري العام ، وبذلك لا تستطيع ان تستغرق روح مصر الحديثة استغراقا قويا فعالا ، مما اصاب القصة بنوع من عدم التوازن بين الباطن الفرعوني القدسي والظاهر المصرى المستمد من الواقع . فاذا كان الباطن عظيما فان الظاهر لا يوجه اليه العناية الكافية ، وتغلب عليه الوقائع الصبيانية التى لا تخلو من تصنع واستطراد .. فان الادب المناسب لشباب مصر في هذه الايام ينبغى ان يكون ادب كتاب الوفد يعمر فيهم حرارة اليقين الذى لا يسلم من وسواس الخشية .. وكون يدعهم مزيجا من الكبرياء والتواضع وخليطا من الحلم بالآمال والشعور بالواقع المعوس .. ينظرون الى السماء ولا ينسون ان ارجلهم على الارض .. (٤٨)

• • •

وهكذا اصبحت المصرية تشغل يحيى حقى اكثر من أى شيء آخر ، ويكاد يغلب المصرية على التركية بينما هو يعيش في تراب الوطن الاول لاجداده ، الا لم تستطع الحياة التركية بسرها الحثيث نحو الاستقلال والتقدم ان تستهويه استهواء يجعله يتأفف من مصريته ، بل اعطته دوافع قوية لكي لا يألو جهدا في سبيل ان يصل بالمصرية الى درجة من الشفافية والوضوح ، حتى تهدأ روحه العاشقة لمصر .. ولقد ظهرت قوة حاسته **المصرية درجة قوية من البصيرة الصادقة حين حاول ان يكشف الظلال مصرية الكثيرين** من المصريين خاصة اذا كانوا من بين المصريين المهاجرين ويشتغلون بمسائل عامة تهم كافة المصريين .. فانه من المعروف عن نجيب الريحاني ان فنه « مصرى خالص صادق قد انبعث من قلب مصر ودل عليها وارحم منها وارخ لها .. وان الريحاني هو مصر تومتمر هي الريحاني .. (٤٩) الا ان ازدواج شخصيته وجمعها بين الاصل العراقي والنشأة والمصير المصرى يراه يحيى حقى « مفتاح اسرار حياته وتفسير شخصيته .. مات الريحاني طيلة حياته يشعر بفارق مكتوم بينه وبين المصريين .. وهذا سر وحدته الملحوظة في حياته العامة والخاصة .. (٥٠) . ولن كان

---

(٤٨) المرجع السابق .

(٤٩) نفس المرجع السابق .

(٥٠) نفس المرجع السابق .

الريحاني من أوق طبقات المهاجرين الى الشعب المصري وأكثرهم فهما لعاداته ومجانب طبعه فانه لم يسلك الطريق السوى الذى يخدم الفن المسرحي خدمة مصرية خالصة .. وتأثر حد كبير بظروف مصر السياسية والاجتماعية دون أن يؤثر فيها ، وجاراها دون أن يطورها .. عالج عيوبها معالجة سطحية لم تنفذ الى الأعماق وتقتلعها من جذورها .. فلما فكر الريحاني في تكوين فرقة مسرحية هزلية كانت فرقته تستمد موضوعاتها من هامش الحياة المصرية . ومسرحياتها الاستعراضية لا تكاد تخرج عن أنها مجرد مسرحيات « فرانكو آراب » تعتمد على روائح الليفانتين الاجانب ومن انصاف المتعلمين من المصريين الذين سحرتهم الثقافة الغربية .. ويترددون بين الشرق والغرب وهم لا مصريون ولا اجانب .. ولما حاول الريحاني ان يطور مسرحه ويعطيه صيغة أكثر مصرية لجأ الى شخصية « كشكش بك » عمدة كفر البلاص الحديث الثراء بسبب ارتفاع أسعار القطن المفاجيء فأصاب القاهرة ضروبا من الاضطراب ، فأخذ يصرف أمواله بسخاء على اللهو والمتعة مما جعله موضع سخرية سماسرة اللهو واشباههم واستغلال الراقصات والمغنيات .. فاتخذ منه الريحاني موضوع تسلية على المسرح يهزأ من تصرفاته وهو يعبث بين بائعات الهوى ينفق عليهن كل ماله بلا مبالاة ، دون ان يحصل منهن على شيء .. لكي يسرى على رواد المسرح والمهم من الطبقة الوسطى ، سواء من المصريين او الاجانب المقيمين في مصر .. ولكن سرعان ما مل الجمهور شخصية « كشكش بك » لرتابة الموضوعات والحركات والكلمات ، فاضطر أن يغير من الشخصية الاولى لمسرحياته ويجارى التطورات الاجتماعية ، فاتخذ من شخصية « الافندي » ـ الذى أعده دنلوب في المدارس المصرية واسلم اليه الانجليز شئون مصر الداخلية ، واخذ يكون طبقة وسطى نامية ينتمى اليها في الغالب موظفو الحكومة واشباههم ليكسب جمهورا عريضا متزايدا من المصريين ، وحيث ان هذا الافندي لم يألف بعد لبس البدلة او رباط العنق .. ممزق بين الشرق والغرب .. دخله متواضع لايكاد يكفى مطالب الحياة الحديثة .. يعيش بين دسائس الديوان وتحكم الرؤساء وانتشار الوساطة .. فأخذ الريحاني يعبر عن مشاكل هذه الطبقة حتى يبدو أكثر مصرية وأكثر تطورا في معالجة حياة مصر الحديثة . تصور مسرحياته ، المقتبسة من المسرح الفرنسي الرخيص ، هذا الافندي على انه انسان طيب القلب حسن النية وان كان لا يخلو من مكر ودهاء .. لا يريد من الحياة الا السلامة ، ولكنه قادر على الدس والطعن دفاعا عن النفس .. عواطفه حائرة بين حب الفتاة العفيفة المتخلفة والفتاة الحديثة المشكوك في اخلاصها .. ولا يجد ما يتسلى به الا التكشافى ليسخر من خداع الناس ونفاقهم وكشف خبثهم الاجتماعى .. ومع ذلك لا يتخلى عن خلقه الشرقى الصميم الذى يسلم بالقدر والرضاء بما قسم الله .. الا انه عز على يحيى حقى ان يستمد الريحاني مواصفات هذه الشخصية من مسرحيات غير مصرية اعتمدت أكثر ما اعتمدت على المسرح الفرنسى الهابط والمتبست منها اكسد بضاعة بعد ان زوقت بغلاف من التدليس والخداع لاتكاد تخرجها عن اعمال الغش التجارى ، واستوردت لشعب مصر لكى تحيق نطاق هذا الفن المسروق وتفرض عليه ان

يعيش فقط في متاهب طبقة واحدة هي طبقة الافندية .. » ولولا غلبة هـذه الطبقة على المصري ما توفرت أسباب هذا النجاح السطحي للريحاني . » (٥١)

ولذلك كم ألم يحيى حقي أن يقتصر مسرح الريحاني على شخصيات متحرفة في سوية .. لا تصور إلا ما في المجتمع من تفكك وضعف وتخاذل وتراخ .. تنحصر في شخصيات . ابن الذوات التالف .. والفتى العبيط .. والخادمة الترلوحة .. والبنت الدلوعة .. والمعلم لابس الملاسة .. والافندي العجوز الخبيث .. وامرأة تركية عجوز لاضحاك الجمهور على رطانتها العربية تشبها بإضحاك الأتراك على شخصية بالدا مصري يقسم بالله بين كلمة وأخرى .. ورغم أن هذه الشخصيات هي شخصيات مجتمع السنوات الأولى من عشرات القرن العشرين إلا أنه حز في نفس يحيى حقي أن لا نرى مسرحيات الريحاني في المصريين إلا أشخاصاً طبعاتهم بلاهة ، ونواياهم العيب والجيب ، فهمهم سريع وأصابعهم مطوته .. يتوددون للتافه من الأمور . يستسلمون الحكم والمواعظ الفارغة .. يميلون الردح والتشليق . إلا أن عرض الشعب المصري يمثل هذه الصورة البشعة التي تبعث على اليأس من قدرة المصري على النهوض والتطور والتقدم لا يمكن أن تكون إلا خلل نظرة خانقة متعلجة لأجنبي تخدعه بعض المظاهر لينساق في الترويج لها والإلحاح عليها على أنها هي كل شيء في الشعب المصري شأنه في ذلك شأن الزائر الطارئ أو المقيم القليل يندمج فلم يتح له فرص فهم بواطن الأمور في الشخصية المصرية .. فاتت مسرحياته الشعب المصري من فهم إمكانياته فهماً صحيحاً، وبلبلت كثيراً من المثالي والقيم ، مما أفرق تطورهما أيه من ضعف وعجز وبأس ، ومن تشويه الواقع والتشهير بالحقائق .. وبذلك لم يقدم مسرح الريحاني خدمة تذكر للحياة المصرية ، ولا شك في أن ضرره تعدى كل ما سببه من ضحك وقهقهة .. وإذا كان الريحاني فناناً عظيماً لم يؤد خدمة عظيمة لمصر . وهذا هو عيبه الكبير الذي لا يمكن أن تغفره له الحمية المصرية ، ولا يرضى أن يسكت عنه كل من يعشق مصر ، ولا يفكر إلا في دفع المصرية في المسار السوي الصميم .

- ٥ -

وإذا لم يرض يحيى حقي عن اتجاهات الأفكار الاجتماعية في مسرحية أهل الكهف ؛ وتضايق من ضآلة العواطف الوطنية في قصة « عودة الروح » .. كما عز عليه أن يشوه الريحاني ملامح الشعب المصري ليسلي الأجانب تارة وأنصاف المتعلمين من الطبقة الوسطى تارة أخرى .. فإنه أيضاً لم يقلل من هؤلاء الأدباء الذين جرى في قولهم حب مصر ، لم لم تستقر فهم الحياة بين المصريين لسبب أو لآخر ، فتناوله أشد التأوه من المصائب التي ترك

---

(٥١) المرجع السابق .

بالاسرات التركية المصرية التى ارتاحت الى العزلة والانعزالية ، واتخذت مواقف سلبية تاثية من الحياة العامة في مصر ..

ولقد صور لنا يحيى حقى أبرع تصوير كثيرا من الشخصيات القلقة التي تعاني من عقدة الصراع بين المصرية والتركية فى كتابه « **دمعة .. فابتسامة** » وفى كتابه « **ناس فى الظل** » ولعل تحليله لشخصية « علي بك فوزي » تعد من اروع التحليلات واشملها لذلك المصرى الذى يشعر بحنين ضائع لوطن يشعر فى أعماقه انه اصبح غريبا عنه ... لقد سيطر الصراع بين المصرية والتركية على نفسية « علي بك فوزي » فلم يعرف الاستقرار او الراحة ، وظل يقاسي من القلق حتى غاب عنه الهدف الرئيسي الذى ينشده من الحياة . واستولى عليه نوع من الضياع الروحي لم يسمح لمصريته أن تستغرقه استغراقا تاما ولم يمكنه فى الوقت ذاته من ان يستعيد تركيبته الاولى في صورتها النقية .. وعرض يحيى حقي كل ذلك فى كتابه « ناس فى الظل » فى لوحة انتقادية رائعة حاول ان يحلل فيها احوال ذلك المصرى الذى تجرى في عروقه دماء تركية ، ويعاني من اضطرابات ترجع لضرب من الازدواجية فى الميول والرغبات والنزعات والمواقف والافكار والمثل ... ويبين كيف ان علي بك فوزى خاب فى ان يوفق بين النزعات التركية ودوافع الحياة المصرية ، وبالتالي عجز عن الوصول الى الشخصية التى تحقق له السلامة النفسية والاتزان العاطفي والانسجام الفكرى ، الذى لا يتحقق من قبول الواقع المصرى على ما هو عليه والاندماج فيه قلبا وقالبا ، مشاركا الناس مشاركة فعالة ايجابية فى كل ما يخطر على وجدانهم من آمال وأماني ، وكل ما ينزل بهم من الآلام والمصائب . ولا يدع الاسى على فقدان الجاه والسلطان يشل ارادته ويدفعه لعزلة لا تقدم ولا تؤخر ، تعرقل نشاطه وتجعله يجتر اوهاما بالذة لا تنتهي ، ولن تعود عليه الا بأن تمنعه من ان يتطور مع تطور الاحداث الجارية ، فاذا به يقف عند حد التأفف من كل سلوك هابط .. والضيق من قبح الغباء وفظاظة الحس وتبلد الشعور ، والتبرم من الكلمة النابية والنكتة الباردة ، وكراهية الجلف والغرور الذي يدوس على اقدام جلسائه دون ان يدرى او يبالي .. وهكذا لم يتقبل علي بك فوزى كثيرا من الاوضاع الاجتماعية السائدة بين عامة الناس ، ولم يرتح اليها على اعتقاد انها تتنافى مع المستوى الحضارى الرفيع المتمدن والخلق الكريم الفاضل .. فوسع هذا الاعتقاد هوة التناقض بين الاتجاهات التركية والواقع المصرى ، وادى الى نوع من الانفصام يفصل الفرد عن المجتمع ...

لقد تخرج علي بك فوزى فى مدرسة المعلمين العليا التي كانت تعتبر فى ذلك الوقت أقل المعاهد العليا شأنا ، خاصة بين الطبقات التركية التى ينتمي اليها ، على اعتبار انه من سلالة المماليك ولما جاء ترتيبه الاول بين المتخرجين ارسل الى بعثة لانجلترا على نفقة حكومة مصر ، ليدخل مدرسة اكستر التى لا تصل الى مستوى جامعات كمبردج واكسفورد التي لا يدخلها الا ابناء القادرين من الاعيان المصريين على نفقتهم الخاصة .. وكل هذا امتهان وظلم لابن من ابناء الانساب العريقة

التي كان لها الحكم والسيادة في يوم من الأيام . . . وما ان عاد من البعثة الى مصر واشتغل بالتدريس حتى اصطدم بتحكم « مستر دنلوب » الانجليزي مستشار وزارة المعارف والمهيمن عليها هيمنة تامة . . . وتحركت في داخله كوامن السخط على الاحتلال البريطاني الذي أزال كثيرا من نفوذ العناصر التركية ونافسها منافسة خطيرة تهدد مستقبلها ، فاحس بأنه يقع تحت وطأة الظلم الاستعماري الذي اضاع هيبة العناصر التركية واضعف مكانتها بين المصريين .. في حين ان علي بك فوزي رجل رقيق مهذب شديد الحساسية متمدن يتبع اساليب الحضارة .. ذكي الفؤاد غارف من الثقافات الغربية والعربية .. صاحب ذوق فني وأدبي يعشق الطبيعة ويتحسس جمال الالفاظ .. وقف علمه وثقافته ومواهبه في أول الامر على تعليم تلاميذه لا المنهج فحسب ، بل كذلك معنى النخوة والرجولة والشهامة والاعتزاز بالوطن وامجاده .. ومعنى التبري من التعصب والغرور والصلف والكبر الفارغ .. ومعنى الاستمساك بالعدل وكراهية الظلم حتى قدره تلاميذه تقديرا عظيما واخلصوا له الود والحب .. الا انه لم يشعر بالسعادة لكل هذا التقدير وذلك الحب ، لانه كان يحس على الدوام كمغترب على أمره يعمل تحت ظل الاستعمار الذي تشخص امامه في شخصية مستر دنلوب الكريهة، وان رضاه بالسكوت من استبداده دون مواجهة يناقض الدروس الاخلاقية التي يلقنها للطلبة ، فهرب من مهنة التعليم ودخل في مهمة الوظائف الادارية حتى بلغ منصب السكرتير العام لوزارة الزراعة وحصل على رتبة البكوية . . . ولكن رق الوظيفة الادارية تحت الاحتلال قضى على كل ما تبقى من قوة الاحتمال ونفد صبره ، فمال الى العزلة والتبحر في دراسة التصوف . . . لانه لم تكن عنده القدرة على ان يعلن الثورة ضد الاحتلال ويقاوم الاوضاع الفاسدة ويعترض على سياسة الحكام ويلوم تصرفات المحكومين .. بل لم يكن امامه الا ان يتخذ موقف الرفض ، وهو موقف سلبي يلجأ الى عزلة قد تشبع ميوله في التصوف وتعفيه من اللوم ، وتنفي عنه المسئولية الناجمة من الاشتراك في اي عمل من الاعمال ، وتنقله مما يتفشى بين الناس من احقاد وخسة ووضاعة ، الا انها حطمت كل جسر يربطه باهتمامات الناس ، وجعلته يعيش في انفصال كامل لكل ما يدور حوله ، سواء من تسلط الانجليز او من استعلاء الاجانب على الوطنيين ، او من تخبط سياسة الوزراء او من نهب الخديو للبلاد .. او من تفشي الفلظة والمجاجة والوقاحة والغش والمكر والخبث بين العامة .. فاذا بالشعور بعدم الرضا الذي ادى به الى العزلة يتحول الى سخط ، والسخط يصبح انفصالا يشعره بانه ليس له مكان في هذا البلد فتركه مصر هربا من كل هذه الاوضاع التي لا يرتاح اليها .. ولكن ما ان خرج من مصر حتى وجد نفسه في مهب الام غاربة تعصف به من كل جانب .. فما استقر في بلد الا واحس بالغربة وعانى في طلب القوت من طالب الحياة في مصر ، فلم يصبر على الاقامة في المانيا وسرعان ما هاجر الى استانبول لعله يجد في بلاد ينتسب الى اهلها بنسب من الاصل بعض الراحة بين آل اجداده ، ويحس بنوع من الامان والاطمئنان يخلصه من الشعور بالظلم والاضطهاد والمهانة .. ولكن ظل حبيس عزلته وصراعاته ، تبدو عليه مظاهر

الاعياء من ارهاق نفسي رهيب .. لتشقيه الوحدة في الشيخوخة وتضنيه الهزيمة بعد أن ضاع الامل في كل شيء ، ولم يعد يبالي بالتقدم او التخلف بالحياة أو بالموت فلا الحياة في مصر اعطته ما يريد ولا العودة الى الوطن الاول ردت اليه ما ظن انه فقده في مصر .. وما ان اشتد به المرض حتى اضطر للعودة الى الوطن الذي نشأ فيه وتربى ليموت ويدفن في مقابر اسرته .. ولقد شيع جنازته خلق كثير من تلاميذه واصدقائه وكل من سمع عن مكانته وجهوده ليشهدوا العالم على ان مصر لم تبخل على هذا الرجل بالتكريم والتقدير ، ولا تنكر فضل من قدم لها خدمات جليلة ، حتى ولو تنكر لها واعطاها ظهره ليخفي معالم الغضب والضيق والرفض والامتعاض.(٥٢)

الا ان يحيى حقي لم يكتف بأن يعرض مشكلة تمثل العناصر المصرية التركية في تعميق مصريتها عرضا واقعيا من خلال مشاهداته وملاحظاته هنا وهناك في مصر وتركيا ، وفي مختلف الاوساط التي اختلط بها واجتمع فيها مع عناصر تتضارب في داخلها التيارات المصرية التركية من الاقارب والاصدقاء والمعارف .. بل اهتم ايضا بمعالجتها كفنان القصص المتميز تاركا مطلق الحرية في العرض والوصف والتحليل لشخصيات موجودة فعلا في المجتمع المصري ، دون ان ينبه الى اصولها التركية الا بالاشارة او الرمز ، محاولا ان يبرز جهودها المتواصلة من اجل الاندماج في المجتمع المصري اندماجا كليا خلال شتى مراحل تطور تفكيره . ونخص بالذكر هنا ثلاثة نماذج مختلفة تناولها في « القنديل ام هاشم » وهي شخصية « داود افندي » في قصة « السلحفاة تطير » .. وفي مرحلة « صح النوم » وهي شخصية « اللازم مع زوجته » .. ثم في مرحلة « الفراش الشاغر » وهي شخصية « فتى العائلة » .

١ ـ اما عن شخصية « داود افندي » في قصة « السلحفاة تطير » فهي تصور لنا كيف يتزل المجتمع العقاب بكل من يعتزل الناس ويعيش بعيدا عنهم ولا يشاركهم في معاركهم وانفعالاتهم ، فيتعذر عليه الاندماج اندماجا ايجابيا فعالا في الحياة العامة ، فيجانب تصرفاته الصواب ، اذ كثيرا ما تختلط عليه الامور ويقع فريسة الحقد والمكر ، فيتصرف بحماقة قد توقعه في مشاكل تضيع عليه كل شيء وتفرض عليه ضربا من التأقلم تفقده مقومات شخصيته الاصلية المتوارثة ، دون ان يمنحها اصالة جديدة ويغرقها في تقاليد بالية متخلفة ... ويصر يحيى حقي على ان « داود افندي » شخصية خيالية ، الا انه يؤكد من حين لآخر انه ليس شخصية خرافية بل لا ينفي احتمال وجوده بيننا حيا يرزق .. وداود افندي كما يصوره لنا يحيى حقي احد اولاد الذوات الذين ورثوا عن وارثين عن وارثين .. فكان من المعقول ان يفتقروا طبقة بعد طبقة وجيلا بعد جيل « فاصبحوا كالحيوان البرمائي لا هو هنا ولا هو هناك .. فهم لذلك اسرع الفرائس »(٥٣) يتشبث

---

(٥٢) يحيى حقي : « ناس في الظل » كتاب الجمهورية العدد٢ يوليه ١٩٧١ القاهرة .

(٥٣) يحيى حقي : قنديل ام هاشم .. قصة السلحفاة تطير :دار المعارف ـ القاهرة مجموعة اقرأ رقم ١٨ .

بأن يسكن في ملكه بدار قديمة في حارة مسدودة ،مع ان له استحقاقاً فيوقف ورثة عن ام امه او جد جده ، يمكنه من ان يعيش في حي افضل .. هو بالنسبة لجيرانه غني ولكنه في الواقع فقير .. يعتز بأصله الذي يغنيه فيستريح ولا يسلكه في الفقراء فيريح .. ان هو كأحد اولاد الذوات الذين تربوا في آثار عز سالف .. نجد فيه مع الكبرياء والانفة كثيرا من الاخلاق الصبيان وقلة الدراية بالحياة في معتركاتها .. بما في العالم الخارجي تمسكا بالماضي .. طيب كريم مع معاونة .. ينفر من القريب .. اهل الحارة تجله لغناه ..وتستغبطه لنزوله الى مستواهم ،ويتعجبون كيف يجد لذة في ان تصافح يده الناعمة الرقيقة يداصلبة خشنة كيد العمال ...

ولما حدث ان استدعي لقسم الشرطة بسبب مخالفة القاه ماء قذر في الطريق وهو يجهل اسلوب التعامل في المجتمع الذي يعيش فيه ـ فاذا بعامل قعود الجلوس معه ويتظاهر بصداقته يستفزه ويسهل عليه اثارته ضد سوء معاملة رجال الشرطة لعامة الناس ، ويبدي رغبته في الذهاب معه الى قسم الشرطة ليكون في عونه .. الا انه لم يفده الرفيق .. وكان الجاويش فظا من الفظاظة وقلة الادب بحيث لم يستطع داود افندي ، بما فيه من الكبرياء وقلة الصبر ، ان يقبل ان يهزه الجاويش هزة توقع طربوشه على الارض امام عدد كبير من الناس .. وصمم على ان يرفع دعوى تعويض بقرش صاغ واحد كرد شرف ، وما كان من هذا العامل الا ان سايره وشجعه على ان يستمر في مقاضاة الجاويش .. ولم يتأخر هذا الرفيق في الذهاب معه الى المحكمة ، لما رآه وجلا مضطربا رغم انه اعتقد ان العدالة تقتضي الا يبدو داود افندي لمن حوله وابتعاده عن محيط الحياة التي يعيشها المكدودون التعبون من عامة الشعب المصليون حرقا في زحمة الحياة القاسية ، الا ان قلبه رق له عندما اشتد به القلق .. ولكن سرعان ما اعتاد داود افندي المحاكم بعد ان تكرر تأجيل جلسة الدعوى مرة بعد اخرى .. واذا به يصاحب وكلاء المحامين الذين وجدوا فيه صيدا ثمينا يلتفون حوله ، يحتسون القهوة والشاي ،ويدخنون النارجيلة على حسابه .. ويجد متعة تصل حد الهواية في عمل المحاكم دعته الى ارشاد وكلاء المحامين في احاديث القضايا ويدخل معهم جلساتها لمجرد الاستمتاع .. مما اثرى صديقه العامل بأن يعرض عليه بأن يتكلف برفع دعوى لقريب له معدم يستولي رجل ذو بطش وسلطان على ملك واسع له نظير اقتسام ما يحكم به مناصفة بينهما .. فوقع في المصيدة واذ ابشهامته وطيبته وجهله تبسط له الامور ، وتدفعه لان يظهر كامل استعداده ليصرف على هذه الدعوى حتى ولو رهن مصاغ زوجته .. ويورط نفسه في مشاكل الآخرين غرّته فيها هذا العامل من حسن قصد او سوء نية ، اذ انه يدعي انه ما اراد الا خير الجميع بان يخدم الاثنين معا فيشغل داود افندي اوقات الفراغ في عمل يعود عليه بالنفع ويرجع الملك المغتصب لقريبه ...ولكن وكلاء المحامين تزاحموا حول داود افندي يستغلونه ويستنزفون امواله ، كانهم يريدون ان يستردوا دينا بطريقة غير مباشرة او يستعيدوا اموالا كانت لهم سلبت منهم بطريقة او بأخرى..

فكان داود افندي ضحية انتقام جيل مما سبق فعله اجداده بعامة الفلاحين واستغلالهم لكافة المصريين وخداعهم لهم وسلب اموالهم .. وهو لا يدري كيف يتصرف بحكمة وقورة .. بل تستولى عليه كبرياء وانفة تجعله يعيش في الماضي اكثر من الحاضر .. وتدفعه لان يعتز بأصله الذي لا يغنيه ، ولكنه يتشبث به لمجرد انه يريحه ويرتاح الى المشاعر التي توهمه بأنه ما زال ابن حر من قمة رأسه الى اخمص قدمه ... « عجبت من همه التافه .. ولكن كثيرا من الناس الطيبين لا يسلمون في بعض الاحيان من الوهم والشك في براءة ماضيهم ... فتختلط في انفعالهم الرغبة بالحقيقة ... ام هم يستيقظون فجأة الى انه ليس هناك دليل واحد على ان الحياة غير مزدوجة .. ؟ لا يستطيع ان يكون واثقا كل الوثوق من ان ليس له في الوقت نفسه حياة اخرى كالاحلام .. لا يشعر بها كما لا يشعر بما حوله من ركبه الدوار في حياة تتصل على ضباب كثيف بحياة اشد غموضا لكائنات اخرى .. (٥٤) .

ولكن سرعان ما طحنته الايام وضاع بين الاحداث وتاه في خضم المشاكل ، بسبب جهله بالمصريين وبعده عن الحياة المصرية وتقوقعه داخل عادات واتجاهات تأبى عليه الخروج من داره القديمة بالحارة المسدودة .. ومع ذلك اجبر في النهاية الى ان يندمج في الحياة المصرية رغما عنه **ولكن من الباب الخلفي دون ان يتحرر من مشاعر الفرية** .. وان بدا انه اخذ يجاري **بعض المظاهر السطحية للحياة** المصرية .. بخلاف جاره ذلك العامل الذي نشأ نشأة متواضعة ولا ينفك يعرض عليه **خدمات لا** يتجرها ، بل يورطه في مشاكل بدعوى انه يقصد مساعدته ... يركز **اهتماماته نحو التخلص من** وسط عمال اليومية ليلحق بطبقة الافندية اصحاب المرتبات الشهرية ..

واخيرا نجح في تحقيق رغبته بعد الحاح وارادة ماء الوجه وتخلص من ماضيه الكريه كله . حتى الحارة المسدودة تركها وسكن التبرة .. بينما انحدر الحال بداود افندي .. والذي يشاهد يجلس في مطعم امام طبق فول مدمس بجلابية وطاقيته ، تجمع أصابعه بلقمة حبات الفول وبعجنها في الزيت لم تحملها كتلة واحدة كالكرة الى فمه .. وتنجشأ برائحة البصل الاخضر والفجل .. وهو الذي تعود تذوق ضروب من الموسيقى الرفيعة يتأنق في ملبسه ولا يأكل الا اخف انواع الطعام ، امعانا في اظهار احساسا بأنه يختلف حقا عن عامة الناس .. وما ان شاهده العامل وهو يأكل في مطعم الفول حتى اظهر انشراحه وسروره لهذا التحول في حياة داود افندي ، الا تأكد ان صحة داود افندي آخذة في التحسن ، وانه تخلص من امراض معدته التي يشكو منها .. ولكن ما ان تقدم اليه لتحيته حتى نظر اليه داود افندي نظرة تجمع اقسى ما تستطيع ان تستوعبه من الكراهية والتأفف والبغض ويصرخ شاتما بوجهه : « روح الله يخرب بيتك زى ما خربت بيتي » (٥٥) .. وهكذا القى داود افندي مغبة كل ما وصل اليه

---

(٥٤) نفس المرجع السابق .

(٥٥) نفس المرجع .

من حال على هذا العامل البسيط الذى اصبح افنديا .. ولا يدرى لماذا يكن له داود افندى مثل هذه الكراهية وذلك العداء ، مع انه حاول ان يقدم له كل ما يستطيع ان يقدمه له من خدمات .. ولم يعرف ماذا فعله حتى يلقى منه مثل هذه المعاملة القاسية .. ! ! !

ب ـ ان تفسخ شخصية داود افندى لم تغادر ذهن يحيى حقى .. فما ان قامت ثورة ٢٣ يوليه حتى دعته ما احدثته هذه الثورة من تغييرات جذرية فى المجتمع المصري الى وضع قصة « صح النوم » ليحلل نماذج من الشعب المصرى قبيل الثورة وبعيدها .. واذا به يهتم بأن يكون من بين الشخصيات المصرية الصميمة شخصية التركى المصرى ، على اعتبار انه ظاهرة اجتماعية تعيش فى المجتمع المصرى تحتاج الوصف والتحليل والدراسة .. ويقع اختياره على قوم قوقازي يتناول تصرفاته قبل الثورة هو وزوجته فى لوحة من القسم الاول لصح النوم سماه « كتاب الامس » كما تتبع تطورات هاتين الشخصيتين بعد الثورة فى القسم الثاني من هذه القصة الذي سماه « كتاب اليوم » ، محاولا ان يكشف عن المزيد من ملامح الشخصية التركية المصرية فى ضوء المتغيرات الجديدة ، لتتضح خباياها دخائلها عن طريق ملاحظة كيفية تكيفها مع كل ما يقع من تغييرات اجتماعية ... وانطلاق ذلك يريد ان يصل الى معرفة نفسه اولا وقبل كل شيء حتى يجنبها التخبط والتورط والارتباك ، ويحفظها من الضياع الذي ليس بعده ضياع .. ! !

وكان يحيى حقى فى تعرضه للقوم وزوجته اكثر صراحة فى تحديد اصولهما التركية .. لم يقف عند الرمز والاشارة (٥٥) واذا به يصور لنا رجلا يلهمى قصر القامة حتى كاد يكون قزما .. يعد نفسه من ابناء القرية بينما هو حفيد امرائين براري آسيا ، تركوا الوطن وهاجروا الى مصر وتقربوا الى حاشية السلطان الذى اقطعهم ارضا فسيحة فى تلك القرية التي يدعى انه من ابنائها ... يبنت الاسرة فى هذه القرية دارا ضخمة كان اثاثها وتحفها حديث الاهالى ودهشتهم .. ومع ذلك لا تقيم فيها الا حين تجيء مع جمع المحصول ، ثم تعود الى العاصمة بعد قبض ثمنه « وشاء ربك مالك الملك ان يخلف الاباء ابناء اضاعوا ما ورثوا ، واخذت الارض تتناقص اطرافها ، ويد الخراب تمتد الى المنزل .. ولم يبق لسلالة هذه الاسرة فى وقتنا هذا الا ثلاثة افدنة وحجرتان فوق مدخل الدار لم تتهدم جدرانها .. » (٥٦) ومن اجل هذه التركة يلقى حفيد هذه الاسرة جهدا كبيرا ليفوز بمنصب امين مخزن السماد الهين ومرتبه الضئيل ، حتى يستطيع ان يعيش هو وزوجته فيما تبقى من المنزل ويراقب ارضه وينتفع بخيراتها .. وحتى لا تردد زوجته ما تدعيه من انها تزوجت عاطلا .. كما يعيش فى وسط الناس يعرفون قدره واصله .. فتتم له كرامة وعمل وجاه .. لم يكن قد تبقى فى اسرته من الرجال الا هو .. يلتف حوله عدد قليل من النساء بعضهن ارامل واغلبهن عوانس وكلهن مصابات بامراض شتى .. يعشن جميعا

(٥٦) يحيى حقى : « صح النوم » .

في فاقة منتشرة في منازل مختبئة في ازقة العاصمة .. ولما ترملت واحدة من تلك القرويات وخلف لها زوجها المرحوم ثروة غير يسيرة قبل العزم ان يتزوجها بعد ان وضعت يدها على التركة رغم انها ضخمة الجثة ذميمة الخلقة بشعة الصورة .. وادعى انه ما تزوجها الا قياما بواجبه كزعيم للاسرة اذ ليس لها احد غيره .. وقبلت ان تذهب معه للقرية .. الا انها اقامت في دار حسنة جميلة في اطراف القرية يدفع لها ايجارا يوازي مرتب الزوج .. ثم جاء باثاث لا بأس به يدل على سعة العيش واستعان بخادم اسود ، وهو ترف لا تعرفه القرية ...

وما استقر القزم في القرية حتى اخذ يرتاد على الحان ويتردد على فتاة من بائعات الهوى في عاصمة الاقليم ، يبعثر نقوده التي يبتزها من زوجته بعد عراك وصياح ويواجه نفسها من اسرافه بغضب اشد ارهابا ، مدعيا بأن الديون قد كثرت عليه وينبغي ان يسددها فلا تقوى على احتمال رؤيته مغموما فتجود عليه بما يسأل ... ولكن جاء يوم ونفد فيه صبر الزوجة ويئست من علاجه .. فاذا بها هي الاخرى تحاول ان تبعثر نقودها وتوزعها على جيرانها المحرومين والمساكين ، قبل ان يستولي عليها ويصرفها على الخمر والنساء .. واخذت تتوسع في الاحسان فرتبت لاسر فقيرة اعانة شهرية لا تنقطع .. وتكفلت برعاية بعض ايتام القرية ، وتقدم لهم ما يحتاجون اليه من مأكل وملبس وتعليم .. وتهرول لمساعدة المرضى بالهدايا والمال .. فذاع صيت كرمها بعد ان عم خيرها اهل القرية واحبها الناس حبا جما .. واخذوا يضربون بها المثل في النبل والعطف على الفقراء والمساكين وصارت دارها مقصد المحتاجين وملجأ المعوزين ... ولكن كثرة انفاق الزوجة خففت النقود في يد القزم واذا به لا يقدر على زيارة عاصمة الاقليم الا مرة واحدة كل اول شهر ، وان لم ينقطع من الحان فانه اخذ يباعد بين الكأس والكأس ويكثر من التحدث عن نكبته في تلك الزوجة الثلاثة التي تبعثر نقودها على الفقراء وتبخل على زوجها ، رغم انها تعلم ان كثيرا من قصادها من النصابين والادعياء .. ومع ذلك احيانا ينجح في الحصول على مال منها بطريقة او باخرى ، وسرعان ما يتدافع الى الحان ويشرب حتى الثمالة ، ويجبر جميع رواد الحان على الشرب على حسابه ، وويل للذي يرفض .. انه يجمع بين المهابة والعربدة يصر على ان يحترمه اهل القرية حين ينبسط معهم .. ويثور اذا لم ينبسطوا معه حين يزور منهم متعجرفا ...

وكان هذا بالامس .. ولكن ما ان جاء الاستاذ ـ ابن القرية المثقف ـ وولى حكم القرية وبدأ اصلاحاته باغلاق الحان والزوم الجميع الاستقامة حتى تبدل حال القزم وزوجه .. فاذا به يحرص على الخروج من داره في الصباح بعدان تاب من شرب الخمر حرصا على النقود ؛ بل لم يعد ايضا يهتم بحسن هندامه ، فذهبت اناقته وتبهدل مظهره بعد ان انصرف كل تفكيره الى استرداد الارض التي اضاعها الآباء بعد ان ورثوها من الاجداد « كانت ارضنا مربعة الشكل .. خير اراضي القرية .. فانا الآن لا افكر الا في استرداد هذه الارض .. وان ارى ارضنا عادت

مربعة الشكل كما كانت .. كان الجزء الناقص مقطوع من قلبي .. اذا عادت لي ساكون اسعد خلق الله ... ومن اجل ذلك قررت انا وزوجتي ان توفر كل قرش وكل مليم لشراء هذه الارض. وبذلك انتهى كل نزاع وخلاف بين الزوجين لما توحدت اهدافهما وخططهما .. واخلصت الزوجة تدخر ايرادها كله حتى تمكن زوجها من استرداد ارض ـ اجداده .. وقبلت ان تتحمل في سبيل ذلك كل مشاق العمل المنزلي بعد ان استغنت عن الخادم ؛ ولم تعد تبالي بمساعدة احد .. لا يهمها سوى ترقب اليوم الذي تحلم به هي وزوجها .. وهو يوم تربيع الارض ..

فما الذي بدل الاندفاع والعجرة والتبذير والحماقة عند القوم الى حرص وتقتير واهمال المظاهر .. ؟ ولماذا انساقت الزوجة وراء الزوج مثل هذه التصرفات ؛ ورضيت ان تتخلى عن الإحسان والعطف على الفقراء والمحتاجين ، وقبلت العمل المنزلي الشاق دون عون خادم وهي التي نشأت على الترف والرخاء .. ؟ ولماذا هذا الاصرار على تربيع الارض .. ؟ لاشك ان هناك انفعالات عميقة هزت شخصية المصري التركي تنبه يحيى حقي الى تطورها القريب بعد قيام ثورة ٢٣ يوليه التي نزلت نزول الصاعقة على كثير من العائلات المصرية ذات الاصلاب التركية بسبب ما احدثته هذه الثورة من تغييرات اجتماعية واقتصادية فاذا بكثير من هذه العائلات تجد نفسها في العراء بلا ارض او مال بل بلا سند من السلطان بعد الغاء الملكية واصدار قوانين التأميم وتحديد ملكية الاراضي الزراعية ... الا احدثت كل تلك ضربا من الفزع الفكري ما جعل مثل هذه الشخصيات تنكمش انكماشا اجتماعيا رهيبا وتتخلى عن القيم التي تمسكت بها وتعودت عليها ، فتنكرت للاحسان ومساعدة الاخرين وحسن معاشرة الذين يحيطون بهم ؛ وحبست انفاسها في احلام الماضي تحاول ان تحقق آمالا بالعزلة والحرمان من تلك المتع التي كانت ملك ايديهم في ذات يوم بدون مقابل من الجهد والعرق ...

الا ان يحيى حقي لا يترك قارىء « صح النوم » دون ان يشعره بانه ما زالت في جعبته تحليلات تخص الاسر التركية المصرية لم يفضها بعد ... واذا به يفاجئنا بقصة « الفراش الشاغر » فنجد فيها من الكآبة والبشاعة ما تشمئز منها النفس على غير ما تعودنا عليه ... فاذا كانت صراحته وسخريته لاذعة فان نرشه الخراب الروحي الذي اصاب اسرة شارع الريحان يثير الفزع المخيف .. ويتعدى مرحلة الضياع التي كانت تعيشها اسرة القوم .. وتنذر بخراب يبعث على نفور انساني مروع من واقع حياة كريمة نتنة ؛ يثير في اعماقه من تأوهات تشكو من ظلم الانسان للانسان على مدى اجيال واجيال خلال احداث ومحن لاذنب فيها للجيل الحالي المتخاذل المتواني ، الذي استسلم لوهم بأن الاقدار هي التي شاءت وهو لم يشأ شيئا على الاطلاق .. !!

---

(٤٧) نفس المرجع السابق .

ولكن يحيى حقي لم يرد ان يكون واضحا كل الوضوح في قصة « **الفراش الشاغر** » ولذلك لجأ الى الرموز الرهيبة التي تهول في إثارة القرف من مصير اسرة شارع الريحان التي هوت الى حضيض خلقي يحط من كرامة الانسان .. واستباح لنفسه بأن يستعين بشتى الصيغ البلاغية من تشبيه واستعارة وتورية وكناية .. يخفف بما يتعمده ابهام واعمال فكر من وطأة البيان المباشر عن الفحش والفسق والخسة في الانسان .. !!

اذ تصور لنا قصة « الفراش الشاغر بمدى ما وصلت اليه اسرة مصرية ـ هي في الاغلب من اصل تركي كانت تسكن بشارع الريحان ، وهو اشبه بحارة في حي شعبي تزاحم على جانبيه كثير من الدكاكين المتلاصقة الفقيرة .. من بينها دكان حلواني يقع قبالة بيت هذه الاسرة التي تتكون من اب وام وولد وبنت تعيش في يسر وترف وسط اسر مطحونة وعمال فقراء ... ومع ذلك تركها الجيران واهل الشارع في حالها لما بدا لهم ان افرادها على قسط كبير من الحياء الذي يجعلها تفضل ان تعيش في عزلة وراء ستر .. الا انها لم تستطع ان تخفي ما ترتع فيه من سعادة ورفاهية وترف ، اذ تعيش مظاهرها في المواسم والاعياد بنور الفرح الذي يتدفق من النوافذ وما يصل الى اسماعهم من جلجلة الضحك .. كما انه كثيرا ما تقف سيارة فاخرة من حين لآخر امام باب البيت وينزل منها رجال يتأسون لحاله لما يصدر عنه من تصرفات غريبة ..

الا ان هذه الاسرة في الحقيقة تمثل الشيء القذر الذي من دنيا الناس .. هي منخهم زنابير لا امن الا في تجاهلها ... » ... وتعتقد ان العيش الهنيء خطا مموجا يرتكز جديده على قديمه ويتسع الافق كلما علا .. ولا قوس دوران فالشروق لم سمت فالانحدار فمغيب بل تقف نظراتهم الى الحياة عند حد انها مجرد خط افقي ابيض مستقيم ترسمه نقط سود متشابهة ضاع لونها من شدة تلاصقها ولذلك آثرت هذه الاسرة الانسحاب من دنيا الناس ، فافرغت حياتها من كل مضمون ايجابي ... ومضت تحيا في السلبية ... انهم يخشون الجهد ... فيؤثرون حياة الشح والجبن لانها دائما مضمونة ... اما ان تكون كريما وشجاعا فلن الدوام فهذا ليس مضمونا » (٥٨) يصل ترفهم درجة ان « طعامهم تنضغه لهم فيلهم القادم وبذ الهاون .. يأكلون اللحم والخضروات انها عجينة واحدة مهروسة ، ويجدن لذة مذاقها في ضياع طعم اجزائها .. فالشبوع عندهم نتيجة من مقابلة وجها لوجه لنعمة مخلوعة الصدار .. (٥٩) » واذا كان الحق يقتضي ان يشكروا الله على هذه النعم .. الا انهم يتنكرون لها وينكرونها ما يوقعهم في وضع متعب ، يفتح على مصراعيه كل ابواب الفكر ، رغم انهم اكثر من غيرهم معرفة بقدر هذه النعم وينبغي ان يكونوا اشد امتنانا لها ... واذا زعموا انهم « كفوا عن الانطاء خشية نوال عوض يفرقهم بجاذبيته او

(٥٨) يحيى حقي : الفراش الشاغر .. مجلة الكاتب .. ابريل ـ ١٩٦١ ـ القاهرة .

(٥٩) نفس المرجع السابق .

يمتصهم بفيضانه وادعوا انهم بذلك امنوا التلفيج وشرب الكف لدمامة العقوق من الاخرين الا انه بهذه المزاعم وتلك الادعاءات لا يخفون الا خستة ارواحهم هم انفسهم **وهي تنهيب عن الاخطاء حتى تبقى على ما هي عليه من حنق** الشح وخوره .. وابعد منها ما استطاعت سماحة الكرم وشجاعته .. ولذلك « اذا ما خلوا الى انفسهم يشعرون بأن ايامهم قد سقت اسماؤهـا » وتشابهت ولا يتنبهون الى ما بينها من فروق .. ولايحسون بحيوية حدث من الاحداث الا اذا ارتبط « بدوران غل أو بترديد صيحات الطيور المهاجرة (٦٠) .

ورغم ما تعيش فيه هذه الاسرة من غربة تكاد تفصلها تماما ــ سواء أكان فكريا او عمليا ــ عن كل ما يحيطها ومن حياة اجتماعية مما يجعلها عاجزة على التجاوب مع كل ما يطرأ عليها من تقلبات وتطورات .. فان هناك ايضا رباطا هشا لا يكاد يوطد العلاقات بين افراد هذه الاسرة .. ولذلك لا تعجب اذا ما اختلطت الاعمار باختلاط الايام ونادى الزوج امرأته بيا امي .. وهي تناديه بيا ابني .. وينادي ابنها الوحيد بيا اخانا .. وينادي الابن امه بيا عروستي .. في حين ان مناداته لابيه قد نسيها لانه انقلع منها منذ سن الخامسة « واصبح لا يتحدث اليه او عنه في حضرته » ولا يشير اليه بضمير الغائب « هو » في حالة غيابه ...

ورغم ما تعيش فيه هذه الاسرة من يسر ورفاهية فانها رضيت بان تقيم في شارع الريحان الشعبي الفقير المتواضع الذي كل اهله من الكادحين الكادين .. وقد يرجع ذلك الى نوع من الحب للشارع واهله ينبعث من ارتياح افراد هذه الاسرة الى نظرات التقدير والانبهار التي يشاهدونها في عيون الاهالي من حين لآخر ، وتعويضهم عما فقدوه من سلطان وقوة ونفوذ .. ولذلك فضلت السكنى في وسط هؤلاء القوم البسطاء السذج في نفس الوقت الذي تحيا فيه حياتها الخاصة حسب تقاليدها وماشبت عليه ، فهي وان كانت ترتاح للاقامة في احد بيوت شارع الريحان كمكان استيطان فانها لا تميل لمشاركة الناس والجيران وسكان الشارع سواء في حياتهم الخاصة او العامة .. بسبب فقدان الثقة المتبادلة اولا وقبل كل شيء .. وتوقع الغدر من الآخرين في اية لحظة بمناسبة وبدون مناسبة .. ولذلك تخشى افراد هذه الاسرة تقديم المعروف حتى لا يقابلوا بالخسة ونكران الجميل ... **بينما يشعر اهل الشارع بان هذه الاسرة ترتع في عز ليس من حقها لان افرادها** لا يكادون يعملون شيئا ولايؤدون خدمة ما تعود على احد بنفع .. في نظرهم لا تستحق حتى مجرد الحياة .. وانما تتوهمه فيهم هذه الاسرة من خداع وغش ونكران الجميل ما هي الا ضروب من الاسلحة يتذرعون بها ضد مواقف مثل هذه الاسر منعزلة وسلبية .. وتأتي التقرب بالزلفى والخضوع والطاعة لن يمتنع عن الاعطاء ويرد في مقابل بقايا ما يتساقط من الموائد المزيد من الشكر والعرفان .. ولذلك لا تعجب اذا ما انعدم التفاهم وتفككت الروابط ، وان كان الجميع يلتفون حول حب الشارع ولا يريدون به بديلا ويتعلقون به كل التعلق ...

---

(٦٠) يحيى حقي : الفراش الشاغر .

وهذا التضارب في المشاعر يدعو الى ضرب من التخبط الانفعالي لا يعرف كيف ينسق بين تيارات هذه المشاعر المتعارضة ... فالعزلة لا تمنح الامان .. والاختلاط لا يبعث على الاطمئنان .. !! .. ان الكبرياء المجروح .. والتعالي العاجز والمنهجية المتدانية تشعر على الدوام بان المشاركة والامتزاج والذوبان لا تخلو من الهزامية ، وتنم عن خيبة وفشل واضمحلال فيزداد التمسك بالعزلة كستار يخفي العجز ويمنع الاخرين من كشف النقص والضعف والتخاذل ، ويكتفي ، بان يعيش حياة سهلة ميسرة تحققعته وطأة ضياع النفوذ والسلطان ولا تشعر بالحاجة الى العمل الجاد النافع ، او للدافع لتحقيق مستقبل افضل ... لان المشاركة بمختلف الجهود لن توصل الى ما كان عليه الاجداد او ترجع مجد الماضي الذي ولى .. فهناك نوع من الياس ادى الى حالة من الرفض لا تقبل الاستسلام والرضوخ للامر الواقع ، فانساق اصحاب المجد الضائع الى العزلة السلبية والامتناع عن عطاء يظنون بها عن سخطهم وغضبهم ... ولم يجدوا ما يمنعهم من التمتع بالثراء الموروث في لا مبالاة تقف عند حد الاستهلاك لهذا الثراء ، دون التفكير في استثماره استثمارا يعود على الجميع بالخير يدعون انهم يعيشون على موارد يحاول الاهالي نهبها وحرمانهم منها ، وليس امامهم الا زيادة الحرص الذي اضاف عليهم مظهر الشح الذي يتهرب من السخاء ، خشية مغبة تكاثر عدد الطالبين بالهبات والهدايا ... وهكذا تحول الخوف من نهب المال الموروث والمصدر الوحيد للحياة الرغدة الى امتناع عن الاعطاء .. !! ولا بد ان نتوقع انقطاع كل صلة تربطهم بعامة الناس ، وضياع الثقة المتبادلة بين الجميع ... ولا تدري كيف يمكن تحمل مثل هذه الحياة التي تفتقد كل هذه المعاني لولا حب الكل للشارع ..!! ان العزلة مهما كانت صارمة لا تستطيع ان تقطع كل الصلات بحياة اجتماعية يعيش الانسان في وسطها ، وتحيطه من كل جانب ، وتقابله رغما عنه في اية خطوة ولذلك فان الانطواء الذي يلتزم بالعزلة الكاملة لا يمكن ان يصل الى حد الهروب الكامل الشامل من عالم المجتمع .. بل ان العزلة في حد ذاتها لا تستطيع ان تحول دون اثر المجتمع الشاذ الذي قد ينزل اشد ضروب العقوبة على كل من يقف منه موقفا سلبيا ولا يسهم اسهاما ايجابيا في تقدمه ويمتنع من المشاركة والبذل والاعطاء .

لقد توفر لاسرة شارع الريحان حياة سهلة مترفة دون صراع او تزاحم ، يجعلها لا تبالي ببذل جهد او امعان فكر ، لانها لا تحس بالقلق على الرزق او تخشى من تقلب الغد .. كما تعودت ان تتصرف بحرية دون قيد او ضغط .. تتمتع بقدرة على التحرك دون ان تسمح بتدخل من احد .. يوجد بين افرادها علاقات رقيقة لا عنف فيها ولا صخب ، تهتم بتبادل الاحترام والحرص على مظاهر المحبة .. وتلتزم بتماسك لا يعترف بتسرب دخيل . الا انها في النهاية لا تكون مجتمعا قوي البنيان يحتمل مواجهة كل ما يحدث من تطورات في المجتمع الكبير .. ولذلك غالبا ما تتخبط التصرفات وتضطرب التحركات اذا ما احتك احدهم بالمجتمع الخارجي .. او اعترى هذا المجتمع اي تغير مفاجيء او تعديل غير متوقع .. رغم ما يتمتع به من حرية تسمح بالانطلاق والتصدي لكل ما يستجد من مفاجآت .. وتقوى على ازالة كل غشاوة تعوق وضوح

الرؤية وتطمس معالم الطريق السوى .. وذلك لان افراد هذه الاسرة رغم ما يرعمون انهم من مستوى حضارى متقدم فانهم يقضون ايامهم بلا آمال عريضة تقصد تحقيق هدف محدد ، ويسرعون بتلبية رغباتهم الطارئة دون اهتمام ببلوغ غاية مرجوة ... !!

ولذلك لما ابدى الابن الوحيد رغبة فى الالتحاق بكلية التجارة دون ان يبدى الاسباب لم يعترض احد ، وتركت له مطلق الحرية فى الاختيار .. بل لم يندهش الوالدان حين عدل عن الدراسة فى الكلية بعد ان امضى بها سنة كاملة .. اذ لم يخطر على بالهما ان يجبراه على دراسة اورثته كرها للعلوم التى تتعلق بشئون المال والتجارة والادارة والارقام .. لانهما لم ينتبها الى ان فقدان الهدف والبرنامج وضياع الامل فى المستقبل هو الذى جعل الفتى لا يجد المتعة العقلية فى هذه العلوم .. فلم يواصل دراسته فى كلية التجارة ... ورغم انه رأى باختياره ان يلتحق بعد ذلك بكلية الآداب ، الا انه لم يرتح الى ما عرفه من نظريات ومذاهب ودراسات حثته على الجدل والثرثرة والسفسطة ، ولم تربِ فيه الذوق للادب والفن ، ولم تعمل على تنمية احساسه بالجمال ... ولم يجد من يراجعه حين عدل عن دراسته فى كلية الآداب بعد ان كرس لها سنة اخرى .. بل طاوعه والداه حين فضل ان يقطع صلته بالدراسة ويبقى فى الدار عاطلا بلا عمل سنة ثالثة ... ولكن الفراغ قلب حياته راسا على عقب اذ احتلت الرأس افكار الزواج .. الا انه لم يشغل نفسه طويلا فى البحث عن زوجة تهون عليه مثل هذا الفراغ ... لقد اقسم ان يتزوج فتاة ريفية فى صحبة امها ومع ابيها مستأجر اطيان من العائلة كلما حل موعد تسديد القسط الشتوى او القسط الصيفى ... وسرعان ما استولت عليه روح حكمت بان هذه الفتاة تصلح له ، فهى فتاة خام ساذجة لها عيون سيالة لا تقوى على توجيه النظر .. وجبهة لا تبرق بفكرة .. وجسد فى حالة شيوع تاهت فيه مفاتن الاعضاء .. وشعر مليد يرى من الآن مقدار سحره اذا غسلته وتهدل شلال مبتلة على جبينها وخديها .. ، فلم يتردد ووقع عليها اختياره لتصبح زوجة له ، رغم انه عرف انها ارملة لزوج من اقربائها فى الصعيد قتل فى حادث اخذ بالثأر بعد ايام معدودة من زفافها اليه ... اذ احس وهو فى طريقه اليها انه قد ارتد الى الطبيعة الام وتخلص من تقاليد الاجداد ، التى جرت على خوض المعارك من اجل الظفر بزوجة ابتداء من المطاردة واقتناص الوحش الوحشى الى خطف ام شراء والبنات بطولة بعد نزال الخال فيما يتساق اليه من متاهات القول والسهر ..ولا يوجد ما يجبره على ان يجارى الشباب والتنهدات .. وراقه ان يحصل على زوجة سهلة قد تولى غيره فك بكارتها ودكها كالطاحن .. وما عليه الا ان يشتريه مستويا ناعما جاهزا.

ولقد هيأت له نزوته فى الزواج من فلاحة صعيدية حالة نفسية جعلته يستغنى عن فرش المدينة ، ويهتم بان يؤثث حجرة العرس على النمط الريفى من حصيرة ترص عند حافتها الشبابيك والقباقيب .. وسرير من الحديد لامعة شاشات العروس ان تكون من سلك هزاز ... وناموسية من حرير وردى ... وصندوق للملابس مزين بالاحمر والاخضر .. وطشت

ودست للنسيل .. حتى يعيش في جو مصري ريفي خالص ... ولعله يكون قد توهم بأن اقباله على الزواج من صعيدية ، والكيف غرفة ريفية على خلاف عادة اسرته في الزواج داخل العائلة ذات الاعراق المتشابهة والتقاليد التقليدية سيساعد على تحقيق رغبة كامنة تنشد الامتزاج بعامة الناس ولا تعرف السبيل الى ذلك ، ولكن النزوة والتوهم والرغبة لا تكفي لتحقيق حياة مستقرة ... لقد اختار الفتى زوجة فقيرة جاهلة سلاحها يسير لها كل ما تنشده في عش الزوجية ، وكفل لها كل سبل المعيشة الطيبة .. وتوقع ان تكون طوع بنانه .. فلقد اعطاها ما فيه الكفاية وهو لم يتعود الاخذ .. وليس لها في ان تلزمه بأي نوع آخر من الاعطاء .. وغاب عنه ان هناك اعطاء لغرائزه الطبيعة يعد في نظرها ونظر شيء اساسي اولى واجبات العشرة الزوجية ، لا تتحقق الا به ولا تتم او تستمر الا في احضانه .. فلم يحقق الليلة الاولى ذاتها بأن يرى هذه الفتاة الخام الساذجة الطيعة في حياء قد انقلبت الى وحش ضار مفترس .. العيون المسبلة ابرقت وانبعث منها في جوف الليل نظرة مستعرة الحس جسده .. والجبين الذي لا يلمع بفكرة اصبح سطورا عليه امر مستعجل نافذ الاداء بلا الفور ... الشفاه الرقيقة المطبقة انفرجت عن رعشة تلهث ... الفم يلعط ولا يستقر ... واكتشفت اسنان تلالا جوعها لتطاير من حولها الظلام مذعورا ... والاعضاء التي كانت ترتعم انها فقدت فتنتها في شروع الجسد استرد كل منها حقه ، بل واغتصب لنفسه ملكة الجسد كله ... ، ولم يكن يتصور ان واجبات العشرة الزوجية تتطلب كل هذه الحدة والاندفاع ولذة النهم والالحاح .. والامر لا يحتاج لكل هذه العجلة التي تفقد الشهية وتضيع اللذة .. انه اراد من الزوجة ان تكون مجرد دمية طيعة يتسلى بها ، او لعبة جامدة يلهو معها .. ليس لها حق المبادرة وهو غير ملتزم بأية مسئولية نحوها .. ولذلك لم يكن يتوقع ان تصدر مثل هذه الانفعالات الغريبة من تلك الفتاة السمراء .. ! !

ولكن كيف يتصرف معها وعطيها ما تستطيبه .. ؟ كيف يرى ظمأها الغريزي الملتهب ويشبع جوعها الجنسي العارم .. وهي لا تقبل التسويف والمماطلة والمراوغة .. ؟ بينما هو سليل اسرة كفت عن الاعطاء من زمن طويل ، ولا تقبل على امر الا اذا كان سهلا ميسرا ، ولا تقدم على عمل الا طواعية وبارادة كاملة دون دفع .. ولا تلتزم بمسئولية او تكره على اداء واجب . ؟ !!

وما كانت لتشيره في اول واجبات العشرة الزوجية في نظرها حتى افتر .. واذا بفحولته لما شعرت بأنها وضعت موضع الاختبار والالزام افتقد حماستها ولا تسعفه .. فسقط امام العروس ورفضت ان تعيش في ظل حياة زوجية صورية لا جنس هائج فيها ولا غرائز ملتهبة .. فتبين استحالة الجمع بين سليل الارستقراطية وبين الفتاة الصعيدية الفقيرة سليلة الاسر الكادحة المكدودة التي لا متعة لها في الحياة الا المتعة التي وهبتها له الطبيعة ، وضيع في جنباتها شتى الفارقات الاجتماعية والاختلافات الحضارية ، وتساوى الجميع في اسلوب اشباع هذه الغريزة الاولية وينعدم مراعاة اي تمايز او تمييز الا ما كان شبق يلح في طلب الارضاء ... ولما تأكدت الفتاة ليلة بعد ليلة من عجز عريسها في مشاركتها جنسيا بعد ان عرت جسدها وكشفت له عن

نوع جنسي كانت تخفيه في سفاحه و حياء بواسياحت له نفسه تحت اعتقاد بأن ذلك أمر ترشاه الطبيعة ولا تعترض عليه التقاليد والعادات وتقره الأديان ما دام يسلك الطريق الشرعي المتعارف عليه ... فأحست بالخدعة والمهانة بعد أن عرضت نفسها عرض العبيد ولم تجد في الصد والابتعاد ... فتنشب لافتضاح شراستها الجنسية .. وثارت لغريزتها الجريحة .. ولم تتورع من أن ترفض زوجها رافضة أن تستمرئ عشرة رجل على ما هو عليه من احجام في فراش الزوجية .. وتصارحه بجرأة ونخوة بأن « نساء الصعيد تظن لرجال الصعيد » ثم تمعن في امتهانه وتواجهه بلفظة في اباء وشمم .. « أنتى أبول على تاودك والافك والامك الحلو » وتسخر منه مستهزأة .. « ابحث لك عن مومياء ملطخة بالابيض والاسود والاحمر » تليق بأيد الاثار وتستطيع ان تمشي فيه أوازعه الجنسية الهيمة ...

لم يكن الفتى يتوقع أن يسقط هذا السقوط في أولى محاولاته الإيجابية للمشاركة الواقعية التي تقربه بالفعل ليست من عامة الصعيد وتكسر القيود كثير على درب الاندماج الكامل ... وإذا بهذه المحاولة تتحول على مذبح الجنس الرديع في تيار عارم لا يقبل التردد والتسويف .. مع أن تصوراته في أنه اختار زوجا مطولة لينة العريكة تستسلم في هوادة لأوامره ، تطيعه في كل شيء وتلبي رغباته عند الطلب دون مبادرة منها بها ولا ترمي بعرارة جنسية مسمعة على نوال حقوقها المشروعة دون الاهتمام بأي شيء آخر .. فلم يخطر على باله أن يدرس ما بينهما من فروق في الحسب والنسب والتحضر والتخلف والنشأة والتربية والثقافة ... ولم تستفحه والفقه على رأسه حتى يتقلب على ... الفروق التي ... من أن تجد ما وبينه من حواجز نفسية تحول دون مساعدته على تكوين نوع من الألفة والانسجام والمودة ، فضيف على العشرة العلاوة لا انفعال فيها ولا التهارة ، فيسهل عليه أن يستجمع وكأنه رجولته ويشحذ فحولته لتكون على أهبة الاستعداد ... ولكن تمسك العروس بأداء حقها على الفور وفي الحظة الاجتماعية والاقتصادية والثقافية والحضارية جعل العشرة الزوجية تقوم على مجرد نزوة طارئة طائشة عند الفتى في مواجهة زوجة جادة في التمسك بحقوقها المشروعة ، بينما لم يسبق هذه العشرة الرسمية محاولات لتحطيم الحواجز التي خلقت ظروفا نفسية جعلت الفتى يحجم عن اداء أولى الواجبات اليومية ، لأن قوى داخلية أكبر منه دفعته رغما عنه أن يعلن نوعا من الرفض لمثل هذه الزيجة غير المتكافئة ، الخالية مما ينبغي أن تكون عليه من تقارب ومشاركة واقتناع لا يمكن أن تتحقق الا ببذل جهود مسبقة متواصلة لم ينتبه أحد من الطرفين أن يقدم على بذلها أولا وقبل كل شيء .. !!

ولكن الصعيدية كانت أكثر حسما للمشكلة .. وسرعان ما طلبت الانفصال .. إلا أحست بأنه ليس هناك ظل من أمل في حياة زوجية على أبسط أساس من العلاقات بين الرجل والمرأة .. في حين آلم الفتى أن يسقط في نظر هذه الصعيدية التي يسيطر عليها شبق جنسي متوقد ورغبة

ملتهبة تلح في الاشباع كأنها لا تجد ما تستطيع ان تعوض به كل ما تعانيه من ضروب الحرمان الا ما تريد ان تستمتع به من لذة في فراش الزوجية .. !! ولم يكن امام الفتى الا ان يرضخ لرغبتها في الطلاق ، ولم يعارض الانفصال ووجد فيه خروجا من هذا المأزق اللعين .. وتركها تعود الى بلدتها بعد زواج صوري دام اقل من اسبوع ... !! وهكذا انتهت هذه الزيجة في مدة وجيزة لانها قامت على مجرد نزوة طفل حاول ان يلعب دور الرجولة ... وانسحبت الصعيدية من بيت الزوجية الثاني بارادتها غير آسفة .. الا ان هذا الانفصال جدد مواجع حسرتها على فقدها لزوجها الاول الذي ضيعته عليها تقاليد الصعيد الصارمة في الاخذ بالثأر ، وتركتها حيرى حتى اصبحت مطمعا لمن يريد ان يلهو ويلعب على حساب كرامتها وعزتها .. وفضلت ان تهجر حياة لا كيان لها فيها وعادت الى الصعيد لعلها تجد في قريتها من يعوضها عن عريسها الاول من بين رجال الصعيد الذين خلقت لهم نساء الصعيد ويطيب لهن الحياة معهم .. بعد ان فشلت في ان تلعب مع زوجها الثاني دور الدمية التي لا يريد منها بديلا .. !!

ولكن اذا صعب على فتانا ان يحصل على دمية لبعض الوقت فانه يمكنه ان يصل الى ما اشبه بالدمية بعض الوقت متى دفع الثمن .. لقد أتاح له جو الحرية المطلق الذي تعيش فيه اسرته ان يلجأ الى العاهرات يشترى منهن ما يشبع رغبته في فحولته دون الاذعان لالتزام او اكراه .. ويبعد عن رجولته شبهة العلة دون المساس بمشاعره التي يعز عليها ان توضع قدراته الجنسية موضع الاختبار .. اذ لا ليس لواحدة منهن حق عليه .. فلا مسئولية عليه قبلها .. انه يريد ان يشترى بالنقد لا بمبادلة شيء بشيء .. (٦١)

وكان في اول الامر لا يفرق بين غانية واخرى .. ثم بدأ يتأنق في الاختيار .. لا تروقه الا البالغة التي يتكاثر عليها المشترون حتى يضيق الزحام ومع ذلك قلما يجد جنته المنشودة لانه لا يزال يتوهم حتى في اكثرهن رواجا واشتغالا : اشاحة وجه .. او لوية خشم .. او دفعة يد تفسد عليه طمأنينته .. واصبح غاية ما يتمنى ان يجد من جمد وجهها فلا يتحرك ولو صيغ بلون الشمع .. و تعقد خشمها في قالب ثابت .. ولو تصلبت الشفتان كالخشب .. ومن شلت يدها ولو اصبحت باردة كالثلج . (٦٢)

وهكذا ــ حتى في احضان بنات الهوى لم يجد فتانا المتعة المرغوبة التي تكفل له الاطمئنان والثقة وتمنحه التقدير الذي يرد له اعتباره ويؤكد وجود ذاته ويبرز فحولته ويكرم رجولته ... فلما لم يعثر على العلاج الشافي عند الغانيات انتكس نكسة اصابته بمرض غريب سلط عليه ميكروبا ضعيفا تستطيع ان تلتهمه الكرات الحمراء وتقضي عليه في الحال بكل يسر .. ولكن جسده المتخاذل عجز كذلك عن مقاومة هذا الميكروب الواهي لا لعلة فيه وانما لفقدان ارادته الرغبة في المقاومة ،

(٦١) يحيى حقي : الفراش الشاغر .

(٦٢) نفس المرجع .

حتى ابدا الاطباء في علاجه مما دعا اهله الى النصح بعرضه على طبيب نفساني .. قد يكشف عن عورات داخلية ويعرى ذاته من كثير مما استوراه .. ويفضح خباياه الباطنية ويظهر الجميع خوره وارتده وشيابة سواء بين الرجال او مع النساء ... ويكفيه ما اصابه مما كشفت منه بنت الصعيد .. وما كاد فتانا يصل الى هذا الحال حتى بدا وجهه ندبا ينطق « بالصياع وشي وطيبة حلوة » واذا بحركات اعضائه تتناسق ويشملها هدوء عجيب رماه بالبلادة والتراخي « ولكنه وجده من الاناقة » فزاد اعتناؤه باظافره وربطة عنقه وانسجام هندامه « واخذ » يتحرك بخشوع فيه دلال محتشم .. ويتكلم بنبرات خفيضة فيهاللثة .. وبدت في عينيه علوية كانما كحلها بعسل « اضفت عليه رقة مهذبة ارتاح اليها » وان كانت مغرية تدعو الاخرين للتودد اليه مما يشعره بانه مرغوب فيه ولا ينفر منه .

وما كاد يشعر بشيء من الاستقرار النفسي حتى داودته الرغبة في مواصلة الدراسة من جديد .. واختار هذه المرة كلية الحقوق .. وسرعان ما انتبه زملاؤه لاناقته ورقته ، واخذوا يلتفون حوله لايدرون مايجذبهم اليه «الهي اظافره .. ام اصابعه الرخصة .. ام هذا العسل الذي يسيل من عينيه .. وهذه الرقة في حديثه » وان اسعده هذا الالتفاف الا ان « احدا منهم لم تتقدم به صلاته الى درجة الصداقة التي يفصل رباطها قلبين عن وسط الزحام » ولكنه « لم يشعر بالوحدة .. بل شعر بالراحة » مما اشاع من عصبية كحواء الصباح حلوة « حتى ازداد تعلق ازملاءه به واخذوا » يضربون به المثل في العبقرية والاخلاق « على اعتبار انه ابن الناس الاكابر ... وهكذا استطاع ان يحسن علاقاته مع الزملاء ان يكسب ارضية جديدة تمنحه ما يحتاج اليه من اعتداد وتقدير يعود عليه بالثقة التي تساند الارادة .. وبالامان الذي يمد الامال والاماني .. رغم انه لم يسلم من اقوال السوء التي ترى ان مقالاته في الاناقة والرقة مقومة ورخاوة هي اقرب الى الانوثة منها الى الرجولة » مما دعا البعض الى توهم انه يعاني من شذوذ جنسي هو منه براء .. !!

اقبل فتانا على دراسة القانون هو مرتاح البال فتوالى نجاحه حتى لم يبق على تخرجه في كلية الحقوق الا سنة واحدة « فقد اعجبه ان القانون نجا برقبته من شريعة الكون وربكتها وتناقضها ... وتسميتها للظلم على انه في بعض الاحيان عدل » ورأى ان « القانون يصطنع لنفسه منطقا مستقبلا جميلا على الورق .. بارع التقسيم والتسلسل عاجل النفاذ » الا انه بدا له كانه « هدم شاد الحياة واتخذ من انقاضها قوالب مرقومة اقام عليها صرحه : القاضي لا يحكم بعلمه .. بل من الورق ... فالورق ابين من الحقيقة ... الصدق عنده كالكذب مرفوض ، الا اذا دعمه دليل لم يجد من يكشف زيفه ... الرذيلة عنده مجهلة ... والفضيلة مبهمة ليس لها حساب »(٦٣) فالقانون قد يقضي لعقاب الزوج الخائن ولكن لايكافئ الزوج المخلص ... كما ان نظرته متساوية للجميع دون تمييز بين العالم والجاهل والنطوع والمغلور ، ولا يعطي اي اعتبار للقدر وما ينزله

(٦٣) يحيى حقي : الفراش الشاغر .

بالناس من محن ومصائب وما يستثير بعض الرفق والرحمة والعطف . . . ولذلك فان احكام القاضي مهما كانت نزيهة لا تصل الى مستوى العدالة الحقة . . . ومع ذلك فان القانون المنطقي مهما كثرت مثالبه افضل بكثير من شريعة عادلة بلا منطق مفهوم . . . وهكذا اختلطت الامور على فتانا واخذ يفقد تدريجيا الاحساس بالفروق بين الفضيلة والرذيلة ، بسبب ما توهمه من وجود تناقض كبير بين منطق شريعة الكون الالهية وبين منطق القانون الوضعي ، عجز عقله عن ادراك ما بينهما من تقارب ووقف عند ادراك ما بينهما من تفاوت. . . !! فان الرتاح الى دراسة القانون في الامر لوضوح منطقة وتسلسل احكامه الا انه لم يجد فيه ، ما ينصفه من قسوة القدر ويرحمه من شريعة الكون ويمكنه من الانتصار على ذاته وينقذه من مصيره المحتوم . . . !!

ولكن اذا لم تحقق دراسته القانون ما كان ينشده من وضوح الرؤية وراحة الفكر . . الا انها اتاحت لذهنه من فرص التأمل الحر المنطلق ما ادى به الى بلوغ « لحظة صفاء » غمرته بنقاء وسكينة خلصته من كل ما يكبله من قيود واغلال، وانقذته من شتى الاوهام والمخاوف وطهرته من القلق والنجاسة وفاضت عليه بمشاعر لا حد لها من الحرية الرحيبة . . . كان يستطيع ان ينتهز هذه الفرصة التي لا تعوض في تدعيم احوال الصفاء والنقاء والسكينة والطهارة والنجاة والحرية وتعميقها في الذات وتثبيتها بين جنبات الوجدان . . الا ان ذلك يتطلب سلوك هدى طريق شاق لا يقوى على تحمل جهاده الا من عرف الندم والتوبة ، والتزم بطريقهما وجاهد جهادا متواصلا لا ينحرف عن مزاولة شتى ضروبه من المجاهدات الجسدية والرياضات النفسية . . ليقتلع كل ما في داخله من جذور الشر . . ولذلك غفل كيانه الهزيل الهش المتخاذل عن ادراك جلال ما اتاحته له لحظة صفاء ، ولم ينتبه الى ان ما توصل اليه من نقاء يمهد له الاقتراب من حال التوبة . . فغاب عليه ان يسير في طريق الندم والتوبة . . وانما به يتمنى على ما غمره به الصفاء والنقاء من حرية بلغت من العنفوان ما زلزل قوامة زلزلة اعجزته عن ان ينهض ويصرع الرجس في داخله ويصحح الخلل الذي اصابه ، وينقذه مما هو ساق اليه من امراض مستعصية . . ورضي ان يبقى على حاله في مرحلة يتصارع فيها الخير والشر ويتنافس في السيطرة على تصرفاته الملاك والشيطان . . . فوقع صريع دوامة الحق والباطل . . الا انه فضل ان يعاني الصراع بين الفضيلة والرذيلة تستولى عليه بلبلة تسوقه الى متاهات غريبة شاذة على ان يترك هذه الحرية التي اتته بدون جهد يذكر تطغى على كيانه والتحكم في تصرفاته الهوجاء . . . فاذا باحساس ملل فظيع يستولى على كل وجدانه ، ويعكس كيانه بمرارة مرة ما بعدها من مرارة ساقته في تيه من التخبط والقلق . . بينما لم يبق امامه الا اشهر قليلة ويتقدم لامتحان ليسانس الحقوق مما زاد من توتره . . وتجمعت عليه شتى الهواجس ، ودفعته دفعا لتصرفات بلهاء حمقاء ابعد ما تكون عن الحكمة والرقة والنخوة الانسانية ، وساقته سوقا الى حتفه في هاوية سحيقة لا قرار لها بعد ان سمح للشيطان ان يلعب برأسه ، ويترك للمعصية ان تفترسه فيغيب عنه الوعي الطاهر القويم ، وينساق وراء اوهام حكمت عليه بالعار والاحتقار واثارت ضده مشاعر التقزز والاشمئزاز فاستحق اللعنة في الدنيا وفي الآخرة . . . !!

فنجد الطالب الجامعي الذي عجز عن أن يوطد صداقة كريمة بزميل له في كلية الحقوق يتمتع في كنفها بما يرحمه من زحمة الحيــاة .. يشبع صريع صداقة مهينة غير متوازنة لا تكافؤ فيهما بين الطرفين ، ويرضى ان يصاحب صبيا حانوتيا في شارع الريحان ... واذا بأقاويل السوء التي كانت تهمز بالشذوذ تصبح فجأة حقيقة واقعة ... !! لقد تعود الصبي الحانوتي ان يراه على ما هو عليه من الاناقة ونعومة ورقــة ورخاوة في نزوله وصعوده من البيت الذي يقابل دكانه ... ربما سولت له نفسه امرا خبيثا فأخذ يتربص به حتى ينتهز فرصة ليوثق علاقته به وينال منه مراده ... وحدث بينما هو يشع شــيئا مما يعبث فيه من ملل ان وقع نظره عفوا ذات مرة وهو خارج متأخرا من بيته بغير عادة على صبي الحانوتي وهو واقف على سلم يعلق لافتة على دكانه ... فما ان تقابلت العيــون ورأى فتاناشابا « مدكوك الجسم كيس قطن .. قصير القامة والذراع .. ضخم اليد .. ضيق الجبهة والعينين .. نظرته ثاقبة لها لمعان ، فيها مكر وحنق وعكارة دم فاسد وجوع الوحش » (٦٤) فطن صبي الحانوتي ان الفرصة المرتقبة قد واتته ، وقبل أن يشيح بوجهه رأى الصبي يبتسم له ويرفع يده الى رأسه بتحية وسلام .. فمضى وهو يعلم انه لا بد عائد اليه » .

ولا ندرى كيف توثقت عرى الصداقة بين شابين رغم ما هى عليــه من تباين اجتماعى واقتصادى وثقافى وحضارى وكيف « اصبح من عادة الفتى ان يمضى امسياته فى صحبة صبى المعلم امام الدكان » لعله يحاول بذلك الهروب من الملل والتحرر من الشــقاء الذى يعانى منه الامرين ... !! كان اول الامر ينزل اليه مرتديا بدلته وحذاءه ... ثم لم يجد بأسا من أن ينزل اليه فى جلبابه وشبشبه » لما توطدت الالفة وزالت ما بينهما من فروق .. فلم يجد فتانا ما يحول دون مجاراة صبى الحانوتى ليس فى ملبسه فقط بل شــاركه كذلك فى موضــوعات الحديث بشغف زائد ، خاصة تلك الموضوع التى تتصل بعمل الحانوتى حتى اصبح « حديث الصبى عن الشغل ومواسمه وسابق مجده ولذاته ومتاعبه وطقوسه وفنونه وحيله » (٦٥) ولما احس صبى المعلم بازدياد شــغف فتانا بالاســتماع اليــه والاستفسار المتواصل عن كل ما يتعلق بتفاصيل عمله فى عالم الموتى والقبور .. رغبة فى ان يحضر معه ليشاهد بنفسه عن قرب كل ما يستفسر عنه .. ومن الغريب حقا فى الا يتردد فتانا فى قبول مثل هذا العرض فى التو واللحظة مجذوبا بسحر عالم الموتى الذى لم يكن يدرس منه شيئا .. كانه مساق وهو فى غيبوبة بعد ان فقد انطلاق الحرية وصفاء الطهارة واستكان لاغراء دعوات خبيثة تحت تأثير وهم مضلل بان ما يتحكم فى مصيره المحتوم قدر لا يخضع لمنطق او قانون ولا يعرف الرحمة او الشفقة .. فاندفع فى تيارات هوايته الجديدة التى اصبحت لعبته المفضلة ، مع انه لم يسبق ان رأى جثة ميت من قبل .. !!

---

(٦٤) القرافى الشاعر .

(٦٥) نفس المرجع .

وما ان رأى أول جثة حتى وقف أمامهـا مشدوهاً في حيرة ما بعدها حيرة لا يدري هل ما يراه أمامه هو « استسلاماً يلغ حد التعذيب به .. أم عذابه بلغ مداه فذاب في الاستسلام » .. ؟ وما ان ادرك ان الذي امامه « لا شيء .. له صورة بني آدم » حتى زالت منه الرهبة من الوهلى واقبل يغسل الجثة برفق آمن مادام الميت « ما يشيح بوجهـه .. ولا يلوى خشمـه .. ولا يدفـع بيده » (٦٦) فطاب له هذا العمل الذي اطلق له حرية التصرف .. واصر على ان يصحب صبي الحانوتي في كل طلب .. بينما ظن صبي الحانوتي ان تمسكه بمصاحبته يرجع اولا وقبل كل شيء الى شدة تعلقه به شخصيا ، بحيث لا يستطيع له فراق ، خاصة وان ابتسامته له اخذت تزداد رقة وعذوبة .. وان نظرته فاضت تمسيلا وحلاوة .. بينما استولى على جسده ارتخاء ورخاوة .. فطمع فيه ووسوس له شيطانه ان يتجرأ عليـه ويصارحه بما يريده منه ويطلب منـه الا يتدلل عليه اكثر من ذلك ويستسلم له ما دامت هذه هي رغبته .. وحثه على ان يتسربا داخل ظلام الدكان حيث يوجد نعش كبير يسعهما معا ويتيح لهما ان يقضيا مأربهما في شوق زائد اليه ، ورغم ان الفتى رد صبي المعلم عن غيه .. الا انه لم يظهر له اي نوع من الغضب او الضيق لمجرد توارد مثل هذه الرغبة على شهوة صديقه .. ولم يبد عليه اي نوع من التأفف من مثل هذه المهانة التي يريد ان يسوقه اليها هذا الرقيق الفضل .. لان ذهنه التائه في غيبوبة يستولى عليه ملكوت القبور ولا يكاد يلتفت لاي شيء آخر ولو كان يتصل بكرامته وحرمته .. والملتفت لم يعر اي انتباه لكلام صبي المعلم الذي لما لم يجد استجابة فورية لرغبته تطوير له في ملكوته فابتعد عنه بعد ان كان ملتصقا به وهو يتناول هذا الحديث حتى يوحي الفتى بان ما طلبه كان مجرد نزوة طارئة ، وانه ثاب الى رشده ورجع عن رغبته .. وليبدأ موضوع الحديث ويدخل في كلام ليزيل ما يكون قد انتاب الفتى من انفعالات الرفض فيفقده الى الابد قبل ان يتنال مرامه منه ، واذا بحديثه يذهب الى « الاستعباد وذم الزمان والتحسر على الماضي » ليشغل الفتى بكلام عام يتردد هنا وهناك بلا مغزى ولا هدف . . .

ولكن صبي الحانوتي لم يتخل هدفـه وتحقيق مأربه بطريقة او اخرى .. وان رفض الفتى غير الحاسم لم يدعه ييأس .. ودفعه لان يفكر في اعادة المحاولة بطريقة اخرى اكثر فاعلية تفقده القدرة على المقاومة وتجبره على الاستسلام وهو غائب الوعي مشغوف عنه بمأرب آخر .. وهكذا تحاول كل منهما ان يلعب على الآخر لعبة الشيطان . . . !! واذا بصبي المعلم يفاجئه بنبأ يثير كل الاثارة بعد ان اخبره بوفاة عروس صغيرة السن قبل ليلة زفافها بيوم واحـد .. هي هنز الطلب . . . واخذ يزينها له حتى يرغبـه فيهـا ويحصل منه على ما يريد في مقابل تحقيق رغبته .. فلم يتورع عن استثارة تلك الرغبة بكل شدة والحاح ، ويبين له كيف شيعت جنازتها بالموسيقى ونثرت الحناء على القبر ، وغطي جسدها بثوب الزفاف ، واهل عليها بباقات الياسمين فاشعل هذا الحديث كل كوامن رغباته وايقظ شهواته المكبوتة ، فاذا بها تطلب الاشباع وتراوده على أمر

---

(٦٦) المرجع السابق .

لا يقره عرف او قانون ولا يرضى عنه خلق او دين والباه كل الاباء الكرامة الانسانية .. الا ان احساسا جادا استولى عليه يصور له ان امامه فرصة فريدة طالما تمناها وها قد واتته ولن تتكرر وليس امامه ان يقتنصها مهما غلا الثمن الفادح .. !!

وهكذا انهارت كل القيم التى شب عليها الانسان منذ الازل .. وضاع الفتى سليل الاكابر ابن الاصول فى متاهاته وشهية تلح عن شراسة بشهية كامنة تريد ان ترد اعتبارها وتنتقم لكرامتها بأساليب لا انسانية ولا اخلاقية ، ارتباطا بما قد يصاب به الفرد من خراب روحى او دمار فكرى فلا تستقيم له حياة سوية ... ولم يكن هذا الفتى اول من ضاع فى هذه الاسرة .. ولن يكون آخر شخص يتعرض لمثل هذه الامراض المستعصية .. فقد سبقه نجم العائلة .. اذ يلفه عقب ارتكابه الفحشاء مع العروس الزائفة جثة هامدة فى قبرها لا حول لها ولا قوة الا هوى فى المستشفى وهو يعالج من ادمان تعاطى مخدرات يلجأ اليها ليبعد عن مخيلته تصورات قاسية وتهيؤات ، خادعة توحيه بأنه محاط باصدقاء مجهولين يتربصون ويريدون تحطم روحه ووعيه ومنطقه ... فتركت نهايته فراشنا شاغرا فى المستشفى تنذر بان هناك نزيلا جديدا يتوقع ان يحل مكانه الشاغر قريبا .. لعله مثالا مما يهدد مصير هذه الاسرة المنكوبة ويؤدى بها الى الانقراض والفناء ... !!

• • •

لا شك ان قصة « الفراش الشاغر » تشهد ليحيى حقى انه قد تحرر فعلا من الميول التركية ونزعاتها الموروثة ، ولم تقف حائلا دون الرؤية الصادقة لواقع الاعراق التركية المصرية وما وصلت اليه من حال .. وان تناول هذا الواقع تنقصه الصراحة الواضحة ، ولجأ فيه الى دبلوماسية لا تخلو من حياء تستعين بصيغ بلاغية هى اقرب الى الرمزية منها الى الواقعية ..

فانه ربما اراد تخفيف وطأة النقد الاليم الذى يفضح خبايا بنى اعراقه ويتقزز من مبادئهم ...

ومع ذلك فان قصة الفراش الشاغر يمكن وضعها قمة نتاج يحيى حقى القصصى باعتبارها آخر فصل فى ملحمة صراع الاصلاب التركية المهاجرة تشهد مأساة المهاجر التركى الذى قاوم الذوبان فى المجتمع الجديد ، فتكالبت عليه نواجذ المجتمع المصرى واعطاها فرصة لان تمضغه بشراسة خلال سلبياته ، واظهره بمظهر معين يثير الازدراء والرثاء على حال من فقد الجاه والسلطان والمجد وتخلى عن الشرف والكرامة والفضيلة ، وانساق هاوية سحيقة من الدمار الروحى والخراب العقلى ..

ان قصة « الفراش الشاغر » هى آخر لون فنى لجأ اليه يحيى حقى ليجدد معالم الشخصية التركية المصرية، فلقد ابتدا بتحليل نماذج بشرية ثم اهتم بتصوير لوحات ادبية .. الا انه لم يبرع البراعة الكاملة فى عرض ما آلت اليه الشخصية المصرية التركية الا عند تأليف «الفراش الشاغر»

الدرامية التي تمثل صراعا رهيبا بين الانسان وقدره وكيف ادى به الى مصير قاتم لا رحمة فيه ولا عدل ... الا ان قصة « الفراش الشاغر » اشبه باعلان رفض واستنكار .. يحذر وينذر .. بل يتوعد بسوء العاقبة التي تبدو في ابشع صور الانسانية المنحطة لكل من يعترض على سنة الحياة ، ويتعمد اعتزال الناس والابتعاد عنهم لا يشاركهم في حياتهم الخاصة او العامة ، ويفضل ان يظل كامنا داخل دائرة ضيقة يأسر كيانه تقاليد وعادات تمنعه من تكوين صداقات سوية ، وتحرمه من علاقات الوصال والود وتحول دون التضحية والاعطاء والبذل .. ولذلك تكاد قصة « الفراش الشاغر » تدوي بصواء كئيب تحيق بريد ان يروى كيف يؤدي الانغلاق الى العفن ويسوق بصرح الانسان الى الانحطاط ...

ان قصة « الفراش الشاغر » ليست الا صرخة توجع غاضبة فيها حسرة واسى على ما وصلت اليه بعض الاسر المصرية التركية فاخذت تستعرض فاجعة نجوم اسرة شارع الريحان وشبابهم وتبين ما اصابهم من خراب روحي ودمار عقلي وانهيار خلقي ، وتظهر ضيق افق الاسر التي لا تراعي في تربية ابنائها ظروف المجتمع الذي تعيش بين جنباته ، ولا تعد شباب العائلة لخوض تياراته بكل قدرة وتمكن حتى لا ينشأ على العزلة ولا يشب على الشح وعدم الاعطاء .. ولا يبدو امام المجتمع انه يرفض ان يطاوع عامة الناس ويتعالى على الذوبان فيهم بعناد يسوقه الى الدمار والخزي والعار وينهل بكرامته لجثة ملعونة لا امل لها في رحمة الله ...

ولا يخلو تصوير هذا الانتحار الروحي على مذبح التقاليد العالية الراسخة الجذور من قسوة وعنف وايلام .. فان يحيى حقي لا ينبه او يحذر فقط انما يهدد ويرهب كذلك باسلوب مرعب يشيع لا يشع مجالا للاختيار الا بين اتجاهين لا ثالث لهما . اما الامتثال طواعية دون عناد او تكبر للظروف الاجتماعية الجديدة التي آلت اليه حياتهم ، وقبول تعديل السلوك المتوارث عن رضا واقتناع ، تمهيدا لمشاركة الناس والاندماج فيهم او الاختلاط بهم الى حد الذوبان عن طريق الود والتعاون والاتصال والوصال والتضحية والاعطاء والبذل والسخاء .. وذلك لمن اراد النجاة .. واما التجمد على ما هو عليه من عزلة وابتعاد والتحجر على ما شب عليه من شح وامتناع عن الاعطاء ، متهربا من الناس والمجتمع خشية التصادم بالجحود والنكران ، ومتجنبا مواجهة الضنة في اي مكان .. فتتفشى في داخله اوبئة تبدد قيمه الانسانية ؛ وتصيبه بخراب يقضي على الآدمية ويعرض سلالته لنهاية اليمة حقيرة ..

— ٦ —

لا جدال في ان محاولات يحيى حقي المتوالية لتحليل الشخصية المصرية التركية ، ونجاح جهوده في تحديد معالمها الاساسية لكنه من التحرر من ضغط النشأة والتربية الاولى مما عاونه على التخلص من قيود التقاليد واغلال الوراثة ، وهيأه من الفرص الكاملة لاداء واجبه نحو بني جنسه

بان طردهم التحذير الشديد من مغبة ما قد ينزل بهم من دمار وخراب وهلاك .. الا انه لم يعف المجتمع المصرى من مسئولية بعض ما اصاب آل سلالته من جمود وتدهور وانحلال .. وكيف ان فساد بعض جوانب المجتمع اصابه بالتعفن والتخلف الحضارى ، واشاع عليه كثيرا من القيم الانسانية واشاع فيه فوضى لا اخلاقية .. استفاكرها بصورة او اخرى على الاسر المصرية التركية وينعكس على تصرفاتها سلوكا معينا .. !!

فان بنت الصعيد لما اكتشفت فى عريسها ابن الاكابر .. من وهن جنسى يتوالى من ثالية ما عليه من التزمات ، ويتقاعس عن ان يهبها كل ما يملك من حيوية فى الحال وبلا تردد ودون مقابل ماطل ، ما دامت قد وهبته نفسها وعرضت عليه كل بضاعتها واباحت له ان ينال منها ما ينال ، حتى قبل ان تعرف من هو وتتوطد بينهما المحبة .. لم تستطع بنت الصعيد ان تقف موقفا سلبيا من هذا العريس ولم تجد داعيا لأن تستمر علاقتهما معه وهو على ما هو عليه من شح جنسى يمتنع من الاعطاء الحيوى فسارعت بمطالبة الفراق واشمئزاز وحسرة .. ولم يكن امام عريسنا الا الرضوخ لهذا الطلب وهو صاغر لانه وضع فى ظروف لا يستطيع ان يعاند فيها او يكابر ، وانه لا يملك ان يعطى الا بقدر وحساب وحين يشاء او يريد دون املاء او اجبار .. فما كان منها الا ان تبلته فى ايام وشهر ، والخلصت من عشرة عقيم لا نادمة على ما يمكن ان تصبحه لها من حياة رغدة ..ولا آبهة بما قد يؤول اليه من مصير .. اشركته حطاما هشيما لا يقوى على مصارعة الواقع المتربص به .. فاذا به يتسرب فى حرية الفلاح متسللا من الابواب الخلفية الى حياة رخيصة وضيعة هى اقرب الى الموت .. ورأت ان سعادتها الحقة فى العودة الى مسقط رأسها لتعيش بين من يقدرها من اهل الصعيد ويستطيع ان يمنحها ما تريد دون تخاذل او مراوغة ..

الا ان ابن البلد لم يستمهله ولم يتورع من ان ينتقم منه شر انتقام ، وينهش حرشه ويطل رجولته وهو يجرى وراء رغبة حمقاء تريد ان تنال متعة خالصة لا يشوبها عائق ولا يعترها صد او منازلة ، وخاصة اذا ما كانت على مذبح بنت الصعيد فلم يبخل عليه ابن البلد بأن يتيح له مثل هذه المتعة ولكن ليس قبل ان يسلبه كل مشر او كرامة ، ويدفع به الى هاوية سحيقة لا نجاة منها .. لقد نشأ على الشح لا يعطى دون مقابل واذا به فى النهاية يعطى كل حياته ويفقد انسانيته وآدميته دون مقابل ، بعد ان رضى ان يضاجع الولى وهو فى غيبوبة من الحس والشعور والادراك والوعى .. فكان الخراب الروحى والدمار العقلى والانحطاط الخلقى ..

بمثل هذه التحليلات الواعية استطاع يحيى حقى ان يتطهر من قيود العقد التركية المتزمتة .. ولكنه يعيش وسط مجتمع يعكس عليه كثيرا من الانطباعات التى لا يرتاح اليها وجدانه وتحد من انطلاقاته الفكرية .. فاذا به يقف حائرا امام الاتجاهات المصرية غير المتوازنة لخضوعها لتيارات متصارعة يغلب عليها روح الانتقام ولا تتورع عن ان تلجأ للغدر والخداع وتخلط بين سفك الدماء

والجريمة وبين العزة والكرامة .. قد تحسم المواقف بالعنف ولكن دون فاعلية ايجابية وتترك جذور الشاكل تستشرى .. فاحس يحيى حقي بانه مكبل بقيود تدخله في صراع جديد من اجل حريته ــ فاذا به يجاهد في سبيل معرفة الشخصية المصرية الاصيلة ويتكفل بتحليلها وعرضها خلال تطور خبراته الفكرية في صور ادبية متنوعة تشمل فحص النماذج البشرية واستعراض اللوحات الفنية وخلق القصص الدرامية .. ويبدو موقفه من الشخصية المصرية واضحا في قصص « **البوسطجي** » و « **قنديل ام هاشم** » ولوحات « **صح النوم** » ويمتاز هذا الموقف بانه لم يصل بعد الى حد اليأس ودرجة التشاؤم التى تلوح بصراحة من الضياع والخراب والهلاك .. واله ما زال هناك امل يدعو الى الجهاد في سبيل تحرير المجتمع المصرى من كل مخازيه ، ويسوق الشخصية المصرية الى السلامة الفكرية والسوية الحضارية .. بتعديل مسار انحرافاتها وترشيد اندفاعاتها بالتنسيق بين تياراتها المتداخلة ..

واحسب ان عرض موقف يحيى حقي من المجتمع المصرى والشخصية المصرية ومدى توفيقه في التحرر من انعكاساتها على تشائمه وتربيته وتعليمه بما لها من ردود فعل تنبعث من مكمن النزعات التركية التقليدية المتوارثة .. يحتاج الى دراسة مفصلة تبحث مرحلة اخرى من مراحل صراعات يحيى حقي المستمرة من اجل الحرية .. تبين حدود معاركه مع ذاته ــ اولا وقبل كل شيء ــ سواء وهو يعايش المجتمع المصرى ويختلط بالشخصية المصرية .. او حين يتحرك من ميوله الصوفية الفنية الى خضم الروحية الصاخب المطلق .. ويصارع بعقليته الشرقية تدفق أمواج الحضارة الغربية اللاحقة ..

* * *

منشور شريف

النقد الروائي الانجليزي في دور التكوين

كثيرا ما عبر الروائي الانجليزي عن مخاوفه من الناقد المحترف الذي رأى فيه قوة معرقلة لتطور الرواية ولحرية الكاتب . فاشار سومرست موم (١٨٧٤ — ١٩٦٥) Somerset Maugham الى خطأ الاعتماد كلية على نقاد من غير الادباء المبدعين لان الناقد ، كما يقول موم « الذي لا يعمل بنفسه في حقل الادب الخلاق يحتمل ان تكون خبرته في صنعة الرواية بسيطة . ولذلك فهو اما يعتمد في نقده على انطباعاته الشخصية التي قد لا تكون ذات قيمة تذكر ... او يصدر احكاما مبنية على اسس جامدة على الروائي ان يتقيد بها اذا ما أراد ان يحوز قبول الناقد » (١) . ونبه هـ . ج . ويلز (١٨٦٦ — ١٩٤٦) H. G. Wells ، قبل ذلك بأربعين عاما ، الى عدم جدوى اصرار النقاد على قواعد ثابتة ، والى خطورة اللجوء الى النقاد المحترفين عند تقييم الرواية ، فقال :

اذا اردنا ان نعرف ان الرواية اكثر من وسيلة للترفيه فلا بد في اعتقادي من ان نتحرر من القيود التي يلح عليها اولئك الذين يرغبون في تحديد اطار عام لها . ان كل فن في هذه الايام يجد نفسه مضطرا الى ان يسلك طريقا وعرا بين

(١) "The Art of Fiction", Ten Novels & Their Authors (1954), 13-20.

مجهور من السنوات الثقافية الهنية وبين دوامة من التعدالعشوائي اللامعقول . فعندما يصبح نقد اي فن من الفنون متخصصا ومحترفا ، وتظهر الى الوجود قبله من الحكام على الادب ، يبدأ وضع قواعد ومقاييس علمية محددة ونماذج تطبق على الفن ... فقد تناول النقاد الرواية كما لو كانت شكل فني لا يقل تحديدا من شكل السونيتة (١) .

وانخلت فرجينيا وولف (١٨٨٢ ـ ١٩٤١) Virginia Woolf الروائية التي اشتهرت بتجاربها في الرواية الانجليزية الحديثة ، موقفامضادا لموقفي ويلز وموم عندما اسفت لانعدام النقد الروائي النظري تقريبا . ورات ان مشاكل الادب الروائي في ايامها ترجع الى عدم اهتمام النقاد بشكل الرواية ونظرياتها الفنية والجمالية، فقالت :

اذا كانت هناك صعوبات تواجه الرواية فلعل السبب في ذلك هو عدم وجود من يعالجها بثقة ويحدد مسالها بدقة . لم يقنن احد للرواية ، ولم يولها الا القلة اهتماما جادا . وعلى الرغم من ان القوانين قد تكون مخطئة ويجب تحطيمها ، فان لها مزاياها ، فهي تضفي الوقار والنظام على الرواية ، وتعترف لها بمكانتها في المجتمع المتحضر ، وتثبت حقها في التقدير والدراسة (٢) .

واياً كان موقف الروائي من الناقد فمن الملاحظ ان ناقد الرواية المحترف ـ باستثناء امثال **برسي لابوك** (١٨٧٩ ـ ١٩٦٥) Percy Lubbock **وف.ر. ليفيز** (١٨٩٥ ـ) F.R. Leavis وتلامذتهم في القرن العشرين ـ لم يصل الى مستوى نقاد الشعر والادب المسرحي . فليس هناك ناقد روائي خلال القرون الاولى لظهور الرواية وتطورها يضاهي **ارسطو وصموئيل جونسون** (١٧٠٩ ـ ١٧٨٤) Samuel Johnson **وكولردج** (١٧٧٢ ـ ١٨٣٤) Coleridge في النقد المسرحي والشعري . ومما يسترعي النظر ان **ماثيو ارنولد** (١٨٢٢ ـ ١٨٨٨) Matthew Arnold عميد النقاد الفكتوريين لم يلتفت اطلاقا الى الادب الروائي الانجليزي الذي بلغ ذروته في ايامه .

بدأت الرواية الانجليزية في اول نشأتها كمارد جبار . ووصلت الى مستوى ادبي رفيع خلال السنوات التي تلت ظهور **روبنصون كروزو** (١٧١٩) رواية دانيال ديفو (١٦٦٠ ـ ١٧٣١) Daniel Defoe الشهيرة . وعندما نشرت اعمال الروائيين الكبيرين **فيلدنج** (١٧٠٧ ـ ١٧٥٤) Fielding **وريتشاردسون** (١٦٨٩ ـ ١٧٦١) Richardson اصبحت الرواية الانجليزية واقعا لا جدال فيه ، واحتلت المكانة الاولى عند هواة القراءة . ومع ذلك لم يصاحب نشأة هذا الشكل الادبي الجديد نقد يستحق الذكر . لقد اثارت روايات ريتشاردسون في عدد قليل من الكتيبات بعض التساؤلات عن اهدافها ، ومدى اصرارها على مستوى الالتزام الخلقي . كما بدا نفس الاتجاه الاخلاقي في مقال لمجهول بعنوان « دراسة لتاريخ **توم جونز** » (٤) (١٧٥٠) "An Examen of the History of Tom Jones" هاجم فيه الكاتب هجوما عنيفا مقلعا ما اعتبره انحطاط الاخلاقيات التي ينسبه عليها رواية فيلدنج ، دون اية اشارة الى قيمتها الادبية ،

---

(٢) "The Contemporary Novel", An English Man Looks at the World (1914), 150-51.

(٣) The Moment & Other Essays (1947), 90

(٤) لقال الكتوب تحت اسم مستعار هو (اوربيليوس) Orbilius

وكانها منعدمة تماما . ثم ظهر اتجاه مماثل في الخلاف الذي قام حول روايات **لورانس ستيرن** (١٧١٣ – ١٧٦٨) Laurence Sterne في نفس العصر عندما ركز المتناظرون جدالهم حول مدى اللياقة في ان يكتب ستيرن ، وهو قسيس ، روايات على الاطلاق . ولم يعلق واحد من هؤلاء النقاد على التجديدات الفنية التي اشتهرت بها روايات ستيرن فيما بعد ؛ والتي جعلته من أعمق الروائيين تأثيرا على تطور الرواية الانجليزية في عصرنا . وكان على ستيرن أن ينتظر حتى عشرينات القرن الحالي ليحتل المكانة التي تليق برائد الرواية الانجليزية الحديثة ؛ عندما اكتشفت فرجينيا وولف اهمية تجاربه الفنية . وان مايدعو الى **الدهشة في كل هذا هو فشل النقد** في ان يلحق بركب الرواية في نشأتها وتطورها طويلة .

استمر تجاهل النقاد للرواية طوال النصف الثاني من القرن الثامن عشر ؛ اى خلال السنوات التي لاقت فيها الرواية شعبية لا مثيل لها الاما قورنت بانواع الادب الاخرى . واولى النقاد الشعر اهتمامهم كما في **تراجم الشعراء الانجليز** (١٧٨١) **Lives of the English Poets** لصموئيل جونسون ، او الى نظريات النقد الجمالية في كتابات بيرك (١٧٢٩ – ١٧٩٧) Burke وريتولدز (١٧٢٣ – ١٧٩٢) Reynolds . اما فيما يتعلق بالرواية فقد ظهرت في دوريات من مثيلات The Monthly Review (١٧٤٩ – ١٨٤٥) و Critical Review (١٧٥٦ – ١٨١٧) **تعليقات على الروايات** التي اخذت تتكاثر بسرعة فائقة . ولكن هذه التعليقات تمثلت في ملخصات الروايات وسرد لاحداثها ليس الا .

على ان الاوضاع قد تحسنت قليلا بالنسبة للدوريات الجديدة في اوائل القرن التاسع عشر ؛ الا ان تجاهل المعلقين عامة لروايات **جين اوستن** (١٧٧٥ – ١٨١٧) Jane Austen التي ارتقت الى مصاف اعظم الروائيين الانجليز ؛ يشير الى حقيقة الامور فيما يتعلق بالنقد الروائي المحترف . وكان الاستثناء الوحيد لافتقار النقد في ذلك العصر هو المقال (٥) الذى رحب فيه الروائي **سير والتر سكوت** (١٧٧١ – ١٨٣٢) Sir Walter Scott بحرارة برواية اما (١٨١٦) Emma لجين اوستن ؛ اما المحاضرة السادسة لوليم هازلت (١٧٧٨ – ١٨٣٠) William Hazlitt في محاضراته المنشورة بعنوان **الكتاب الانجليز الهزليون** (١٨١٩) Lectures on the English Comic writers وتقليد وولتر سكوت في كتابه **تراجم الروائيين** (١٨٢١ – ١٨٢٤) Lives of the Novelists لما سبق ان انجزه صموئيل جونسن في مؤلفه **تراجم الشعراء الانجليز** ؛ فليست الا محاولات عقيمة في النقد الروائي .

ومتى وصلنا الى العصر الفكتورى وجدنا اتجاه النقاد الملحوظ الى تجنب الرواية في دراساتهم . فالروائي الوحيد ، تولستوى ، الذى تناوله ماثيو آرنولد في مقال طويل (٦) لم يكن انجليزيا بل روسيا . وكان آرنولد في اول المقال صائبا عندما قال : « لقد ولى عهد الروائيين

(٥) Quarterly Review (1816)

(٦) Essays in Criticism) (1888) Second Series

الانجليز العظام ، ولم يتركوا من بعدهم خلفا في مثل شهرتهم » . وفي هذا القول دليل على قدرة آرنولد على التمييز بين الجيد والرديء من ادب الرواية ، ومع ذلك فقد اولى ظهره لامثال **ديكنز** (١٨١٢ – ١٨٧٠) Dickens وثاكرى (١٨١١– ١٨٦٣) Thackeray **وجورج اليوت** (١٨١٩ – ١٨٨٠) George Eliot وهم من اعظم الروائيين الانجليز في فترة انتاجهم الخصب وعصر الرواية الانجليزية الذهبي .

يبدو مما سبق لنا انا ما اردنا ان نكتشف حصيلة من النقد الروائي الذى يعترف بالرواية كادب رفيع يستحق الدراسة الجادة ، فعلينا ان نوجه انظارنا بعيدا من الناقد المحترف متجهين نحو الاديب الروائي نفسه وما جاء في كتاباته عن ادبه . وهنا نتذكر ما قالته **اليزابيث بوين** (١٨٩٩ – ١٩٧٤) Elizabeth Bowen الروائية الانجليزية في الروائي الناقد ، وهو : « ان الكاتب الابداعي الذى يفتقر الى ملكة النقد لا وجود له . بل ان مهنته كروائي لا تتحمل مثل هذا الافتقار » (٧) . ومما يؤكد الدور الذي يلعبه الروائي الناقد بروز اسماء **فيلدنج وجورج اليوت هنرى جيمس** (١٨٤٣ – ١٩١٦) Henry James ود. ه . لورانس (١٨٨٥ – ١٩٣٠) D. H. Lawrence وا . م . فورستر (١٨٧٩ – ١٩٧٠) E.M. Foster وفرجينيا وولف ، على سبيل المثال لا الحصر ، في تاريخ النقد الروائي الانجليزي .

وباستثناء فيلدنج ليست هناك اية محاولة في القرن الثامن عشر لدراسة الرواية على اساس نقدى جاد . ويبدو اسهامه في هذا المجال فيما كتبه في نقد الرواية ونظريتها بينما كان يحاول ان يفسر لنفسه ولقرائه تجاربه في الكتابة الابداعية . ولا جدال ان فيلدنج هو رائد النقد الروائي في انجلترا بغير منازع . بل لعله ليس مجرد رائد لان الرائد يتبعه آخرون ، وهذا ما لم يحدث في حالة فيلدنج الذى سبق النقد الروائي بقرن من الزمان على الاقل . ولتكون تسميتنا اكثر دقة لو لقبناه بمستكشف وحيد خاص في نقده عالم الرواية البكر وتحسس معالمها المجهولة .

ونقد فيلدنج الذى احتواه في ثلاث مقدمات لروايته **جوزيف اندروز** (١٧٤٢) Joseph Andrews وفي ثماني عشرة مقدمة ، واحدة لكل كتاب من كتب روايته **توم جونز** (١٧٤٩) Tom Jones ، محاولة فريدة في اسهابها ترمى الى الرفع من شان الرواية بتحرير بعض المقاييس النيو كلاسيكية وتطبيقها على الرواية . واياً كانت نتيجة هذه المحاولة (وقد باءت بالفشل كما كان فيلدنج نفسه يعلم) ، فان المحاولة في حد ذاتها كانت مثلا مبكرا للنقد النظرى للتعريف بالرواية والتقنين لها .

كان الهدف الاساسي الذى سعى اليه فيلدنج اول الامر هو تعريف ماهية الرواية متخذا روايته **جوزيف اندروز** نموذجا لهذا الشكل الجديد . فوصف الرواية بانها « ملحمة هزلية

---

(٧) "Forward", Collected Impressions. (1950)

منشورة » (٨) . وكان فيلدنج يعلم تماما مدى الابتكار الذي تتضمنه تلك الموازنة بين الرواية والملحمة ، كما كان يعلم أيضا ما يحتمل من اساءة فهم القراء له في مقارنته بين هذين الشكلين من الادب . فيقول في مقدمة **جوزيف اندروز** ان الرواية « تمثل . . . نوعا من الادب لا اتذكر انني رأيت حتى الآن اية محاولة مشابهة له في لغتنا » . ويستمر فيلدنج في شرح اوجه الشبه والخلاف بين الرواية والملحمة ، كما عرفها هوميروس ، مشيرا الى ان الملحمة مثل المسرحية ، منها ما هو هزلي ومنها ما هو مأساوي . وهوميروس ، كما جاء في ارسطو ، ترك لنا ملحمتين ، احداهما هزلية بعنوان **مارجيتيس** Margites وقد فقدت ، والثانية مأساوية وهي **الالياذة** . والملحمة قد تكتب اما بالشعر واما بالنثر ، وان كان الشعر هو الاسلوب الغالب . وتنبه فيلدنج الى عدم الخلط بين « الملحمة الهزلية المنثورة » وبين المسرحية الهزلية والرواية الرومانسية المنثورة الجادة .
فالرواية عند فيلدنج او « الملحمة الهزلية المنثورة » كما عرفها تختلف عن المسرحية الهزلية من حيث ان « حركتها اكثر امتدادا وشمولا » ودوائر احداثها اكثر اتساعا ، وشخوصها اكثر تعددا واختلافا » . وعندما انتقل فيلدنج الى توضيح الاختلاف بين « الملحمة الهزلية المنثورة » والرواية الرومانسية صادف صعوبات لا حد لها . واعتبر ان من اسس الاختلاف الاسلوب الهزلي والميل الى المحاكاة التهكمية burlesque للادب الجاد ، والمغالاة فيها ، وهي التي وجد فيها فيلدنج متعة بالغة .

ونتج عن تعريف فيلدنج للرواية وقصور هذا التعريف كثير من الخلط . والسؤال الذي نطرحه هنا هو : هل الرواية كما عرفها فيلدنج اساسا مجرد « محاكاة تهكمية » للشكل الملحمي المأساوي ، ام هي رواية هزلية اخلاقية متكاملة في حد ذاتها ترمي الى تصوير المجتمع المعاصر ؟ ويعكس هذا السؤال الانشطار الواضح في **جوزيف اندروز** بالذات ، التي بنيت اول الامر على « المحاكاة التهكمية » لرواية **باميلا** (١٧٤٠) Pamela لريتشارد سون ، ثم تطورت واتخذت شكل رواية « المغامرات » Picaresque التي تصور مساوىء المجتمع بأسلوب الهجاء الساخر ، مستندة الى المبادىء الاخلاقية . وليس في هذا الخلط الواضح بين اتجاهين مختلفين ما يثير الدهشة لانه موجود اصلا في نظرية فيلدنج النقدية .

لا شك ان فيلدنج قد تنبه الى عدم التناسق في تعريفه للرواية مما ادى به بعد ذلك الى تجنب اية محاولات لبناء نظرية في الرواية متكاملة . وقضت السنوات السبع التي فصلت بين **جوزيف اندروز** و**توم جونز** على الدور الرائد الذي لعبه فيلدنج في النقد الروائي . ولا يعني هذا انه احجم كلية عن النقد . **فتوم جونز** تحوي من حيث الكم نقدا اكثر مما تحويه **جوزيف اندروز** ، ولكنه نقد متناثر يفتقر الى الوحدة . وحتى هذا النقد المتناثر في المقدمات يقل تدريجيا

---

(٨) مقدمة جوزيف اندروز

طولا ومضمونا خلال الرواية . وان كان فيلدنج يشير من آن لآخر في **توم جونز** الى نظرية« الملحمة الهزلية المنثورة » ، الا انه من الواضح انه بدا يفقد اهتمامه بالمسائل النظرية المجردة .

ان ميل فيلدنج الى الاحجام من التحليل النقدي في **توم جونز** يشير الى اكتشافه ان النقد في انجلترا في عصره لم يسلك الطريق السليم ، وان الدور الذي لعبه النقد في سن القوانين وتطبيقها ما هو الا عبث ، لان القواعد التي اصر عليها النقاد النيوكلاسيكيون مستقاة من تراث ادبي غريب عنهم ولا تتناسب مع العصر . « والوحدات » التي الح النقاد الكلاسيكيون على ضرورة اتباعها في المسرحية لم تكن في نظر فيلدنج الا اصطلاحا شارا يردده النقاد دون تفكير . وقد عبر فيلدنج عن هذا الرأي ستة عشر عاما قبل ان يكشف صمويل جونسون ، وهو من اعظم نقاد القرن الثامن عشر ، عن عقم هذا القانون في مقدماته لاعمال شكسبير . كما انتقد فيلدنج رغبة نقاد عصره في تطبيق حرفية القوانين المستخرجة من روائع الادب الكلاسيكي دون الاهتمام بروح الادب نفسه . كل هذه احكام جريئة تدل على انها صادرة عن وعي نقدي صائب ، حتى ولو ان صاحبها قد فشل في التوصل الى اسلوب في النقد يحل محل النقد العشوائي السائد في عصره .

وعلى الرغم من فشل فيلدنج في بناء نظرية نقدية في الرواية ، فانه كان واعيا على الاقل ، باعتباره روائيا اصيلا ، باهمية هذا الشكل الجديد من الادب وما يستحقه من اهتمام وما يتطلبه من تثبيت اهدافه والاعتراف بمكانته . ولعل محاولات فيلدنج النقدية التي كانت ترمي الى الارتقاء بالرواية الى المكانة الادبية اللائقة بها ، هي في حد ذاتها انجاز له قيمته في هذه المرحلة المبكرة من نشأة الرواية ، ونحن نطلب من اول روائي ناقد في انجلترا اكثر مما يستطيع الا ما حملناه مسؤولية وضع نظرية متكاملة في تعريف ماهية الرواية .

وكان من الطبيعي اثناء نشأة الرواية ان تتلاحق اسئلة الروائي عن كيفية كتابة الرواية من الناحية العملية المحضة ، وهي اسئلة في الواقع لا بد وان يطرحها كل روائي في كل مرة يبدأ في خلق رواية جديدة ، « فكما يقول تولستوي » ان كل فنان عظيم لا بد وان يخلق الشكل المناسب لعمله » . وكلما ازداد الابتكار والاصالة تكاثرت الاسئلة التي هي من صميم عمل الناقد .

وكان ستيرن من اهم التجريبيين في ادب الرواية ومن اعظمهم ابتكارا في رواية **ترسترام شاندي** (١٧٦٠ – ١٧٦٧) Tristram Shandy التي قلب فيها الزمن راسا على عقب . وبدلا من ان يقدم بطله كما كان متبعا في اولى صفحات الرواية فانه لم يسمح له بالظهور الا بعد انقضاء اكثر من نصف الرواية . ومن هنا تظهر احدى المشاكل الفنية الاساسية في كتابة الرواية ، وهي : من اين يبدأ الروائي وكيف يعالج موضوع الزمن وتتابع الاحداث ، ماذا يختار وماذا ينحي جانبا ؟ وقد عرض ستيرن لبعض مشاكل الروائي الفني في **ترسترام شاندي** ، متخذا من التأليف احد موضوعاته . ومن اهم الاسئلة التي شغلت بالها السؤال : الى اي حد يعتبر الروائي قد حاد عن جوهر موضوعه عندما يستطرد في تصوير ابعاد الشخوص المحيطة ببطله ليجسمهم للقارىء ؟

وهذا سؤال لا بد وان يجيب عليه الروائي قبل ان يبدأ في الكتابة ، كما لا بد وان يطرحه الناقد ايضا عندما يتناول الرواية ، وهو نابع من الوعي بالشكل الفني للرواية .

وستيرن مثل فيلدنج لم يصل الى اجوبة واضحة في النقد الروائي . والأجوبة في هذه المرحلة من نشأة الرواية ليست في نفس مستوى اهمية الاسئلة ذاتها . فالذى يهم هو صحة الاسئلة وتنوعها واتساع الرقعة التي تغطيها في مجال الادب الروائي . ويتضح من الاسلوب الذى اتبعه هذان الروائيان في ادماج تطبيقاتهما النقدية في كتاباتهما الابداعية ، انهما لم يشعرا بالحرج في الجمع بين دور الكاتب الخلاق والناقد في آن واحد . فلا تناقض بين الابداع والنقد ، بل هما بالنسبة الى الروائي متكاملان .

واتبع جين اوستن نفس الاسلوب في الجمع بين الابداع والنقد في بعض رواياتها ، الا انها تصور آراءها كناقدة في موضوع الرواية وتصوير شخوصها وتطوير حركتها ، بدلا من ان تعرضها ، كما فعل فيلدنج ، في المقدمات . ويبدو هذا في رواية نورث انجر ابي (١٨١٨) Northanger Abbey التي تكشف من فترة جين اوستن على تقييم الرواية المعاصرة لها من خلال « المحاكاة التهكمية » . وقد كتبت نورث انجر ابي في قالب ساخر يحاكي اسلوب « الرواية العاطفية » و « رواية الرعب » بهدف نقد هذين النوعين من الروايات التي انحدرت بالمستوى الادبي والفني للرواية بشكل ملحوظ . وجاءت هذه الروايات مجرد تكرار لا ابتكار فيه لما سبق ان كتب في مواضيعها . فكانت شخوص الروايات من بطل وشرير صورة طبق الاصل لبطلات وابطال واشرار مثيلاتها من الروايات ، وهذا ما ينسحب ايضا بالنسبة للمواقف ، والاحداث والحركة والحوار الى غير ذلك من عناصر الرواية .

ويبدو دور جين اوستن كناقدة روائية عند افتتاح الرواية وتصوير البطلة كاترين مورلاند كنقيض للبطلة المتفق عليها في الروايات الشعبية . فهي كما تقول الروائية ليست بطلة مثالية ، وليست من اسرة عريقة ، ولا تتصف في طفولتها بالجمال والنباهة والحس المرهف والنبوغ في الموسيقى والتصوير ، الى آخر تلك الصفات المبالغ فيها . وانما هي طفلة عادية ، وتصبح عندما تنمو فتاة عادية ايضا . وتتضح سخرية جين اوستن اللاذعة في موقف كاترين الفتاة البسيطة الميالة الى تصديق كل ما تقرأ من « روايات عاطفية » و « روايات الرعب » التي تعطي البطلة صورة كاذبة عن الحياة . وتضع جين اوستن بطلتها في عدة مواقف تطابق المواقف المعروفة في « روايات الرعب » ، فتتصور كاترين ان الحياة انعكاس لمجموعة التجارب المثيرة التي تمر بها بطلات « روايات الرعب » التي استحوذت على تفكيرها وخيالها . الا ان مواقف كاترين تنتهي دائما بخيبة املها ، واكتشافها الاخطاء التي وقعت فيها نتيجة لانها رأت الحياة من خلال قراءاتها لتلك الروايات الرديئة المثيرة . والدرس الذى تتعلمه البطلة في نهاية نورث انجر ابي هو ان الحياة لا هي « رواية عاطفية » ولا هي « رواية رعب » وان كانت لا تخلو في الواقع من العاطفية والرعب .

من الواضح ان نقد جين اوستن للرواية الشعبية المعاصرة لها يدور حول الهوة الشاسعة التي تفصل بين الواقع وتصوير الرواية له . وبسخريتها من الاثر الذي يتركه هذا الفصل بين الواقع والخيال المثير المبالغ فيه تنقد الكاتبة الرواية التي لا تنتمي الى الواقع في شيء ، والتي تصور الحياة بجمود وتصنع . وتشير جين اوستن الى الاحتقار السائد للرواية وخجل قرائها من الاعتراف بادمانهم لها ، مما يؤكد مستوى الرواية الهابط وشعبيتها في نفس الوقت . وفي الفقرة التالية تنكر الفتاة القارئة هوايتها ، بينما تعلق جين اوستن على الموقف .

« انا لست من قراء الرواية ، فقلما اتصفحها . لا تظنوني اقراها كثيرا » . هذه هي التعليقات التي يكثر ترديدها . « وماذا تقرئين ايتها الانسة ؟ » فيكون جواب الانسة « انها ليست الا رواية » بينما تطرح كتابها امامها بلا مبالاة مصطنعة او في خجل مؤقت (٩) .

والامر الذي يهم جين اوستن هو الا يتعدى هذا الاحتقار الى الرواية عامة التي تستحق التقدير . وفي دفاعها المباشر عن الرواية كمتذوقتها وكاتبتها تبدو امكانيات الرواية في احسن صورها . ويلاحظ ان هذا الدفاع مكتوب على لسان الكاتبة نفسها موجهة قولها الى القارىء ، وهذا اسلوب قلما تستخدمه جين اوستن في رواياتها ، مما يوضح الاهمية التي تعلقها على تلخيصها لمهمة الرواية الادبية كما فهمتها . وتستمر الكاتبة في تعليقها الساخر على لا مبالاة القارئة التي هي في الواقع امرأة ، كما تقول الكاتبة بعد ما اتجه ذهن السامع :

انها (اي الرواية التي تقرؤها الانسة) ليست الا سيسيليا او كاميلا او بليندا ، او بالاحرى ، انها ليست الا عملا من الاعمال التي تكشف عن اعظم قدرات العقل الانساني والتي تنقل الى العالم في احسن اسلوب مختار معرفة واثقة بالطبيعة البشرية ، وصفاتها المختلفة ، وافكارها النقدية ، وحضورها الذهني ، وروح الفكاهة التي تتصف بها (١٠) .

ويبدو من هذه الفقرة ان جين اوستن انما تصف كتاباتها هي ، كما تصف الادب الروائي في ارقى مستواه ، وهي تحاول في هذا التعريف ان تضع اسسا ومقاييسا عامة للرواية .

وترى جين اوستن نتيجة للاحتقار السائد للرواية ضرورة وقوف الروائيين من امثالها صفا واحدا ضد النقاد المحترفين ، الذين يحطون في نقدهم الروائي المنشور في الدوريات من شأن الرواية ، فتقول :

فلندع الطفيلي النقاد يثلبون الرواية ذات الخيال الخلاق باقذع الاوصاف كما يحلو لهم ، ويتحدثون عن كل رواية جديدة باسلوبهم الواهن ، مشيرين الى الهيه الذي تئن من تحته دور النشر . علينا الا يتخلى بعضنا عن بعض . اننا نحن معشر الروائيين هيئة مغبونة . فعلى الرغم من ان انتاجنا قد وفر للقراء ترفيها لا حد له ، ولا يمكن لاي هيئة ادبية اخرى في العالم ان تضاهيها ، فليس هناك شكل ادبي آخر قوبل بمثل الهجوم الذي قوبلت به الرواية (١١) .

---

(٩) نورث انجر ابي ، الفصل الخامس

(١٠) المرجع والفصل السابقان .

(١١) المرجع والفصل السابقان .

في كل ما سبق أن جاء في نقد الرواية على لسان فيلدنج وستيرن وجين اوستن على ضآلته وتحسسه في الظلام ، نجد محاولة الروائي توضيح ماهية الرواية ومهمتها ، مما يعينه عمليا في كتاباته الخلاقة ، كما يكشف هذا التلمس رغبة الروائي في الارتفاع بالرواية الادبية والرفع من شأنها .

وقد مهدت هذه الخطوات الاولى في نقد الرواية الطريق لاديب روائي آخر هو سير والتر سكوت ، الذى اشتهر في القرن التاسع عشر برواياته التاريخية ، فظهر مقاله « اما رواية » " Emma, a Novel " كمثل جيد للنقد الموضوعي . ويستحق هذا المقال عناية خاصة لانه مثل مبكر لتقييم جاد للرواية سواء اكانت لمجرد التسلية او انها تتضمن هدفا اخلاقيا واجتماعيا . والى جانب هذا فالمقال من اجود ما جاء في نقد ادب جين اوستن وفي التعرف على الاهمية الادبية لرواياتها في ايامها الاولى . وملكة النقد الموضوعي عند والترسكوت تتضح على وجه التحديد في قدرته على تقييم عمل كاتبة مثل جين اوستن يختلف اختلافا تاما عن اتجاهه التاريخي .

ويشير سكوت في مقاله الى نوع الروايات الهزيلة التي اكتسحت السوق في ايامه ، والى موقف القارىء منها « التي سبق ان اشارت اليه جين اوستن في نورث انجر آبي — اي رفض القارىء الاعتراف صراحة بقراءته على الرغم من استمتاعه بها . وسكوت لا يحكم بقسوة تامة على هذا النوع من ادب الهروب الذي يساعد ، كما يعترف ، على التخفيف من كثير من آلام البشر مثل « الملل والقلق والالم وحتى الفقر » ، كما يخفف من وطأة الحياة « المسنين والعزاب المهجورين والوحيدين » . وتظهر نظرة سكوت المتسامحة الى رواية الهروب جنبا الى جنب مع شعور بالتزام اكثر نحو توضيح قيمة رواية تمثل مستوى اما الادبى ، فيقول :

ان واجب الناقد يصبح مضاعفا حيال امثال ... كتشفتين معرفة عميقة بقلب الانسان ، وتعبر عنها بقوة وبرصانة تهدف الى وضع هذه المعرفة في خدمة الفضيلة والشرف (١٢) .

واهم ما في نقد سكوت في مقاله هو الفرق الذي سبق ان اشارت اليها جين اوستن في نورث انجر ابي بين روايات معاصريها ورواياتها هي التي تتطلب « اهتماما يفوق بكثير ذلك الاهتمام الذى يتطلبه انتاج معاصريها الزائل الذى يغذى مكتبات الاعارة ومشتركيها من النساء » . فاعمال جين اوستن ، كما يقول سكوت :

تنتمي الى مستوى من ادب الرواية لم يكد يظهر الا في عصرنا الحالي ، وتصور الشخوص والاحداث المنتقاة على نحو اكثر مباشرة من حياتنا العادية اليومية ، وهو امر لم تسمح به القواعد السابقة للرواية (١٣) .

(١٢) Emma : a Novel, Quarterly Review, October 1815

(١٣) المقال السابق

ان حكم سكوت الصائب كروائي ناقد جمع بين الرومانسية والواقعية في رواياته التاريخية مكنه من تقدير مشكلة الروائي في عصره الذي تحرر من قيود المواضيع الرومانسية البعيدة عن الواقع دون ان يتحرر من التقاليد الرومانسية في اسلوب الكتابة . ويقول سكوت بهذا الصدد :

ان الرواية الحديثة في ظاهرها هي الظل الشرعي للرواية الرومانسية ، وعلى الرغم من ان شكلها العام قد تغير ليناسب العصر الحديث ، الا ان المؤلف استمر مقيدا بكثير من المعالم الخاصة بالرواية الرومانسية التي ظهرت عند نشأتها (١٤) .

من الواضح ان سكوت يشير هنا الى المعالجة الفنية التي لا تتمشى مع موضوع الرواية العصرية ، ويبدو هذا ايضا عندما يقول : « ويمكن متابعة (هذا الاسلوب) في تناول احداث الرواية وتطورها ، وفي التاج العاطفي المحيط بالشخوص الروائية (١٥) .

وان كان اسهام جين اوستن في تطور الرواية الحديثة يتلخص في التحرر من المواقف والشخوص والاحداث التقليدية كما جاءت في الرواية الرومانسية ، فان اسهام سكوت في نقدة يرجع الى تعرفه على ما انجزته جين اوستين في كل من الموضوع والشكل الفني اللذين لا يفصل بينهما . ويقول في هذا :

اننا لا نلقى الا فشلا على طريقة ما عندما نقول انها اقرب الى الاحداث العادية والاشخاص العاديين . ومع ذلك فقد انتجت صورا مبتكرة ذات حيوية الى درجة اننا نشعر انها تشير الى الافكار التي تعتمد على سرد احداث غير مادية ... ان احداث رواياتها مبنية على وقائع عادية لا تختلف عما تقع تحت اعين غالبية الناس . وتتصرف شخوصها نتيجة لدوافع وعلى اساس مبادىء يسهل على القارىء ان يتعرف عليها ، لانها نفس الدوافع والمبادىء التي تحكمهم وتحكم غالبية اصدقائهم (١٦) .

وعلى الرغم من جميع هذه المحاولات النقدية التي ترمي الى النهوض بالرواية الادبية فانها لم تكن ذات اثر فعال . لقد بنيت على مناقشات جادة لبعض نواحي الادب الروائي مما يدل على وعي الروائيين الرواد بمشاكلهم الفنية والشكلية ، ولكن نقدهم لم يفصح عنها باستفاضة ؛ ولا على نحو منظم يمكن ان نستخلص منه مجموعة من الاسس النقدية المتكاملة . والى جانب هذا فان دفاع الروائي عن ادبه وما يستحقه من احترام لم يأت بالنتيجة المرجوة .

استمر الهجوم على الرواية حتى الستينات والسبعينات من القرن التاسع عشر على اساس ان هدفها الاوحد هو التسلية ، وان قراءة الروايات ليس الا نوعا من الادمان والانغماس في اللذة . وليس في هذا ما يثير الدهشة ، لان الفكتوريين عرفوا بالتطهرية والتزمت اللذين دفعا بكثير من الآباء الى حرمان اولادهم من تلك « التسلية الخطرة » ، كما سموا قراءة الروايات . ومنهم غير ذلك من الشروط العشوائية . وقد شبهت عادة قراءة الروايات نهارا بشرب الخمر في الصباح ،

---

(١٤) المقال السابق

(١٥) المقال السابق

(١٦) المقال السابق

من كان اقل صرامة فوضعوا قواعد لقراءة الرواية تبدو لنا اليوم مضحكة في شروطها ، فحرم بعضهم قراءة الروايات صباحا او ايام الاحد ، وسمح بعضهم قراءة والتر سكوت وحرم دوماس الذي كما شبهت العادة عامة بالاقبال المفرط على الحلوى التي كانت لها شروطها ايضا في البيت الفكتوري . وقد استخدم كثير من الروائيين انفسهم هذين التشبيهين ، فقال ترولوب (١٨١٥ – ١٨٨٢) Trollope : « ان الناس تقرا الروايات كما يأكل الرجال الفطائر بعد العشاء والشعور يداخلهم بأن الملاذ في كتب الحالين زائل ان لم يكن ضارا » . واشار ثاكري الى نفس المعنى عندما قال : « آه ـ تلك الروايات البديعة ، كم اتذكرها جيدا . انها حلوة ولذيذة مثل فطائر الفاكهة التي عرفتها في صباي » . ومن عشاق الرواية في عهد فكتوريا هنري كراب روبنصون Henry Crabbe Robinson الذي لم ينقطع عنها طوال سبعين عاما ، وقد عبر عن ادمانه في مذكراته بقوله :

« ان الرواية بالنسبة لي مثل الخمر بالنسبة للآخرين » . ويقال انه كان يقرا الروايات دون تمييز بين الجيد منها والرديء ، وهذه هي علامة المدمن الحقيقي . وقد واصل القراءة حتى سن التسعين ، عندما اشار في مذكراته الى قراءته لرواية Vanity Fair (ولم تكن المرة الاولى) وهو مستلق في الفراش ممسكا بشمعة تنير له الصفحات .

كان من الصعب إذا التغلب على النظرة الترفيهية المجردة للرواية التي اشترك فيها الروائيون انفسهم في بعض الاحيان ، وهي احدى الاسباب التي يرجع اليها تأخر تطور النقد الروائي . ومع ذلك فالاستمتاع بقراءة الروايات الذي وصل الى حد الادمان في كثير من الحالات ، وان كان عائقا في سبيل ظهور النقد الروائي ، يمثل في الواقع نقطة الارتكاز في هذا النقد . فالروائي ، كما قال ترولوب ، « غير مسموح له بان يبعث الملل . ان كاتب القصص لا بد ان يدخل السرور على قرائه . والا فهو لا شيء »(١٧) وساندة في هذا الراى هنري جيمز الروائي والناقد الشهير ، وهو من اكثر كتاب الرواية وعيا بشكلها الفني ، عندما قال : « ان الشرط الوحيد المسبق الذي ينبغي على الرواية ان تتقيد به هو اثارة اهتمام القارىء » (١٨) . وعندما يوضع ذلك الاهتمام تحت الدراسة الموضوعية في محاولة لتفسير ما الذي ادى في الرواية الى اثارة ذلك الاهتمام ، يولد النقد . ما الذي يدفع بالقارىء الى قراءة الرواية الواحدة عدة مرات بعد ان كشف من تطور احداث الرواية والعلاقات بين شخوصها ومصيرهم من زواج ووفاة الى غير ذلك ؟ ان مهمة النقد هي الاجابة على هذا السؤال .

ولكن قبل ان يتجه النقد الروائي الى هذه الدراسة الموضوعية التي تركز على تحليل وتقييم لشكل الرواية واسلوبها ، اتبع طريقا آخر تناول من خلاله الرواية من حيث اخلاقياتها ودورها

(١٧) Autobiography, ch. XII.

(١٨) The Art of Fiction (1884)

الفعال في المجتمع . وهذا اتجاه لا غرابة فيه متى ذكرنا تطهرية الفكتوريين وقلقهم العميق من اي اثر ضار قد يلحق بمجتمعهم . وقد بلغ هذا القلق ذروته خلال الستينات واستمر حتى الثمانينات . ففي عام ١٨٦٦ ظهرت في دورية London Quarterly Review ، التي اشتهرت بميولها التطهرية ، حملة ضد ما اعتبرته روايات مثيرة كتبها تشارلز ريد (١٨١٤ ــ ١٨٨٤) Charles Reade وولكي كولينز (١٨٢٤ ــ ١٨٨٩) Wilkie Collins ، ومسز هنري وود Mrs. Henry Wood ووصفتها بانها نوع من « السم الخلقي » الذي سيؤدي الى انهيار المجتمع . ويتضح من الاسلوب الذي اتبع في هذه الحملة التي لم يكن لها اي اساس من الصحة ، هبوط مستوى النقد الروائي واللا منطقية التي بنى عليها . فكان النقاد يقفزون من اعتراضهم على لا اخلاقية رواية بالذات الى الحكم الشامل على طبيعة الرواية عامة وتأثيرها الفاسد على المجتمع .

وقد طبق كثير من النقاد المحترفين مقياس الفائدة الاخلاقية للرواية على نحو اكثر تفاؤلا ، فاشاد بعضهم برقي مستوى الروائيين الاخلاقي وطهارة تعاليمهم الاخلاقية . وبذلك اصبحت الرواية في نظرهم اداة للتعليم ووسيلة لتصحيح الاوضاع الاجتماعية الفاسدة المعيبة ، ولنشر الفضيلة . وتنعكس هذه النظرة النفعية الى الرواية في السبعينات في الجدال الذي نشأ حول الرواية . ويرد المدافعون عنها امثلة لتبيان الرواية تعمق من تجربة القارىء ، وتعمل على احياء المثل الفاضلة ، « وتوقظ قليلا من البطولة ، وتعلم الفتيات « الايثار والطيبة والرقة » (١٩) . ولا تمتنع ، نفس الدورية ، عن مهاجمة والترسكوت لفشله ، كما تقول ، في تطوير الفائدة الاخلاقية التي رفعت الرواية الى مصاف الادب المحترم منذ ان كتب رواياته . وتعود مرة ثانية الى وصف رواياته بانها روايات تسلية لا اكثر ولا اقل ، متسائلة كيف يتأتى لمثل هذا الكاتب بما له من نبوغ وقوة وامكانيات ان يسقط من حسابه اهدافا عظيمة تتفق مع ما حباه الله به ، وتنتهي بالسؤال : « اليست هناك قضية واحدة حية تستحق الدفاع ؟ » (٢٠)

وبذلك كانت معاناة الرواية ، في نهاية المطاف ، من اصدقائها الاخلاقيين النفعيين لا تقل عن معاناتها من اعدائها الاخلاقيين المتطهرين . ففي كلتا الحالتين لم يثمر موقفهما عن الاعتراف بالرواية كشكل ادبي له كيانه واستقلاله الذاتي .

ومع ذلك فقد تقدم النقد الروائي على ايديهما نتيجة لا تفاقهما على تقييم الرواية على اساس تأثيرها المتفرد على خيال القارىء ومشاعره . وفي مقال نشر عام ١٨٦٦ في Saturday Review اشار الكاتب الى هذا التأثير المباشر الذي اعتبره اعظم ما تتصف به الرواية فيما يتعلق بفائدتها العملية ، ويرجع الى الصلة الوثيقة بين « خيال الانسان المسرحي »

---

(١٩) "The Uses of Fiction", Tinsley's Magazine (1870), vi.

(٢٠) نفس المرجع ، 'The Scott Centenary' العدد التاسع (١٨٧١ ــ ١٨٧٢)

ويجمل طبيعته الاخلاقية . ويعطي هذا التوجيه الباشر من الفائدة العملية لكل من الروائي والناقد النظري مجالا أوسع للعمل مما يعطيه النوع الآخر من الفائدة العملية المباشرة . وهذا النوع السابق هو الذي اعتمدت عليه جورج اليوت في تبرير أهمية عمل الروائي وجديته ، وجاء فيما قالته :

> ان اعظم فائدة ندين بها للفنان ، سواء الذي رسما أم شاعرا أم روائيا هو أنه يوسع دائرة مشاعرنا وعواطفنا ... ان الفن هو الاقرب شبها الى الحياة ، وهو وسيلة لتوسيع حلقة تجاربنا ، ومد صلاتنا بني البشر خارج حدود حياتنا الشخصية (٢١) .

ويتبين من هذه الفقرة ان جورج اليوت ،مثل جميع الفكتوريين العظام ، كانت تنظر الى دورها كمعلم او مؤثر على فكر الناس ومشاعرهم بطريقة جادة ، كما تؤمن بمسؤولية الكاتب الكبيرة وقداسة عمله .

وقد أدى الاعتراف بأهمية الدور الذي يلعبه الروائي في حياة الانسان والمجتمع الى تأكيد جديد في النقد الروائي لاهل الرواية في السمو بالاخلاق ، وكل على النواحي الفكرية والابداعية في الرواية . وفي مقال نشر في British Quarterly عام ١٨٦٧ ارتفع الكاتب بالمقاييس الفنية التي تتطلبها الرواية ، واضفى فناء على الرواية لتحررها واحتوائها على الادوار المتعددة التي تؤديها كل من الملحمة والمسرحية والشعر الغنائي ، وتساءل الكاتب : « ما الذي لا يستطيع الروائي عمله ؟ ... ان اسمى الحقائق وأطهرها ـ وهنا يبرز مصدر الوعي الاخلاقي والوعظة ـ يمكن التوصل اليها عن طريق الرواية وخاصة اذا كتبت جورج اليوت في كتابة الرواية التي يقارن الكاتب بينها وبين جوته Goethe من حيث نظرتها الجادة وسمو مبادئها .

وتختلف جورج اليوت عن كثير من معاصريها في مفهومها لنظرية الاخلاقية الروائية ، في انحصار أثرها على القارىء لا على الوعظة المباشرة (وان كانت رواياتها تحوي كثيرا من هذه المواعظ) ولكن على التأثير الخفي لا سطوحها في الكتابة التي تخاطب مشاعر القارىء وعقله وحواسه كانسان متكامل لا يمكن الفصل بين عناصر انسانيته المتعددة . وتقول جورج اليوت في هذا الصدد مؤكدة العامل الجمالي في رواياتها لا العامل التعليمي المباشر :

> ان عملي هو مهمة الفن الجمالي لا الفن التعليمي ،وهي تهدف الى اغناء النبل المشاعر التي تدفع بالانسان الى الرغبة في العمل الاجتماعي ، ولا تهدف الى وصف النظم الاجتماعية الفردية الخاصة التي لها يستطيع على الفن العظيم وعلها ... حركة ... الاجتماعي (٢٢) .

أصبحت القضية هنا قضية فنية جمالية ،وليست قضية تقنية عادية مباشرة ، كما أصبح الشكل الجمالي أو الفني أساسا في تصوير الرؤية الاخلاقية الشاملة ، أي أن الشكل الفني في سبيله الى الارشاد الى نفس مستوى أهمية الموضوع ، أو على الوجه الاصح أهمية الرؤية .

---

(٢١) "The Natural History of German life", Westminster Review, (1856), X

(٢٢) Letters, edit G. S. Haight, 1954-5, iii p. 44

وهنا اعتراف صريح بالدور الفني والشكلي للرواية الذي لم ينتبه اليه النقاد في غمرة دفاعهم عن اخلاقيات الرواية المتعلقة بالموضوع .

ولعل جورج اليوت في الرواية هو من اجود واقدر ما كتب في هذا المجال في العصر الفكتوري . ونظريتها ـ ان صح تسمية تعليقاتها المتفرقة بنظرية ـ مبنية على الاسلوب الواقعي الذي نادت به ، ودافعت عنه ، وطبقته عمليا منذ اول رواية نشرت لها . وقد اتخذت الالتصاق بالواقع القيد الوحيد للرواية ، وهاجمت في نقدها ، مستندة الى هذا المبدأ البسيط الروايات التي حادت عنه . فالمبالغة والتقاليد الادبية البالية ، وكل ما يمكن وصفه بالتصنع الادبي لاقى منها نقدا لاذعا . وقد نشرت تعليقاتها ومقالاتها في دوريتي ليدر Leader وستمنستر Westminster في خمسينات القرن الماضي . واهم ما كتبته في هذا الصدد مقالان بعنوان : « التاريخ الطبيعي للحياة الالمانية » " The Natural History of German Life" و « روايات تافهة لنساء روائيات » "Silly Novels by Lady Novelists" وفي الفصل السابع عشر لرواية آدم بيد (١٨٥٩) Adam Bede شرحت نظريتها الواقعية موضحة البساطة والقوة اللتين يتت عليهما رأيها في تصوير الحياة ، وقالت :

وبذلك فانا راضية ان احكى قصتي البسيطة دون ان احاول تصوير الاشياء على نحو افضل مما هي عليه في الواقع . الا انى اخشى شيئا بالتأكيد الا وهو ان اكون غير صادقة ولهذا ابذل في ما ابذله من جهد شيء يخشى منه . ان البعد عن الحقيقة سهل والصدق صعب . وفي صفة الصدق الرفيعة النادرة هذه ، التي تتصف بها صوري الواقعية ، والتي يحتقرها اصحاب النفوس التافهة ، تكمن الصفات الجد متناكرة .

ان الاحترام ، بل والتقدير ، اللذين تميز بهما جورج اليوت في نظرتها الى انتاجها الروائي ساعدا في الجزء الاخير من القرن التاسع عشر على قيام حركة في مجالي الرواية والنقد الروائي اساسها الجدية والفكر والعقلانية . واصبح روائيون من امثال جورج ميريدث (١٨٢٨ ـ ١٩٠٩) George Meredith وجورج مور ١٨٥٢ ـ ١٩٣٣ George Moore وجورج جيسنج (١٨٥٧ ـ ١٩٠٣) George Gissing وتوماس هاردي (١٨٤٠ ـ ١٩٢٨) Thomas Hardy نقطة التقاء عاصف وجدال مستمر حول الرواية الادبية ، وما يجب ان تكون عليه . فكان راي ميريديث انها يجب ان تتضمن « فلسفة » و « فكرا » و « فكرة » بدلا من ان تكون قالبا لاخلاقيات الطبقة المتوسطة ووسيلة لقتل الوقت . واتخذ جورج مور نفس الموقف مهاجما معاصريه عندما قال غاضبا : « ان اهتمامي لا يتجه نحو اولئك الذين ينظرون الى الادب وكأنه نوع آخر من رياضة ركوب الدراجات » (٢٢) . واصبح « الضمير الفني » المصطلح الذي تعارف عليه الروائيون النقاد في حربهم لرفع المستوى الفني للرواية ووضعه في المرتبة الاولى قبل اي اعتبار آخر . وكان يخشى عليه ، كما حدث في العصور السابقة ، من انتشار الرواية الرخيصة الشعبية واكتساحها السوق في اعقاب قوانين التعليم الجديدة التي استوعبت عددا كبيرا من المواطنين تعلموا القراءة والكتابة دون ان يحصلوا على اية ثقافة .

---

(٢٢) "A Tragic Novel", Cosmopolis, vii, (1897), 58

وكان جورج جيسنج من الروائيين النقادالذين بهروا بانجازات الروائيين الفرنسيين والروسيين ، الذين اتصفت اعمالهم بذلك « الضمير الفني » الحي الذي وضع الادب فوق اي اعتبار مادي ، مالا كان ام شهرة . وقارن جيسنج بين الرواية الفرنسية والروسية من ناحية وبين الرواية الانجليزية من ناحية اخرى ، فقال :

ان الروايات الانجليزية مادة بالية بسبب بائس جدا ، وهو ان الروائيين الانجليز يخشون من انجاز احسن ما في مقدورهم لتخوفهم من بغض ذلك بشعبيتهم ، ومن لم يدخلهم... فليكن الروائيون صادقين مع انماطهم الفنية وسيتبعهم الذوق الجماهيري فيما بعد (٢٤) .

ساعد موقف الروائيين النقاد من الرواية في الربع الاخير من القرن التاسع عشر على الانتباه الى الشكل الروائي ومناقشة جمالياته . وكانت هذه آخر مرحلة من مراحل تطور النقد الروائي في القرن الماضي واضعفها ، كما يبدو من تخبط النقاد وترددهم ، وعدم توصلهم الى ابسط المبادىء التي يمكن الاستناد اليها .

فانكرت فيرنون لي Vernon Lee الروائية التي عكفت على دراسة البناء الروائي ، جماليات الرواية . ان الرواية في نظرها ، متى قورنت بفن التصوير او الموسيقى ، ليست الا نصف فن . فهي تفتقر الى الوسيلة التي يمكن بواسطتها ان تحول موضوعها من الاهتمامات الانسانية الاخلاقية الى تلك الانطباعات الحسية التي تتمتع بذاتها كلما هو جميل . ان جاذبية الرواية في نظرها غير جمالية ، بل تستند الى ميلنا المطلق نحو النقاش والجدل واكتساب معرفة بالحياة ، والاثارة العاطفية ، والشعور بالرضا البيتي تدخله طبيعتها مركبة من الكلمات . وهذا العنصر الاخير هو الوحيد الذي يمكن اطلاق مصطلح « الشكل » عليه وهو عنصر ، كما تدعي فيرنون لي ، تستطيع الرواية الاستغناء عنه (٢٥) .

وظهرت نفس السلبية فيما قاله **جورج بارنيت سميث** George Barnett Smith عام ١٨٧٤ عن بناء الرواية . فبعد ان اثنى ثناء عظيما على فيلدنج واعماله الروائية ، قال :

لن تحظى الرواية ابدا بمكانة توازي في اهميتها مكانة المسرحية بسبب العيوب في بنائها (٢٦) .

ووقع سميث ، كما وقع كثير من معاصريه في نفس الخطأ الناجم عن الاعتقاد بانه يمكن الحكم على بناء الرواية المتقنة بالاستناد الى مقاييس تنتمي الى شكل ادبي آخر مثل المسرحية ، لا الى مقاييس تناسب اهداف الرواية .

---

(٢٤) "The New censorship of literature", letter tothe Pall Mall Gazette, XI, (December 1884)

(٢٥) "The Aesthectics ofthe Novel", Literature, (1893), V 98-100.

(٢٦) "Our First Great Novelist" Macmillan's Magazine, xxx (1874), I.

وعلى العكس من ذلك اعتبر آخرون مرونة الرواية واحدة من مزاياها الجمالية . فقال احد المعلقين على الرواية :

ان الرواية من بين جميع الاشكال الادبية هي الشكل الوحيد الذي يستطيع ان يعبر بسهولة مطلقة عن كل عاطفة يمكن تصويرها (٢٧) .

غير انه عاد ثانية واعترف بمخاطر هذه المرونة في البناء الروائي .

والمهم في كل هذا ، سواء اجاءت التعليقات النقدية على الشكل الروائي ايجابية ام سلبية ، هو بدء ظهور الوعي بالناحية الجمالية للرواية ومناقشتها . وقد صاحب هذا الاتجاه الجديد في اواخر القرن التاسع عشر ازدياد الوعي الفني عند الروائيين انفسهم الذين وقعوا تحت تأثير فلوبير (١٨٢١ ـ ١٨٨٠) Flaubert الروائي الفرنسي الذي ساعد اهتمامه بالشكل الفني للرواية على تطوير الرواية الحديثة ، كما ساعد على النهوض بالرواية عامة لما ابداه من جدية في معالجته اياها .

ونتيجة لهذا ، اخذ النقاد الروائيون بالذات في اواخر القرن ، يعبرون عن حماسهم المتزايد للرواية وعن ثقتهم فيها ، متخذين من الرواية الفرنسية مثلا يحتذى لرفعة الفن . في احدى المقالات الهامة التي ظهرت عام ١٨٨٤ بعنوان « فن الرواية » "The Art of Fiction" اكد والتر بيزانت (١٨٣٦ ـ ١٩٠١) Walter Besant الروائي الانجليزي ، ان الرواية قرين تام لاشكال الفنون الاخرى ، محكومة مثلها بقواعد دقيقة يمكن ان تعلم كما تعلم قوانين الهارموني في الموسيقى . وعندما نصل الى عام ١٨٩٠ نجد ان النقاش والجدال قد ازداد حول اهداف الرواية واساليبها وميادينها ، حتى اصبحت ظاهرة من ظواهر الدوائر الادبية . وانصب هذا الجدل حول جانبي الشكل والموضوع ، وكان لكل منهما انصاره . فاصبحت الرواية محور اهتمام عدد من النقاد اعتبروها الان شكلا ادبيا يستحق الدراسة .

• • •

كان الوقت قد حان لظهور ناقد يستطيع ان يجمع الخيوط المفككة في شكل مترابط . وآلت هذه المهمة الى الروائي هنري جيمز الامريكي الاصل الذي عاش معظم حياته الادبية في انجلترا وتجنس بالجنسية البريطانية . وقد ارتفع جيمز الى مصاف الروائيين العظام كما اصبح رائد النقد الروائي في العصر الحديث .

كانت الثورة في النقد الروائي التي قامت على اكتاف جيمز مفاجئة وساحقة وكاملة . ففي عام ١٨٨٤ جاء على لسان جيمز ، وهو ما زال في منتصف العمر ، ان الرواية الانجليزية ليست

---

(٢٧) "Novels & Novelists", Saturday Review, xxxiii (1872), 722-3.

موضوعا « للدراسة » (٢٨) ، وعبر عن اسفهالعميق لافتقارها الى النقد لاهميته في تطور الادب . وبعد عشرين عاما ، كان جيمز قد درس الرواية وحللها بدقائم يسبق لها مثيل في مقدماته الثماني عشرة التي كتبها لطبعة نيويورك « لرواياته وقصصه » (١٩٠٧ — ١٩٠٩) . ولعلنا لا نخطيء اذا ما قلنا انه ليس هناك في تاريخ النقد ثورة في مثل شمول الثورة التي اتت الى مقدمات جيمز . وينفرد النقد الروائي في هذه الظاهرة الفاجئة ، بعكس النقد الشعري الذي نما وتطور في انجلترا ببطء وصعوبة طوال ثلاثة قرون منذ ايام الشاعر درايدن . واذا ما استثنينا المحاولات الراهنة المتفرقة التي سبق ان ذكرناها، فاننا لن نكون مخطئين كل الخطأ اذا قلنا ان النقد الروائي في اواخر القرن التاسع عشر في انجلترا ولد من لا شيء . واما كانت الاهمية التي نضفيها على نقد جورج اليوت وزميلها جورج هنري لويس George Henry Lewes فمن الواضح لنا اليوم كما كان واضحا لجيمز انها كتبت دون استناد الى مبادىء فنية موثوق بها ، بدون التأكد من ان الجمهور القارىء يتمتع بنفس الثقة في الرواية . اما في حالة جيمز ، فقد استطعنا ان نقول انه لاول مرة منذ ايام فيلدنج ، الرائد الاول في النقد الروائي ، يتحدث روائي عن فنه بمعرفة ولباقة ، كما يكتب حسن اعمال غيره من الروائيين بنفس الاسلوب الواثق .

ان نشر مذكرات Note books جيمز عن رواياته عام ١٩٤٧ اثبت بما لا يدع مجالا للشك ان جيمز كان فنانا ذا وعي عميق استطاع ان يعبر عنه منذ البداية — فمن سن الخامسة والثلاثين حتى وفاته لم يتوقف عن شرح الاسباب والظروف التي دعته الى اختيار موضوعات بالذات موضحا في مذكراته نواة رواياته ، والخطوات التي مرت بها ، وكيفية تطورها . ان كل رواية من روايات جيمز وكل قصة من قصصه ظهرت الى الوجود بارادة واعية افصح منها الكاتب باسهاب لا يكاد يكون له نظير في تاريخ الرواية . في هذه المذكرات اذا ، التي بدأ جيمز يكتبها عام ١٨٧٨ ولد النقد الروائي كما نعرفه اليوم . اما مقدمات رواياته الثماني عشرة التي كتبها في نهاية حياته الادبية فهي تتويج لجميع انجازاته . ويجب ان نشير هنا الى ان الاعتقاد السائد بان النقد كثيرا ما ينشأ نتيجة لفشل الكاتب في اعماله الخلاقة لا ينطبق اطلاقا على جيمز، حيث نجد التوأم الكاملين النقد والخلق . ويلاحظ ايضا ان جيمز لم يكتب معتذرا او مدافعا عن بعض او كل ما جاء في اعماله . ان مجموع نقده يتصف بطابع الثقة المتواضعة ، كما يتصف باحترام الكاتب العميق لذلك الغموض الذي لا بد ان يكتنف كل عمل ادبي خلاق .

واذا ما تركنا مذكرات جيمز جانبا لاختلافها العام عن بقية نقده من حيث هي توضيح وتفسير لعملية الابداع عنده ، فان نقده يقع في ثلاث مراحل يتناول الناقد عبرها كتابا معاصرين له وفعاليتهم من الروائيين الانجليز والفرنسيين والامريكيين . وتغطي المرحلة الاولى مقالاته المنشورة ابتداء من سن الواحدة والعشرين في مجلة Nation وغيرها . وهي تعليقات على كتب من مختلف الانواع ، من

"The Art of Fiction" (٢٨)

بينها مقال (١٨٠٥) هاجم فيه رواية **صديقنا المشترك** (١٨٦٥) Our Mutual Friend لتشارلز ديكنز . اما المرحلة الثانية فهي تلك الفترة الوسيطة المثمرة التي بدأت بنشر مقال (فن الرواية » (١٨٨٤) " The Art of Fiction " وهو تعليق على محاضرة والتر بيزانت المنشورة تحت نفس العنوان ، وبيان في نظرية الرواية . ثم تلته مقالاته الهامة عن الروائيين **ترولوب** (١٨٨٣) **وستيفنسون** (١٨٨٨) **وموباسان** (١٨٨٨) Maupassant **وزولا** (١٩٠٣) Zola **وبلزاك** (١٩٠٥) Balzac ويمكن ان نضيف الى هذه المقالات مقالة عن **هوثورن** (١٨٧٩) Hawthorne اعطى فيه الروائي الامريكي حقه في الثناء كاملا ، ثم مقالة عن **كونراد** Conrad **وآرنولد بينيت** Arnold Bennett **وهيو واليول** Hugh Walpole بعنوان « جيل الشباب » "The younger Generation" . واخيرا تجيء المرحلة الثالثة التي ظهرت خلالها **مقدماته** (١٩٠٧ ـ ١٩٠٩) التي تتضمن مجموع ما جاء في نقده الروائي ، وتمثل عمق وغنى اهتماماته النظرية في النقد ، واعتبر جيمز هذه **المقدمات** في مجموعها مرشدا لمن يصبو الى مهنة الرواية الشاقة ، كما سماها . ولا يمكن ان ننكر ان هذه الاشارات لا تتبع نظاما معينا ، فكل رواية وكل قصة كانت تطرح اسئلة نقدية خاصة بها لا تنطبق على غيرها ، ولا تستلزم اية خطة واضحة الهدف . ومع ذلك فمجموع ما جاء فيها ذو طابع متنوع تشمل جوانبه العديدة اهم اوجه النقد الروائي عند جيمز .

وكان جيمز في هدفه طموحا ، فرمى الى خلق تقليد انجليزي في النقد الروائي من لا شيء . وكان مصيبا في شكواه من افتقار الرواية الى النقد عندما قال :

كان الاعتقاد السائد الى وقت قريب على ما يبدو ، حول الرواية الانجليزية انها على حد قول الفرنسيين مجالا للدراسة ، ولم يبد عليها انها تستند الى نظرية او اقتناع او وعي بنفسها ، او انها تعبير عن عقيدة فنية نتيجة اختيار ومقارنة ... لقد كان هناك شعور عام مريح منبسط بان الرواية هي رواية كما ان « البودنغ » هو بودنغ (٢٩) ، وان مهمتنا الوحيدة هي ان نبتلعها . (٣٠)

وقد سبق ان لاحظ جيمز في مقاله عن ترولوب ان « من الخطورة بمكان » في انجلترا « ان يكون المرء فنانا صريحا او واعيا ، او ان يتبع نظاما او مذهبا » . وقد اخذ جيمز على عاتقه مهمة اصلاح الوضع بان جعل الرواية الانجليزية موضع « الدراسة » الجادة لاول مرة تقريبا في تاريخها الطويل .

واساسا النقد عند جيمز هو التعاطف والتوحيد بين الناقد والعمل الادبي . ويعرف النقد بانه « مبدأ لفهم الاشياء » ومهمته « الالحاح في المطالبة بحاجة جميع الاشياء الى التفهم » (٣١) . ولا فائدة من ان يضجر الناقد من موضوع المؤلف ، كما سبق ان حدث مع المتطهرين والتعفيين ، لان

---

(٢٩) « البودنغ » نوع من الحلوى اللانية الشكل ويقصد باستعمال الكلمة هنا افتقار الرواية الى الشكل المحدد .
(٣٠) "The Art of Fiction"
(٣١) Views & Reviews, (1908), 94

الموضوع هبة تعطي من طريق مؤثرات وعمليات هي في نهايتها غامضة . واهتمامات الناقد يجب أن تنصب على المعالجة الادبية التي لا يستطيع ادراكها الا « بالانغماس في عبقرية الكاتب ، وتتبع خطاه ، والتعرف على كنهه » (٢٢) . ومع ان جيمز في مقدماته كان في وضع يحسده عليه النقاد من حيث انه كان يلعب دور الناقد لاعماله الخلاقة، وبذلك كان ناقدا مكتمل المعلومات عما يكتب ، فانه كان يلعب دور القارىء ايضا الذي تقوته اشياء كثيرة ، وخاصة فيما يتعلق بالاعمال التي انتجها منذ زمن بعيد . ولذلك فعندما تناول رواياته اقترب منها في تواضع الناقد الذي لا يستطيع مهما حاول ان يتعرف على كل ما يكتنه العمل الخلاق . فكان مثلا للناقد المثالي كما تصوره جيمز، الذي عليه ان يقبل حدود معلوماته وتقاس قدراته عندما يقف وجها لوجه امام السر الغامض الذي يكتنف كل عمل ابداعي . ان الناقد المحترف يستطيع ان يتعلم الكثير من موقف جيمز من العمل الفني ، واعترافه باستحالة التوصل الى كل الحقائق التي تؤول في نهاية الامر الى ما نسميه فنا . وقد عبر جيمز عن هذا بقوله :

> ان التاريخ الخاص لاي عمل مطبوع مهما كان متواضعا يتمثل في مجهوله على جو الرواية الذي المحاط بالغموض ، مما يضفي وقارا على العمل (٢٣) .

ويقول ايضـــا :

> ان السطح المغمور هنا ومعتم يرفض الاستجابة ، بطشا ، فالاسرار والنوايا الخفية مدفونة الى درجة لا تسمح لها بالظهور ثانية (٢٤) .

وفي موقف جيمز هذا بعض الشبه بنظريات النقاد المحدثين الذين يؤكدون عدم جدوى تتبع نوايا الكاتب . ولكن الشبه لا يعدو كونه سطحيا ، الا ان جيمز يملك من البصيرة ما يمنعه من القول بان الاستحالة تعني عدم المحاولة . ان جيمز يعلم تماما انه ليس هناك نقد مهما تعمق ، يستطيع ان « يستحوذ ذهنيا » على العمل الفني . وان النقد انواع ، فمنه ما يقترب قليلا من العمل ، ومنه ما يبعد عنه كلية .

وقد كتب جيمز قصة قصيرة في موضوع الكاتب والناقد بعنوان **الصورة في السجاد** (١٨٩٦) **The Figure in the Carpet** . ويشير العنوان الى السر المدفون في العمل الفني الذي ينبغي على الناقد والقارىء ان يكتشفاه . ويلاحظ ان السخرية في القصة لا تصدر ، كما ظن البعض ، عن الاعتقاد بان سر « فيريكر » ، الكاتب الابداعي ، لا يستحق الاكتشاف ، ولكنها تصدر من **خطأ** الاعتقاد بان هذا السر يمكن التوصل اليه دون اللجوء الى قراءة متعمقة ومتفهمة للعمل الادبي نفسه . وكل محاولة لاكتشاف سر « فيريكر » الكاتب العبقري الذي يموت حاملا معه هذا السر الى القبر ، كما تظن شخوص القصـــة ، كل محاولة جديدة تلقي بالباحث بعيدا عن الجواب ، لانه يعتمد في بحثه

---

(٢٢) "Notes on Novelists with Some other Notes" (1914), 259.

(٢٣) "The Art of the Novel", edited by R. P. Blackmur (1934), 4.

(٢٤) المرجع السابق ، ص ١١ .

على الاخرين وليس على « تحليل دقيق مبنى على التقدير » للاعمال الابداعية ذاتها . والقصة تعبير عن احتجاج جيمز على افتقار انجلترا الى النقد الروائي الجاد ، وعلى « جمود الحس العام » فيما يتعلق بالرواية . وقد لخص هذا في قوله :

« ان ما نسميه نقدا بعيد عن الاحساس بحقيقة الاشياء » (٣٥) .

ويرمى جيمز في هذه القصة الى الارتفاع بالرواية الى مكانة الفن الرفيع المركب الذى يصعب على الناقد ان يحلل جميع تركيباته ، وان يستخلص منه بالتجريد رؤية الكاتب او « الصورة في السجاد » ، كما سماها جيمز في قصته . فجوهر العمل الخلاق سر غامض لا يمكن الاستمتاع به وتفهمه ، الا عن طريق القراءة المتعاطفة . ويعنى هذا ان مهمة الناقد شاقة ، فيجب ان يتصف بالقدرة على النظرة المركبة والاحساس المرهف ، وعلى بذل كل مشاعره والتباهه . ان النقد عند جيمز هو « آخر الفنون واكثرها تركيبا ، آخر ما يؤهل له الانسان ، وآخر ما يصل اليه . وهو اكثر الفنون حاجة الى النضوج والتفهم والمقارنة » (٣٦) .

وجيمز في نظرية الرواية التي تناولها في مقاله « فن الرواية » يصوغ بعض العبارات المحددة في مفهوم الرواية والرؤية الروائية التي ينفرد بها هذا الشكل الادبي ، كما يوضح نقائصها ومزاياها التي لا جدال فيها . ونقطة الابتداء عنده ، كما كانت عند فيلدنج وجين أوستين وجورج اليوت ، هي تصوير الرواية للحياة . فيقول :

ان السبب الوحيد لوجود الرواية هو انها تحاول تصوير الحياة ، ومتى الغت هذه المحاولة جانبا ... تكون قد وصلته الى وضع غريب جدا (٣٧) .

ويقول في مكان آخر : « ان الرواية تتصف بالشمول والعمق في مطابقتها الرائعة للحياة » . (٣٨) وهناك فقرات عديدة في نقد جيمز تشير عامة الى تقبله للاسلوب الواقعي واعجابه بكتاب هذا الاسلوب من الروائيين العظام من امثال بلزاك وفلوبير وموباسان ودوديه وجورج اليوت وتورجينيف. وبينما يعبر عن استيائه من اسلوب جورج صاند (٣٩) (١٨٠٤ ، ١٨٧٦) George Sand لافتقاره الى « الدقة » ـ اى اسلوب الحقيقة ، فانه يثنى على « الدقة في تصوير التفاصيل » الى حد « التشبع » في روايات بلزاك وفلوبير .

وعلى الرغم من تأكيد جيمز لعلاقة الرواية بالواقع فانه لا يخلط بينهما . فالرواية ليست مرآة ولا هي محاكاة للحياة بالمعنى الضيق لان الفن ، في نظر جيمز ، لا يمكن ان يكون مجرد

---

(٣٥) المرجع السابق ص ٢١٧ ـ ٢٢٩ .

(٣٦) "The Art of Fiction".

(٣٧) "The Art of Fiction"

(٣٨) **Partial Portraits** (1888), 378.

(٣٩) **French poets & Novelists** (1878)

« شريحة من الحياة » كما ادعى زولا . بل الرواية مختارات من الحياة ، يحورها الروائي ويشكلها ويخلقها من جديد . والاختيار ضروري لأن الحياة كلها شمول وفوضى ، والفن كله تمييز واختيار » (٤٠) .

وقد شبه جيمز الفن بالفاعل الكيماوي الذي يصهر مواد الحياة حتى تظهر في قالب جديد لتؤدي عملها . واستخدم نفس الصورة في وصفه الفنان عندما قال : « إنه الكيماوي Alchemist الحديث الذي يبعث الحلم القديم في البحث عن سر الحياة » (٤١) .

الرواية إذا تعطي القارىء صورة واهمة بالحياة ، ويكون نجاحها بالقدر الذي يستطيع الروائي بأسلوبه اقناع القارىء بهذه الصورة وهنا تظهر مشكلة الصدق الفني التي شغلت بال جيمز كما كانت موضع اهتمام جورج اليوت التي اكتشف في رواياتها « ذلك الدليل القوي الكامل بالصدق » (٤٢) . لجيمز احتار في تحديد ما كان يعنيه بالصدق والحقيقة فيما يتعلق بالأسلوب الواقعي . ولم يستطع « تثبيت » درجة الواقع الذي يتطلبه العمل الفني، ووجد صعوبة في قبول شخصيات خيالية مثل دون كيشوت ومستر ميكوبر لأن « حقيقتهما » كما قال « مسألة في غاية الدقة ، مصبوغة برؤية الروائيين الى درجة تتردد معها في قبولهما كنموذج يحتذى ، مهما وضحت معالم الشخصيتين وحيتهما » (٤٣) . والمدهش أن جيمز موقفا مماثلا حيال رواية ديكنز صديقنا المشترك ، فقال عنها إنها تحفل بشخوص ممسوخة تثير الضحك ، ممسوخة في مظهرها ومسلكها دون سبب مقنع ، الى درجة تستحث التساؤل .

فالواقع إذا ذو أهمية أساسية في الرواية ولكن ليس من السهل إعطاء فكرة واضحة ووصف كامل لما يعنيه الواقع ، كما يتضح من قول جيمز :

لا جدال في أنه لن تستطيع أن تكتب رواية جيدة إلا إذا كان لديك الاحساس بالواقع ، ولكن من الصعب أن تعطيه وصفا مفصلا للعناصر التي تعمل على خلق هذا الإحساس . ان الإنسانية شاسعة والواقع ذو أشكال لا حدود لها » (٤٤) .

وهنا يتساءل جيمز لماذا يحاول الروائي أن يخلق صورة « واهمة بالحياة » ؟ وما هي وظيفة الفن ؟ والسؤالان متداخلان والاجابة عليهما تكاد تكون واحدة . ووظيفة الرواية في نظر جيمز هي إعطاء القارىء « عالما آخر » ، تجربة تشبه في مفعولها الآلي الذي يستخدمه طبيب الأسنان ، فكلاهما يسكن من « آلام الواقع » . ويضيف جيمز : « إن ما نراه طبعا هو واقع آخر ، واقع أشخاص آخرين ، ونتوقف ما نراه على القدر الذي تحتويه الصورة من الحياة » (٤٥) . غير أن جيمز لا يدعي أنه يعرف كنه هذا التصور بالسكون والتخفيف من الآلام الناجم من قراءة

---

(٤٠) "The Art of Fiction"
(٤١) Notes on Novelists, 275
(٤٢) Views & Reviews, 4.
(٤٣) "The Art of Fiction"
(٤٤) المرجع السابق
(٤٥) Notes on Novelists, 436

تجارب الاخرين فى الرواية . وكل ما توصل اليه ملاحظته هو أننا بعد القراءة نعود الى واقعنا ، وقد ازددنا قوة وصلابة . ويبين ان الروائى الذى يسمح لنا بأن « نحيا حياة الاخرين » لا يعمق من تجاربنا فحسب ؛ بل كذلك رؤية جديدة للحياة ومعرفة صادقة بأنفسنا . اننا نشارك فى رؤية الروائى ونتشكل به . وفى هذا الرأى امتداد وتطور لنظرية جورج اليوت فى الواقع والصدق الروائى وتأثيرهما الخلقى على القارىء .

ان الرواية تستطيع ان تكشف للقارىء من حقائق نفسه وعالمه بنسبة اكثر من اشكال اخرى فنية فى نظر جيمز . فالروائى ، كما يقول جيمز ، يمكن القارىء من ان يختار ويقارن ويتفهم ، حتى يصل فى نهاية المطاف الى نوع من التكامل الذى لا ينتمى الى الوضاعة والنفاق مهما كانت سطحيته وقراءته » (٤٦) . وهذا التكامل الذى يعتبره جيمز الرا رائعا من آثار الرواية يفترض مسبقا الشمول فى هذا الادب والابتعاد عن النظرة الجزئية للواقع . فعلى الروائى ان يعبر من خلال ادبه عن كل نواحيه الانسانية . وهنا يجد جيمز مكانا للاخلاقيات والضمير فى نظريته ومقاييسه الادبية . ويرى على هذا الاساس ان الرواية يجب الا تكون عملا وصفيا محليا ، مجرد صورة للسطحيات . بل يجب ان يكون لروح الانسان وجوهره مكان فى الرواية خليق به حتى لا يظهر مجزأ ممزقا بل متكاملا روحيا وعقليا وجسميا .

وينتقل جيمز بطبيعة الحال من هذه الفكرة الى تناول موضوع العلاقة بين الرجل والمرأة فى الرواية فعبر عن امتعاضه على الرقابة المستترة فى انجلترا تلك التى حرمت على الروائى معالجة نواحى هامة من الحياة ، كما عبر عن اسفه للقيود التى وضعتها الميول المتحضرة والاحتشام المتكلف فى ذلك الوقت على العمل الروائى . وينادى جيمز بضرورة التحرر من هذه المعوقات للرواية فى سعيها نحو الرؤية المتكاملة .

ولكن لم يطل دفاع جيمز عن فكرة التحرر هذه التى استلهمها من الروائيين الفرنسيين وتراجع عنه نتيجة تطهره هو ونفوره من الناحية الشهوانية فى الانسان ، واقباله على الناحيتين الروحية والاخلاقية ؛ اى ما اعتبرهما اكثر انسانية وشمولا . وقد وجد ، رأيه ، ان غالبية الروائيين الفرنسيين يفتقرون الى الرؤية الاخلاقية . فهم على حد قوله « اساتذة فى الفن والشكل ؛ وفى تصويرهم لسطحيات الحياة : الاحساسات والغرائز والرغبات ؛ ولكن ينقصهم تصوير « الشخصية فى حركتها ، وامكانيات سلوكها ، والدور الذى تلعبه الفكرة فى الحياة .. وعندما يضعون ايديهم على حياة الانسان الروحية تتبدد مهاراتهم » (٤٧) . ويقارن جيمز مقارنة فاصلة على هذا الاساس بين الروائيين الانجليز والفرنسيين .

فالانجليز ، فى نظره ، كتاب تملأ كتاباتهم العيوب ، وينقصها الشكل ، ويميلون الى معالجة الامور معالجة نفسية اخلاقية باحتشام متكلف . اما الفرنسيون فهم اساتذة شكل لا اخلاقيون فى تصوير سطح الحياة . وكان جيمز يرمى الى تحقيق التوازن بين الميول الانجليزية والفرنسية

(٤٦) Selected letters, ed. Leon Edel, (1956), 157

(٤٧) Essays in London & Elsewhere (1893), 183

في الرواية بكتابة الرواية النفسية الاخلاقية ذات الشكل الفني المتناسق : اى الجمع بين المعنى الاخلاقي والناحية الجمالية .

ورأى جيمز ان مثل هذا التكامل امر شخصي محض وثيق الصلة بالعقل الذي يصدر عنه . وقال في هذا الصدد :

ان العمق ما يسفر عنه العمل الفني هو عمق العقل الذي انتجه ... فالرواية الجيدة لن تصدر ابدا من عقل سطحي . هذه حقيقة تعلى ، بالنسبة للفنان ، المعنى الاخلاقي الذي يحتاجه (٨) .

فعقل الفنان بالمفهوم العريض هو الذي يشكل رؤيته وكلاهما محور اهتمام الناقد الروائي وقد شبه جيمز ادب الرواية بالبيت و « بيت الرواية (٩) » له واجهة عريضة تتخللها نوافذ عدة ، كثيرا ما تكون مجرد ثقوب ووراء كل واحدة من هذه الفتحات انسان ذات عينين او نظارة مكبرة ـ اى اداة ملاحظة فريدة تضمن لصاحبها انطباعا يتميز على كل انطباع اخر . فقد يرى المشاهدون نفس المشهد ولكنه يكون دائما مختلفا لان الرؤية تتوقف على المشاهد وزاوية الرؤية . والمنظر هنا هو مشهد الحياة ، والفتحة او الثقب هو الشكل الادبي والمشاهد الذي نفث الحياة في كلها هو وعى الفنان المتكامل . هذه هي الصورة اللافتة التي استخدمها جيمز في احدى مقدماته الاخيرة لوصف فن الرواية ، الذي لا وجود له الا بوجود « المشاهد عند النافذة » .

وقد ركز جيمز اهتمامه على ناحية الخلق عند الروائي التي تعكس الخيال اثناء عملية الابداع ، والكشف عن نسيج مشاعر الكاتب وانطباعاته ، اى ذلك الوجه الذي يعكس ذاتية الفنان الدقيقة . وكل روائي يستحق المعالجة النقدية في نظر جيمز « حالة خاصة » . وجميع هذه « الحالات » فريدة في نوعها . ويكون الحكم على مستوى الناقد وقدراته بقدر ما يستطيع ان يصل الى اعماق « الحالة » التي يدرسها . ويلخص جيمز بعض تلك « الحالات » التي درسها في نقده على النحو التالي : فلوبير هو « الكل والصورة للحالة الفكرية » ؛ وزولا هو الشخصية التي « تسود وتهيمن في النهاية » ؛ اما موباسان « فحالته » مميزة لانه يكتب عن طريق الاتصال الجرىء المباشر بحواسه . وجيمز في نقده هذا يكتب كالطبيب الذي يحاول تشخيص « حالاته » لاوصفها . والشيء الذي يبحث عنه في « تشخيصاته » المستندة الى اسلوب العمل الادبي ونسجه ، هو مزاج الروائي الفريد ، ومدى رؤيته ، وحركة مشاعره وحواسه . انها تلك الاشياء التي سماها جيمز ب « لون الهواء الذي يشبع به الفنان ، اياً كان ، صورته للحياة دون وعى » . فالنقد عند جيمز لا يقل ابداعا عن العمل الخلاق ، والناقد مثله كمثل الروائي يجب ان يتشبع بالعمل الذي يتناوله ويتفاعل معه كما يتشبع الاديب بالحياة المحيطة به ويتفاعل معها . والهدف في نهاية الامر هو الوصول الى الجوهر .

وقراءة الرواية على هذا النحو معناها دراسة الروائي نفسه والعيش من جديد في جو حياته الدفينة . ومع ذلك فان جيمز في نقده لا يخلط بين الروائي وعمله . ويقول في هذا الشأن :

---

(٨) Partial Portraits, 406 - 7

(٩) The House of Fiction'

« ان الحياة والاعمال شيئان مختلفان ، والمعرفة الوثيقة باحداهما ليست ضرورية اطلاقا للاستمتاع العام بالاخرى » . ولكن على الناقد ان يتعلم « ان يقرأ ما بين السطور » .

وجيمز لا يقع ابدا في الخطأ الذي وقع فيه كثير من النقاد من بعده ، وهو محاولة استنباط حياة الكاتب من خلال عمله . انه لا يرمي الى مجرد الترجمة عندما « يقرأ السطور » وانما يرى الى مسائل اكثر اهمية يمراحل تكشف عنها حياة الكاتب ، مثل الاسلوب الذي من خلاله اختبر الحياة والناس ، والاشياء التي سلط عليها اهتماماته ، وتلك التي اشاح عنها بوجهه ، والمواقف التي تنبأ بها في رواياته وكيفية حلها . وعلى رأس هذه القائمة تقع قيمة الاخلاقية المستقاة من تجاربه . فالمطلوب من الناقد عملية تقترب من المنهج النفسي . ويؤكد هذا مقالات جيمز في تلك الروائيين التي تستند الى الملاحظة النفسية ، والاستنباط والاهتمام بالمعاني الخفية ، والعلاقات الانسانية ، والظروف المحيطة بها ، والدوافع المسلكية .

وجيمز في تأكيده لاهمية المشاعر والاحساسات عند الناقد يمكن اعتباره الى حد ما ناقدا رومانسيا تنصب اهتماماته على عملية الخلق عند الاديب ، مثله في ذلك مثل كوليردج الشاعر والناقد الانجليزي . وهناك شبه ملحوظ بين نظرة جيمز الى العمل الخلاق ونظرة كوليردج، فكلاهما يتعرف على عضوية العمل الحيوية التي تضفي عليه استقلالا مثل استقلال اي من الكائنات الحية . وفيما قاله جيمز عن شخوص روايته صورة سيدة (١٨٨١) The Portrait of a Lady دليل على استقلالها الفني ، ووجودها المنفصل عن وجود المؤلف ، فيقول جيمز انه بينما كان يكتب روايته اخذت شخوصها تتصرف على انفراد وكأنها هي بدورها تبحث عن مؤلف آخر يطلق لها العنان . وكان انطباع جيمز اثناء معاملتها تقول له « لو انك اعطيتنا لتنك فسترشدك الى الطريق الذي يجب على البطلة ازابيل آرشر ان تسلكه » . وفي مقدمته لرواية السفراء (١٩٠٣) The Ambassadors نصح جيمز قراءه الا ينتقصوا من قيمة « القوة الدافعة التي تولدها الرواية لنفسها » والتشبيه الذي يستخدمه جيمز ليوحي بالحياة التي تتخلل العمل الخلاق يبعث الى الاذهان ما قاله كوليردج ايضا عن الوحدة العضوية للقصيدة الشعرية . واليكم نص ما كتبه جيمز ، وهو الاقتباسات المشهورة في النقد الروائي :

(الرواية) كائن حي ووحدة مستمرة ، مثلها في ذلك مثل اي عضو حي ، وبقدر ما فيها من حياة ستجد ، كما اعتقد ، ان كل جزء من اجزائها يحتوي على بعض مما في اجزائها الاخرى (٥٠) .

وتؤدي هذه الفكرة الى وجه من اهم اوجه النقد عند جيمز ، وهو اهتمامه الملح بالشكل الفني وعلاقته بالموضوع . وفي تأكيد جيمز لاهمية الشكل ، الراجع الى تأثير الرواية الفرنسية والحركة الجمالية في نهاية القرن الماضي ، اسهامه الاساسي في النقد الروائي . وتتركز مقتطفاته حول قضية الشكل التي كان يعلم جيمز مدى تعقيدها وتركيبها . لقد كان يعي انها مبنية على تناقض لا يمكن حله . فهدف الرواية والشكل النهائي الذي يأخذه لايتقابلان

---

(٥٠) "The Art of Fiction", 228

ولا يتوائمان كما يحدث للماء في الوعاء ، والعلاقة بين الشكل والمضمون علاقـة مختلفة تماما عـن علاقة الوعاء والماء . ولم يحاول جيمز تبسيط القضية ، بل حاول ان يعيها في ابعادها المتعددة .

ولقـد لخص جيمز اهميـة « الشكـل » بالنسبة للرواية في قوله « بدون الشكل تكون الرواية مجرد « بودنج مائع » . وهـكذا ما وصف به روائع روايات تولستوي ودوستويفسكي . وبني اعتراضه على روايات تولستوي لما اعتبره افتقارا الى الشكـل ، وان كان لم يسعـه وهو الناقد ذو البصيرة النفاذة ، ان يضفي عليها ثناء عظيما . فروايات تولستوي كما قال جيمز :

« انها رائعة من الحياة . واقعة عظيمة ... حدث متواصل هائل . وحتى فيه لموضوعه الكبير هو الحياة بأجمعها (٤١) » .

ان اعجاب جيمز بهذه الاعمال الرائعـة لاتنكر . لقـد وصفها بأنها « بودنج » حقـا الا انه اعترف ان عبقرية الروائي الروسي جعلها طيبة المذاق . ومع ذلك فجيمز يؤكد عيوبها وهي : « الافتقار الى التكوين ، وتجنبها للاقتصاد والشكل البنائي » (٤٢) . اما اساس اعجابه بالرواية الفرنسيـة ، على الرغم من نفوره من اخلاقياتها ، فهو اهتمامها بالشكل والوعي الفني اللذين اتصف بهما الروائيون الفرنسيون .

وقد يبدو من تعليقـات جيمز على اعمال تولستوي ان نظرته الى الشكل في الروايـة نظرة ضيقة تفصل بينه وبين المضمون . ولكننا اذا امعنا النظر في نظرية جيمز في الرواية وجدنا وعيا كاملا بالوحـدة بينهمـا . لم يشارك في الاعتقاد السائد بأن الموضوع والشكل في العمل الحي مختلفان ومنفردان . ويحاول الفنانان ذلك التمييز الخطر بين المضمون والشكل في العمل الفني الرفيع ... من التحليل ... فاصل بينهما وتعطيل التكامل الذي هو جوهر العمل . وفي تعليق جيمز على مدام بوفاري Mme Bovary تعبير لهذا التواؤم الكامل بين الشكل والمضمون ، فقال :

« والشكل في حد ذاته لا يقل بأي حال من الاحوال عن جوهر الموضوع او الفكرة في اثارة الاهتمام وفي الفاعلية ، ومع ذلك فهو مطابق للمضمون لا يمكن فصله عنه الى درجة اننا لا نستطيع ان نستخلص الشكل في اية لحظة على انفراد (٤٣) » .

وهذه الوحدة بين الشكل والمضمون هي احد متطلبات جيمز الاساسية في الرواية ، فالشكل وحده ، كما يقول « يأخذ المضمون ويمسك به ويحققه » (٤٤) .

وبالاضافة الى تحليل جيمز الدقيق لاوجه الرواية الفنية المختلفة واتجاهه نحو المشاكل الشكلية المتعلقة « بوجهة النظر » والاداة المصطلح عليها « الوعي المركزي » البنية على

(٤١) "The future of The Novel" Essays on the Art of Fiction, ed. Leon Edel (1956) 228

(٤٢) Selected Letters, 171.

(٤٣) Notes on Novelists, 80.

(٤٤) Selected letters, 171.

تصوير الفعل من خلال وعي شخص ذي حس مرهف وذهن متقد قريب من المؤلف نفسه ، بالاضافة الى كل هذا فان اسهام جيمز في تطور النقد الروائي يظهر ايضا في مفهومه العضوي لكل عمل خلاق ، ذلك المفهوم الذي على اساسه رفض الاشتراك في جدال النقاد حول ما سمي « برواية الحدث » و « رواية الشخوص » . فجميع عناصر الرواية كما رآها جيمز متداخلة ومندمجة ، ومهمة الناقد تقييم الشكل الذي هو جماع هذه العناصر . ويقول جيمز في هذا الشأن :

يكثر الناس الحديث عن هذه الاشياء (الوصف ـ الحوار ـ الحدث ـ الشخوص) كما لو كان كل منها يتميز عن الآخر بشكل قاطع ، بدلا من ان يذوب بعضها في بعض في كل لفظة من الالفاظ ، وتشكل مجتمعة في علاقاتها المتداخلة وحدة شاملة معبرة . انا لا استطيع ان اتصور شكلا مكونا من سلسلة من الكتل ، او ان تكون هناك في اية رواية تستحق الدراسة على الاطلاق فقرة وصفية لا يكون السرد من مهمتها ايضا ، او فقرة من الحوار لا ترمي في نفس الوقت الى الوصف ، او لمسة من الحقيقة ايا كانت لا تلعب دورا في الحدث ، او حدثا يستلفت الاهتمام من اي مصدر غير المصدر العام لنجاح الرواية ، وهو قدرتها التصويرية . فما هي الشخصية اذا لم تكن تحديدا للحدث ؟ وما هو الحدث اذا لم يكن تحديدا للشخصية ؟ واين هي الصورة او الرواية التي لا تتناول الشخصية (٥٥) .

بهذا يؤكد جيمز طبيعة الرواية العضوية ووحدتها . ولكن بما ان الوحدة تتصف بالعضوية فانها وحدة مبنية على التعدد والاختلاف . وجيمز يعلم جيدا ان هناك تناقضا في محاولة احتواء الحياة التي لا شكل لها في اطار الرواية المصطنع الذي لا بد وان يكون له شكل ومجرد « فكرة تثبيت » (تلك الكلمة التي يرددها جيمز مرارا في مقدماته) الحياة هي في حد ذاتها تناقض للحياة . وحينما يأخذ جيمز في ادلاء النصيحة الى الكاتب الروائي قائلا انه يجب ان يبدأ من نقطة تجارية ، يجد نفسه يتحدث بشكل عام دون تحديد ، ويعترف بان نصائحه لن تفيد الروائي كثيرا ، ويقول :

فاي نوع من التجارب تعني ؟ واين تبدأ واين تنتهي ؟ ان التجربة لا حدود لها ولا هي مكتملة ابدا . انها نوع من الحساسية الهائلة تشبه بيت عنكبوت ضخم يبني من ادق الخيوط الحريرية المعلقة في غرفة الوعي ، وتمسك في نسيجها بكل ذرة تطير على اجنحة الهواء . انها مناخ العقل ، وعندما يكون خياليا ، بل عندما يكون طفل عبقري ، فانه يحتفظ بأوهن ما يوحي بالحياة ، ويحول نبضات الهواء نفسها الى رؤى (٥٦) .

ويعرف جيمز مشكلة الروائي بانها مشكلة الاختيار من تجارب الحياة الفنية وتركيبها وتشكيلها لايهام القارىء بالحياة . فعليه ان يختار ، كما يقول ، من فوضى الحياة « العديمة الشكل والنظام » ، من الواقع « العديم الهدف » بحيث يشكل اختياره هذا معنى ويكشف عن قيم . وبذلك فالرواية في نهاية الامر تتضمن ـ حتما ـ نوعا من الخداع . ولكن جيمز اصر على ان يكون الخداع مكيفا ومشكلا ومصنعا بمهارة المحترف التي تتطلب المعالجة الدقيقة الواعية . فالحياة ، كما قال جيمز ، مستحيلة التحديد لا تعرف اين تنتهي ، اما الرواية فيجب ان تعلم حدودها . وعلى الرغم من ان جيمز يؤكد اهمية الاختيار والتركيز والاقتصاد ، فانه يصر ايضا على ان الهدف هو جعل الرواية « ممثلة للحياة شاملة عليها » ، ولكن دون ان تخلف

---

(٥٥) "The Art of Fiction"

(٥٦) نفس المرجع

الطباعا بالتصنع والتكلف . وقد شرح جيمز هذه النقطة المطوية على التناقض بين الفن والحياة في قوله :

فبقدر ما نرى الحياة بدون تنظيم جديد من خلال مناقشته لنا الرواية يكون شعورنا باننا نلمس الحقيقة ، وبقدر ما نرى الحياة وقد اتخذت لنفسها نظاما جديدا ، يكون احساسنا باننا امام بديل للحياة ، حل وسط ، وتقليد لها . (٥٧)

وبما ان مشكلة الاختيار هي اولى المشاكل التي يواجهها الروائي ، ولا احد يستطيع حلها الا هو ، فان جيمز يعترف باستحالة ان يشترط عليه تناول موضوعات دون اخرى . واذا كنا نحترم الروائي فعلينا ان نمنحه حريته في الاختيار خاصة بعد ان دانى الكثير من النظرة المترمتة الى كل من الحياة والادب . وفي رد جيمز على انشار والتر بيزانت الى الرواية الانجليزية وهدفها الاخلاقي الواعي ، هجوم على افتقارها الى الشجاعة الادبية عند ما قال :

« بدو وان الروائي الانجليزي العادي قد استوى تقرالناس بافتقاره الى الشجاعة الادبية ، ونفوره من مواجهة الصعوبات التي تتارجح حول معالجة الواقع ... انه يميل الى الجبن الى اقصى الحدود ... ويتميز عمله » في اغلب الاحيان « بالصمت الحريص فيما يتعلق بمواضيع بالشباب ... ان جوهر الطاقة الاخلاقية هو مسح الحياة باجمعها. (٥٨)

ويلخص جيمز موقفه كناقد بقوله الا تحاسب الروائي على موضوعه ، وانما تحاسبه على معالجته للموضوع . فيقول :

يجب ان نعطى الروائي حقه في موضوعه ، في فكرته وانما نقدنا فينطبق فقط على ما يصنعه من مادته . (٥٩)

واي فشل ينسب الى العمل الادبي هو فشل في التنفيذ فقط حيث تظهر من خلاله ضعف العمل الادبي او قوته .

ويبدو مما سبق ان الرواية في نظر جيمز اقل الاشكال الادبية تحديدا ، لقد اشار الى « روعة هذا الشكل » الذي يعاني « قليلا جدا من القيود وعديدا من الامكانيات » . وفي استمرار تأكيده لحرية الشكل الروائي تحدث عن شرط واحد فقط ، كما هو واضح من الاقتباس التالي :

وبالمقارنة فان الفنون الاخرى تبدو مقيدة معاقة بالظروف التي تعمل من اجلها جامدة ومحددة ، والشرط الوحيد الذي الصور الديكن وضعه بالنسبة لكتابة الرواية هو ان تكون صادقة ، ان هذه الحرية ميزة عظيمة رائعة ... الحياة لها (مقاطعا الروائي) لك ... لا تصغ الى اولئك الذين يودون سجنك داخل بعض زوايا الحياة ، قائلين ان الفن لا يعيش الا فيها ... ليس هناك طابع للحياة ، ولا اسلوب لنظر اليها او الشعور بها ، الا ويمكن ان يجد له مكانا في خطة الاديب الروائي . (٦٠)

وبهذا فالناقد الذي دعى — فيما يبدو — الى بناء نظرية نقدية في الرواية ، لم يطوقها باية شروط الا شرط الصدق . انه لم يرفع من شأن الرواية فحسب بتناوله لها في اسهاب وجدية لم يسبق لهما مثل ، بل صورها وفتح لها المجال لتعانق الحياة باسرها . وتصورها في السبب شكل

---

(٥٧) نفس المرجع

(٥٨) نفس المرجع

(٥٩) نفس المرجع

(٦٠) نفس المرجع

يطابق رؤيا الفنان . وهو في هذا يقارب روائيا ناقدا اخر هو د.هـ. لورانس ، يختلف تماما عن جيمز ، وانما يتفق معه في تأكيده ضرورة استمتاع الروائي بالحرية الكاملة ليحقق رؤياه بشرط واحد ، وهو ان يكون صادقا ومخلصا في هذه الرؤيا بما يرضي ضميره الفني . وقد قيم لورانس الرواية في مقالة « الاخلاقيات والرواية » (١٩٢٥) (Morality & The Novel) واعتبرها ارقى وسيلة لتصوير الحقيقة ، وكان يعني بذلك الحقيقة التي تنتمي الى سلوك الحياة . كما الح على انه ليست هناك قواعد لبناء الرواية ، وان القواعد يمكن تطبيقها فقط على الروايات التي هي مجرد نسخ من روايات اخرى لا اصالة فيها . وفيما عدا ذلك ، فالرواية الحية التي تصور « الانسان الحي » لا تحكمها الا الحياة . لقد تقدم لورانس كثيرا عن جيمز فيما يتعلق بتحرر الروائي في كتابه ، وان كان هناك صدى للورانس من كيفية كتابة الرواية حين يقول جيمز : يجب ان نكتبها كما نستطيع » .

ومهما نقل عن الثورة التي حققها جيمز في النقد الروائي فلن نكون مبالغين . فغالبية المبادىء التي تستند اليها في النقد الروائي الحديث والتي اتسمت بالمصطلحات المعروفة اليوم هي من آثار جيمز . انه هو الذي نبهنا الى المعنى الشامل الموحد في الرواية ، وهو الذي كشف لنا عن الوحدة العضوية بين اجزاء الرواية وعناصرها ، وهو الذي عرف الدور الذي تلعبه الاخلاقيات بالمعنى العريض في الرواية ، وليس بالمعنى الضيق المبني على السلوك الاجتماعي المتفق عليه ، وهو الذي اشار الى عامل الخداع في الرواية ، وفي نفس الوقت أكد جوهر الصدق فيها . وفوق كل هذا ، فجيمز هو اول ناقد انجليزي بحث في اسهاب المسائل الجمالية والفنية في الرواية . ومع ذلك فقد الجز كل هذا دون الجهود الرشيدة المسبقة . وفيما قاله ليون ايدل Leon Edel الناقد المشهور بابحاثه عن جيمز وترجمته لحياته ، اشارة الى عمق ملغمية الاديب والناقد الكبير :

ليس هناك كاتب حجة اكثر ملغمية من جيمز . انه يتحدث الينا بفصاحة حتى اليوم ... معرفا بنفسه ، وبذلك الفن الذي احترفه بالاخلاص . (٦١)

ومنذ وقت بعيد مضى قال برسي لابوك الناقد الروائي المعروف الذي تتبع خطى جيمز في نقد الرواية ، قال انه الناقد الحقيقي الوحيد في فن الرواية .

وكان جيمز مثلا للاديب الذي وهب حياته لفنه وعاش ليصور في رواياته قيما انسانية ، ليمتد بالحياة ويتعمق فيها حتى تصبح دقيقة في وعيها وغنية في مسئوليتها . اما النقد الروائي بالنسبة اليه فهو اداة ترمى الى تفهم ذلك النوع من الادب الذي انتجه . ومن الطبيعي ان تكون الاداة في نفس مستوى رقي الادب ، ما دام كلاهما وليد نفس العقل والروح . ان النقد عند جيمز لا يقل ابداعا عن العمل الخلاق ، بل يصح ان نقول انهما وجها عملة واحدة ، ومظهران متكاملان لعبقرية جيمز الابداعية التي تركت تراثا في النقد الروائي لا يقل في كثير عما تركته في الادب الروائي . وبانجازات جيمز في النقد بدا الطريق امام الناقد الروائي المحترف من بعده اكثر وضوحا ، وانتقل النقد الروائي الى مرحلة جديدة تتميز بالثقة والتقييم المتزن .

---

(٦١) Introduction", The House of Fiction.

تكنولوجيا العصر والمجال الطبي للعالم العربي سنة ٢٠٠٠

بسم الله الرحمن الرحيم

ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين . ثم جعلناه نطفة في قرار مكين . ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحما ثم أنشأناه خلقا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين

صدق الله العظيم

الدكتور : مصطفى كمال محمد

فما من شك أن عقل الإنسان العربي يحمل في تقدمه سمات ماضية ؛ فالحضارة العربية سلسلة متعاقبة لتطور هذا العقل العربي وكشفه عن أسرار هذا الكوكب الذي يعيش فوقه والكواكب المحيطة به ؛ وفي الكشف عن مختلف القوانين الفيزيائية والكيميائية والرياضية والطبيعية وتطبيقها لغاياته ؛ وأصبح هذا العقل المستنير يحمل شعلة الحضارة من عصر إلى عصر يليه، فعبقرية الحضارة العربية لا تقف عند حدود العصور الوسطى ، بل تتعداه إلى العصور القديمة حيث قامت وازدهرت حضارات مصر وبابل وآشور . وفضل هذه الحضارة على العالم والذي لا يزال يدين لها بالشكر والعرفان . فالعرب أمة علوم واختراعات ، وأمة أدب وشعر،وهم الذين أسسوا الأسس الأولى في شتى ألوان العلم والمعرفة. ان جابر بن حيان مثلا هو الرائد الأول في ميدان البحث العلمي التجريبي ، والكندي أول من اثبت كروية السطوح المائية ، والادريسي الذي اكتشف

منابع النيل والاسطرلاب ـ ثم ابن سينا وبحوثه العظيمة في المجرات وتكوين الجبال والمعادن ... ثم ابن يونس الذي اخترع البندول ... وكذلك الرازي وكشوفاته الطبية الجديدة ... ولا نستطيع ان نتجاهل اسهام كل من ابن الهيثم والبيروني وابن النفيس والبوزجاني وابن رشد والجاحظ وابن البيطار وغيرهم في مجال العلوم والمعرفة كالجبر والهندسة والفلك والطب والتشريح والصيدلة والكيمياء والفيزياء والنبات والحيوان والمعادن وغيرها .. كما ان القيم الاسلامية لا تتعارض مع العلم ، بل هي روح العلم نفسه ؛ والتقدم التكنولوجي طالما يستهدف في النهاية خير الانسانية وسعادة البشر .

لا جدال في ان اقامة مجتمع الرفاهية هو الهدف الاسمى الذي تسعى اليه كافة الدول المعاصرة، وهو المعيار الذي يقاس به مستوى تقدم الشعوب . فالمجتمع الرفاهية هو المجتمع الذي يتحقق فيه اكبر قدر من الرفاهية الكلية .. اي اكبر قدر من الاشباع من المنافع والسعادة لمجموع الراد .

فالدول النامية تخوض الآن على الصعيدين الوطني والدولي حربا ضد الجهل والفقر والمرض وسيطرة الدول الاقوى عليها . فالعالم العربي في اشد الاحتياج الى استراتيجية علمية مدروسة لتنمية موارده الطبيعية والبشرية . لان الدولة الحديثة التي تريد بناءها تعتمد بالدرجة الاولى على الانسان العربي صاحب الحضارة العريقة ، وحامل القيم الشريفة ؛ وهذا يتطلب تحقيق تغيرات جذرية في انماط السلوك الاجتماعي ومحاولة احداث تغيير في تركيب وخصائص البيئة المحيطة بالانسان العربي ...

فان العلم والمجتمع يكاد يكمل كل منهما الآخر . فبقدر حاجة المجتمع الى النتاج العلمي لتنميته وازدهاره ؛ فان العلم في حاجة الى التقبل الاجتماعي لتدعيمه وتثبيته .

من هنا جاء اهتمامي بتناول العلاقة بين التقدم الحضاري في مجالات العلم والتكنولوجيا وبين التغير الاجتماعي الذي يمس نظم المجتمع وقيمه الاجتماعية . وان درجة النمو الاقتصادي تتوقف على درجة نقل واستيعاب التكنولوجيا الراقية الموجودة في المجتمعات الصناعية المتقدمة .

البلاد المتقدمة تعيش في نهضة علمية وثورات تكنولوجية مستمرة وذلك منذ منتصف القرن التاسع عشر . كذلك فان القدر الاكبر من النمو الاقتصادي في هذه البلاد يدين الى التقدم العلمي والتكنولوجي الذي تحقق في هذه البلاد .

فلكي نعيش هذا العصر ونصل الى سنة ٢٠٠٠ بسلام ، فاننا يجب ان ندرك تماما اهمية التكنولوجيا المعاصرة وتطبيقاتها في شتى المجالات كقوة ثقافية ديناميكية عصرية ، بمعنى ان رصيد اي دولة من رجال العلم والتكنولوجيا بمعاملهم او اجهزتهم ومعداتهم ، هو الذي ينقل المعاصرة اليها . والتكنولوجيا في هذا البحث لا يقصد بها المعرفة بمعناها العام وباختلاف فروعها بل اعني هنا المعارف العلمية التي قد تتنوع في مجالاتها التخصصية . ولكن، لا ننكر ايضا انها تشترك وترتكز على المنهج العلمي السليم والذي يعتمد بصفة رئيسية على التحقيق الموضوعي والتجريب التطبيقي ومدى الانتفاع منها ومدى الحدود التي تتيح استخدامه . بهذا البحث اود ان اوضح مساهمة تكنولوجيا العصر في المجال الطبي وكيفية الاستفادة منها في بناء العالم العربي سنة ٢٠٠٠ ، وكيفية التركيز على خلق وتنمية اثمن ما نعتز به ، وهو الطاقة البشرية القادرة على الاسهام بالعلم في صنع المستقبل . هنا ايضا لا اطمع الى جعل الانسان العربي خالدا، ولكن كل ما اريده هو اعطاء اشباههم ولادة بدون حوادث، ونموا ماديا ، وحياة بدون عيوب وامراض وآلام . وان طريق العلم يؤدي دائما في نهايته الى تحقيق الغايات المرجوة وتوفير

السعادة المنشودة لبني الانسان العربي في كل زمان ومكان .

وواجب الانسان العربي ان يتعلم وان يسعى الى مجالس العلماء ليتفقه ويتعظ بالعلم النافع الموصل الى رضوان الله تعالى ، لان الله عز وجل يسائل الناس عن تقصيرهم في طلب العلم ومجالسة العلماء الصالحين .

وان خطة عملنا لا بد ان تستهدف الوصول الى تكنولوجيا عربية عصرية ، وان تلتزم بشعار [العلم للمجتمع] مع الحرص الشديد على توفير كل اسباب الدعم والنجاح للبحث العلمي . فمن جانب يرى أيضا ان يتركز عمل العلماء في المجال الطبي على تحسين الاداء من خلال علاج المرضى والوقاية منه بمتابعة واستخدام احدث الاساليب التي تكتشف في الدول المتقدمة . كما يرى ان يخصص البحث العلمي والتكنولوجي جهدا خاصا موجها لمساندة صناعة الدواء المحلية الوطنية ؛ بحيث يكون ذلك من خلال :

ـ نقل التكنولوجيا الخاصة بانتاج الكيماويات الدوائية التي تصنع منها المستحضرات والعقاقير الطبية اقتباسا وتقليدا .

ـ استكشاف مصادر جديدة للدواء في النباتات الاقليمية .

ـ التركيز على الرعاية الطبية وابحاث القضاء على الامراض الوبائية والمستوطنة واختيار مشروع القضاء على البلهارسيا مشروعا قوميا عربيا يشترك فيه علماء الداخل والخارج

ـ استخدام الاجهزة الحديثة والعقول الالكترونية في المجالات الطبية بشتى فروعها .

وبالتالي سوف اعرض هنا في هذا المقال لبعض التطبيقات الهامة والابتكارات والخدمات الفعلية التي تقوم بها تكنولوجيا العصر في المجال الطبي ، ومدى الاستفادة منها للعالم العربي سنة ٢٠٠٠ .

* تكنولوجيا انتاج العناصر الالكترونية والمغناطيسية وعلم الانفورماتيك في المجال الطبي : اشار العالم اوكلانش رئيس اكاديمية الطب بفرنسا الى الاهمية المتزايدة التي يحتلها الالكترونيك والانفورماتيك في مجال العيادة الطبية . فمنذ فترة قريبة جدا كان العلماء يعتقدون ان مخ الانسان يتكون من ١٢ ـ ١٤ مليار نيرون ، متحدة مع بعضها باعجب الطرق ومتصلة بخيوط عصبية مع اعضاء وانسجة الجسم . كما يوجد نيرون الجسم الحي عادة في حالتين اما خاملة واما مثارة . ويقول الخبراء ان والبقاء النيرون حالتين يمكن مقارنتهما ، في التصوير المبسط بعنصر راديو الكتروني ذي وضعين يعمل بنظام « الوصل والقطع » ويمكن ان يكون ذلك صماما او مرحلا او ترانزستورا ، ومن النيرونات « تبنى » الاعصاب التي تعبر والنسيجة الجسم بمثابة الاسلاك ، او خطوط المواصلات بين الجسم ككل وبين بعض الاجهزة او القطاعات على حدة . وبعبارة اخرى فان الاسلاك ـ الاعصاب تربط الجسم بالمحيط الخارجي : فنجد مثلا المخ وحده وهو غرفة التحكم في الجهاز العصبي المركزي ـ يضم حوالي ١٠٠ مليار خلية . والخلية هنا ليست مجرد « نواة الحياة » بل مؤسسة متعددة الفروع ذات قطاعات عمل واقسام مختلفة ، ونظام للتغذية بالطاقة ووسائل نقل . ففي الجسم الحي يجري باستمرار تنسيق العمل بين مختلف الاجهزة ، وتجمع المعلومات عن حالة النظام وعن ظروف الوسط الخارجي ، ويحافظ على درجة حرارة ثابتة وضغط ثابت . من هذا المنطلق وعلى اسس علمية قوية توغلت تكنولوجيا العصر وعلم السيبرنيتيكا وفروعها بثقة في المجال الطبي لخدمة الانسان البشري واصبحت انتصاراتها في هذا المجال اكثر اهمية وبذلك نجد ان المجال الطبي استفاد ، وسوف

يستفيد كثيرا ، من وجود نظام للمعلومات ـ نظام يمكن ان يجمع المعلومات ، ويحلل المواد رياضيا ، ويجد بسرعة الحالات المرضية المماثلة وستكون هذه بمثابة « ذاكرة » طبية ضخمة . من هذه الحالة يكون بامكان اي طبيب من اي مكان ومن اي دولة من بلدان العالم ان يتلقى الاستشارة من هـذه « الذاكرة » الطبية الموجودة .

وبذلك دخلت السيبرنيتيكا الآن غـرفة العمليات الجراحية وهي تشارك بشكل مباشر في العمليات وتتحكم في الوظائف الحيـوية للاجسام ، فتتابع عمل القلب ، وتضبط ضغط الدم في الشرايين وتراقب عمق التخدير .

من هنا يأتي تعريف علم السيبرنيتيكا : هو علم يدرس طرق ادارة المجتمع البشري ، وهي كلمة اغريقية قديمة « سيبرنيتيس » وتعني « ماسك الدفة » أو « الربان » بمعنى القائد . حيث كان علم قيادة السفن في اليونان القديمة يسمى « سيبرنيتيكا » اي علم التحكم والاتصال في الاجسام الحية والآلات . وبالتالي نرى ان العناصر الهامة في علم السيبرنيتيكا تتناول العناصر الآتية :

✽ نظرية المعلومات :

حيث ان كلمة معلومات Information لاتينية الاصل وكان معناها في البداية تصور ثم تطورت الى الاخبار اي نقل الاخبار او نقل معلومة ما . وقد وجد العلماء في السنوات الاخيرة ان المفهوم العام لكلمة « معلومات » مطاط للغاية فحددوا معناها على ان يصبح « معيار التحدد في الخبر او المعلومة . وبذلك تعتبر مفهوما علميا جـديدا يعطي للباحثين منهجا جديدا ، نظريا ـ اعلاميا ، يمكن بواسطته التغلغل في كثير من العلوم التي تدرس الطبيعة الحيـة وغير الحيـة ، والمجتمع والادراك .

✽ الأوتوماتون

جهاز يمثل نظام آليات وتركيبات الكترونية كهربائية ، ضغط الهواء ، هيـدروليكية ، تجري عمليات استقبال وتحويل ونقل واستخدام الطاقة والمادة بطريقة ميكانيكيـة اوتوماتيكية اي بدون مشاركة الانسان .

✽ المنطق الرياضي

تأسس هذا العلم بفضل المفكر الاغـريقي ارسطو ، الذي عاش في القـرن الرابع قبـل الميلاد ويرجع الفضل أيضـا الى فلاسـفة العصور الوسطى مثل عالم اللاهوت والكيميائي رايموند لوليا ، والعالم الرياضي والفيلسوف الالماني فريدولهلم ليبنتس وهو مؤسس أيضا المنطق الرياضي . وهو الذي حاول في القرن السابع عشر ان يؤسس اول حسابات منطقية جبرية وجبرية حرفية ، والعالم الرياضي جورج بول والد الكاتبة المعروف فوينتش صاحبة رواية « الزوبعة » . وقد قام ارسطو بتحليل التفكير الانساني واشكاله مثل المفاهيم والحكم والاستنتاج العقلي . وبالتالي علم المنطق هو علم الاستنتاجات السليمة الذي يتناول اشكال وقوانين التفكير . ويبدأ هـذا العلم يتوغل بسرعة الى عصرنا هذا في شتى المجالات ويعمل في كل مكان وكل شيء تعمل فيه الحاسبات الالكترونية . فكل مسألة تحلها الآلات انما تحلها على أساس قوانين المنطق الرياضي الصارمة .

ويتبقى هنا ان نوضح كيفية تحويل الاحكام المنطقية الى صيغ رياضية . فنجد في العبارات البسيطة التي يستخدمها الانسان انها ترتبط ببعضها بواسطة احرف مثل : لا ـ أو ـ و ، وهذه الاحرف الثلاثة تستطيع ان تفعل في المنطق كل شيء . ولقد اتفق العلماء (علماء المنطق) على علامات معينة للدلالة على هـذه الاحرف ـ مثلما تفعل في عـلم الرياضيـات فتستخدم الاشارات الرياضية الآتية (+) ،

(-) ، (×) ، (÷) وذلك على ان تحل محل الكلمات المستخدمة مثل « زائد » ، « ناقص » ، « في » ، « على » على الترتيب. لقد اتفق بالفعل على استخدام الرموز الآتية واستخدامها في علم المنطق الرياضي فمثلا الرمز « الاشارة » الوجبة (+) للدلالة على كلمة او والرمز اى علامة الضرب في (×) للدلالة على كلمة (و) ومع استخدام بعض الاسس البسيطة في علم الجبر نستطيع ان نصل الى حل بعض المسائل المنطقية المعقدة . وتستطيع الآلة الاوتوماتيكية ان تقوم بالشيء نفسه .

* الالقوريثمات

علم حيوى ضرورى لحل مختلف انواع المسائل ويتضح لنا ان الرياضة في الطب ، واخص علم الوراثة ، لا تستطيع الاستغناء عن تكنولوجيتها . ان العملية التكنولوجية لحل اعقد المسائل تتكون من عدد كبير من العمليات البسيطة ، من الخطوات البسيطة الاولية . ولقد اكتسبت كلمة الغوريثم اى القاعدة معنى واسعا للغاية في الوقت الحالى، فهو دليل لحل المسائل . ومن الممكن ان تصوغه في شكل اوامر قصيرة ينبغى تنفيذها بدقة ودون اى اعتراض ، وعندئذ يكون الالغوريثم مرشدا لنا لجميع حل المسائل المعقدة .

ويقول الاخصائيون انه في الوقت الحالى الذى تتطور فيه الرياضة الآلية بسرعة وتصبح الحاسبات الالكترونية واقعا ملموسا ، فان الحاجة تصبح اكثر الحاحا لإيجاد الالغوريثم الذى يساعد على حل المسائل المعقدة .

الهدف الاساسى من علم السيبرنيتيكا والذى يسعى علماء الرياضة والفيزياء والهندسة والطب من مختلف بلدان العالم اليه هو الوصول الى اقصى قدر من الدقة عمليات التحكم في مختلف مجالات النشاط الانسانى وزيادة انتاجية العمل . ومن اجل ذلك لابد من الدراسة العميقة والشاملة لمجالات التحكم والتوصل الى القوانين التى تخضع لها عمليات التحكم . وفي كل مكان نجد ان تنفيذ عملية التحكم مرتبطة بنقل وتجميع وحفظ معالجة المعلومات التى تحدد الشيء المتحكم فيه ومسار العملية والظروف الخارجية وبرنامج العمل . وبالطبع فمن الممكن ان تكون ناقلات المعلومات في النظم المختلفة ، مختلفة ايضا من حيث طبيعتها : فقد تكون اشارات صوتية او ضوئية او ميكانيكية او كهربائية او كيميائية او وثائق او افلاما فوتوغرافية ، والخ ، ومن المهم في المجال الطبى الحديث انشاء اجهزة الكترونية لجمع المعلومات عن العمليات الجارية في الجسم . لهذا الغرض اخترعت وابتكرت اجهزة مدهشة : حساسة للغاية ودقيقة جدا ويكفى ان نذكر منها راسمات القلب الكهربائية التى تدرس نشاط القلب ، وراسمات الدماغ الكهربائية ، والتى تغوص في اسرار نشاط الدماغ ، وراسمات العضلات الكهربائية والتى تسجل عمل العضلات ، والاقراص الدقيقة التى هى عبارة عن مجسات لاسلكية لدراسة المعدة والامعاء ، والمجهر الالكترونى بانواعه والمجهر التلفزيونى والتلفزيون الملون في الطب وما الى ذلك من انواع مختلفة متطورة للغاية . لذلك يعتبر علم الالكترونيات والانفورماتيك من الفروع الهامة والاساسية من فروع العلم والتكنولوجيا ، وتبين هذه الفروع مدى اهمية علم الكهرباء وتطبيقها في المجال الطبى ـ ابتداء من السمكة التى ترسل تيارا كهربائيا حتى آلة تقوية القلب . يشمل علم الالكترونيات اسس وتصميم وتركيب الاجهزة الكهربائية المفرغة ، والاجهزة المصنوعة من اشباه الموصلات مثل الجرمانيوم والسيليكون .

فالاجهزة الكهربائية المفرغة من الهواء واشباه الموصلات تستخدم بنجاح في الاجهزة الاوتوماتيكية واللاسلكية والتلفزيونية والتى تشترك في رحلات الفضاء ولخدمة الطب الفعالى ناجهزة الراديو الالكترونية الحديثة

ـ وفي الآلات الالكترونية الحاسبية واجهزة الطب بفروعه والبيولوجيا والفيزياء وفي فروع هندسة القياس المختلفة وغيرها . فالمضخمات والمولدات والمقومات ومرسمات التذبذبات واجهزة القياس وغيرها من الاجهزة الالكترونية اصبحت سلاحا فعالا للبحوث الطبية ولتنظيم العمليات الجراحية واجهزتها. وهكذا فان علم الالكترونيات زودنا بامكانيات غير محدودة مثل الترانزستورات بشتى انواعها . حيث أن الترانزستورات تشغل مكانا هاما بين اجهزة اشباه الموصلات الكهربائية التي تستخدم لتقويم والتضخيم وتوليد وتغيير تردد التيارات الكهربائية المختلفة ، وكذلك لرسم للبيانيات الظواهر الكهربائية وغير الكهربائية . وتكون دوائر الترانزستورات عادة دائرتان : دائرة الدخول او التحكم ودائرة الخروج او الدائرة المتحكم فيها . وفي دائرة الخروج يوجد الحمل . وتصنف الترانزستورات حسب طريقة التصنيع والمواد المستعملة وخصائصها العمل ، ولها ثلاثة مخارج او اكثر ، وتبعا لعدد المخارج تسمى صمامات اشباه الموصلات الثلاثية او الرباعية وهكذا .

وفي اجهزة اشباه الموصلات الحديثة تستخدم بكثرة اشباه الموصلات الآتية : جرمانيوم ، سيليكون ، سيليليوم وجاليوم ثرثيخي وغيرها من مواد اشباه الموصلات . واشباه الموصلات هي المواد التي تحتل موصلتها الكهربائية النوعية اي « المقدار الذي يعبر التوصيلة الكهربائية للمادة » مكانا متوسطا بين الموصلات والعوازل . ويجب هنا ان نميز بين التعبيرين « التوصيلة الكهربائية » ، و « الموصلية الكهربائية النوعية» فالتوصيلية الكهربائية تعرف بخاصية تمرير المادة للتيار ، فنجد الفرق واضحا بين التعبيرين .

وتستخدم الترانزستورات الآن بنجاح في المضخمات ، اجهزة الاستقبال ، اجهزة الارسال ، المولدات ، المستقبلات التلفزيونية، اجهزة القياس ، الدوائر النبضية ـ الآلات الالكترونية الحاسبية كما توضع ايضا في اجهزة خاصة داخل كبسولة يبتلعها المريض فترسل الشارات عن حالة المعدة والامعاء . كما تفضل اجهزة اشباه الموصلات عن الصمامات الالكترونية بالميزات العامة التالية:

ـ الوزن الخفيف والمقاييس الصغيرة .

ـ انعدام استهلاك الطاقة على تسخين الفتيلة المستخدمة في الصمام .

ـ طول مدة الخدمة (يبلغ عشرة آلاف ساعة) .

ـ لاجهزة اشباه الموصلات المختلفة في المضخمات ، اجهزة الاستقبال ، اجهزة كفاءة عالية ، اذ ان فقد الطاقة في نفس الاجهزة قليل .

ـ متانة ميكانيكية عالية (تتحمل الاهتزاز والصدمات والمؤثرات الميكانيكية الاخرى) .

ـ تحويل الصورة الضوئية الى تيار كهربائي ذي شكل خاص .

ـ توجد دائما تغذية مرتدة داخلية . والسبب هو وجود اتصال كهربائي مباشر بين دائرتي الخروج والدخول .

ـ تعمل بجهد تغذية منخفض .

● مصنع لادوات تقوية القلب

توجد ادوات تقوية القلب منذ خمسة عشر عاما ، وقد عرفت تحسينات متوالية مع تطور فنون تكنولوجية صنع ادوات تقوية القلب . حيث ان هذه الادوات تعمل بشكل نبضات كهربائية فوق عضلة القلب مما يجبرها على متابعة عملها بانتظام .

في القرن التاسع عشر ، درس ايرلنديان وهما روبرت ادامس (١٧٩١ ـ ١٨٧٥) ووليام ستوكس (١٨٠٤ ـ ١٨٧٨) المرض الذى حمل بعد ذلك اسم ستوك ـ ادامس ، وهو مرض يجمع بين بطء النبض والاغماء . وفي عام ١٩٥٢ ، خطرت العالم الدكتور بول زول فكرة اعادة تحريك قلب متوقف بواسطة شريطين كهربائيين فوق صدر المرض .

ومنذ عام ١٩٥٨ ، تخيل العالم فورمان تدريب القلب بواسطة سابر . وابتداء من هذه الابحاث التجريبية السابقة واعتمادا على نتائجها ، تناولت ادوات تقوية القلب انتاج تيار كهربائى بواسطة البطاريات. ولقد ساعد تطور الالكترونيك وتطور علم السيبرنتيك في ظهور هذه الآلات الالكترونية والترانزيستورات في صنع ادوات تقوية القلب وسهولة انتشارها .

من المعروف ان كل عضلة لها المقدرة على ان تنقبض ، بالتالى تنقبض عضلة القلب، كما تسبق الانقباضات مظاهر كهربائية تولد وتنشيء تغيرا في القشرة . اما الرسومات والتذبذبات الذى يحصل عليها عند التسجيل فيمثل التسجيل رسم انقباض عضلة القلب وذلك نتيجة مرور التيار الكهربائى . وفي افضل الحالات يقدم موجات متتابعة ومتشابكة تظهر باستمرار . وفي كل من الاجزاء ، تجيب موجة موازية لانقباض اذين القلب وموجة اخرى صادرة من بطين القلب تصادف عودة الاستقطاب قمة اخرى وبعد ذلك تبدأ الدورة من جديد .

تتألف ادوات تقوية القلب خاصة من علبة دائرية ذات سمك ضئيل للغاية ، كما يكفي حجمها لاحتواء البطاريات ، كما تحتوى على سابر بشكل شريط . اصبح السابر الآن وحيدا ، وهو يمثل الشريط الكهربائى الذى يجرى ادخاله في الوريد الايمن او الايسر للراس ، ويصل بدقة حتى البطين الايمن ،

يجرى التحقق من موقع الشريط كي لا يحدث القياضات في حاجز القلب ، وهو يعتبر جيدا عندما يكون مستوى التقوية منخفضا. عندئذ يجرى ربط السابر بالوريد : كما توضع العلبة داخل تجويف يجرى اعداده لهذه الغاية فوق الجرح . اما العملية الجراحية التى تجرى بواسطة التخدير الموضعي فتتابع بالاشعة وتعتبر عملية بسيطة .

تمثل الادوات المقوية والحارسة للقلب حوالى ٨٠ الى ٩٠ في المائة من الادوات التى جرى تركيبها خلال السنوات الاخيرة ، وهي مزودة بمجرى اضافى بحيث يراقب السابر حركة القلب ـ حل الآلة فور ظهور الحاجة . في بعض الاحيان يجرى صنع العلبة من مادة التيتانيوم النقى ، وهو معدن قوى وذو جودة خاصية عالية . وبشأن البطاريات ، يبدو ان الليثيوم سيحل محل بطاريات الزئبق مع زيادة الطاقات وفترة العمل .

في الوقت الحاضر يشعر ان هذه الآلات تمتلك استقلالا في العمل خلال فترة تمتد من ٥ الى ٨ سنوات . ومع ذلك ، فان مقويات القلب بتنسيق محدد ، او المحركات الكهربائية لاتزال تحافظ على مقدرتها . كما ان هناك مؤرجع يرسل نبضات بمعدل سرعة محددة سابقا ، وهي توازى ٧٠ نبضة في الدقيقة مع عدم مراعاة البطين (القلب) حامل هذه المحركات . واخيرا فهناك آلات تقوية القلب النظائرية مع اشرطتها الكهربائية اى البطاريات العاملة بالبلوتونيوم . تدوم هذه الآلات اكثر من الماضى ، ولكن ذلك لا يقضى على الرقابة الفعلية للمريض .

تجرى ابحاث عديدة لتحسين ادوات تقوية القلب ، وللحصول على مواد جديدة لتصنع منها هذه الادوات . وبالرغم من ذلك فان هناك عيوبا بسيطة في اجهزة ادوات تقوية القلب الموجودة في وقتنا الحاضر ، حيث نخشى دائما من عطل يصيب المعدات . وهو

يقع في مختلف الطبقات سواء كانت الآلة ضعيفة او البطاريات فارغة او الاشرطة مقطوعة او السلك منتقلا من مكانه . وبالتالي ومن المستحسن ان يساهم المريض في مراقبة ساعة الاسعاف المرافقة . ومن ناحية اخرى، لا يهمل الطبيب المعالج مريضه ، وهو يراه في مواعيد محددة ، كما انشئت مراكز لمراقبة هذه الآلات . كما ان دراسات تردد النبضات يعتبر حاسما ، ويحصل على ذلك بوسائل عديدة : فحص النبض كل اسبوع — الفحص الهاتفي واشارات « بيب بيب » التي تكشف وتحول الى اشارات صوتية ، وكل ذلك لا يبعد عن مصلحة المريض بشكل مناسب ، كما لا تثير هذه التدابير خوف المرضى ، بل على العكس ، تثير في نفوسهم الاطمئنان ، كما تسمح لهم بالحياة في ظروف معقولة . وبشكل خاص يتعلق الامر بالذين يشكون من عدم انتظام عمل الاذين والبطين ، ومهما كان اصل هذه الشكوى . بامكان المرضى الشكوى ان تستفاد وتعالج بواسطة هذه الآلات . وطالما لا يوجد حل كامل للقضايا الاسجة والمناعة التي تحد من عمليات تطعيم القلب . فان هذه الآلات تبقى وسيلة الاسعاف الحقيقية لمرضى القلب . ومن هذا المنطلق اقيمت في الدول المتقدمة مصانع لادوات تقوية القلب لمدى حاجة المرضى لمثل هذه الادوات لتساعد القلوب المريضة .

* الحاسبة الالكترونية « اورال »

هي حاسبة الكترونية ذات تشغيل برنامجي . وتعتبر الاجهزة الالكترونية هي العناصر الاساسية فيها ، وهي قادرة على اجراء ملايين العمليات واكثر من ذلك في الثانية الواحدة . وهذه الحاسبة الالكترونية « اورال » تستخدم لتشخيص الامراض . فهي تضع في السنة حوالي ٢٠٠٠ تشخيص لعيوب القلب الوراثية ، وليس هذا فحسب بل انها احيانا تكون اكثر دقة في التشخيص من الطبيب المعالج ، فقد حدث اكثر من مرة ان اختلف راى الحاسبة الالكترونية « اورال » مع راى الاطباء . وعند اجراء العمليات ثبتت صحة تشخيص الآلة . كما وضعت نظريات ونظم التشخيص الطبي التي يستطيع الاطباء بواسطتها في العيادات ان يحددوا لا تشخيص عيوب القلب فحسب ، وانما كذلك امراض الكبد والمعدة وبعض الامراض المعوية والاورام المختلفة ، بما فيها اورام الدماغ .

* الاذن الكترونية للصم والبكم

خلال المؤتمر الحادي عشر للحديث عن امراض الاذن والانف والحلق ، وقد عقد في بوينس ايرس « الارجنتين » ذكر الدكتور كلود شوارد انه حقق مع مساعدة ومساعدة علم الالكترونيات « اذنا الكترونية » يمكن ان تقدم مساعدة هامة للصم البكم . اوضح كيفية وصوله لصنع نقل الكتروني (اوودبتالير) صغير في الاذن الداخلية ، ومع تحقيق الاتصال مع اطراف عصبة السمع ، وضعت هذه الآلة اللاقطة غالبا تحت الجلد ، ويبلغ قطرها الفعلي سنتيمتران مع سمك يبلغ سنتيمتر واحد ، كما تتلقى النبضات الكهربائية المضغطة لمذياع متنقل ، بحجم آلة تسجيل صغيرة . يعتبر الدكتور شوارد اخصائيا في امراض الاذن والانف والحلق ، وقد سبق له ان وضع بنجاح خلال عام ١٩٧٣ اشرطة كهربائية في الاذان الداخلية لثلاثين شخصا من المصابين بالصم . تتصل هذه الاشرطة الكهربائية بآلة غير متنقلة ، وقد سمحت للمرضى بالاتصال مع العالم الخارجي . تمثل هذه الطريقة صعوبات سائدة ، اذ تفرض على المرضى الخضوع كل اسبوع لمعالجة لتجنب اخطار الالتهابات . اما الآلة التي اعدت اليوم فقد تحققت في اقل من عامين بين سبتمبر ١٩٧٤ ونهاية عام ١٩٧٦ وحتى الآن ، واقيمت « الاذن الالكترونية » لدى ثلاثة اشخاص او اكثر من الصم والبكم ، وقد سمحت لهم بالاستماع والحديث بعد عدة اشهر من التدريب .

*** تكنولوجيــة النفخــة غــير المنتظمــة للتحركات الموجية الصوتية لعلاج امراض الاذن والانف والحلق .**

يحدث عادة ان امراض الاذن والانف والحلق تسبب انسداد قناة تسمى بقناة اوستاش وتقع بين الفم وطبلة الاذن . تعتبر هـذه القناة يصعب الوصول اليها لمعالجتها حيث يتراوح قطرها بين مليمتر واحد ومليمترين . وبصورة عامة تصيب هذه الامراض غالبـا الاطفال وخاصــة التهــاب الاذن الداخليــة (حيث يصاب ٢٪ من الاطفال في سن الدراسة بالالتهابات في قنــاة اوستــاش) وفي حالــة تكرارهــا أى تكرار اصابــة الطفــل بهــذه الالتهابات ، تعتبر هذه الاصابــات سيئــة بالنسبة لقناة اوستاش الواصلة بين الاذن المتوسطة والجزء الداخلي لطبلة الاذن .

ونتيجــة الالتهابــات الحاصلــة في الاذن المتوسطة بتسبب خلل في توازن الضغطين جانبي طبلة الاذن ، ومن المحتمل ان يحدث الصمم . عندئذ يلتقي الانف والحلق افرازات تسيل من القناة المسدودة . وعند تجمع هذه الافرازات ، تحدث التهابات وتلف المخاط . كما يعود ٤ الى ٥٪ من حــالات السدود الى الحساسية . ولذلك احدث طريقة تكنولوجية تعتمد على اسس علم الصوت في الفيزياء وهذا التكنيك تم انجازه بواسطة المختبرات البحرية لتحديد الضغط اللازم الذى يسمح بمساعدة « نفخة الصوت » بفتح القناة عند الابتلاع . كما استنكر ايضا اطباء امراض الاذن والانف والحلق استخدام الادوات القاسيــة علــى الجراثيم مثل المضادات الحيوية وذلك بشكل دائم لان ذلك يحدث زيادة في عــدد اصابات الالتهابات الجلدية بالمقابل .

كما اشاروا الى محاسن العــلاج بالمياه المعدنية لامراض الاذن والانف والحلق حيث انه نتيجة للدراســات والاحصــاءات حــول تطبيق العلاج بواسطة المياه المعدنية . اذاع كل من الدكتور روبرت كوفيلير والعالم كلود لاروش والاطباء الباحثين جود لويسكى وجون دى لاتور ما برهنته الاختبارات والابحاث التجريبية التى تمت على الفئران في مختبر المياه بمستشفى فيشي بفرنسا من فعاليــة العلاج بواسطة المياه المعدنية ، وقد تبينت فائدتها خاصة في علاج التهاب الشرايين في الاعضاء السفلى وامراض الاوردة وامــراض اجهزة التنفس العليا . وسجلت النتائج ان ٦٠٪ من النتائج كانت مرضية ، ٢٠٪ مــن النتائج غير مرضيــة ، ٢٠٪ مــن النتائــج فاشلة .

وبصورة عامة ، تبين أن المرضى الذين يحصلون على أفضل نتائج العلاج بواسطــة المياه المعدنية هم دون الخامسة والستين .

اما لدى المرضى الذين هم دون الخامســة والاربعين ، فالنتائج من النتائج المدهشة ، ٦٠٪ جيد جدا ، يعتبر النجاح سريعا وعميقا عند معالجة المريض عند ظهور اعراض المرض في البدء .

*** الاجهزة الاوتوماتيكية في خدمة العجزة :**

ان عالم الاجهزة الاوتوماتيكية في ايامنا هذه شديد التنوع . وهو دائم التوسع والتعقيد ، وتعتمد الاجهــزة الاوتوماتيكية على تحديــد مايسمى باستقرار النظام وبذلك يمكن مقاومة مختلف انواع الانحرافات في العمل ، وعلى حساسية الاجهزة الاوتوماتيكية . فساهم هذا الفرع من التكنولوجيا بتقديــم خدمات هامة للعجزة لاعطائهم فرصة المشاركة مع الاخرين بالحياة العادية .

فقدمت لهم آلة تدعى « هاندكار » أى عربة اليد الكهربائية ، وهي تسمح للعاجز بالجلوس امام المقود والتنقل بشــكل مستقل بدون مقاربة مقعدة .

والصفات التكنيكية للهاندكار تتناول الآتي : ـ

ـ دراجة كهربائية ذات اربع عجلات . عجلتان اماميتان للتحريك والتوجيه، وعجلتان مستقلتان في الخلف .

ـ هيكل الدراجة من مادة البوليستر القوى والتسع لشخصين . اما قاعدة حمل الدراجة فهي من انابيب الفولاذ الملحمة .

ـ فرامل هيدروليكية وتوجه بواسطة رافعة امام القائد .

ـ محرك كهربائي بقوة ٩٦ فولت و ٤ كيلو وات وهو يحرك العجلات الامامية .

ـ الاستهلاك : ١٠ كيلو وات ساعة للتعبئة الكاملة مع استقلال للتنقل بين ٥٠ ـ ٦٠ كيلو مترا .

ـ اقصى سرعة : ٥٠ كيلو مترا في الساعة .

ـ مجموعة الكترونية او كهربائية ميكانيكية توجه بواسطة مقود دائرى له تأثير على تموين المحرك الكهربائي .

وبالتالي نجد أن هذه العربة الكهربائية تسمح للعاجز بالجلوس امام المقود والتنقل بشكل مستقل بدون مغادرة مقعدة اذ يكفى الضغط على زر كي يهبط حتى مستوى الارض ويسمح ذلك للعاجز بالدخول الى المركبة من الخلف بواسطة الدفع ؛ كما يفعل ذلك عادة بواسطة عجلات عربته . يضغط مجددا على زر يرفع مستواه كما يغلق الابواب في نفس الوقت . وهناك نظام اوتوماتيكي لتجميد المقعد السيار .

* جهاز «المواليد قبل الموعد»

حققت المؤسسة الاوروبية للابحاث والتطبيقات الطبية معدات بسيطة تسمح بنقل المواليد «الخدج» (الذين وضعوا قبل الموعد) الى مركز العناية اللازمة في ظروف جيدة تشمل عدم الحركة والعوزلة الحرارية اى الابتعاد عن تغير في درجة حرارة الوسط والمراقبة وهذا تحت عنوان ايزوكولد . درست هذه المعدات الجديدة ونظمت بالاتصال مع قسم المساعدة الطبية للحالات المستعجلة في باريس، ويديره العالم الدكتور كارا . وقد استخدمت حتى الآن للنقل ١٥٠٠ مولود جاءوا قبل الموعد .. ويتراوح وزن المولود بين ٦٠٠ جرام الى ٥٢٠٠ جرام، لقد اعد شكل من البوليستيرين المتمدد (مواد بلاستيكية تبدو بشكل خلوى وتدعى كذلك « رغوة » بلاستيكية) وهي تتألف من هيكل وغطاء يسمح بانطلاق حرية راس الطفل ، ويسمح الهيكل الفارغ باقامة المولود وعدم حركته بواسطة رداء وغطاء عازل ومعقم ... بعد وضع المولود بهذا الشكل يؤمن الغطاء عزلة حرارية مع السماح باعطاء الاوكسجين للطفل لتسهيل عملية التنفس اما المميزات الرئيسية للايزوكولد فتتناول الآتي :

ـ الوزن حوالي ٩٠٠ جرام ، اي خمسين مرة اقل من المعدات الكلاسيكية .

ـ لا يحتاج الى اى مصدر خارجي للطاقة .

ـ حجمه ضئيل (٧١٠ × ٤١٠ × ٢٢٠ مليمترا) .

يسمح كذلك بتحقيق جميع فنون التنشيط ـ اعطاء الاوكسجين ومد الانابيب ـ التنفس ـ اعطاء الدم ... الخ وذلك في ظروف تأمين مطلق بسبب عدم وجود آلة كهربائية .

* الاسعاف الطبي السريع .

في باريس يؤمن قسم « المساعدة الطبية والاسعاف السريع » أعمال تنسيق الاسعافات السريعة ، وقد اقيم في مستشفى نيكر ويديره العالم كارا ، حيث يؤمن عدد من عمال المخابرات

ستتفرديست وطبيب على الاقل سرعة الاتصال الاذاعي والهاتفي الدائم ، وقد وضع ذلك تحت تصرف القسم المتنقل مع خمس سيارات للاسعاف ؛ كما يمكنه الاستعانة عند الحاجة بطائرات الهليوكبتر التابعة لرجال الامن والحماية المدنية .

اما دوره الرئيسي فيتناول خاصة نقل المرضى بين مختلف المستشفيات . كما تتصل سيارة الاسعاف المجهزة بطبيب التخدير عن طريق الاذاعة بسيارات الاسعاف التابعة للشرطة ؛ كما تتصل بقسم المساعدة الطبية والاسعاف السريع .

يحقق المساعدة الطبية السريعة ونظام الاسعاف السريع مايلي :

ـ اعداد بيان يومي بشأن لائحة الاسرة الشاغرة في قاعات الاسعاف .

ـ تأمين النصائح الهاتفية .

ـ ادارة القسم المتنقل للاسعاف السريع ، حيث يهتم هذا القسم بشكل خاص باسعاف المرضى وعند الحاجة بنقلهم بواسطة سيارات الاسعاف والهليوكبتر او الطائرة .

⁎ طريقة جديدة لتسجيل حرارة المريض

قدم العالم الصيدلي مارسيل جيو طريقة جديدة لتقدير الحرارة خلال الاجتماع الذي عقد في اول يونيو سنة ١٩٧٦ امام الاكاديمية الطب الوطنية الاوروبية ـ ويعتمد الميزان الحراري (الترمومتر الطبي) الذي عرضه العالم جيو على قوانين انصهار المركبات الكيميائية وهي في الحالة السائلة . كما انها مقررة لتسجيل حرارة الفم (تحت اللسان) يتألف ميزان الحرارة الجديد اساسيا من خمسين قطعة بلاستيكية صغيرة يحتوي كل منها على كمية من المواد المتبلورة عند درجات منخفضة ؛ وبذلك ايضا دقة في القياس الحراري (درجة الحرارة للمريض) بمعدل عشر الدرجة بين ٣٥ر٥ ، ٤٠ر٠ درجة سنتجراد . اما المجموع فيوجد داخل وعاء بلاستيكي مرقم يبلغ طوله ثلاثة سنتيمترات بعرض سنتيمتر وبالاضافة الى مقبض . ترتفع جميع مقاييس المواد بنسبة حرارة الجسم وتتحول من الحالة المتبلورة الى الحالة السائلة كما يتبدل لونها بفضل اضافة مادة تلوين .

تعود فائدة هذا الترمومتر الطبي الحديث الى سهولة اكثر في قراءة درجة الحرارة بالنسبة للمريض ؛ كما تعود الى دقة اكثر وسرعة تطلب اقل وسلامة صحية اكثر عند استخدامه (يستخدم مرة واحدة ويبلغ ثمنه حوالي فرنك فرنسي) بالنسبة لموازين الحرارة الكلاسيكية .

⁎ تكنولوجيا الفيزياء النووية واهميتها في المجال الطبي :

سمحت تكنولوجية الفيزياء النووية باقامة اول سيكلوترون طبي للخدمات الطبية في القارة الاوربية وذلك في مستشفى فريدريك ـ جوليو باورسيه بفرنسا ، ويسمح ذلك باستخدام الاشعة النظائرية وسيخصص من ناحية لعلاج امراض السرطان بواسطة النيوترونات . وضع السيكلترون داخل جدران سميكة من الاسمنت وذلك بجوار معامل الكيمياء وغرف فحص المرضى . وذلك لتسهيل نقل العناصر المشعة المستخدمة ، حيث انه تكفي ثوان معدودة لنقل هذه العناصر المستخدمة والتي تتجاوز فترة نصف حياتها اقل من نصف ساعة اي ان مدى الحياة لها قصير ـ وذلك بواسطة الضغط الهوائي داخل انابيب خاصة النقل . يجري انتاج العناصر داخل غرفة يتحقق فيها العمل بشكل اوتوماتيكي الى اقصى حد وهنا نجد اهمية الأتمتة حيث

انها مرحلة من مراحل الانتاج الصناعي تتميز بتحرير الانسان من الاداء المباشر لوظائف ادارة العملية الانتاجية ونقل هذه الوظائف الى الاجهزة الاوتوماتيكية . أعدت هذه الآلة النموذجية والصغيرة الحجم من قبل شركة س.ج.ر.م.د.ف والمرتبطة مع شركة تومسون س.اس.اف ـ وذلك لحساب مفوضية الطاقة الذرية . وبامكانها العمل مع فريق من الفنيين المتخصصين في هذه المجالات . اما استغلالها بشكل واسع فيفرض وجود عمل فريق بحثي هام من علماء الكيمياء الذين يعملون على توسيع واستخدام الوسائل الجديدة والسريعة لتخليق الجزئيات المرقمة. وقد تطورت هذه الفنون بفضل برامج الابحاث التي تتعلق بالفيزياء النووية ، وقد وجدت تطبيقات هامة على الصعيدين البيولوجي والطبي وخاصة الالكترونيات والميكانيك والتحليل الكيميائي او فنون تخليق المواد الجديدة ، واجهزة الحس الالكتروني وتطبيقات المجهر الالكتروني الماسح . فنتيجة ذلك تطور الطب النووي تطورا سريعا وتحقق سيكلوترون طبي لمعالجة الامراض السرطانية بواسطة النيوترونات .

*** طريقة تكنولوجية حديثة لفحص الخلايا والانسجة الحية بواسطة استخدام الميكروسكوب الالكتروني .**

يقدم هذا التكنيك امكانيات رائعة وحديثة لفحص المواد البيولوجية والطبية ويطلق على هذا التكنيك اسم Cryodécapage
(تبريد ـ Cryo ، ازالة ـ décapage
والتطبيقات الشائعة في هذا التكنيك تتناول الآتي :

ـ دراسة الخلايا النباتية .

ـ فحص الميكروبات الحية غير المرئية بالعين المجردة .

ـ فحص الانسجة النباتية .

واذا كان لهذا التكنيك فوائد عديدة في مجال الابحاث التطبيقية فله اهمية ايضا في مجال الابحاث الاساسية . وهذا التكنيك لا يزودنا فقط بامكانية الحصول على مقاطع رقيقة من العينات المطلوب فحصها ودراستها « مثل الطرق المستخدمة في فحص مقاطع رقيقة جدا من المواد الاخرى » ولكنه ايضا يزودنا بمنافع اخرى وعديدة الاغراض نتناول منها الآتي :

ـ رؤية المظهر الخارجي للخلايا .

ـ رؤية الغطاء البلازمي مع امكانية رؤيته بسهولة بواسطة النزع الجزئي لغطاء الخلية .

ـ رؤية المظهر الخارجي للنواة ، والفجوات الصغيرة ... الخ .

ـ دراسة الاسطح المنزلة لهذه الاعضاء الحية ، كما لهذا التكنيك فوائد اخرى ، فانه يسمح بالاتكوين الشوائب غير المرغوبة والتي من الصعب مراقبتها عند التكوين . ويتم هذا التكنيك Cryodécapage تحت فراغ كامل . ويفهم بالخلاء (الفراغ) الغاز ، وخاصة الهواء المخلخل بدرجة عالية . حيث يتم التبريد وطريقة قطع العينة المتجمدة تحت هذا الفراغ ، كما يزود هذا التكنيك بترموميتر الازدواج الحراري وذلك لمراقبة درجة الحرارة. وبعد اتمام الحصول على السطح الممزق والمنتج اثناء قطع العينة المتجمدة والتي تم لها عملية Cryodécapage تبدأ الخطوة التالية وتسمى الطبع اي يتم تبخير جزئيات من الكربون على العينة المقطوعة ، وتتم كل هذه الخطوات تحت الفراغ. وبعد ذلك من السهولة التامة فصل الطبقة المتبخرة والتي ترسبت على العينة والمميزة لتركيب الخلية بواسطة الميكروسكوب الالكتروني . ومن المميزات والفوائد الاساسية لاستخدام الخلايا المتجمدة في الحالة الحية وذلك لغرض فحصها ودراستها ، فانها تحتفظ بحيويتها عند

التحضير ايضا لهذا التكنيك – كما اثبت هذا التكنيك من الامكان وبدون اي مصاعب دراسة هذه العينة المحضرة والمنتجة بهذه الطريقة Cryodecapage بانها تعطى صورة حقيقية للخلايا والانسجة الحية ، وبهذا يثبت بان العينات لم يحدث ولا يطرأ عليها اي تعديل اثناء التحضير بطريقة Cryodecapage وفحصها باستخدام الميكروسكوب الالكتروني. وهنا أود اوضح ان الميكروسكوب الالكتروني عند تشغيله يستخدم الشعاع الالكتروني بدلا من الشعاع الضوئي كما في الميكروسكوبات الضوئية .

*** تكنولوجيا الاشعاع وعلم الكيمياء في معالجة الامراض السرطانية وغير السرطانية .**

تستخدم طريقة تكنولوجية لمعالجة بعض الحالات الشاذة لاوعية المخ . وهذه الطريقة التكنولوجية الجديدة لا تحتاج الى ضرورة اجراء عملية جراحية للمريض . حيث ان هذا التكنيك العلاجي بواسطة الفحص الاشعاعي يتم عن طريق اعطاء فرصة للاشعاع كي يتخلل الى الاوعية المصابة مستخدما سابر الكتروليك مغطى بغطاء على شكل بالون . ينفخ بعد ذلك الغطاء ويكون بمستوى جرح الاوعية التي تحت الفحص مما يحدث سدا للجرح مع المحافظة على امتداد الشريان ، وهذا يسمح بتأمين وصول الاوكسجين بشكل جيد . كما ان هذا التكنيك الحديث مخصص حاليا لمعالجة الشقوق الناتجة من رضوض الوجه وعدد من اشكال القروح التي تصيب شريان القلب والتي لم تكن لوقتنا الحاضر قابلة لاجراء عملية بواسطة جراح الاعصاب ، وعمليا غير قابلة للعلاج بأي طريقة اخرى . ومع ذلك فبالامكان توسيع نطاق هذا التكنيك في حالات عديدة قبل اجراء عملية جراحية من اجل البحث عن افضل مكان لاجراء العملية بمستوى اوعية المخ وذلك لعدم اتلاف مرور شريان القلب.

اوجدت شركة فرنسية – انجليزية للاشعة آلة تستخدم اشعة اكس وقد اطلقت عليها اسم دانسيتوم . يتعلق الامر بطريقة تحدث ثورة في ميدان استخدام تكنولوجيا الاشعاع . يمر شعاع دقيق من اشعة اكس فوق المخ وذلك بشكل طبقة بعد طبقة . تجمع المعلومات بشكل اشارات كهربائية وترسل الى العقل الالكتروني (اورد يناتير) ليعيد تركيب الصور .

وهكذا يمكن مشاهدة مالم يسبق تحقيقه بواسطة التصوير بالاشعة – الاورام الرخوة – تشوهات اوعية الدم وكل امر هام يجب اكتشافه بسرعة لانقاذ المريض .

وتتداول هذه الطريقة كالاتي :

يمتص المخ الاشعة عند مرورها ، كما يقيس جهاز الكاشف اهمية هذا الامتصاص للاشعة . اما المحول المستخدم بالجهاز فيحول الفرق الحادث الى ارقام حتى يمكن دراستها ومعالجتها بواسطة استخدام العقل الالكتروني . ثم تقوم اسطوانة الفيديو هذه الارقام الى صور والاشعة على شريط مغناطيسي لتسجيل صور التلفزيون . كما يأمل الذين يستخدمون الاشعة توسيع تطبيق هذه الآلة في اجزاء اخرى من الجسم .

*** علاج المرضى المصابين بسرطان الرئة :**

ان الجراحة في الوقت الحاضر هي العلاج الوحيد الذي يستطيع شفاء عدد من من المرضى المصابين بسرطان الرئة .

في مركز جراحة ماري – لا نيولونج في باريس، اجريت عمليات لالفي مصاب بالسرطان البدائي في الرئة وقد شفي ٢٣٪ من الذين اجريت لهم عملية منذ خمس سنوات على الاقل . اجريت عمليات اخرى لمئة وستة مرضى مصابين بداء السرطان الثانوي « ميتا ستاز » وقد شفي ٣١٪ من اللذين

اجريت لهم عمليات تعود الى ثلاث سنوات على الاقل . اما الوفيات خلال العمليات فلا تتجاوز ٥ر٣٪ . يعود التقدم الذى تحقق فى هذا الميدان خاصة الى معرفة المرض باكرا كما يعود الى مراقبة عدد من انواع السرطان المتطور والى علاج كيميائى اكثر فاعلية واخيرا الى تحسن طاقة العلاج بواسطة الكوبالت الاشعاعى .

شدد العالم بوبار (باريس) على ضرورة الجمع بين عدد من الادوية التى يعتبر تأثيرها المشترك له فاعلية اكثر من تناول كل علاج على حدة . وبهذه الواسطة يمكن للعلاج الكيميائى ان يأمل القضاء على الخلايا السرطانية بشكل اعم . كما تبين ان العلاج بواسطة الاشعة يمكن ان يستخدم بين مرحلتين من العلاج بواسطة الادوية الكيميائية . . . ومع ذلك يجب ان يستخدم فى البدء عندما تسد القرحة الرئة وتمتد الى التنفس ، من ناحية اخرى يعتبر العلاج بواسطة الادوية الكيميائية مفيدا بعد انتزاع القرحة السرطانية . اما النتيجة فتنحصر بمعدل خمسين فى المائة وبامكانها كذلك استدراك او تخفيف الانتكاس .

* معالجة سرطان العظام :

يسفر هذا النوع من السرطان عن ظهور مرض الرئة . ولفتت الانظار خاصة للاعمال التى يقوم بها العالم جافية وفريقه فى الولايات المتحدة ، وهى تتناول استخدام العلاج الكيميائى بالادوية الكيميائية فى البداية وذلك لوقف نشاط ظهور المرض الذى لا يزال فى حالة بسيطة . وهكذا يبدو ٦٠ الى ٨٠ فى المائة من المرضى الذين يعالجون بهذا الشكل فى حالة مرضية (طيبة) بعد مرور اربع سنوات من اجراء العملية الجراحية ، ولا تبدو لديهم علامات ظهور المرض ، بينما تبلغ هذه النسبة ٢٠٪ لدى المرضى الذين يعالجون بالجراحة فقط .

دعت هذه النتائج الايجابية الى محاولة استخدام هذا العلاج مع المرضى الذين استؤصلت الاورام لديهم مع المحافظة والعناية على العضو المصاب والتزود ببدلة عظيمة للحماية وتحل مكان قسم الورم المقطوع . كما تدل ملاحظات اخرى تتناول معالجة اورام المبيض والامعاء الغليظة والمعدة والرئة لدى عدد محدود وخاص ، تدل على اتجاه اطباء السرطان حاليا وهو اتجاه يهدف الى عدم الاقتصار على العلاج المحلى بواسطة الجراحة والاشعة ، وانما للاستعانة ايضا بعلاج كيميائى عام لمهاجمة المرض عندما لا يمكن ادراكه وهو موجود . كما سيسمح هذا الشكل الجديد لمكافحة السرطان الثانوى بمساهمة المريض مساهمة فعالة وحقيقية فى علاجه ، كما يمكن بهذه الطريقة ان تعطى فرصة طبية لاجراء عملية تدخل كاملة وتحسين العلاقة بين المريض والمعالج .

قدم كل من الطبيبين دوبارك وديكولكس تقريرا يبين التقدم التكنولوجى الحديث فى مكافحة السرطان الثانوى (ميتاستاز) للعظم .

يمثل السرطان الثانوى والمعروف بالتكوين البدالى السرطانى النقائلى او مراكز ثانوية للاورام الخبيثة التى تبدو فى موقع بعيد عن المنظمة فى البدء .

يقدر الطبيب دوبارك والطبيب ديكولكس ان عشرين بالمائة تقريبا من الاشخاص المصابين بالسرطان قد عرفوا الاصابة بظهور السرطان الثانوى للعظم .

تؤلف الخلايا السرطانية مجموعات بمستوى العظم وتسفر عن تحطيم تدريجى للنسيج العظمى والذى يترجم بشكل كسور . بين عام ١٩٦٠ وعام ١٩٧٠ ادخلت الفنون التقليدية لجراحة النسيج العظمى هذا العلاج الجراحى فى حالة ظهور علامات السرطان الثانوى العظمى ولم يكن يعرف قبل ذلك غير العلاج بواسطة تنظيم التشويه عن طريق تجميد العضو

المصاب بالجبس . في الوقت الحاضر ـ تطورت فنون تكنولوجية التحطيم التدريجي للنسيج العظمي او البدلات الخاصة بكسور العظم . وهي تحمل أملا جديدا للمرضى . يكمن هذا الامل بامكانية الانتقال بحرية وبدون خطر يهدد انكسار العظم . يحل هذا الفن شواك جديدة كما يبين اهمية تكنولوجيا علم البوليمر في العلاج الطبي الحديث والتي ساعدت هذا الشكل الجديد للعلاج .

وهناك أولا استخدام الاسمنت الاكريليكي ؛ حيث يجري حفر العظم المصاب ويملأ الفراغ بالاسمنت . وبالامكان كذلك استخدام مسمار في عظم المصاب ، وتجري التوثيقة كذلك بالاسمنت الاكريليكي .

وبالامكان كذلك بالاستعانة « بالتحطيم الشامل » الذي يؤمن صلابة فورية ويسمح بالحصول على تقوية العظم بحيث يستطيع المقاومة فورا وطوال فترة طويلة لعام الحركات الميكانيكية التي يخضع لها . اما جراحة استبدال الاعضاء فتمثل شكلا آخر للعلاج ويوصى بها : ان تقوية البدلات بواسطة الاسمنت الاكريليكي هي عبارة عن عنصر اساسي لنجاحها . ويعتمد الاسمنت الاكريليكي الجراحي على مادة بولي ميثيل ميثا اكريلات وتستخدم كمادة اساسية لتركيبين ؛ في احدى التركيبين تكون جزئيات سلفات الباريوم منتشرة داخل المادة الاساسية ، وتخلط كمية معلومة من جزئيات سلفات الباريوم ببودرة البولي ميثيل اكريلات ويضاف بعد ذلك سائل الميثيل ميثا اكريلات للخليط بالنسبة الآتية :

جزءان من بولي ميثيل ميثا اكريلات وزنا .

١ ـ جزء من سائل ميثيل ميثا اكريلات وزنا .

وبعد ذلك يخلط خلطا جيدا وان يكون في حالة رخوة ويضغط حول قضيب من الصلب الموضوع بطريقة مركزية داخل قالب اسطواني من الصلب اللين ومن الضروري بعد ذلك ان يجري اجراء البلمره تماما لمركب الاسمنت الاكريليكي وذلك لزمن يتراوح ما بين ٢٠ دقيقة او اكثر .

٧) امراض الثدي

تجد هنا مدى اهمية تكنولوجيا العصر في التوصل السريع والكشف عن الجروح في انسجة الثدي حيث ان امراض الثدي « الطفيفة » تجد لها اهميتها وخطورتها . لان مضاعفة الاورام غير السرطانية والتي تعتبر في البداية ليس لها اهمية يمكن ان تؤدي الى استئصال الثدي بشكل كامل . لذلك من المهم الاتجاه الى علماء تكنولوجيا العصر لخدمة علم الجمال . اشار اطباء امراض الثدي الى انه من المهم الكشف سريعا عن الجروح في انسجة الثدي . وهنا تتدخل تكنولوجيا العصر لتجد الطريق السليم لانقاذ المرضى . يجري جمع المعلومات المتعلقة باستخدام وسائل تكنولوجيا العصر للفحص وذلك للحصول على خلاصة تعالجها بغية الكشف عن اصغر ظاهرة مرضية .

امدت طريقة للفحص ولا تزال في مرحلة الاختبار ؛ وهي تتناول تسجيل ومقارنة تبدلات القوى الكهربائية البيولوجية بمستوى الثدي ؛ ويسمح ذلك بتحديد الثدي الطبيعي والثدي المريض ؛ وذلك تبعا لاهمية التغير الملحوظ في النسمة . كما امكن تحديد اصل عدد من الاورام الصغيرة التي تبدو في الثدي على سبيل المثال ؛ نذكر منها ان الاكياس لا تتطور اطلاقا نحو السرطان ولكن يعود اصلها الى عوامل نفسية وجسدية . نتيجة ذلك ادت الى الاهتمام بدراسة وفحص خطوط الجلد والاصابع واليد بكاملها لدى ثلاثة آلاف امرأة فقط لوحظ ان عددا من هذه الخطوط يدل اتجاه « تجسيد » المواقف والاتجاهات على الصعيد الجسدي . وفي الوضع الحالي لهذه الاعمال ؛ قدر ان بعض الحالات الخاصة من الامكان ان يشار اليها وهي قابلية الاصابة

لامراض الذى الطريقة نتيجة للامراض السابق ذكرها .

في تطبيق المحادثات التي تمت بفرنسا (باريس) بشأن مرض السرطان والمصابين بداء السكر وبناء على طلب العالم ماتيه حاول اخصائيان وهما جاكلين فابر وهيتريكا اونج تحديد نفسية المصاب بداء السرطان وقد وضحا على التوالي مختلف المراحل التي يتعرض لها المصاب بداء السرطان .

عندما يكتشف المصاب بداء السرطان حقيقة مرضه ، فانه سيواجه مرحلة انهيار عصبي قبل ان يتمالك نفسه . عندئذ من الضروري تخفيف حدة مخاوفه والحديث عن علاجه والحديث مع غيره من عائلته . لانه في حاجة للثقة بالطبيب الذي يقوم بعلاجه وان يحصل على طمأنينة فعلية من طبيبه . وتحت هذه الظروف في الامكان ان يتعاون مع الطبيب لمكافحة المرض . وبالتالي عندما يتأكد ويعرف ان جميع التدابير قد اتخذت للتخفيف من الامه الجسدية والنفسية، عندئذ يقل قلقه ويأسه . كما نصح كثيرا كل من الطبيبين جاكلين فابر وهنريكا اونج بضرورة التحدث بين مرضى السرطان وعائلتهم وكذلك الاطباء ايضا وذلك لتخفيف حدة المرض لديهم . والواقع ان المرضى بداء السرطان ينتظرون من الهيئة الطبية وكذلك من الذين يجاورونهم وعائلتهم قوة الكفاح معهم .

كما اوضح كل من السادة تشوبرتسكي، لورانته ، دروين وتوكان ضرورة تعليم المصابين بداء السكر منذ البداية ما هية مرضه وكيفية معالجته . كما من الضروري والواجب ان يتخذ هذا التعليم شكلا جديا وعمليا وعلميا . وهو يحتاج الى عشر ساعات تقريبا . وتكمل هذه الدراسات بتوزيع منشورات خاصة على المرضى بداء السكر . وبالنسبة للمرضى الذين يحتاجون لاستخدام الانسولين ، يجب ان يتلقى المريض الاشراف بنفسه على احواله ومع مراقبة طبية سليمة ، ليستطيع الحياة بشكل عادي على قدر الامكان .

● التكنولوجيا وميدان طب الاسنان :

اقيم في عام ١٩٧٤ المؤتمر الثاني الوطني لجمعية طب الاسنان الفرنسية في قصر المؤتمرات بباريس وتناولت اكثر المذكرات العلمية نزع اللثة من الاسنان واصابتها بالقروح وبنسبة عامة ، توازي اصابة الاسنان بالقروح كمية استهلاك السكر . كما لا يوجد اي لقاح ضد قرح الاسنان ، ومن اجل تجنب هذا المرض ، لا بد من المحافظة على الانظمة الصحية والاساسية لتنظيف الاسنان مرارا كل يوم وذلك لمنع ظهور طبقة تتراكم فوق الاسنان . كما يعتبر نزع اللثة في السن مسئولا عن استئصال عدد كبير من الاسنان .

واذا عني بالاسنان باكرا بالامكان شفاؤها وذلك بفضل جراحة السمح بالقضاء على رسوب الطرامة فوق اللثة . اما افضل وقاية لهذه الظاهرة فهي نظافة الفم . وبهذا الشأن ايضا استغرقت عدة ابحاث في اعداد بدلة الاسنان اي جهاز صغير يقوم مقام عمل السنن واوضحت النتائج باننا الان نشهد نهاية اسطورة الذهب . الواقع ان هذا المعدن الثمين يستبدل اكثر فاكثر بمزيج يتركب من اساس يعتمد على النيكل والكروم ـ تملك هذه السبيكة مميزات مماثلة ولكنها اصعب اعدادا لانها اقل ليونة . ومع ذلك يعتبر سعرها اقل ، مما يسمح بتحقيق توفير هام عند اعداد بدلة الأسنان . امكن حوالي سبعمائة طبيب اسنان بكلية جراحة الأسنان بجامعة باريس من اجراء دراسات تكنيكية ترافقها بيانات واقعية عن تأثير الطبقة الصفيحية الشكل التي تغطي السن والتي تحدث التسوس والنخر وتجريد الاسنان . كما انه من السهولة ان يتمكن الانسان من مقاومة تسوس الأسنان والنخر وذلك بالعناية الصحية على الاسنان . كما ان تنظيف الاسنان

بانتظام يكفي في الحقيقة لمنع ظهور هذه الطبقة الصفيحية فوق الاسنان . وهي تتألف بنسبة ٨٠٪ من جراثيم . وفي الواقع هذه الجراثيم تنتهي بمهاجمة الانسجة التي تسند السن ، وبالتالي تعمى هذه الانسجة وتصبح غالبا مقرا للعدوى قبل ان تفقد الطاقة الكلية التي تسند السن قبل الوقوع .

ومن اهم الاستنتاجات التي اسفرت بهذا الاجتماع العلمي التكنولوجي في ميدان طب الاسنان :

ـ مواد جديدة للاجهزة التي تقوم مقام السن وذلك للحماية ولمس بالبدلة وملء السدود . كما هناك اصماغ جديدة لها قدرة الالتصاق بالسن بشكل افضل ومن اهم مميزاتها بأنه ليس من الضروري عمل امتداد خاص . وقد أوصي باستخدامها .

ـ زرع الاسنان ، ويعتبر من التجارب التكتيكية الحديثة ويمثل ذلك جذور اصطناعية حقيقية كما تستخدم كأساس للجهاز الذي يقوم مقام السن او عديد من الاسنان (البدلة) ويوضع على جانبي العظم ويثبت في مستوى سمك العظم ؛ ويبدو ان الاتجاه السائد نحو استخدام الفحم الزجاجي .

كما توصلوا بأنه يوجد تأثيرات جانبية أخرى وذلك لالتهاب الاسنان ، وبالامكان ان يكون هذا التأثير على القلب واوعية الدم والعظام والكلية والعين او الجلد .

في الوقت الحالي ـ ولمثل هذه الحالات ـ لا بد من العمل بحذر شديد وعدم انتزاع الاسنان بدون تبصر . وبناء على ذلك يجب تحديد الموقف بدقة سواء لانتزاع الاسنان أو حفظها تبعا للخطر الذي يمكن ان يكون حيويا .

يعتبر الاستاذ دكتور روبرت فرانك مدير كلية جراحة الاسنان في ستراسبورج اخصائيا دوليا شهيرا في ميدان امراض الفم والاسنان ، وتناول قسم هام من ابحاثه كيفية تركيب السن . وقد كرس احدث اعماله وتجاربه العلمية البحثية لحركة انتقال المواد الكلسية بمستوى مختلف اطراف السن . كما تناولت ابحاثه بعد ذلك بواسطة استخدام المجهر الالكتروني الماسح (التصوير بالاشعة) . تحققت هذه الاعمال في اسنان القط المولود بعد حقن شرايينه بالكلس المشع من نوع (Ca 45). وبرهن العالم فرانك عن وجود طريقتين لمرور الكلس (الكالسيوم) من شعب الدم الى الانسجة التي يقويها الكالسيوم المشع . يمر الطريق الاول بين خلايا النسيج والثاني عبر الخلايا المسؤولة عن تركيب العظم . اما قوة وطرافة هذا العمل فتعود لاثباته ان الطريق الثاني هو اهم من الطريق الاول . تتحقق هذه الاعمال والابحاث بواسطة الحيوانات المولودة ؛ وهي تقدم معلومات ثمينة حول تركيب الاسنان .

والتطبيقات العملية لمثل هذه الاكتشافات من الامكان ان تتضاعف وخاصة في ما يتعلق بآلية ظهور وعلاج تركيب السن والانسجة الخاصة التي تعتمد عليها السن عند الظهور .

كما تحدث ايضا العالم بيار فوهر عضو الاكاديمية الوطنية لطب الاسنان بفرنسا عن طريقة جديدة لتناول استخدام اكسيد الكالسيوم الثقيل او الهيكسوكاليكس؛ اكتشفت هذه المادة الجديدة عام ١٩٧٢ من قبل العالم بيار برنلو من باريس. وقد درسها فريق يتألف من ستة باحثين تمكنوا من تنظيم استخدامها بشكل علمي . وقد استخدم الهيكسوكاليكس لمعالجة ١٦٠٠ شخص تقريبا ، سمح له ذلك بالقول ان هذه المادة يمكن ان تستخدم بشكل فعال في جميع حالات معالجة الاسنان .

ان امكانيات هذه المادة ليست ضئيلة ؛ وهي تشمل القضاء على جميع الادوية وتخفيض استخدام الادوات اليدوية ، وكذلك تخفيض

نسبة اجراء العمليات الجراحية ، ومن شأنها كذلك ان تضاعف نمو العظم من جديد .

ايضا اسفرت عدة ابحاث عن التغيرات الحادثة في تركيب ودرجة نفاذية العاج الخاص باقنية جذر السن بعد تعرضه للحوامض الضعيفة والمواد المطهرة بالنتائج الآتية :

ـ ليونة عاج جذر السن بواسطة المواد الكيميائية يقلل الوقت اللازم لعملية توسيع قناة الجذر ميكانيكيا . كما وجد ان درجة ليونة العاج تتناسب طرديا مع وقت الانغماس ولذلك حبذ استعمال اي مادة من مواد البحث لمدة ١٥ دقيقة فقط .

ـ ليست عملية تحديد الوزن المفقود طريقة دقيقة لمعرفة تأثير المادة على علاج جذر السن ، ولكن قياس ايونات الكالسيوم الموجودة في خلات الكالسيوم المترسبة تعطي ضوءا أفضل لتحديد تأثير المواد المستعملة في البحث على عناصر العاج غير العضوية . ومن النتائج من نتائج البحث ان كل المواد المستخدمة تعطي زيادة في ايونات الكالسيوم بعد مضي ٢٤ ساعة مع تغير بسيط فيها بعد مضي ٤٨ ساعة ـ ومن ضمن النتائج أن تحديد وضع استعمال اي مادة يعطي تفاعلا محدودا .

ـ منحنيات ونتائج تحليل حيود الاشعة السينية (اكس) اعطت اجابة واضحة عن التفاعلات والمركبات الجديدة الناتجة بين عاج جذر السن وبين هذه المواد .

ـ كما وجد ان اساس كل المكونات الجديدة الناتجة هي خلات الكالسيوم ، وان التغيرات في فوسفات الكالسيوم القاعدية (اساس تركيب السن) تغيرات بسيطة وكل التغيرات تمت في مركبات اخرى مثل هيدروكسيد الكالسيوم .

ـ درجة نفاذية الصبغة تتناسب طرديا مع وقت الانغماس وهذا يعطي ضوءا جديدا على استعمال المواد الكيميائية قبل استعمال المواد المطهرة .

ـ وجد ان اي مادة كيميائية تستعمل يجب الا تتعدى حدود قناة العصب حتى لا تسبب اي الم المريض في بادىء الامر .

ـ كما نستطيع القول بانه لم يستقر الامر بعد على شكل وضع هذه المواد عند استعمالها اكلينيكيا . ان استعمال كمية هذه المواد في التجارب العملية كانت اكثر بكثير من كمية المادة اللازمة عند استعمالها اكلينيكيا ولكن هذه الكميات يمكنها ان تعطينا فكرة عن التغيرات التي ستحدث في عاج السن .

ومن التحليلات الاحصائية ومقارنة حامض الخليك ١٠ في المائة ، ٢٠ في المائة وثلاث مواد اخرى متداولة مثل :

EDTA - ENDOSOLVE - LARGALULTRA

وجد انه يفضل تكرار استعمال حامض الخليك كمادة كيميائية لعملية التوسيع الكيميائي الميكانيكي اللازمة في قنوات السن .

✽ الصحة العامة وطب الاطفال

عرفت ابحاث الكلية خلال السنوات العشر الاخيرة تقدما خاصا فيما يتعلق بامراض الكلية والضغط . اذا كان قد تحقق في الواقع تقدم مدهش للعلاج بواسطة الكلية الصناعية وتطعيم الكلية . ولا تزال هذه الوسائل مسكنة كما تمثل حلولا مؤقتة . ان الوقاية من امراض الكلية ترجع عامة للفضل الدراسات والابحاث المتعلقة بالوراثة خاصة ، كما انها ستسمح بتخفيض نقص عمل الكلية لدى الطفل وبالتالي لدى البالغين .

اوضح العالم جون هامبوجر عضو اكاديمية العلوم ومدير مركز ابحاث امراض الكلية في مستشفى نيكر باريس وذلك كان خلال المؤتمر الذي عقد بمناسبة الذكرى العاشرة لتأسيس

المؤسسة الوطنية للصحة العامة والبحث الطبي ، فان زيادة نسبة البولينا في الدم ليست ناتجة عن تجمع المادة البلورية من البولينا نتيجة ضعف الكلية لدى الانسان السليم فقط بل انها تقضى على هذه المادة ايضا . وان كثيرا من ذلك برهنت الابحاث التجريبية خلال سنوات عديدة على ان عجز وظائف الكلية يؤدى كذلك الى سلسلة متوالية من الخلل او عدم الاتزان في المواد الهامة والتي يعتمد عليها اساسا الوسط الداخلي لجسم الانسان مثل الماء والصوديوم والبوتاسيوم والكالسيوم والماغنسيوم وغيرها من المواد الثابتة . وبرهنت الابحاث التي تتعلق بامراض الكلية والتي حققها عدد من الفرق العملية البحثية من العلماء الفرنسيين والمتخصصين في هذا الفرع على ما وراء « ازمة الكلية الحادة » من امراض خطيرة تؤدى في النهاية لوفاة المرضى . وهذه الامراض المختلفة تهاجم الكلية وتحدث فيها اصابات . وان معرفة كل من هذا الخلل وعدم الاتزان في المواد الاساسية في تركيب جسم الانسان بشكل اوسع وكذلك البحث عن اسبابه (يتعلق الامر غالبا بالمناعة) يعتبر لازما للعلاج وكذلك للوقاية من هذه الامراض. ويحاول علماء الكيمياء عزل المواد السامة واحدة بعد الاخرى وهي التي تجرى مع الدورة الدموية وتعتبر مسؤولة عن الخلل القاتل . ان الكلية الصناعية وحدها هي التي تستطيع حاليا تحقيق عملية التنظيف .

اما فيما يتعلق بامراض التهاب الاغشية المحاطة بالمخ ، نجد حاليا ان يعاد استخدام المضادات الحيوية والسولفاميد لعلاج مثل هذه الامراض ، وبالتالي نتج عن ذلك ان نسبة الوفيات تناقصت من ٨٠ الى ٢٠ في المائة ومع ذلك لا تزال هذه النسبة مرتفعة ، ولكن ذلك يعود جزئيا الى قدرة الجرثومة المدهشة والتى تسبب هذا المرض واصرارها على الحياة والتطور بسهولة لمقاومة العلاج . فاهتم الباحثون بتصنيع طعم خاص للوقاية من هذا المرض ، وبالفعل ظهرت فعاليته بايقاف الوباء الاخير الذى حدث في البرازيل .

ذكر العالم تريو من مؤسسة ميريو انه اذا كانت الاوبئة الكبرى المعروفة مرتبطة بالجراثيم من نوع أ ، س ؛ فلا يمكن التأكد بان الجرثومة من نوع ب تعتبر مسؤولة لوحدها . في فرنسا جرى احصاء كل عام وذلك من الالف الى الالف وخمسمائة اصابة ؛ كما لا يمكن التأكيد بانها لن تتخذ يوما هذا الشكل من الانتشار . في الوقت الحالي لم يتمكن التحقيق وتصنيع الطعم القابل. واما فيما يتعلق بمرض الانفلونزا وذلك خلافا لالتهابات الاغشية المحاطة بالمخ ؛ لا يوجد حاليا اي علاج .

يقضى داء الانفلونزا في فرنسا كل شتاء على ٨ ــ ١٨ الف شخص وبينهم ٩٠ ٪ ممن الذين تجاوزوا الستين عاما . اما التطعيم فيبدو افضل الاعمال ، ذكر العالم هانون من مؤسسة باستير ما يلي :

لما كانت حماية التطعيم ضد الانفلونزا في البداية غير كاملة (جرعة التطعيم) قليلة مع عدم معرفة سلوك تطور الجرثومة التى تعتبر اصل الوباء . اما اليوم فبفضل تطور فنون تكنولوجية التقنية سمحت لنا باستخدام جرعات منتجة وذات فعالية قصوى مع اختفاء كل الاضرار تقريبا التي كانت سابقا تنتج عنها.

منذ شهر نوفمبر ١٩٧٥ والان يجرى بقسم الامراض المعدية في قسم البحث الطبي الاجتماعي ، وهو تابع للمؤسسة الوطنية للبحث الطبي لاوروبا، تحقيق يعتمد على نسبة تغيب الطلبة عن حضور الدروس وتعتبر هذه النسبة من التغيب كدليل على اهمية انتشار وباء الانفلونزا . من اجل هذا التحقيق ؛ جرى اختبار تلاميذ الصف الاول والثاني في المدارس الابتدائية . وتتراوح اعمارهم بين السادسة والثامنة ، وهو السن الذى تصيبه عادة امراض الاطفال المعدية (الحصبة

ـ التهاب لوزتي الاذنين ..... الخ) في فرنسا مثلا اختيرت ١٢ مدينة ، من بينها نانت ، بوردو ، مونبيليه ، ليون وغيرها من المدن . وفي هذه المدن اجري مراقبة ستة الاف طفل تقريبا . وفي كل صف يحدد يوميا عدد الغائبين وما سبب التغيب عن الدراسة . وعندما تتجاوز نسبة الغائبين ١٥ ٪ يتوجه شخص مكلف بالتحقيق الى المكان الذي يقع فيه الغياب من اجل تحديد ومعرفة ما اذا كان الامر يتعلق بوباء الانفلونزا . وفي حالة تحديد المرض وتشخيص على انه بالفعل وباء الانفلونزا يتناول الخطوات الهامة الآتية :

يجري التقاط بصاق الحلق لدى الاطفال المرضى وكذلك كل من يجاورهم من العائلة ، ترسل جميع هذه الآثار الى مؤسسة باستير في باريس او الى مركز مراقبة وباء الانفلونزا او الى المختبرات الوطنية للصحة العامة وهي مختبرات تضم قسم الاوبئة ، وبالتالي تقوم جميع الفحوصات اللازمة لعزل عدد من انواع جراثيم الانفلونزا ودراستها دراسة بدقة . ونتيجة لهذه البحوث العميقة سمحت النتائج بمعرفة انتماء هذه الجراثيم الى نوع أ ـ فيكتوريا او نوع الثاني من ب .

وبالتالي استطاعوا ان يحددوا نوع الجرثومة التي ينتمي اليها وباء الانفلونزا ، ومن هذا المنطلق بدأت المؤسسات الصحية في صنع الطعم الخاص لوباء الانفلونزا واستخدام العلاج الكيميائي السليم للقضاء على هذه الانواع من وباء الانفلونزا .

امراض الكبد لدى الاطفال

عقد في اوروبا اجتماع دولي خصص للحديث عن امراض الكبد ومجاري الغدة الصفراء لدى الطفل وكان مقره في باريس بمستشفى الاطفال بالضاحية الجنوبية . حيث اقيم خلال السنوات العشر الاخيرة مركز ابحاث لدراسة امراض الكبد ومجاري الغدة الصفراء لدى الطفل . ولا يوجد مثيل لهذا المركز في فرنسا نفسها او الخارج ايضا ويديره العالم الاجيل.

اسفر وجود هذا المركز ، نتيجة تعاون بين الخدمات المتخصصة بالمستشفى ، عن دراسة التشخيص والاسباب لامراض الكبد لدى الطفل ، وبين وحدة ابحاث امراض الكبد لدى الطفل . وقد انشئت هذه الوحدة من الابحاث التي تتعلق بامراض الكبد بالمؤسسة الوطنية والبحث الطبي عام ١٩٦٩ .

عقد القسم الاول من هذا الاجتماع الدولي تحت رئاسة العالم روبير دي برو في قصر اولمج شامب حيث يوجد هناك مقر المركز الدولي للطفولة . وفي هذا الاجتماع الدولي اجتمع خمسة عشر امريكيا وخمسة عشر اوروبيا . اما المرحلة الثانية فقد عقدت داخل مقر وحدة ابحاث امراض الكبد لدى الطفل . سمح مؤتمر المؤسسة الوطنية للصحة والبحث الطبي لعدد كبير من الاطباء والباحثين بالمساهمة في اعمال القسم الاول .

ترتبط احدى الاعمال الجديدة لهذا اللقاء بتنوع الابحاث العلمية . كما ضم الاخصائيين في الكيمياء الحيوية وفي علم المناعة وعلم الجراثيم وكذلك الاخصائيين في علم التشريح ـ والامراض او الاطباء المتخصصين في امراض الكبد لدى البالغين او الاطفال ـ وفي هذه المناسبة قامت فكرة السباق الاساسية لتقدم التكنولوجي ودورها الهام في البحث الطبي.

واشار العالم جوي جود لويسكي الى موضوعين حديثين يتعلقان بالعلاج بواسطة المياه المعدنية : التهاب الكبد الجرثومي والانفعالات الغذائية للطفل ؛ وبالامكان يؤدي موضوع الانفعالات الغذائية لدى الطفل الى انشاء مستشفى خاص لاجل معالجة اضطراب الهضم لدى الطفل .

التقى حوالي عشرة الاف طبيب من جميع بلدان العالم لتبادل معلوماتهم وخبراتهم في

نطاق الميدان الطبي والعلاج والجراحة والاختصاصات التكنولوجية العصرية وامراض الفم والاسنان ، وتم نقاش اربعة ابحاث حول مواضيع السلامة (المسؤولية الطبية ، ومنع الحمل ــ حوادث منزلية لدى الطفل ، مراقبة وصف الادوية وعدم الافراط في تناولها ــ الصابون بداء المفاصل الروماتزمية) . كما تناول النقاش ايضا جميع ميادين الجراحة العامة والصحة العامة والاختصاصات وخاصة طب الاطفال والتوليد وامراض الفم والاسنان اما في مركز المستشفى الجامعي ــ بيتيه ــ سالبتريير فقد جرى نقاش حول الافراط في استخدام المضادات الحيوية لدى الطفل ، حيث انه بعد ثلاثين عاما من اكتشاف هذه الادوية ، ابدو باستمرار ضرورة تنظيم استخدام هذه الادوية بطريقة منتظمة وبدون افراط ، لان الاستخدام غير المنتظم والافراط في استعمالها لا يؤدي فقط الى الاستهلاك الذاتي (المالي) ، بل يؤدي ايضا الى المضاعفات المتزايدة والخطرة لبدور المقاومة المختارة والبارزة من الانسان ، بحيث يهدد كل مشروع علاجي . هذه السعة من المقاومة للمضادات الحيوية تعود الى الاحماض المحتوية على « طفيليات » في النواة الخلايا الحية او « بلاسميد » وبصورة عامة ــ من الضروري ان تستخدم المضادات الحيوية بطريقة سليمة والتي تستخدم بدون تمييز على سبيل الوقاية او قبل معرفة ما اذا كانت هذه الجرثومة هي المسؤولة عن المرض ، وكذلك نوع هذه الجرثومة . يقدر علماء الجراثيم انه لا يصح استخدام المضادات الحيوية ــ اي الادوية المقاومة لحرارة الجسم ــ « التغطية » كما يجب عدم استخدامها على سبيل الوقاية ، الا في حالات محددة بعد معرفة نوع الجرثومة المطابقة للمرض والمقصود مكافحتها . كل هذا يعني عدم اللجوء الى المضادات الحيوية قبل معرفة الجرثومة ونوع حساسيتها النوعية للمرض نفسه .

في الحقيقة ، يعود اكثر حوادث التهابات مجرى التنفس لدى الاطفال والرضع ، كما تعود تقريبا كل اصابات الانف والحلق وراس الحلق وشعبة الرئة الى اصل جرثومي . وبالتالي تكون المضادات الحيوية والتي تخفض الحرارة (الحمى) ليس لها تاثير على هذه الامراض بشكل عام .

بالنسبة لاصابة الاطفال بارتفاع الحرارة لمدة طويلة غير معروفة السبب . في هذه الحالة يخشى ان تعطى المضادات الحيوية للطفل لانه من الاحتمال ان تعطي نتائج خاطئة او سالبة بالنسبة للفحوص البيولوجية اللازمة للعلاج السليم . اما فيما يتعلق باجراء عملية جراحية قادمة او نقل تناول ادوية كورتيزونية او مانعة للانهيار العصبي ، يعتبر تطور التدابير الصحية الدقيقة ، وخاصة في المستشفى ، اكثر فعالية واقل خطورة من العلاج الوقائي بواسطة ادوية المضادات الحيوية .

حقق فريق مؤسسة باستير بفرنسا بادارة العالم فرانسوا جاكوب الحائز على جائزة نوبل الطبية ــ والعالم روبير فور اكتشافا هاما في علم الحياة . سمح هذا الاكتشاف بادراك سبب عدم تأثير مناعة الجسم على الجنين لدى المرأة الحامل وكذلك على السرطان في الجسم ، بينما تعتبر هذه المناعة سببا لفظ الطعوم لاعضاء خارجية . وبالمقابل لم يحن الوقت للقول ما اذا كان هذا الاكتشاف يمكن ان يساهم في معالجة السرطان . وقد تركزت البحوث التجريبية الاخيرة على صعيد البحث الطبي على موضوع الخلايا التي بدلت نظريات الوراثة والفسيولوجيا وعلم الامراض بكامله . كما اشار البحث الى علم المناعة مع الاكتشاف الهام الى علم الاجنة مع تخمين الامراض في ذرات الخلايا قبل الولادة ، وكذلك الى علم الهرمونات مع الوسائل الحديثة لمنع الحمل .

ذكر العالم ميكوفسكي ان مكافحة الوضع السابق لأوانه ، وهو يمثل السبب الأول للوفيات لدى المواليد الجدد يجب أن يحتل الافضلية في ميدان الصحة العامة . من أصل ٨٠٠ الف ولادة في فرنسا خلال عام ١٩٧٣ ، تحقق ٨٠ الف ولادة قبل الاوان . ومن أصل هذا العدد ، فوق خمسة عشر الفا ، كما ان عددا شبيها يصاب بعاهات تتعلق بالذكاء والحركة ؛ ومن ناحية أخرى لاحظ العالم ميكوفسكي ان التقدم الهام في ميدان العلاج لا يجب ان ينسينا ان الكشف عن الحمل الذي يمثل « خطرا كبيرا » والوقاية منه لايزالان يعتبران السلاح الاكثر فعالية ضد الولادة السابقة لأوانها . وان زيارة الحامل الطبيب اربع مرات خلال فترة الحمل تعتبر من الاصل غير كافية . كما انه في حالة فحص الحامل مرة في الشهر من الامكان تجنب حالات الوفاة للمواليد بنسبة كبيرة . كما يمكن تجنب اصابة ستين الفا بالعاهات خلال خمسة عشر عاما . اشارت الطبية جنفييف بارية المختصة بالتخدير واعادة تحويط المولود اشارت الى الاخطار التي تصيب الحوامل اللواتي يتناولن جميع انواع الادوية بغرض الوقاية والتقوية . فان عددا من انواع الادوية المدرة للبول يمكن ان تكون سبب عدم التوازن الايوني لدى المرأة والجنين ، كما تتسبب في نقص كمية الكالسيوم لدى الام . ان الادوية المسكنة والمهدئة للاعصاب تتسرب اكثر الى الجنين بالنسبة للام . لذلك يجب الامتناع المطلق عن كل علاج عند الاقتراب من مرحلة الوضع .

ابحاث تتعلق بالصحة الغذائية

ان الحياة الحديثة قد عدلت بعمق كثير الفعاليات الجسم البشري ، الذي سيحتاج من جديد لاشياء عديدة يجب على ادوية الغد ان تقدمها بمساهمة تكنولوجيا العصر .

يلاحظ في الواقع ان اكثر مساوىء التغذية بدون تعقل وحكمة والتي تسبب الزيادة القلقة في السعرات والامتصاص الزائد للمواد الدهنية والسكرية بشكل مبالغ فيه يؤدي كل هذا الى الاضطرابات الخطرة بجسم الانسان . وبالتالي لابد من تنظيم تربية حقيقية للتغذية تسمح بالمحافظة على التوازن الغذائي للانسان . بمعنى العمد الطفولة لابد من بدل تربية غذائية صحية للطفل ، مع دراسة دور الفيتامينات وتأثيراتها سواء كان الامر يتعلق بوجودها في العناصر الطبيعية او حفظها في المواد الصناعية او تأثيرها بواسطة المنتجات الصيدلية .

عقدت اجتماعات في اوروبا وكان مقر هذا الاجتماع في باريس لدراسة ابحاث القضايا المتعلقة بالصحة الغذائية . وقد نظمت اخيرا من جانب اللجنة الوطنية للطفولة والمركز الوطني لتنسيق الدراسات والابحاث المتعلقة بالتغذية خلال ثلاثة اجتماعات شدد المشاركون على ضرورة تعديل السلوك الغذائي للاطفال والبالغين ، وذلك بتحقيق تطور في تناول الغذاء الصحي وكمية السعرات اللازمة للطفل . حيث انه من الملاحظ ان الاطفال في سن الرابعة قد اعتادوا اكل الطعام المالح او الحاوي على الكثير من السكر مع عدم شرب الماء .

اشار العالم روسيه رئيس اطباء مستشفى سان فانسان دي بول بباريس خلال اجتماع اللجنة الوطنية للطفولة وذلك لدراسة تغذية الشباب ، ذكر ان ثلث حالات البدانة والضعف يبدأ منذ الطفولة ، وان عددا من العادات الغذائية العائلية السيئة تمهد لبدانة الطفل . كما اضاف قائلا : يخشى من تضخم الشحم بشكل غير قابل للتقلص لدى الاطفال ويحافظ على ذلك عدم انتظام هرموني . لذا يجب على طبيب الاطفال ان يراقب كل زيادة في الوزن .

كما اشار العالم دوبان خلال اجتماع المركز الوطني للتنسيق الدراسات وابحاث التغذية الى العادات السيئة منذ الاشهر الاولى وخلال العامين الاولين من الحياة . قال : « خلال الاشهر الاولى ينمو الطفل ويزيد وزنه جراما

في الساعة (حوالي ٢٥ جراما يوميا) اما وزن الدماغ فيزيد جرامين يوميا ، وبعد ١٢ شهرا يزيد وزن الطفل ثلاث مرات بالنسبة لوزنه عند مولده ، كما يبلغ طوله عندما يبلغ عامين نصف الطول النهائي لجسمه » . وهكذا برهن على اهمية قضايا التغذية لدى الرضيع، وشدد على الاخطاء التي تتردد في الغالب :

ـ تجاهل الام للمميزات المختلفة لانواع الحليب وزيادة الكمية .

ـ استخدام باكر للغذاء المالح او الكثير السكر .

ـ لم يعد الاطفال بين الرابعة والسادسة يعرفون شرب الماء ، كما يعطون مشروبات كثيرة السكر والالوان .

وتكلمت ايضا مؤسسة لتنظيم المذاق بكلية الطب الباريسية مؤتمرا لتناول دراسة الموضوعات المرتبطة بالصحة العامة والصحة الغذائية لسائق السيارة . توجد في الحقيقة علاقة وثيقة بين نظام الغذاء والانتباه . حدد عدد كبير من الاخصائيين التابعين للهيئة الطبية والمنظمات المسؤولة عن سلامة السير ، حددوا تأثير الكحول وعدد من الادوية بصورة خاصة على نوع رد الفعل العصبي . كما دلت الاحصاءات بوضوح على ان نسبة الحوادث تزداد مع زيادة نسبة الكحول في الدم ، وان سلامة السير تعتبر افضل طالما نسبة الكحول لاتزداد عن ٠,٣ جرام ، ويوازي ذلك كمية امتصاص ضئيلة وخاصة اذا جرى ابتلاع عدد كبير من الادوية دفعة واحدة قبل تناول الطعام فهناك عدد من الادوية المسكنة واللازمة لحالات الصرع والمنشطة والفاقدة الشهية « القاطعة للجوع » وهي تؤثر مثل الكحول وتحدث زيادة في الوقت اللازم لاحداث رد فعل في الاعصاب، كما تحدث نقصا في قدرة تنسيق اعصاب البصر واضطرابات في التمييز والانتباه . كما وضحت الابحاث التجريبية التي اجريتهن قبل مؤسسة

تنظيم الغذاء ان الاخطار الواقعية للاضطرابات والتي تسبب الحوادث انما تبدو خاصة عندما يبدأ تناول العلاج ، وذلك قبل ان يعتاد الجسم عليه ، ومن هذا المنطلق حكم الاخصائيون على العلاقات التي تنشأ بين الاجهاد العصبي وظروف التغذية ، وقد اتفقوا على اهمية الغذاء المعقول والمناسب . ومن اجل تمتع بالانتباه كامل وسرعة استجابة ، لابد من تجنب نقص نسبة السكر في الدم مما يخفف نسبة الاوكسجين وحتى البروتين في خلايا الاعصاب . وكذلك تناول وجبات الطعام الغنية وهي تحدث عادة رغبة في النعاس، فنجد من المستحسن بالفعل احترام السمة المنتظمة للانتباه المفروضة على السائق والتي عادة تنقص بعد ساعتين من قيادة السيارة وذلك نتيجة للارهاق . وبالتالي يجب هنا على السائق الوقوف بانتظام لتناول وجبات صغيرة من الطعام والمواد السائلة . تسمح هذه التدابير للسائقين بالمحافظة على انتباه اقصى وتجنبهم جميع الحوادث التي تعود الى تعب الجسد والاعصاب .

انشيء فريق بحثي لدراسة التعب والاجهادات العصبية ، وهو يضم الاطباء والباحثين في المجالات المختلفة ـ الامراض والفسيولوجيا وعلم النفس وعلم الاجتماع والطب العام والطب المهني والاطباء المشرفين على الصحة الرياضية (الطب الرياضي) والغدد والتنفس . . . وكانت غاية هذا الفريق البحثي هي تناول المواضيع التالية :

ـ تحديد الاسباب والمظاهر والعناية بالاجهاد وضعف القوة الناتجة غالبا عن عجز عصبي او نفسي .

ـ جمع ودراسة نشر جميع المستندات المتعلقة بهذه المواضيع .

ـ اعداد وتطبيق التدابير الصحية والوقائية بالنسبة لجميع علامات الاجهاد .

بسم الله الرحمن الرحيم

وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذي من الجبال بيوتا ومن الشجر ومما يعرشون . ثم كلي من كل الثمرات فاسلكي سبل ربك ذللا يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون .

صدق الله العظيم

أشارت تحقيقات حديثة الى أهمية وتكرار الاجهاد وضعف القوة الناتجة غالبا عن عجز عصبي أو نفسي . وقد بينت الاحصائيات للاطباء داخل المستشفيات ان مريضا من أصل اثنين يشكو من التعب والاجهاد العصبي، وهي صعبة العيادة ، يشمل الضعف جميع مظاهر المرض، وان كل مرض جسمي أو عقلي يسبب ضعفا . وعلى الصعيد النظري ، انحصرت الدراسات الفسيولوجية الاساسية الكلاسيكية في الغالب على تعب العضلات ، وهي غير كافية لابراز مجموع ما يتعلق بالاجهاد الناتج عن ضعف القوة وتأثيره على الحياة النفسية والاجتماعية .

● عسل النحل شفاء للناس

بدلا من استخدام العقاقير والادوية يوجد علاج جديد وقديم عرفه الانسان منذ القدم ـ انه عسل النحل الذي ذكر في كتاب الله عز وجل .. الهاما من هذا قدم الطبيب الروسي الاصل «روش» في كتاب تحت عنوان « النحل صيدلية مجنحة » يقول في كتابه ان العسل افضل علاج للأمراض الناتجة عن البرد ... اما ان يخلط بالحليب الساخن او عصير الليمون او مع الشاي الساخن ... هذا العلاج عرفه العالم منذ مئات السنين . انه يقضي تماما على البرد او الزكام . ويستخدم ايضا في ايقاف النزيف الرئوي مع خليط مع عصير الجزر ، ويضيف المؤلف ... ان العسل فوائد عديدة ونافعة وله اثار نافعة اذا استنشق صباحا فهو يساعد على سهولة التنفس وقاتل الجراثيم، بالاضافة الى انه مقو عام لجميع اعضاء الجسم ... والدليل على ان العسل له فوائد كثيرة ، خاصة للجهاز التنفسي، فقد اثبتت المانيا الغربية دواء السعال يدخل في تركيبه نسبة ٤٥ في المائة من العسل الابيض .

● علم النفس الهندسي والفسيولوجي

اثبتت الابحاث التجريبية الحديثة ان تطور تكنولوجية الاجهزة الاوتوماتيكية والآلات والمعدات انها غيرت تفكير البشرية ، فكان الانسان في الانتاج يصنع كل شيء بنفسه ، اما الآن فهو الذي يتحكم في عملية الآلة اي اخذ يتحول اكثر فاكثر الى قائد يصدر اوامره للاجهزة الاوتوماتيكية . رغما عن ذلك التقدم ، فهذه الاجهزة الاوتوماتيكية فرضت على الانسان ان يكون منتبها قوي الذاكرة ، حاضر البديهة ، سريع الاستجابة . فتطورت الدراسات البيولوجية لخدمة الانسان فاستطاع العلماء نتيجة لدراستهم وابحاثهم ان يحددوا الوظائف السيكولوجية العليا للانسان اي صنع معدات مهيأة للاتصال والتعامل مع الانسان ومتناسقة مع قدراته وطاقاته ، حيث انه

ثبت عمليا بأننا نرى أكثر مما نتذكر في كل خطوة نخطوها . وبذلك يدرس علم النفس الهندسي الطبي باهتمام شديد « السمعة » للانسان بوصفه قناة معلوماتة وقناة اتصال وايضا لتحديد وتنمية المواهب المهنية لدى الانسان ورفع مستواها الى مستوى متطلبات التكنولوجية العصرية المتزايدة .

وفي الابحاث التجريبية وعلى مدى واسع يجري في هذا المجال وتقدم للانسان عدة مسائل متزايدة الصعوبة . ويقوم العلماء بعد ذلك ، وبواسطة اجهزة خاصة ، بتحديد ما يسمونه « معامل التقدم » اي القدرة على تنمية المواهب ، وتساعد هذه الطريقة على معرفة ما اذا كان الانسان يستطيع أن يعمل في اية مهنة من المهن التي تتطلب رد فعل دقيق وسرعة بديهية ، وضبط اعصاب واسترشاد في المواقف غير المتوقعة ، وفحص العاملين قبل توزيعهم على الورش والتخصصات والمناصب . ويحدد العلماء الخصائص الفكرية لكل شخص وقدرته على تنميتها . وهذا يساعد على معرفة العمل الذي يناسب كل انسان ، ويحول دون تضييع الوقت والجهود في تعليمه عملا يناسبه او حرفة لا تتفق مع استعداداته . وبفضل تطور علم البيونيكا يقوم العلماء بوضع علاقات جديدة اكثر ارتباطا بين الانسان والآلة .

وعلم البيونيكا هو علم يدرس استخدام المعطيات والمناهج البيولوجية لحل المسائل الهندسية الحيوية . ويمكن تعريف علم البيونيكا ايضا بانه نظرية مناهج اقامة النظم التكنيكية التي تقترب مواصفاتها من مواصفات الاجسام الحية . ويأخذ هذا العلم تسمية من الكلمة الاغريقية « بيون » اي « خلية حية » . وكم من ابحاث تجري في ميدان علم البيونيكا ! ان العلماء يبحثون بجهد عن وسائل بيولوجية للوقاية من الاشعة الخطرة ويأملون ان يتمكنوا من بناء مرشحات حية لتنقية الماء والتربة من النشاط الاشعاعي .

* مكافحة التلوث والاضرار الصناعية :

في المجتمعات الصناعية والمجتمعات المجاورة، نجد الهواء يحتوي على أدخنة كثيرة . وكما ان مياه الانهار تحتوي على مركبات كيميائية ، حتى البحر يحتوي على البترول اي متلوث بالبترول ... الخ ، وهذا ما يسمى بتلوث الهواء والماء والبحر والاضرار التي تعود من هذا التلوث تسيء الى الصحة العامة للانسان . فتجري مباحثات عديدة في نطاق مكافحة التلوث والاضرار الصناعية ومكافحة الضوضاء . في الوقت الحاضر يجري بناء شكل جديد لجدار من الاسمنت ضد الضوضاء وذلك على الطرق السريعة والمزدحمة والتي تكثر فيها الضوضاء بشكل خاص . فالمكن تحقيق ستار مصنوع من الزجاج والالمونيوم وهو يندمج تماما مع الموقع كما يتشرب نسبة كبيرة من الارتجاجات التي تحدثها السيارات مما يخفف قليلا من ازعاج السكان المجاورين لهذا الطريق المزدحم .

اما التصنيع والتلوث البيئي فهما عنصران متلازمان تتناسب العلاقة بينهما تناسبا طرديا فكلما ازداد التصنيع ازداد التلوث البيئي معه بما قد يؤثر على الصحة العامة وعلى نوع الحياة . في نطاق المعرض الدولي لتكنولوجيا الآلات لمكافحة التلوث والاضرار الصناعية والذي اقيم بين ٧ ، ١١ ديسمبر عام ١٩٧٦ في باريس وذلك برعاية ومساهمة وزارة نوع الحياة .

قدم هذا المعرض الدولي الاول لمقاومة التلوث والاضرار الصناعية المعدات والمنتجات والوسائل والخدمات المقررة لفنون الهواء والماء والضجيج والنفايات الصناعية ونفايا المدن ومكافحة التلوث والاضرار . حيث ان هناك نصوصا تشريعية عديدة تلزم كل من يسبب التلوث على استخدام تجهيزات لمكافحة التلوث والاضرار . تحققت أخيرا دراسات لحساب اللجنة الاقتصادية الاوروبية في بروكسل ، افادت ان اسواق صناعة مكافحة التلوث ستعرف تطورا بمعدل ١٤ في المائة في السنة حتى عام ١٩٨٠ . سترتفع هذه النسبة الى

١٥٪ في السنة فيما يتعلق بمعالجة المياه الصناعية ، كما ستبلغ ٥ر٩٪ بالنسبة لتنقية الهواء . اما ميدان ادوات القياس ومراقبة التلوث الجوى فسيزيد بشكل اكيد حوالى ٢٥٪ في السنة وذلك حتى عام ١٩٨٠ . اما فيما يتعلق باجهزة العزل الحرارى ، اجهزة الحماية ضد اى تغير في درجات الحرارة ستقارب الزيادة السنوية حتى عام ١٩٨٠ ، ١٥٪ ، بينما سيزيد بيع آلات القياس بمعدل ٢٥٪ . بامكان قطاع جمع النفايا والقضاء عليها ، سواء كانت تتعلق بالنفايا المنزلية او الصناعية ، بامكانه ان يعرف زيادة بيع الادوات والمعدات بمعدل ٢٠ في المائة في السنة ، وذلك بسبب بدء تطبيق قانون النفايا الصادر في يوليو عام ١٩٧٥ .

اليوم يوسعنان نقول اننا نشهد اليوم ميلاد مجال طبى جديد حيث تقترن بمه كلمات التكنولوجيا بمدلولها العلمى جنبا الى جنب مع هذا المجال وسلم هذا المجال الطبي الذى يعد من اقدم العلوم ، والتي ولدت كعلم وصفى وتجريبى ، باحثت الوسائل في رسالة العلوم ، الا وهى طرق التحليل السليمة ، والتفكير الذهنى والحساب الدقيق . ولقد حطمت التكنولوجيا الحديثة الخرافات القديمة والشعوذة والقيم البالية في المجال الطبى . واصبح تقدم العلماء المؤشر الذى يوضح اتجاه الانسان الحديث . . . وبفضل قدرة العقل الانسانى المعاصر الخارقة والمجددة وبفضل ما اصبح يملك من مقومات وقدرات على التطور وبفضل ما خلقه وسيحققه من تقدم تكنولوجى . . وبفضل الاكتشافات ذات المستقبل الكبير في البيولوجيا الجزئية وفي الكيمياء الحيوية والعضوية والفيزياء الحيوية والفيزياء النووية والاشعاعية وعلم الخلايا وعلم الوراثة، وبفضل ظهور اتجاهات جديدة فيها وغير متوقعة مثل الاحصاء البيولوجى والرياضيات البيولوجية ونظرية النظم . فوجدنا وتحققنا ان التكنولوجيا المعاصرة الآن قد دخلت بالفعل في المجال الطبى بشتى فروعه ، والاستخدامات الطبية للاجهزة الصوتية وغيرها فالعقل هو الطريق للايمان . . . ونحن نقبل على الايمان بعقولنا . . وان التقدم امر لا يمكن الرجوع عنه ، ولا يمكن ايقافه لان العقل دائم البحث والاكتشاف والابتكار . وبجانب هذا العرض أود ان اكرر اهتمامى والتركيز بالنهوض بالارتقاء الفكرى والثقافى (السمو الفكرى ـ الآثار الثقافية) في العالم العربى والرتفع به الرياسى مكانة والاهتمام ايضا بانماء ملكاتنا العقلية وتعميق ثقافاتنا حيث انها تقدم لنا قوة فكرية تقدمية في جو مكيف المناخ . كما يسمح الارتقاء الفكرى والثقافى للطفل بتعليم ما لا يستطيع ان يتعلمه في الكتب، وبالتالى فان مهمتنا هى دراسة ما يمكن ان تقدمه الآثار الثقافية للعلم والتكنولوجيا ومع دولة العلم والايمان ومزودا بطاقة الاصالة الحضارية التى تملكها الامة العربية .

* * *

المراجع العلمية

- الموسوعة الصغيرة في علم السيبرنتيكا ـ فيكتور بيكليس

١ ـ اسس الالكترونيات ـ ا.جيرينسوف

٢ ـ l'ASSOCIATION POUR LA DIFFUSION DE LA PENSEE FRANCAISE

٤ ـ مؤتمر امراض الاذن والانف والحلق ـ تولوز ـ مدينة المياه المعدنية بفرنسا سنة ١٩٧٦ .

٥ ـ المؤتمر الثالث والسبعون الفرنسي لامراض الاذن والانف والحلق والرقبة ـ باريس كلية الطب بيير ـ سبتمبر سنة ١٩٧٦ .

٦ ـ فوائد العلاج بالمياه المعدنية ـ الاستاذ شارل دوبريه ـ فيشي فرنسا ـ مختبر المياه التابع لمستشفى بيشا .

٧ ـ A New Freezing - Ultramicrotome
H. Moor' Ph.D, K. Muhlethaler, Ph.D., H. Waldner,
A. Frey. - Wyssling, Ph.D.
The Journal of Biophysical and Biochemical
Cytology, 1961, Vol. 10, No. 1

٨ ـ Dijon - France 6e Congrès de la Société européenne de neuroradiologie
„Etude radiologique des Vaisseaux anormaux dans les tumeurs cérébrales'' Sept. 1976.

٩ ـ l' exposition „Bioexpo 75'' (l'électronique au service du malade) BNF n. 1327 du 8-12 75

١٠ ـ الايام الوطنية لعلم الانسجة ـ باريس ـ ١٢ ـ ١٥ فبراير/١٩٧٦ بمستشفى امراض الاطفال .

١١ ـ الانسان والآلة ـ فرنسا ـ ليون ـ ١٠ ـ ١١ نوفمبر/١٩٧٦ .

١٢ ـ المؤتمر الدولي الجمعية امراض القلب الفرنسية ـ ٦ ـ ٨ ديسمبر ١٩٧٦ باريس ٧٩،٩٨ .

١٣ ـ المؤتمر الفرنسي للجراحة ـ معالجة سرطان الثدي ـ باريس ١٩٧٦ .

١٤ ـ Le Professeur charles Gros, MM. Quenneville et Gautherie, Chercheurs à l'institut National de la Santé et de la Recherche Médicale de Strasbourg France 1976.

١٥ ـ Charles Gros: Fondateur de l'école de "Sénologie" strasbourg - France.

١٦ ـ Professeur Debesse, l'Hospital Henri - Mondor de Créteil - Paris - France.

١٧ ـ P.W.R. BEAUMONT, JOURNAL OF MATERIALS SCIENCE SEPTEMBER 1977 p. 1485 part 1

١٨ ـ P.W.R. BEAUMONT AND B. L. PLUMPTON
JOURANL OF MATERIALS SCIENCE SEPTEMBER 1977 p. 1853 part 2.

١٩ ـ ROBERT FRANK, DIRECTEUR DE l'ECOLE DE
CHIRURGIE DENTAIRE à STRASBOURG, FRANCE.

٢٠ ـ التغيرات الحادثة في تركيب ودرجة نفاذية الصماغ الخاص بالثلة الجلد بعد تعرضه للعوامل الكيميائية والمواد المطهرة ـ رسالة دكتوراه ١٩٧٧ جامعة القاهرة ـ كلية طب الاسنان .

اشرف على الرسالة الدكتورة سلسبيل محمد محمود ابراهيم الاستاذ المساعد بكلية طب الاسنان ـ جامعة القاهرة ـ والدكتور مصطفى كمال محمد المدرس بكلية العلوم جامعة المنصورة .. وصاحبة الرسالة السيدة الطبيبة سلمى حسن العشري .

٢١ ـ Le Professeur Hannoun l'Institut Pasteur - 25ᵉ Journees Pharmaceutiques internationales - Paris 1975.

٢٢ ـ الذكرى العاشرة لتأسيس المؤسسة الوطنية للصحة والبحث العلمي ـ ١٩٧٥ ـ فرنسا .

٢٣ ـ مؤتمر امراض الكبد لدى الاطفال ـ باريس ١٩٧٥ .

٢٤ ـ اجتماع المركز الوطني لتنسيق الدراسات والابحاث الغذائية باريس ـ ١٩٧٥ .

٢٥ ـ مؤسسة تعليم الغذاء ـ مؤتمر لدراسة موضوع القضايا المرتبطة بالصحة الغذائية لسائق السيارة ـ كلية الطب ـ باريس ١٩٧٤ .

٢٦ ـ ايام الجمعية الفرنسية الوطنية للطب مقابل الوسيوما بمدينة تور ـ ١٩٧٦ .

٢٧ ـ Tables rondes - les Entretiens de Bichat :
CHU Pitié - Salpêtrière, 105, Boulevard de l'Hôpital, 75013 Paris 0 Septembre et Octobre 1976.

٢٨ ـ مؤتمر علماء الاتصالات الكهربائية السوق العربية في باريس يوليو ـ ١٩٧٥

٢٩ ـ Groupe d'etudes de la fatigue - Docteur Pierre Bargani, 2, Square du Croisice - 75015 Paris

٣٠ ـ La 2ᵉ Semaine internationale de l'Environnement du 7 au 11 decembre - Paris - 1976.

٣١ ـ التكنولوجيا الحديثة في المجال الطبي للتنمية وبناء المجتمع لعام ٢٠٠٠/١٩٧٧ لسنة ١٧ العدد ٥٥٦ ـ جريدة الشباب العربي ـ مصر . الدكتور مصطفى كمال محمد .

٣٢ ـ Journees Pharmaceutiques internationales de Paris (26ᵉ Journes Pharmaceutiques, Francaises) "Le Pharmacien et le 3ᵉ âge" Paris Sep. 1976.

٣٣ ـ 73ᵉ Congres Francais d'oto - rhino laryngologie et de pathologie cervicofaciale. Paris Sept. 1976.

٣٤ ـ 22ᵉ Réunion européene d'information en Epileptologie et en Electroencephalographie Marseille France Sept. 1976.

٣٥ ـ 5ᵉ Congres international de médecine Psychosomatique - société francaise de psychosomatique "La place de corps dans la relation PSYCHOSOMATIQUE et Médicale. Paris - sept - 1976

٣٦ ـ Colloque "Biomedica" 11" - TRIA "Homme/machine" Toulouse - France Novembre 1976.

٣٧ ـ Congres international de l'Association dentaire Francaise - Decembre - 1976.

٣٨ ـ Journées nationales de radiologie novembre - Paris - 1976.

٣٩ ـ Dr. Coucuzou Jacques Specialisé en Urologie, Academie de Montpellier, France.

الدافعية بين التنظير والنمذجة

دراسة تحليلية مقارنة

طلعت منصور *

لعبت الدافعية دورا متعاظم الاهمية في نظريات علم نفس القرن العشرين ، فمفاهيم وفروض الدافعية تؤلف اجزاء متكاملة مع الكثير من نظريات علم النفس بعامة ، والتعلم والشخصية بخاصة ، كذلك شهدت العقود الثلاثة الاخيرة من هذا القرن بناء نظريات الدافعية اكثر تخصصا . وارتبط هذا الحركة بطبيعة الحال بتزايد مقدار النشاط التجريبي ارتباطا بمتطلبات العصر الخاصة بتحقيق الاداء الافضل والتوظيف الامثل لامكانات الفرد وطاقاته النفسية . ومن هنا ، كان الاهتمام المتزايد بعلم النفس الدافعي (Motivational Psychology) او بعلم الدافعية (Motivology)(1)

والتصور الدافعية – كما يقرر « بول توماس يونج » (١٩٦١) – على انها مصطلح عام «لكل

(*) دكتور طلعت منصور مدرس الصحة النفسية بكلية التربية جامعة عين شمس . اسهم ببحوث منشورة في بعض الاصدارات الدولية . عضو الجمعية المصرية للدراسات النفسية ، والمجمع العربي للثقافة النفسية ، والجمعية الامريكية للتقدم والعلوم .

(١) مصطلح اقترحه « ر. بي. ووديورث » (١٩١٨) .

محددات السلوك » ، يتطلب منا في هذه الدراسة ان نضع في الاعتبار تلك النظريات التي تتضمن مصطلحات اساسية مثل الدافعية الدافع ، الحافز ، الحاجة ، الغريزة ، القوة الباعث ، القيمة الذاتية ، وغير ذلك . ونرجو ان نكون قد وفقنا في انتقاء تلك النظريات التي اثرت في البحث السيكولوجي وفي تطور التصورات النظرية ابان العقود الثلاثة او الاربعة الاخيرة (٢) .

وهدفنا الا نقدم اهم نظريات الدافعية واحدة تلو الاخرى ، ولكن ان نعرض لنتائج الدراسة المقارنة لنظريات الدافعية وفقا للموضوعات التالية :

١ ـ تطور التنظير في الدافعية .

٢ ـ مفاهيم الدافعية

٣ ـ نمذجة الدافعية .

(١) تطور التنظير في الدافعية

لقد قيل عن علم النفس ، كما يقول « ابنجهاوس » ، ان « له ماضيا طويلا ولكن تاريخا قصيرا » . ولعل هذا يصدق بصفة خاصة على سيكولوجية الدافعية . فقد شكلت فروض ومفاهيم الدافعية جزءا هاما من التصورات الفلسفية والسيكولوجية خلال تاريخها الطويل اعتبارا من فلاسفة الاغريق . لكن الكتاب الاول الذي تكرس تماما للدافعية قد ظهر في عام ١٩٣٦ (يونج - ١٩٣٦) ، ولم تظهر المراجع الاولى التي تغطي ميدان علم النفس الدافعي الا في العقد الاخير . كتب المرجع الاول عالم فذ آخر هو (وودورث ١٩٥٨) ، ثم تبعه آخرون ، بتفرا (١٩٥٩) ، مادسن (١٩٥٩) ، هول (١٩٦١) ، براون (١٩٦١) ، يونج (١٩٦١) ، رظبنجتسافر (١٩٦٣) ، اتكنسون (١٩٦٤) ، كوفر وآبلر (١٩٦٤) ، توماى (١٩٦٥) ، بولز (١٩٦٧) وغيرهم . وقد ظهر اول مسح للميدان في الكتاب السنوي لعلم النفس المعروف بـ Annual Review of Psychology في عام ١٩٥٢ ، وكتبه « ماورر » .

كان ميلاد علم النفس كعلم مستقل نتاج « التهجين » بين الفلسفة والفسيولوجيا التجريبية . وفي علم النفس التجريبي « الكلاسيكي » هذا ، الذي نشأ على ايدي فخنر وفونت وابنجهاوس وغيرهم من السيكولوجيين الالمان ، لم يكن ثمة مجال او استخدام للمفاهيم او الفروض الدافعية . ويمكن ان نعزى اسباب هذه الحقيقة التاريخية الى ان السيكولوجيين التجريبيين الكلاسيكيين قد استأثرتهم دراسة العمليات المعرفية ـ خاصة الاحساس والادراك ـ كما تملكتهم الطريقة الاستبطانية في هذا الصدد . وفي نفس الوقت كان هناك اتجاه مناقض آخر في البلاد الانجلو ـ سكسونية .

سيكلوجيا وابثولوجيا القرار : في الوقت الذي كان فيه علم النفس التجريبي آخذا في النمو في المانيا ، كانت هناك ثورة علمية ذات دلالة بالغة تتقدم في انجلترا بنشر « دارون » لكتابه « اصل الانواع » (١٨٥٩) ، وهو الكتاب الذي اثر في علم النفس تأثيرا بالغ العمق . لقد جعلت نظرية دارون عن التطور البيولوجي في الامكان تفسير السلوك الانساني بتطبيق المبادىء ذاتها التي طالما استخدمت في تفسير سلوك الحيوان . ومنذ فجر التاريخ

(٢) يمكن الرجوع ، لمن يريد معلومات اعمق واوسع عن نظريات الدافعية ، الى الدراسات المسحية لمجموعة من العلماء البارزين في هذا الميدان ، مثل : اتكنسون (١٩٦٣) ، بولز (١٩٦٧) ، توماى (١٩٦٥) ، ميلجارد (١٩٦٣) ، كوفر وآبلر (١٩٦٤) ، كيش (١٩٥٩) ، مادسن (١٩٥٩) ، يونج (١٩٦١) ، بالاضافة الى المصدر البالغ القيمة

Jones, M.R. (ed.) Nebraska symposium on motivation. Lincoln : Nebraska Univ. Press, 1953-1963.

كان المفهوم الاساسي المستخدم في تفسير سلوك الحيوان هو « الغريزة » للاشارة الى « القوى الدافعة » وكذلك « الميكانزمات المحركة » في سلوك الحيوان. وقد سار ايضا مفهوم الغريزة بعد نشر نظرية داروين ، شائعا بين علماء النفس ، خاصة في الدول الانجلو سكسونية. فلقد قدم وليم جيمس ، وهو اول عالم نفس امريكي ذي شأن كبير ، غرائز متعددة لتفسير السلوك الانساني ، لكن موازية لمفاهيم تفسيرية اخرى مثل « العادات » و « الانفعالات » و « الارادة » .

كان وليم ما كدوجل (١٩٠٨) ، عالم النفس الانجليزي ـ الامريكي ، هو الذي اشتهر « الغريزة » على انها مفهوم اساسي في تفسير السلوك الانساني ، وجوهر نظريته محاولة لاقامة علم النفس استنادا الى مبادىء التطور . وفي كتابه « مقدمة في علم النفس الاجتماعي » ، الذي كان له تأثير بالغ على الفكر السيكولوجي بحيث صدرت منه اكثر من الثلاثين طبعة منذ نشره في عام ١٩٠٨ ، يعرف « الغريزة » على النحو التالي :

« يمكن ان تعرف الغريزة ، اذن ، على انها استعداد نفسي ـ جسمي موروث او فطري ، تهيء صاحبها الى ان يدرك وينتبه الى موضوعات من فئة معينة ، وان يخبر استثارة انفعالية من نوع معين عندما يدرك ذلك الشيء ، وان يسلك وفقا لها بطريقة معينة ؛ او ، على الاقل ، ان يخبر اندفاعا نحو ذلك السلوك » (ص ٢٥) .

وفي نظريته عن الغرائز ، يقابل ماكدوجل الغريزة بانفعال معين ، مؤكدا بذلك تأثره بالتوازية Parallelism كاتجاه مسيطر على علماء النفس في هذه المرحلة المبكرة من تاريخه ؛ ومن ثم فهو يربط بين قائمة الغرائز وما يوازيها من انفعالات معينة ، مثل غريزة المقاتلة ـ انفعال الغضب ؛ غريزة حب الاستطلاع ـ انفعال التعجب ؛ غريزة الهرب ـ انفعال الخوف ؛ الغريزة الاجتماعية ـ انفعال الميل للتجمع ؛ غريزة السيطرة ـ انفعال الزهو ؛ الغريزة الوالدية ـ انفعال العطف والحنان ؛ وغير ذلك من الغرائز .

ويتضح من التعريف السابق ان « الغريزة » في نظرية ما كدوجل مصطلح تفسيري حصري يتضمن :

(أ) المكونات المعرفية التوجيهية (« ان يدرك » : « ان ينتبه الى ») .

(ب) وكذلك المكونات التنشيطية الديناميكية (« الاستثارة الانفعالية ») : « ان يخبر » (الدافع » « ان يسلك ») . وتصور ماكدوجل للغرائز على هذا النحو ، يعني في نفس الوقت انها مصدر لنظام الدوافع . وان تتحدد هذه الوظائف التوجيهية والديناميكية باستعدادوراثي يعني مفهوم الغريزة عند ماكدوجل مفهوما تفسيريا زائفا Pseudoexplanatory concept لطبيعة خاصة ، وانه لم يقاوم غواية استخدامه لغرائز كثيرة للغاية . لقد قدم في كتابه (١٩٠٨) فقط اثنتي عشرة غريزة ، ثم اوصل هذا العدد فيما بعد الى اربع عشرة غريزة لتنتهي بما يعرف بالثمانية عشر ميلا فطريا Propensities ؛ وهذا التحول في المصطلح كان نتيجة الجدل النقدي الطويل الذي شغل علماء النفس في العشرينات من هذا القرن ، وبتمركز ما يعرف بالجدل حول الغريزة في عالم النفس « جون واطسون » ، الذي ادرك ـ وغيره من السلوكيين ـ الخاصية التفسيرية الكاذبة لمفهوم الغريزة بعد ما صار من الواضح ان الكثير من علماء النفس والانثروبولوجيا كان يلجأ الى ابتداع غرائز جديدة في كل مرة يحتاجون فيها الى مفهوم تفسيري للظاهرات التي يدرسونها ، وقد استبقى ماكدوجل في مفهومه عن الميل الفطري Propensity concept فقط تلك المكونات الاكثر ديناميه

لمفهومه السابق عن الغريزة ، كما يتضح من التعريف التالي :

« الميل الفطري استعداد ، وحدة وظيفية لتنظيم الكلي العقل . وهو استعداد ، حينما يستثار ، يخلق ميلا نشطا ، سعيا ، اندفاعا ، أو حافزا نحو هدف معين » (١٩٣٢ : ص ١١٨) .

ويحدد مصطلح الغريزة فيما بعد على النحو التالي :

« الغريزة هي ذلك الجانب الخاص من تنظيم الكائن الحي (وحدة وظيفية) يعبر عن نفسه في التتابع للأداء الغريزي (ص ٤٩) .

بهذا التعريف الأخير للغريزة يكون ماكدوجل أكثر اتفاقا مع استخدام المصطلح لدى علماء الإيثولوجيا المحدثين الذين حلوا المفهوم القديم للغريزة ، وهو مفهوم عسير غامض ، إلى عناصر متعددة تحمل معاني محددة أكثر .

يعتبر « ك . لورنز » مؤسس علم « الإيثولوجيا » (Ethology) (٢) بينما يعتبر « ن . تنبرجن » منظره المنهجي . ويلخص « تنبرجن » نظرته عن الغريزة في هذا التعريف :

« سوف أعرف الغريزة بطريقة اختبارية على أنها ميكانزم عصبي منظم بطريقة متدرجة هرميا ، مستهدف لجوانب معينة مهيأة للاستثارة (Priming) يطلق ويوجه بالاندفاعات (impulses) ذات الأصل الداخلي وكذلك الخارجية ، ويستجيب لهذه الاندفاعات بواسطة حركات متسقة تسهم في بقاء الفرد والنوع (١٩٥١ ، ص ١١٢) .

يعرف « تنبرجن » الغريزة ، كما يوضح هذا الاشتقاق على أنها ميكانزم يتنشط بالاندفاعات التي تعرف في موضع آخر كما يلي :

« يحدد تأثير هذه العوامل الخارجية الدافعية لدى الحيوان ، التنشيط والاستثارة لغرائزه » (ص ٥٧) .

هذا الفارق بين الميكانزم والدافعية يوجد أيضا في النظريات الأخرى التي نمت في هذا القرن موازية لنظريات « الإيثولوجية » .

ورغم ما لتعريفات الغرائز من آثار عميقة على علم النفس ، إلا أن مصطلح « غريزة » قد استخدم بمعاني مختلفة . فإذا كان التعريف التقليدي للغريزة كنموذج منظم ومركب للسلوك يميز النوع الواحد في موقف معين كنموذج غير متعلم ، وغير مرن بدرجة أو بأخرى ، فإن الغرائز المحددة على هذا النحو غير موجودة بين الكائنات الإنسانية ، ولم تصح أي غريزة علميا . ففي الكائنات الإنسانية تتأثر كل النماذج المركبة للسلوك بالتعلم ، بل حتى لدى الحيوانات الدنيا ، يتأثر النشاط الغريزي بالبيئة .

---

(٢) يشيع تحديد « الإيثولوجية » على أساس وصفه فرلانك »

Verplank, W.S. (1957) A glossary of some terms used in the objective science of behavior. Psychol. Rev. 64, No. 6, Part 2, pp. 1-42.

العلوم السلوكية الوصفية ، التي يحدد فيها العالم الإيثولوجي على أنه « .. عالم سلوكي يتلقى تدريبه في علم الحيوانات ، ويدرس عادة سلوك الحشرات والأسماك والطيور أكثر غالبا مما يدرس الثدييات والمجموعات الأخرى ... إنه دارس السلوك المقارن .. عالم سلوكي يحب حيواناته (ص ١٤) . أما السلوكي فهو : « ذلك العالم الذي يبحث في سلوك الحيوانات بطريقة موضوعية والذي يحاول بملاحظاته عنها في نظام نظري لا يتضمن مفاهيم مستمدة من الاستبطان والفلسفة العقلية » (ص ٦) .

وتوازى نظام القرائز عند ماكدوجل مع نظام العواطف بتطوى على اثر الخبرة والتعلم على السلوك الغريزى ، وان كان ماكدوجل لم ينتبه الى ذلك . يطلق « ج . ميرق » (١٩٤٧) على ذلك عملية الجدولة canalization

فالدوافع الاساسية لا تبدى بنمط غريزى محض ، ولكن مختلطة ومتداخلة مع التجربة والتعلم . واذ اقفل ما كدوجل ما تتصف به الدوافع وما يعتريها من تبدل وتحول ، على فرويد بهذا الجانب المميز للدافعية لينتهى الى ان علم النفس مطالب ، ليس برد الافعال الى مصادرها الغريزية ، وانما بالكشف عن هذه التغيرية في الحالات الدافعية .

فما جرى من اعتباره سلوكا قائما على الغريزة والفطرة والتكوين البيولوجى للنوع ، لم يكن منعزلا عن آثار الخبرة والتعلم . وتلك حقيقة ايدتها دراسات متعددة .

مثال ذلك ، فى حالة حرمان الكائن الحى من الطعام لفترة طويلة ، تحدث عدة تغيرات جسمية :

(١) انقباضات معدية .

(٢) تناقص معدل السكر فى الدم .

(٣) تزايد نشاط الجهاز العصبى المركزى

ويشيع الاعتقاد خطأ بأن الجوع يتسبب عن الانقباضات المعدية . لكن يصف بعض الباحثين مريضا خضع لعملية استئصال للمعدة gastrectomy ، الا انه كان يقرر بعدها انه يشعر كالعادة باحساسات الجوع (والجستين ، كارلسون ، ١٩٢١) . واستجابت الفيران ، التى تعرضت لاستئصال المعدة ، للحرمان من الطعام بنفس « سلوك الجوع » مثل فيران المجموعة الضابطة التى لم تخضع للاستئصال (تسانج ، ١٩٢٨) . هذه النتائج قد ايدتها بحوث (باش ، ١٩٣٩ ، مورجان ومورجان ، ١٩٤٠) الذين وجدوا ، بعد قطع الاعصاب من المعدة الى المخ ، ان مفحوصيهم كانوا يستجيبون كما لو كانوا فى حالة من الجوع . اى ان الانقباضات المعدية ليست حدثا داخليا ضروريا لدافع الجوع ، لكنها احد التغيرات العديدة التى عادة ما تتضافر لاحداث الجوع .

وتوضح البيئة التجريبية ان تأثيرات الجوع على السلوك تتغير مع الخبرة بدرجة كبيرة . ولذا ، حينما اخضعت الفيران لجدول منظم من الحرمان مع اطعامها فى نهاية كل فترة من الحرمان ، وجد انها - بعد عدة مرات قليلة - اخذت تتناول كمية ثابتة من الطعام فى كل مرة ، بدلا من التهام اكبر قدر ممكن من الطعام وتبين احدى هذه البحوث (لاورنس ، ماسون ، ١٩٥٥) انه اذا ارتبطت فترة الاطعام التجريبية مع الفترة المعتادة لتناول الطعام ، فان الحيوانات سوف تأكل اكثر مما لو كان الاطعام غير مرتبط بالفترات المنتظمة لتناول الطعام .

وهكذا ، توضح حقائق علم النفس الفسيولوجى Psychophysiology والمقارن Comparative Psychology ، ابتداء من دراسات بافلوف الشهيرة ودراسات التعلم الحيوانى ، **ان الكثير من جوانب السلوك التى تبدو انها تعتمد على الجذع البيولوجى يمكن ان تستدعى بالمثيرات الخارجية المرتبطة بالهدف فبعض هذه الجوانب فطرى ، والبعض الآخر متعلم ، وكثيرا ما تتداخل فى علاقات متشابكة مع نظام الدوافع .**

وبالنسبة للانسان ، ثمة فارق كبير بين وجهة النظر التى تذهب الى ان الحاجات الاجتماعية لدى الانسان ، وكذلك حاجاته الجسمية ، جزء من الطبيعة الوراثية للنوع الانسانى ، ووجهة النظر التى تذهب الى ان الحاجات الاجتماعية متعلمة من الثقافة التى نشأ فيها وانه حتى اشباع حاجاته الجسمية

يتأثر بثقافته بدرجة واضحة. ولعل **الدراسات الانثروبولوجية** قد أوضحت أن ما يقرره بعض العلماء من وجود غرائز معينة لا توجد في بيئات أخرى كالثقافات البدائية مثلاً ومن ثم لا يوجد اتفاق على نوع الغرائز وعددها ، وبالتالي يبدى بعض الباحثين ميلاً الى رفض نظرية الغرائز .

ويفضل بعض العلماء المحدثين عدم نبذ مفهوم الغريزة ، بل أن يعدلوا من التعريف . فعلى سبيل المثال ، يذهب « ايزنك » الى ما يسميه بـ « الحاجات المتغرزة » instinctoid needs وهي حاجات ذات أساس غريزي ، ولكن الطريقة التى تشبع بها تعتمد على التعلم بدرجة كبيرة .

في الحقيقة ، بدلاً من تغيير تعريف الغريزة وإضافة مزيد من الالتباس الى هذا المفهوم النظري ، من الأفضل نبذ هذا المصطلح كما يتعلق بالسلوك الانساني . فالتفكير في ضوء هذه « الثنائية » بين الغريزة والتعلم يؤدي بنا الى نفس المنطق القلق الذى أعاق التقدم لفترة طويلة في قضية الوراثة/البيئة بالنسبة للذكاء .

ولعل من الأجدى أن يكون تفكيرنا في ضوء التركيب الوراثي للكائن الحي في تفاعله مع بيئته وثقافته . وهنا نؤكد الأهمية البالغة لطبيعة التركيب الوراثي . فالقطة ، مثلاً ، ترث نوع التركيب الذى يعززها لنشاط معينة وفي نفس الوقت يحدد ما تستطيع أن تفعله (أن تمسك الفأر ، وتتسلق الشجرة) لكنها لا تستطيع أن تتكلم أو تقرأ كتاباً) . والكائنات الانسانية ترث نوع التركيب الذي يمكنها من أن تمشي ، ومن أن تسوق السيارة ، ومن أن تتصل بالآخرين عن طريق الرموز والكلمات والمعاني ، ومن أن تخطط للمستقبل . لكنها لا تستطيع أن تنمو طولا الى خمسين قدما ، أو أن تعيش على الحشائش ، أو أن تحل المشكلات التي تتعدى حدودها .

فسلوك الكائنات الحية يتحدد بطبيعة التركيب الوراثي والبيئة التي تعيش فيها ، ومن ثم ، فان وصف ذلك السلوك على أنه سلوك غريزي أو متعلم يعتبر تبسيطاً زائداً .

• • •

في الوقت الذي خرج فيه ماكدوجل بنظرية الغرائز ، ظهر اتجاهان آخران في علم النفس ، تأثرا بداروين أكثر من تأثرهما بفونت . ويمثل هذان الاتجاهان النمو الجنيني لنظامين جديدين في علم النفس :

(١) سيكولوجية التعلم أو الـ Mathanology [1] ، وهو المنحى البيولوجي (Biotropic) لعلم النفس الدافعي الذي جرى داخل علم النفس الفسيولوجي وسيكولوجية التعلم .

(٢) سيكولوجية الشخصية أو « علم الشخصية » (Personology) (*) ، وهو المنحى الاجتماعي (Sociotropic) لعلم النفس الدافعي الذى جرى داخل سيكولوجية الشخصية . وما حدث بين هذين المنحيين من تفاعل يتضح من شكل (١) .

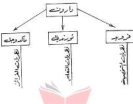
ولا يزال علم النفس الدافعي يرتبط بقوة بهذين الميدانين . كما أن الكثير من التصورات والفروض المعاصرة عن الدافعية يمكن فهمها

---

(١) هذا المصطلح مأخوذ من اقتراح قدمه «كلايد نوبل»
(Clyde E. Noble), Contemporary Psychology, 1968, 13, p. 10.

(*) مصطلح اقترحه « هـ . موراي » (١٩٣٨) .

شكل (١)



فحسب ارتباطا بهذه الخلفية الداروينية ، كما يتضح من شكل (١) :

النحى البيولوجى لعلم النفس الدافعى : سيكولوجية التعلم وعلم النفس الفسيولوجى :

بتأثير الداروينية نما الاهتمام بالتعلم الحيوانى فى أواخر القرن التاسع عشر . ومن بين من استلهم بنظرية التطور عالم النفس الامريكى « ادوارد لى ثورنديك » ، الذى كان الرائد العظيم فى خلق علم نفس تجريبى للتعلم . فى عام ١٨٩٨ نشر تجاربه المشهورة على القطط فى صندوق ــ متاهة ، ووصف التعلم « كمحاولة وخطأ » أو « تعلما انتقائيا » (Selective Learning) ولكى يفسر التعلم اقترح عدة قوانين ، من بينها القانون المشهور المعروف بـ « **قانون الأثر** » :

« من بين الاستجابات العديدة لنفس الموقف فإن تلك التى تصاحب أو تتبع تماما بارضاء للحيوان ، مع بقاء الأشياء الأخرى متعادلة ، سوف ترتبط بدرجة أوثق بالموقف ، بحيث أنها حينما تعاود الوقوع فستكون أكثر احتمالا للوقوع ؛ أما تلك التى تصاحب أو تتبع بعدم ارتياح للحيوان ، مع بقاء الأشياء الأخرى متعادلة ، تضعف روابطها بالموقف ، بحيث أنها حينما تعاود الوقوع ، تكون أقل احتمالا للوقوع . فبقدر ما يكون الإرضاء أو عدم الارتياح ، تكون قوة أو ضعف الرابطة » (١٨٩٨ ، ١٩١١) .

وقد جعل « قانون الأثر » هذا من التدعيم الموضوع الرئيسى فى سيكولوجية التعلم لثلث قرن . بتقديم مفاهيم « الإرضاء » أو « الاشباع » Satisfaction « وعدم الارتياح » discomfort كمدعمات ايجابية وسلبية ، جعل ثورنديك من المتغيرات الدافعية العوامل الأكثر أهمية فى سيكولوجية التعلم . متضمنا سار خفض الدافعية (الإرضاء) وعدم الخفض الدافعية (عدم الارتياح) الشروط الأكثر أهمية للتعلم (خاصة فى أعمال ثورنديك بعد عام ١٩٢٦) .

وقد استخدم ثورنديك المصطلح الشائع « الغريزة » كدلالة على المتغير الدافعي الاساسي لكن حينما احتدم « الجدل حول الغريزة » استبدل مصطلح « غريزة » في نظريات التعلم بمصطلحات اخرى للمتغيرات الدافعية الاولية مثل « الحوافز » ، « الحاجات » ، « المطالب » وغير ذلك .

وقد كان « وودورث » (١٩١٨) هو الذي قدم مصطلح « حافز » (drive) لتعيين المتغير الدينامي الذي يحرك او ينشط ميكانزمات السلوك لكن اعظم ادخال للمتغيرات الدافعية في سيكولوجية التعلم كان على يدي « ادوارد تولمان » . لقد قدم كتابه الطابع الحديث « السلوك الغرضي لدى الحيوانات والانسان » (١٩٣٢) المتغيرات الدافعية كالحوافز والمطالب على انها اكثر المحددات السلوكية او المتغيرات الوسيطة اهمية جنبا الى جنب مع المتغيرات العرفية : « استعداد الغاية ـ الوسيلة » (means and-readiness) و « التوقعات » (expectations) . لم يكن تولمان صاحب نظرية في التدعيم ، لكن الدافعية بالنسبة له ، لعبت دورا هاما كمحدد للاداء الذي يرشد او يوجه ايجابيا بالمحددات العرفية .

لم يهتم تولمان ايضا بالنمو الشكلي لنظريته ، وعمد الى تغيير مصطلحاته خلال سنوات بحثه فاذ بدأ بـ « المطالب » و « الحوافز » ، تحول الى « الحاجة » ليعود في النهاية الى « الحافز » (٦)

الآن تولمان قد ارتقى المنظر الفذ لسيكولوجية التعلم : « كلارك هل » ، الذي تمثل اعماله الرئيسية (١٩٤٣ ، ١٩٥٢) اعظم نظرية متطورة في السلوك ، في هذين الكتابين (١٩٤٣ ، ١٩٥٢) طور هل قانون الاثر عند ثورنديك الى نظرية للتدعيم ، منظمة ومحكمة . وقد استبدل في هذه النظرية ، « الارضاء » عند ثورنديك بـ « اختزال الحاجة » وفيما بعد بـ « اختزال الحافز » وحدد المصطلحين الدافعيين الهامين ، « الحاجة » و « الحافز » ، على النحو التالي :

« حينما ينشأ موقف يكون فيه الاداء من جانب الكائن الحي لازما للاحتمالية الأمثل للبقاء سواء بالنسبة للفرد او النوع ، يقال انه توجد حالة حاجة . ولما كانت الحاجة ، سواء فعلية أم كامنة ، عادة ما تسبق وتصاحب اداء الكائن الحي ، غالبا ما يقال ان الحاجة تدفع او تحفز النشاط المرتبط . وبسبب هذه الخاصية الدافعية للحاجات ، فانها تعتبر كمنتجة لحوافز حيوانية اولية » .

« ومن الاهمية بمكان ان نلاحظ في هذا الصدد ان المفهوم العام للحافز يميل بقوة الى ان يكون له الوضع المنطقي لمتغير وسيط او (ﻫ) ، لايمكن ملاحظته ابدا بطريقة مباشرة » (هل ١٩٤٣ ، ص ٥٧) .

« الحاجة » ، اذن ، متغير مستقل يحدد المتغير الوسيط « الحافز » « ف » ، الذي بدوره يتحد مع متغيرات وسيطة اخرى في تحديد السلوك .

ومن بين المتغيرات الوسيطة الاكثر اهمية ، بالاضافة الى الحافز(D)متغير دافعية ـ الباعث incentive - motivation variable (K) الذي يتحدد بمقدار ونوعية الاثابة وقو العادة م ع س . وهذه المتغيرات الوسيطة تتحد بطريقة تضعيفية في جهد استدعاء رد الفعل reaction evocation-potencial (sEr) السلوك ـ دالة (sEr) ـ دالة (Dx K x sHr)

(٦) ارجع الى الاعمال الرئيسية لتولمان (١٩٤٩ ، ١٩٥١ ، ١٩٥٩) .

لقد اثرت نظرية هل بعمق في تطور نظرية التعلم . « فبين نظريات التعلم المعاصرة يشمخ بناء هل مهيبا بروعة بنيانه ، جميلا بتناسب اجزائه ، فريدا في تناسق تفاصيله (سيد عثمان ١٩٧٤) . فمن بين زملائه وتلاميذه النجباء كان : « ك . سبنس » ، « ن . ميلر » ، « ماورر » ، « ج . براون » .

يتمثل اسهام « سبنس » في نمو مفهوم « الباعث » (incentive) بين المتغيرات الدافعية . لقد غير مفهومه من نظرية تدعيم خفض الحافز drive - reduction - reinforcement theory الى ما يعرف بقانون الاثر التجريبي Empirical Law of Effect ، الذي فيه تلعب الدافعية وخفض الدافعية فحسب دورا في الاداء ، بينما يفهم التعلم على انه اشتراط كلاسيكي يتبع « مبدأ التجاور » Contiguity principle (١٩٥٦ ، ١٩٦٠) .

اما « ميلر » ، بالتعاون مع « دولارد » فقد طبق شكلا مبسطا لنظرية هل على التعلم الاجتماعي (ميلر ، دولارد ، ١٩٤١) وعلى نظرية الشخصية والعلاج النفسي (دولارد ، ميلر ، ١٩٥٠) وبجانب ذلك ، طور نظرية شكلية من السلوك الصراعي (ميلر ، ١٩٥٩) ، واكثر المفاهيم اهمية في نظرية ميلر : «الحافز» ، « الامارة » cue ، « الاثابة reward » ، « الاستجابة » . يتحدد الحافز على انه « مثير قوي » ; وكل مثير قوي « وظيفة الحافز » drive - function تستثير الاستجابات وتنشطها . وبالاضافة الى ذلك ، يمكن ان يكون المثيرات « وظيفة الامارة » cue-function التي توجه السلوك . اما « الاثابة » فهي ذلك الشيء الذي ينتج « خفض الحافز » ، الذي بدوره يدعم الاستجابات للمثير . والتعريف للحافز كنوع من المثير ينطوي على مزايا كثيرة: **اولا** « ان قانون التعميم (والقوانين الاخرى التعلم) يمكن تطبيقه على الحافز ، **ثانيا** ، « ان الميكانزم الاساسي للدافعية (الاستثارة القوية) واحد بالنسبة للحوافز الاولية والمتعلمة ، وان الميكانزم الاساسي للتدعيم (خفض في الاستثارة القوية) واحد بالنسبة للاثابات الاولية والمتعلمة » (ميلر ، ١٩٥٩ ، ص ٤٤٠) . وقد قام « ميلر » بتجارب عامة كثيرة في الدافعية والتعلم .

وقدم « ماورر » ، بالتعاون مع ميلر ، مفهوم « الخوف » كحافز مكتسب ، الذي قد يعتبر الاساس لكثير من الحوافز المكتسبة الاخرى (ماورر ، ١٩٥٠) . ويمثل هذا المفهوم الاساس لما اضطلعنا به من تجارب . وقد غير « ماورر » في مسار تطور تجاربه نظريته من « نظرية التدعيم ذات العامل الواحد » One-factor reinforcement theory الى ما يعرف « بنظرية العاملين » (two-factor-theory) التي مداها مرة اخرى قريبة بمداه بحيث البحث في الواقع من نظرية العامل الواحد ، تقوم على « التجاور » (contiguity) على انه العامل الاساسي في التعلم — وهي بالتالي لا تختلف كثيرا من نظرية سبنس، وربما يمكن الاختلاف في ان التغير الدافعي الاساسي هو دافعية « الباعث » في نظرية سبنس ، و « الخوف » في نظرية ماورر .

اما « براون » (١٩٦١) فقد بلور نظرية الدافعية الراسخة في النظرية السلوكية العامة عند هل . وجعل من الواضح ان التغير البالغ الاهمية (« الحافز ») هو متغير وسيط ، تنشيطي (activating) عام ، لا توجيهي (non-directing) ، ويميز هذا بوضوح مفهوم الحافز عند هل وبراون عن مفاهيم الحافز الاخرى (مثل مفاهيم تولمان وارويد) ، وبالاضافة الى ذلك ، الى براون بنظرية اكثر وضوحا واتساقا وقابلية التحقيق

التجريبي (الامبيريقي) عن «الدافعية الثانية» Secondary motivation فليس ثمة « حوافز » مكتسبة او متعلمة ولكن هناك « مصادر متعلمة » learned sources للحافز ، التي كلها ـ بنفس الطريقة مثل المصادر الاولية Primary sources (الحاجات) ـ تحدد الحافز العام ذاته او تؤثر فيه . ويشير براون ، مثل ماورر وميلر ، الى الخوف على انه الاساس لكل « الانساق الدافعية الثانوية » secondary motivational systems (١٩٦٨) . علاوة على ذلك ، يتقبل براون امكانية توحيد « الحافز » مع « الاستثارة » في « المنظومة الاستثارية الشبكية » reticular arousal system (RAS)

بهذا التغير الفسيولوجي للحافز نتلمس خطا آخر للنمو في سيكولوجية التعلم ، فاذا تتبعنا الخط الاساسي اعتبارا من ثورندايك ، هناك اتجاه مواز هام آخر يبدأ مع بافلوف .

ولعل من المعروف ان نظام بافلوف لا يتضمن اية مفاهيم دافعية في نظريته الاصلية كما قدمها في عام ١٩٢٧ . وربما يعزى ذلك الى انه قد اجرى تجاربه على الحيوانات في ظل شروط اكثر سلبية وتقييدا . فبدون قيام الحيوانات بافعال حرة ، ليس ثمة حاجة لتغير تنشيطي في النظرية . لكن هذا يمثل بالطبع تفسيرا سطحيا لاعمال بافلوف . فاذا فحصنا نظريته بدقة نجد ان عملية التشريط وسلوك الحيوان في الموقف التجريبي يحددهما تفاعل ديناي معقد بين عمليتين اساسيتين : « الاستثارة » و « الكف » . ومن هاتين العمليتين ، تعتبر «الاستثارة» على الاقل عملية تنشيطية ، تحريكية . وبالتالي متغيرا دافعيا بالمعنى التقليدي للدافعية . وبالاضافة الى ذلك تدخل الدافعية في المثير غير الشرطي الذي يدعم الاقتران الشرطي اذا تبع المثير الشرطي.

وغالبا ما يرتبط المثير غير الشرطي بشيء ما ، هو ، وفقا لنظام هل ، اما خفض الحافز drive- reducing (مثل الطعام) او استدعاء الحافز drive-inducing (مثل الصدمة الكهربية) . وفوق ذلك ، يشير بافلوف الى ما يعرف بـ « الفعل المنعكس الانتظامي » Orienting Reflex (OR) كعامل حاسم في تكوين اي رد فعل شرطي Conditioned Reaction (CR)

وقد خضعت مشكلات « الفعل المنعكس الانتظامي » (ع ظ) والنشاط الانتظامي «ن ظ» Orienting activity (OA) لفيض من الدراسات المتعمقة ، الفسيولوجية والتقنية وفي السلوك السوية والمرضية في الاتحاد السوفييتي في الثلاثين سنة الاخيرة (ب . او خين ، ١٩٥٨ ؛ ش . سوكولوف ، ١٩٥٨؛ ١٩٥٩ ؛ ١٩٦٤ ؛ ١٩٧٠ ؛ فنوجرادوفا ، ١٩٦١ ؛ الخ) .

والفعل المنعكس الانتظامي (ع ظ) ، وفقا لهذه الدراسات ، هو استجابة الكائن الحي الى ظهور مثيرات جديدة او الى اي تغير في الوسط المحيط (اطلق عليه بافلوف كذلك الفعل المنعكس الاستكشافي exploratory reflex) . ويمثل الفعل المنعكس الانتظامي استجابة مركبة تسهم فيها تقريبا كل منظومات الاورجانزم : يدخل فيها استجابات حركية (مثلا ، حركة الجسم والراس والعين في اتجاه المثير) ؛ حشوية (تغير دفع الدم في اجزاء الجسم ؛ تغير النبض والتنفس) ؛ بيو كهربية (تغير تيارات الاداء ؛ الفعل المنعكس الجلفاني ـ الجلدي Skin - Galvanic Reflex وكذلك التغيرات في بنية المحللات Analyzers وفي استثارية اعضاء الاستقبال الحسي receptors وبموضع التركيب الفسيولوجي ـ العصبي للفعل المنعكس الانتظامي في المنظومات اللحائية وتحت اللحائية cortical, subcortical systems

(وخاصة التكوين الشبكي reticular formation الذي يباشر تأثيرا تنشيطيا على لحاء المخ) . وتعمل المنعكس الانتظامي أهمية بالغة الحيوية، فهو يضمن الشروط الأمثل للإدراك والتحليل الأولي للمثيرات الجديدة ، وكذلك استعداد الأورجانزم للاستجابة لها (٧)

وقد أدى منطق نمو البحث الرصين في هذا الصدد إلى علماء النفس في الشرق والغرب إلى نتائج متقاربة . فهناك تشابه كبير بين نظريتي العالم السوفيتي « ي . سوكولوف » والعالم الكندي « د . برلاين » (١٩٦٠ ، ١٩٦٧) ؛ حيث يؤكد كلاهما على دور « المنظومة الاستثارية الشبكية » (RAS) في السلوك الاستطلاعي .

تأثر « برلاين » بالعلماء السوفييت وبحسان باجيه الذي عمل معه ، وخاصة بعد تأكيد هب ... يعزى إلى « هب » ... خاصة ... الرئيسي (١٩٤٩) ، ... علم النفس ... بالتقليد البافلوفي الأصلي ، كما ينسب إليه الفضل في بعث نهضة في التنظير الفسيولوجي في ميدان علم النفس . لقد كشف « هب » في الطبعة الأولى لنظريته (١٩٤٩) عن تصور

خاص للدافعية ، حيث سلم بأن الدماغ يكون دائما نشطا ، وليس ثمة حاجة إلى مفاهيم خاصة لتفسير تنشيط السلوك واستثارته . بل تكون الحاجة فقط إلى مفاهيم تفسير توجيهية وتنظيمية السلوك ، التي يتحدد بما يعرف بتجمعات الخلايا cell-assemblies وتتابعات الأدوار Phases - sequences

وقد غير « هب » فيما بعد من نظريته عن الدافعية وأكد على دور « المنظومة الاستثارية الشبكية » في الدافعية . وقد أحكم « هب » نظريته بإتقان أكثر في مقال (١٩٥٩) وفي مرجع (١٩٦٦) . وعلاوة على برلاين ، أثر هب كذلك في « جيمس أولدز » (١٩٥٦) الذي برز في تجارب الاستثارة داخل الجمجمة (intracranial stimulation) (٨) ، التي الكشف فيها الوظيفة التدعيمية للحاجز septum

وأهمية دور « المنظومة الاستثارية الشبكية » بالنسبة للسلوك عامة والدافعية خاصة قد أبرزها العلماء منذ أن الكشف الفسيولوجي ... « موروزي » و« ماجون » وظيفة هذه المنظومة ، كما قدماها لأول مرة في عام (١٩٤٩) . وأبرزها « ماجون » على نحو

(٧) تمثل الدراسات السوفيتية في الفعل المنعكس الانتظامي « ع ف » والنشاط الانتقائي « ن ف » اسهامات مهمة في الفكر السيكولوجي العالمي المعاصر ، وهي تمثل الآن اتجاها مسيطرا على كثير من البحوث النفسية السوفيتية ، وبخاصة في كلية علم النفس بجامعة موسكو ، ورائدها « يوجين سوكولوف » ، « الكسندر لوريا » ، « أولجا فينوجرادوفا » وغيرهم . نشرت « جامعة موسكو - كلية علم النفس » بالاشتراك مع « الأكاديمية العلوم السوفيتية » سلسلة من البحوث ظهرت في مجلد بعنوان Orienting Reflex and Exploratory Behavior في عام ١٩٥٨ ، وترجم إلى الانجليزية في عام ١٩٦٥ تحت إشراف (L. Voronin) ، ويتضمن ١٨ دراسة في هذا الصدد . كما أجرى العديد من البحوث (٢٨ بحثا) تحت إشراف « سوكولوف » و « فينوجرادوفا » ظهرت في عام ١٩٧٠ (بالروسية) تحت عنوان

(E. Sokolov, O. Vinogradova (eds.) : Neuronal mechanisms of orienting reflex, Moscow Univ. 1970);

وبحوث غيرها (٢٤ بحثا) تحت إشراف « سوكولوف » قدمت أمام مؤتمر (١٩٦٩) عن « الميكانزمات النيرونية للتعلم » ، نظمه قسم علم النفس العصبي والفسيولوجي بكلية علم النفس - جامعة موسكو وقسم فسيولوجيا النشاط العصبي الراقي بالأكاديمية العلوم الطبية بموسكو ، ونشرت في كتاب بالروسية) تحت عنوان

(E. Sokolov (ed.) : Neuronal mechanisms of learning, Moscow Univ.,1970).

(٨) craniology : علم الجماجم

محكم في عام (١٩٥٤) ، وقد يسر هذا الاكتشاف عمل علماء النفس في هذا الصدد ، خاصة في اعمال « دونالد لندزلي » (١٩٥٧) . وتكامل دور « المنظومة الاستثارية الشبكية » في نظرية الدافعية عند « اليزابيث دوفي » (١٩٦٢) التي اكدت ، كما شاع في الثلاثينات ، دور مفهومين اساسيين في وصف السلوك وتفسيره : « التنشيط » (Activation) و « التوجيه » (direction) . وغني عن القول ، انه قبل اخضاع هذه الوظيفة الدافعية للمنظومة الاستثارية الشبكية للبحث ، ساد الافتراض بانها نتيجة نشاط الجهاز العصبي التلقائي autonomic nervous system ، الذي يعتبر الان نظاما جانبيا وثانوي الاهمية مقارنة بالمنظومة الاستثارية الشبكية .

واهمية دور المنظومة الاستثارية الشبكية قد تأكدت ، بالاضافة الى ذلك ، في نظرية « دالبير بندرا » (١٩٦٥) الذي يعزو اليه قيام بالجمع بين الجانبي « هب » و « سكنر » .

لعل اوجاه الاشارة الى « ب . سكنر » من قبل يعزى الى ان نظريته ـ او بعبارة ادق ، نظامه الوصفي ـ لا يتضمن اية مصطلحات تفسيرية تشير الى متغيرات وسيطة او تكوينات فرضية . ومن ثم ، لا يتضمن نظام سكنر اية متغيرات دافعية بالمعنى التقليدي ـ حتى اقل من المألوف . لكن سكنر يستخدم مصطلحات لمتغيرات مستقلة امبريقية ، ترتبط بالمتغيرات الدافعية . واكثر هذه المتغيرات المرتبطة بالدافعية اهمية في نظام سكنر : « الحرمان » و « التدعيم » . يحدد الحرمان الدرجة العامة للتنشيط ، بينما يحدد التدعيم « قوة الاستجابة » او احتمالية حدوث الاستجابة . ويتربع سكنر في الوقت الحاضر على موقع من اكثر المواقع تأثيرا في سيكولوجية

التعلم الحديثة ، ولاقى نظامه القائم على التجريب تطبيقا على مشكلات عامة (١٩٥٣) . فقد طبقت نتائج بحوثه على العلاج السلوكي وخاصة على التدريس (١٩٦٨) . ومن الانتقادات المقنعة لاتجاه سكنر المعادي للنظرية antitheoretical orientation تلك التي قدمها « ن . ميلر » (١٩٥٩) ، الذي اشار الى الفائدة « الاقتصادية » لادخال متغيرات وسيطة في تلك الحالات التي يكون فيها اكثر من متغيرين مستقلين وتابعين خاضعين للملاحظة في تجربة .

ومما يجدر الاشارة اليه هنا « أحد الرواد البارزين في علم النفس الدافعي » « بول توماس يونج » ، الذي يعتبر اتجاهه أقرب الى سيكولوجية التعلم والاتجاه السيكوفسيولوجي في الدافعية منه الى سيكولوجية الشخصية . اضطلع يونج بتجارب كثيرة على الحيوانات عن مشكلات تفضيل الطعام . وقد بنى ، استنادا الى هذه التجارب ، نظرية وجدانية (hedonistic)(٩) موضوعية للدافعية ؛ تتمثل مسلمتها الاساسية في ان البواعث (مثل الطعام) تحدد الاستثارة الوجدانية affective arousal وهذه العملية تحدد السلوك وتؤثر في التعلم . ولا يغفل يونج المصادر الاخرى للدافعية (مثل الحاجات ومثيرات النفور) ، لكنه يؤكد ان الانفعالات الوجدانية الايجابية positive - hedonic affects قد اغفلها علم نفس الدافعية التجريبي الحديث وقد نظم يونج (١٩٦١) كل نتائج البحوث في علم النفس الدافعي الحديث في نظامه الوصفي او اطاره المرجعي ، الذي يعرف بالاتجاه « متعدد المنظور » multi-perspective او « الاتجاهي » attitudinal ، او « النسبي » relativistic ، هذا النظام ، الذي يبعث

(٩) Hedonism : فلسفة اللذة ، مؤداها ان غاية الحياة سعي الانسان الى اللذة وتجنب الالم .

على الاثارة والالهام في هذا الميدان ، هو صيغة حديثة لاعماله الفذة المبكرة (١٩٣٦ ، ١٩٤٢) .

المنحى الاجتماعي لعلم النفس الدافعي ، ديناميات الشخصية :

في نفس الوقت الذي ابتدع فيه بافلوف وثورنديك وماكدوجل نظرياتهم ، كان سيجموند فرويد « يرسى اساس التحليل النفسي . لقد كتب ، بعد ان حاول بناء نظرية سيكولوجية (١٨٩٦) ، « عمله الرئيسي الاول تفسير الاحلام (١٩٠٠) . وقد كانت نظرياته منذ البداية ، دينامية من حيث انها قد ركزت على « الطاقات » و « القوى » النفسية ، و « الصراعات النفسية الداخلية » كمحددات للسلوك السوي والمرضي . الا ان فرويد قدم اول صياغة منظمة لنظرية الدافعية في عام ١٩١٥ ، حيث حدد متغيره الدافعي الاساسي الغريزة ، او بالاحرى الحافز (١٠) :

« يمكن ان نخلص الى نتيجة بان الغرائز وليست المثيرات الخارجية هي القوى الدافعة الحقيقية في التقدم الذي رفع الجهاز العصبي بكل كفايته الهائلة الى مستواه الراقي الحالي من النمو ..

« واذا شئنا الان اعتبار الحياة العقلية من وجهة نظر بيولوجية ، تبدو « الغريزة » لنا كمفهوم محايد بين ما هو عقلي وما هو جسمي ليكون كلاهما الممثل العقلي للمثيرات المتولدة من داخل الاورجانزم والمنسابة الى العقل ، وفي نفس الوقت القياس للطلب على طاقة العقل بسبب اتصاله بالجسم .

« والآن نحن في موقع لمناقشة مصطلحات معينة تستخدم للاشارة الى مفهوم الغريزة ، مثل جهدها impetus ، هدفه ، موضوعه ، مصدره .

« نعني بجهد الغريزة عنصرها الحركي ، مقدار القوة او الطلب على الطاقة التي تمثلها. وهدف الغريزة هو في كل حالة الاشباع ، الذي يمكن الحصول عليه بابطال حالة الاستثارة في مصدر الغريزة . اما موضوع الغريزة فهو ما يمكن ان يتحقق فيه او من خلاله هدفها . انه الشيء الاكثر تغيرا بالنسبة للغريزة ولا يرتبط بها في الاصل ، ولكنه يصير متعلقا بها فحسب بسبب ملاءمته الخاصة لتوفير الاشباع ويعني مصدر الغريزة تلك العملية الجسمية في عضو او جزء من الجسم ينشأ منه مثير يمثل في الحياة العقلية بغريزة من الغرائز (فرويد ، ١٩١٥) .

بعد ان قدم فرويد هذه المسلمات والتعريفات الاساسية ، مضى الى مناقشة المشكلات الهامة المتعلقة بعدد وانواع الغرائز الغريزية.

« اقترح انه يمكن تمييز مجموعتين من هذه الغرائز الاولية ، غرائز حفظ الذات او غرائز الأنا ، والغرائز الجنسية . لكن ليس لهذا الاقتراح ثقل المسلمة الضرورية، مثل افتراضنا « الفرض » البيولوجي في الجهاز العقلي ، انه مجرد تكوين مساعد نعتمد عليه فقط طالما يثبت فائدته ، ولن يكون هناك الا فارق ضئيل في نتائج عملنا الوصف والتصنيف او استبداله بتكوين آخر » (فرويد ، ١٩١٥) .

لقد غير فرويد تصنيفة للحوافز الغريزية مرتين : من الحافزين الغريزيين المذكورين الى حافز غريزي واحد (الطاقة الجنسية « الليبيدو ») ، ثم مرة اخرى الى اثنين : غريزة الحياة (الايروس Eros) وغريزة الموت

(١٠) اشار علماء عديدون الى ان الترجمة الصحيحة للمصطلح الالماني Trieb ينبغي ان تكون « الحافز » ، وليس « الغريزة » كما شاع ترجمتها ويقترح « رابابورت » (١٩٦٠) تسمية المصطلح الدافعي الفرويدي بـ « الحافز الغريزي » Instinctive drive .

(ثاناتوس Thanatos) . ولنترك تفاصيل نظرية فرويد في الدافعية ، حيث يمكن للقارئ الرجوع اليها في مصادر عربية عديدة .

لقيت نظرية التحليل النفسي في الدافعية تغيرا ونموا بعد فرويد ، وقد قدم « كينيث كوبلي » (١٩٥٥) تحليلا عميقا لنظرية التحليل النفسي في الدافعية وأبرز أن « الطاقة » energy و « البنية » structure هما المفهومان الاساسيان والمتضامنان في نظرية التحليل النفسي في الدافعية (وربما في اي نظرية) . واقترح « نموذجا بنيويا دوريا – دائريا cyclic - circular structural model ليحل محل النموذج الثلاثي القديم الذي قدمه فرويد : الهي ، الأنا ، الأنا الأعلى . أما « دافيد رابابورت » (١٩٦٠) فقد قدم تحليلا متعمقا شاملا لنظرية التحليل النفسي في الدافعية ، وفيه أشار الى الفارق بين الاسباب والدافعية ، حيث يعتبر الدافعية نوعا خاصا من الاسباب ، وميز بين « الحوافز الغريزية » والانماط الاخرى للدوافع ، واكد مثل كوبلي ، التفاعل الهام بين الحوافز والتركيبات (ميكانزمات الدفاع ، وغيرها) ، وبالاضافة الى ذلك ، قدم مقارنات بالغة القيمة بين نظرية التحليل النفسي عامة والنظرية التطورية عند بياجية ونظرية التعلم .

ومن النظريات الفذة نظرية « كورت ليفين » في الدافعية ، وهي النظرية الوحيدة في الدافعية التي ترتبط بعلم النفس التجريبي الكلاسيكي بينما كان يدرس ليفين مع « فرتيمر » مؤسس مدرسة الجشطلت ، ويرافقه كيولروكوفكا ، استلهم ليفين الشاب للقيام بأولى اعماله التجريبية من « الميول المسيطرة » determining tendencies التي اعتبرت بمثابة نقد لأعمال « آخ » (١٩٠٥) التي تتناول مشكلة الارادة داخل اطار مرجعي ارتباطي كلاسيكي أوضح « ليفين » (١٩٢٢) انه توجد ميول مسيطرة أخرى بجانب الارتباطات ، وان هذه العوامل المسيطرة هي القوى الدافعية الاولية بجانب « الميكانزمات الارتباطية » . وقد واصل ليفين مع زملائه تجاربه وتحليله التصوري للميول المسيطرة ، أو « الحاجات » (Bedürfnis) كما سماها فيما بعد (١٩٢٨) لم يكن ليفين هكذا مهتما بالحاجات البيولوجية بقدر ما كان مهتما باشباه الحاجات quasi - needs ، التي هي ميول محتومة بالقرارات (Vorsatz) والحالات الاخرى (Einstellungen) لقد احكم ليفين وزملاؤه باتقان نظرية عن الدافعية الانسانية (كما تتمايز عن نظرية الدافعية الحيوانية التي احكمتها نظريات التعلم) . وقد طوقت اعماله تلك المشكلات الكلاسيكية مثل « مستوى الطموح » « النشاط البديل » ، « استدعاء الاداءات المبتورة » (ظاهرة زيجارنك) ، وغيرها . وقد ظهرت نتائج هذه الاعمال في فترة اقامة ليفين بالمانيا ، والذ جمعت وترجمت الى الانجليزية في عام ١٩٣٥ .

اما في فترة اقامته بامريكا ، فقد احكم ليفين نظاما كاملا معروفا بالنظام الطوبولوجي لوصف تركيب الشخص « ش » والبيئة (المدركة) « ب » . وقد الحق بهذا النظام الوصفي (١٩٣٦) فيما بعد نظاما تفسيريا (١٩٣٨) ، حيث فسر السلوك « س » كدالة للشخص والبيئة : س = دالة (ش ، ب) . ويمثل مفهوم القوى النفسية اكثر المتغيرات الدافعية اهمية . ويتحدد هذا التكوين النفسي بحالة التوتر في الشخص (المرتبطة بحالة الحاجة في الاورجانزم) وبالقيمة الغائية Valence لموضوع أو نشاط معين في البيئة (المدركة) . واذ تعتبر « نظرية المجال » عند ليفين متقنة ومتسقة للغاية ، الا انها قد خضعت للنقد الشديد من حيث ارتباطها تماما بالاحداث الملاحظة (اي : تعريفات اجرائية قليلة للغاية) ، واعتمامها – وفقا لمبدأ المعاصرة contemporacity – اساسا بالقوى العاملة في اللحظة الراهنة ، واغفالها للسياق التاريخي

لظاهرة النفسية ، فنظرية ليفين « الاثارية » وفي ذلك تكمن نقطة الضعف الكبيرة في نظامه الشامل الذي اقامه . ورغم ذلك ، فقد الهمت نظرية ليفين اعمالا تجريبية عديدة ، سواء في علم نفس الطفل او (بخاصة) في علم النفس الاجتماعي . كما اثر في نظرية التعلم من خلال « تولمان » وفي نظرية الشخصية من خلال « هنري موراي » .

يرى « موراي » نظريته كشكل حديث لنظرية التحليل النفسي في الدافعية ويفسر بدينه لكل من ماكدوجل وليفين . ويبرز في كتابه « استكشافات في الشخصية » (١٩٣٨) تكامل الطرق التجريبية والاكلينيكية ، بما يكشف عن اول امثلة حقيقية للعمل بروح الفريق في علم النفس . ومن ابرز معالم نظرية موراي محاولة اقامة تكامل الجوانب القيمة من نظرية التعلم مع استبصارات طريقة التحليل النفسي . لذا ، يستدع موراي اسسا محكما على الاصول التطورية للشخصية press لوصف السلوك ، لكنه في تفسيره للسلوك يؤكد ـ خاصة اهمية احداث الطفولة المبكرة و « ديناميات الشخصية » . وفي اطار ذلك ، يقدم موراي المتغير الدافعي « الحاجة » :

« الحاجة تكوين (وهم مقنع او مفهوم فرضي) ، يكمن وراء القوة (الطبيعة الجسمية ـ الكيميائية) في منطقة المخ ، قوة تنظم الادراك والفهم والتعقل والنزوع والاداء بطريقة يتم بها تحويل موقف قائم غير سار الى وجهة معينة . وفي بعض الاحيان تستثار الحاجة مباشرة بعمليات داخلية من نوع معين (حشوية viscerogenic ، غددية endocrinogenic او تتعلق بسرير المخ thalamicogenic تنشأ في سياق التتابعات الحيوية ، لكنها تستثار اكثر (في حالة الاستعداد) بحدوث احد الضغوط الفعالة (او بتصور توقعية لذلك الضغط) . لذا ، تتبدى الحاجة عندما تؤول بالاورجانزم الى السعي او الى تجنب المواجهة

او ـ حينما يدخل في مواجهة ـ الى الانتباه والاستجابة لانواع معينة من الضغط . وحتى قد تولد الحاجة ادراكات وهمية وتعقلات خيالية (اسقاطات لضغطها المتصور imaged press على موضوعات غير ملائمة . وتصحب كل حاجة على نحو مميز بشعور او انفعال خاص وتميل الى استخدام اساليب معينة (الحاجات الفرعية sub-needs ووسائل الاداء actions لمناصرة اتجاهها . وقد تكون الحاجة ضعيفة او قوية) ، وقتية او دائمة . لكنها عادة ما توجد وتؤدي الى نشأة سياق معين السلوك الظاهري (او الخيال) الذي (اذا كان الاورجانزم مقتدرا والمقاومة الخارجية ضئيلة مما لا يمكن التغلب عليها) يغير الظروف البادئة بطريقة تصل بالموقف الى النهاية بما يؤدي الى تهدئة (سلامة او ارضاء) الاورجانزم » (موراي ، ١٩٣٨ ، ص ١٢٣ ـ ١٢٤) .

يتضح من هذا الاشتقاق ان « الحاجة » عند موراي تختلف عن الحاجة عند هل واصحاب نظريات التعلم ، حيث تقتصر عندهم على حالة الحرمان وبعض الاعضاء الطرفية peripheral organs او في الاعضاء الحشوية viscera

الحاجة عند موراي ، من ناحية اخرى ، حالة رئيسية (فرضية) ، اكثر شمولا والحاطة من « الحافز » عند هل (اقرب في الواقع الى جهد استعداد رد الفعل sEr عند هل) ومن « الحافز الغريزي » عند فرويد . تتضمن نظرية موراي تقريبا اربعين حاجة ، مقسمة الى « الحاجات حشوية الاصل viscerogenic needs (وعددها ثلاث عشرة) و « الحاجات نفسية الاصل » Psychogenic needs (وعددها عشرون على الاقل) . وتمثل هذه الثروة من المتغيرات الدافعية وكذلك المتغيرات التفسيرية الاخرى جوانب القوة والضعف في نظرية موراي على السواء . تكمن القوة في امكانية عمل اوصاف متمايزة للشخصيات

الاقرار » والضعف في المخاطرة بتفسيرات كالتي قد يقع فيها بعض السيكولوجيين . ومما يجدر ذكره » أن موراى قد عدل نظريته عدة مرات (١٩٥١ ، ١٩٥٣ ، ١٩٥٩) ليستقر به الامر اخيرا الى استبدال مفهوم « الحاجة » بمفهوم اكثر دقة وتحديدا يعرف بـ « الاستعدادات الموضوع » thematic dispositions

« لقد أصبح من الواضح لنا اكثر واكثر انه يمكن تحديد مكونات الطاقة في الشخصية كاستعدادات للموضوع افضل من تحديدها كاستعدادات عامة للاداء general actional dispositions (١٩٥٩ ، ص ٣٦) .

ولقد استمر موراى في ابتداع مفاهيم وصفية وتفسيرية جديدة » وكان له فضل بالغ الاثر على سيكولوجية الشخصية لما قدمه من تصورات نظرية وابتكارات منهجية (من بينها اختبار تفهم الموضوع « التات ») ولما توصل اليه من تجاربه الى نتائج قيمة . ولعلنا لا نجانب الصواب اذا اعتبرنا موراى بالقوة الدافعة في نظرية الشخصية » حيث يمكن ان نعده الرجل الثاني فقط بعد فرويد .

ولا غرو » فقد اقتفى ماكيلاند خطى موراى واخذ يسعى الى استكمال الشوط الى اقصى مداه » حيث واصل البحوث الامبريقية مستعينا باختبار تفهم الموضوع «التات» وانماء نظرية في الدافعية . لذا قد اعد صورة جماعية لاختبار التات » وحاول هو وزملاؤه قياس مضمون الخيالات في قصص التات التي يرويها المفحوصون في مواقف مختلفة عديدة » حيث يمكن خلق دافعيات مختلفة (دافعيات مثل الجوع » الجنس » العدوان » الخوف » النواد القوة » والانجاز) . ومن طريق الجمع بين الطرق التجريبية وطرق الملاحظة الميدانية توصل ماكيلاند وزملاؤه الى تصورات خلاقة للدافعية . كما حققوا كذلك نوعا من التقنين لمنهج تحليل المضمون لقصص التات » الذى

تطور الى الحد الذى يمكن معالجته بالحاسبات الآلية . ومن المعالم المميزة ايضا لعلم النفس الحديث ان زمرة ماكيلاند قد ركزت بحوثها وتطويرها النظرى اساسا على متغير دافعى واحد » المعروف بدافع الانجاز (ماكيلاند وآخرون ، ١٩٥٣) وقد اوضحوا ببحوثهم ان الفروق الفردية في قوة دافع الانجاز كما يقاس بالتات تتوقف على البيئة ـ خاصة حينما تدعم اساليب تربية الطفل الاستقلال والاعتماد على الذات لديه . وقد أوضحت زمرته في اعمالها اللاحقة ايضا قيمة التات في قياس الدوافع الاخرى (ماكيلاند ، ١٩٥٥ ؛ اتكنسون ، ١٩٥٨) . وقام ماكيلاند نفسه بدراسة اثر دافع الانجاز على النمو الاقتصادى في المجتمعات المعاصرة والقديمة (١٩٦١) .

ومن ناحية التصور النظرى » قدم ماكيلاند اسهامة بالغة القيمة بالانتقال من تصور محتوم بالحاجة need-determined conception للدافعية الى تصور وجدانى محتوم بالتوقع hedonistic, expectation determined للدافعية (متأثر بنظريات يونج وتولمان » أو على الاقل مواز لها) . ويتضح هذا من الصياغة الاولى لنظريته :

« يصير الدافع ارتباطا وجدانيا قويا يتميز برد فعل توقعى للهدف ويقوم على الارتباط السابق لعلامات معينة مع اللذة والالم » (١٩٥١ ، ص ٤٤٠) .

وبعد» ولخص المسلمات الاساسية لنظريته على النحو التالى :

« تعريفنا للدافع كما يلى : الدافع هو تمييز redintegration بواسطة علامة او امارة cue لتغير في موقف وجدانى . ويقصد بكلمة تمييز في هذا التعريف ان تتضمن التعلم السابق وكل الدوافع « في نظامنا » متعلمة . والفكرة الاساسية هي ببساطة كما يلى : تكون مثيرات أو مواقف معينة متضمنة تباينات بين التوقعات

(المستوى التكيفي) ولا دراً لمصادر الوجدان الاولى في التعلم ، سواء الايجابي او السلبي بطبيعته . ومن شأن العلامات او الامارات التي تكون متزاوجة مع هذه الحالات الوجدانية ان تثير في هذه الحالات الوجدانية ، وتصبح الشروط التي تنتجها قادرة على تمييز حالة مشتقة من الموقف الوجداني الاصلي ، لكنها ليست متحدة معها » (ماكليلاند واخرون ، ١٩٥٣ ، ص ٢٨) .

ومن الواضح ان تصور ماكليلاند للدافعية ينحرف الى حد ما عن تصور اسلافه .

وقد لقي هذا النحو في اتجاه نظرية «التوقع x القيمة » ("expectation x value" theory) مزيداً من التطور على يدي « جون اتكنسون » احد رفاق ماكليلاند الاقربين ، اهتم اتكنسون خاصة بسلوك المخاطرة risktaking behavior والاعتماد على دافعية الانجاز ، وقد طور من نظرية دافعية الانجاز الى طراز متميز الغاية كنظرية للدافعية الانسانية (١٩٦٤) تأثر اتكنسون بقوة بليفين وتولمان ، كما افاد الى حد ما من نظرية القرار الحديثة .

تبدو المتغيرات الدافعية الاكثر اهمية وما بينها من تفاعلات في معادلة اتكنسون :

م ح = دح × ت ح × ق ح ($M_{s} \times P_{s} \times I_{s}$ = T_{s})

حيث م ح (T_{s}) تعني الميل الى احراز النجاح الذي هو وظيفة لاستعداد ثابت فطري او مكتسب ، يعرف بـ « الدافع » الى انجاز النجاح " د ح " (M_{s}) ، ويتحد مع «التوقع» النجاح ت ح (P_{s}) و « قيمة الباعث » incentive - value للاداء ق ح (I_{s})

ويدخل التوقع – او الاحتمالية الذاتية «ت ح» (P_{s}) – في علاقات متبادلة مع الحافز في مواقف الانجاز بهذه الطريقة :

ق ح = ١ – ت ح

وتوازياً مع هذا الدافع الايجابي لاحراز النجاح ، يسلم اتكنسون ايضاً بـ « الخوف من الفشل » او « الدافع الى تجنب الفشل » :

م ف = د ف × ت ف × ق ف

وواحد من المسلمات الاساسية لنظرية اتكنسون ان السلوك نتيجة التفاعل بين دافعين على الاقل . ففي مواقف الاستثارة بالانجاز يكون السلوك (س) نتاج دافعين متصارعين :

س = م ح + م ف

لقد يتضمن اتكنسون نظريته ايضاً بعض الفروض المستعارة من نظرية ميلر في السلوك الصراعي .

وفي الفترة الاخيرة عمل اتكنسون مع « نورمان فيزر » ، وجمعا اعمالهما وما قام به زملاؤهم في مجلد جديد (اتكنسون ، فيزر ١٩٦٦) . في هذا الكتاب يوضحون قيمة نظريتهما المعروفة بـ « النظرية المصغرة » (miniature - theory) لدافعية الانجاز ويلمسون السبيل الى امكانية توسيع النظرية الى نظرية عامة في الدافعية الانسانية تجمع بين نظامين في علم النفس العلمي : علم النفس الفارقي (الاختبارات) الشخصية وعلم النفس العام (التجريبي) .

يصف « فيزر » (١٩٦٧) تطبيق نموذج « التوقع x القيمة » على سلوك البحث عن المعلومات information-seeking behavior

وبالتالي طرق ذلك الميدان من البحث الذي كان يحتله من قبل العلماء من أصحاب الاتجاه البيولوجي وسيكولوجية التعلم (مثل « برلاين»)

وينتقد الكنسون كذلك « قانون الاثر » لعدم امكانية تطبيقه على السلوك الانجازي (الكنسون ، فيزر ١٩٦٦) ، ويشير الى الحقيقة بأن « اولبورت » قد اثار هذا النقد ذاته من حوالي ثلاثين سنة » .

وهنا يبرز اتجاه آخر في سيكولوجية الشخصية ، صاحبه « جوردون اولبورت » . في كتابه اللامع الصيت عن الشخصية (١٩٣٧) يقترح نظرية ـ أو ان شئنا « نظاما وصفيا ـ الشخصية » تتناقض الى حد ما مع الخط الاساسي الدينامي لنظرية الشخصية كما قدمه فرويد ولبلين وموراي ، وغيرهم . ينكر اولبورت أهمية الحاجات او الحوافز البيولوجية وكذلك أهمية التعرق المطرد بالشخصية الراشد ، وكبديل لذلك « طور فرضا عن الاستقلال الوظيفي functional autonomy لدافعية الكبار (فرض قدمه اصلا « وودورث » ١٩١٨) . وفي تعديل لنظريته يقرر :

« من وجهة النظر هذه يعتبر الاستقلال الوظيفي مجرد سبيل لاقرار ان دوافع الناس تتغير وتنمو في سياق الحياة ، لأن من طبيعة الناس انهم ينبغي ان يفعلوا هكذا » (اولبورت ١٩٦٨ ، ٢٥٢٨) .

يتفق اولبورت في هذه النظرة الفلسفية الوجودية للانسان مع عالم نفس آخر هو « ابراهام ماسلو » الذي يعتبر من ابرز قادة الاتجاه الانساني في نظرية الشخصية . ينتقد « ماسلو » نظرية التحليل النفسي من حيث انها « من جانب واحد » ، تعول على دافعية النقائص deficiency - motivation وتغفل تماما دافعية النمو growth - motivation ويسلم ماسلو ان دافعية النمو هذه التي تتضح كحاجة الى تحقيق الذات يمكن ان تتبدى في السلوك حينما تشبع الحاجات الاخرى المحتومة اكثر بالنقائص . ويقترح نظاما هرميا للحاجات وفقا للقوة الغالبة prepotency (١٩٥٤) ، يمتد من اكثر الحاجات فسيولوجية الى اعظمها نضجا وتمدينا من الناحية النفسية . ويحدد ماسلو نظام الحاجات الاساسية على النحو التالي :

المستوى الاول : الحاجات الجسمية الاكثر اساسية (كالسعي الى الطعام والماء والهواء والدفء والجنس ، وهكذا) . المستوى الثاني حاجات الامن (وتتمثل في تجنب الاخطار الخارجية او ما يؤذي الفرد) . المستوى الثالث الحاجات الى الحب والاستحسان . المستوى الرابع : الحاجات التي ترتبط باقامة علاقات مشبعة مع ذات الفرد ومع الاخرين (وتتمثل في ان يكون متمتعا بالتقبل والتقدير ، وان يحظى باحترام الذات ، وان يكون محترما ، وان تكون له مكانة ، وان يتجنب الرفض او التبذل او عدم الاستحسان) . المستوى الخامس الحاجات التي ترتبط بالتحصيل والانجاز والمعرفة والتعبير عن الذات (ان يكون الفرد مبدعا ومنتجا ، ان يقوم بافعال وتصرفات تكون مفيدة وذات قيمة للاخرين ، ان يحقق امكاناته ويترجمها الى حقيقة واقعة) .

وهنا يختلف ماسلو بنموذجه الهرمي للحاجات وما بينها من علاقات وظيفية متبادلة عن صناع القوائم ، مثل ماكدوجل ، الذين كانوا يكدسون قوائمهم دون محاولة جديدة لبيان الصلة فيما بينها . فقد اوضح ماسلو انه لا يمكن وصف حاجة في عزلة عن الحاجات الاخرى : فالحاجات تنتظم وفقا لأهميتها بالنسبة للفرد ، وتتوقف مقدرة الفرد على اشباع الحاجات « العليا » upper needs (او ان شئنا حاجات النمو ، الحاجة الى المعرفة والخبرة الجمالية وتحقيق الذات) على مستوى اشباعه للحاجات الاساسية (مثال ذلك ، من الصعب على الفرد العمل بكفاية اذا شعر بعدم تقدير الجماعة او بانه غير

محبوب) . وقد لاقى هذا النموذج الهرمى لنظام الحاجات تطبيقات ذات بال فى علم النفس التطبيقى (مثل ، علم النفس التربوى والصناعى) .

ولقد تكرس ماسلو فى السنوات الاخيرة على بناء نظرته الى العلاقة بين سيكولوجية الشخصية وفلسفة الانسان (ماسلو ، ١٩٥٩ خاصة ، انظر ايضا ١٩٦٢ ، ١٩٦٦ ، ١٩٦٧ ، ١٩٦٨) .

ولاستكمال صورة نظرية الشخصية اليوم، ينبغى الاشارة الى « رايموند كاتل » ، العالم النفسى الانجلو – امريكى . ليس من السهل تصنيف كاتل على انه ينتمى الى مدرسة معينة او تقليد معين فى علم نفس الشخصية ، وانما هو بالأحرى مؤسس وقائد لمدرسة جديدة تتميز باستخدام التحليل العاملى والطرق الرياضية لبناء نظرية نبعت داخل سيكولوجية الذكاء . ولقد ابتدع كاتل اختبارات عديدة للشخصية ، استطاع بها هو وزملاؤه جمع بيانات وفيرة عن الشخصية . ولعب هذه البيانات فى نظرته للشخصية ، التى لعب فيها « السمات الدينامية » او المتغيرات الدافعية دورا هاما . ولقد استعار كاتل بعضا من هذه المفاهيم عن ماكدوجل وفرويد، لكنه أعاد بناءها فى نظرية أكثر احكاما واتساقا والمتغيرات الدافعية الاساسية فى هذه « الشبكة الدينامية » dynamic lattice التى تعتبر نموذجا للبنية الدينامية للشخصية هى : « الارج » erg (وحدة عمل الطاقة) ، العاطفة sentiment ، و«الاتجاه» attitude وبحدد « الارج » على النحو التالى :

« يبدو اننا هكذا قد بينا بحيث ان اشباعاتنا النهائية هى اشباعات غريزية ، او طاقية ergic . يستخدم مصطلح « ارج » ، وهو مأخوذ من الكلمة اليونانية ergon يعنى العمل او الطاقة ، فى التكامل والتفاضل الدينامى dynamic calculus لتركيب لا يزال يعرف حتى الان ، بطريقة غامضة ومتقنة للغاية ، بالغريزة أو الحافز ، الذى هو مصدر الطاقة الكامنة وراء السلوك . وكما سنرى يمكن ان يتعين ويتحدد الارج بدقة بطريقة التحليل العاملى ، بينما غدت الغريزة والحاجة والحافز وغير ذلك على انها كل شىء لكل الناس ولا يمكن ان تعد تستخدم بدقة علمية » (كاتل ١٩٦٥ ، ص ١٨٥ – ١٨٦) .

ومن هنا نرى ثمة مصطلحا جديدا للمتغيرات الدافعية الاساسية التى حدد منها كاتل على الاقل احد عشر متغيرا . هذه المصادر التكوينية للطاقة تنساب خلال تركيبات متعلمة تعرف بـ « الاتجاهات » و « العواطف » – وهى مفاهيم معروفة ايضا من نظريات الشخصية الاخرى . وانها لتكون رحلة طويلة اذا اردنا تتبع كل اعمال كاتل او بعمق بسبب حجم ما انتجه . فبالاضافة الى مقالاته العديدة ، الف عدة كتب (١٩٤٦ ، ١٩٥٠ ، ١٩٥٧ ، ١٩٦٥) كما اشترك وحرر عددا من الاعمال . ولذا ، فقد حلل كاتل فى قسم خاص فى الفصل المعنى عن البنية الشخصية (Personality Structure) الذى كتبه « ويجينز » (J. S. Wiggins) فى الكتاب السنوى لعلم النفس المعروف بـ «Annual Review of Psychology» فى عام (١٩٦٨) .

ويمكن ان نشير الى عالم مبرز آخر فى ميدان نظرية التحليل العاملى للشخصية ، هو « هانز ايزنك » الذى اهتم خاصة بتطبيق نظرية وطرق التحليل العاملى فى علم النفس الاكلينيكى او « العلاج السلوكى » (انظر ايزنك ١٩٦٤) .

(٢) مفاهيم الدافعية

ليس من السهل تصنيف مفاهيم الدافعية وفرز التشابهات والاختلافات بينها لأنها قد استخدمت بطرق مختلفة بواسطة سيكولوجيين مختلفين ، وان المتغيرات المتشابهة قد تعينت

بمصطلحات مختلفة في النظريات المختلفة . لذا كان من الضروري محاولة استخلاص مفاهيم الدافعية من خلال الدراسة المقارنة للنظريات المختلفة .

المصطلحات التجريبية (الامبريقية) والغرضية:

لقد نشأت نظريات الدافعية وبنيت فروضها لتفسير السلوك . لكن ليست هناك حاجة الى المفاهيم الدافعية لكل أنماط أو جوانب السلوك فردود الأفعال الانعكاسية البسيطة (الانعكاسات الولادية) يمكن تفسيرها على أساس وجود مثير يباشر تأثيره على البنية الولادية « القوس الانعكاسي » . أما السلوك المركب (الإدارات أو الأفعال السلوكية) فغالبا ما يوصف على أنه سلوك غرضي أو موجه نحو هدف ؛ وهذا السلوك يمكن تفسيره بنظريات الدافعية . ومصطلحات السلوك « الغرضي » Purposive و « الموجه نحو الهدف » goal-directed مصطلحات وصفية ذات مفاهيم تركيبية وتجريدية وقد تستخدم هذه المصطلحات لوصف أو تمييز السلوك الذي يكشف عن مركبة ليست مباشرة يمكن ملاحظتها .

وقد كان ماكدوجل (١٩٠٨) أول من قام بتحليل ووصف محكات السلوك الغرضي ، هي كما عددها سبعة محكات . وقد انتهى تولمان الى هذه المحكات حينما حدد ، في كتابه المشهور « السلوك الغرضي » (١٩٣٢) ، وقد اختزل بندرا (١٩٥٩) ، في تحليله العميق ، هذه المحكات الى ثلاثة : الملاءمة appropriateness المثابرة persistence ، الاستقصاء searching . واقترح أيضا مصطلح « الموجه نحو الهدف » بدلا من الغرضي ، حيث يستخدمه كمرادف للسلوك المدفوع .

وربما تعتبر أكثر المصطلحات الوصفية بساطة ودقة تلك التي قدمها « اليزابيث دوفي » في أعمالها المبكرة في الثلاثينات وأحكمتها فيما بعد (١٩٦٢) . فكل السلوك يمكن وصفه ، وفقا لدوفي ، بالجمع بين مصطلحين وصفيين: « الشدة » intensity و « الاتجاه » direction ، وهما الجانبان من السلوك اللذان يفترض تكشفهما بالنظريات الدافعية.

وغالبا ما نستخدم في التفسير السيكولوجي نمطين من المصطلحات : المصطلحات التجريبية (الامبريقية) والمصطلحات الغرضية .

تشير المصطلحات التجريبية (الامبريقية) الى « المتغيرات المستقلة » التي يفترض أنها الأسباب النهائية للسلوك (الذي هو متغير تابع) . وقد تتضمن هذه المتغيرات المستقلة المثيرات الخارجية من البيئة وكذلك المثيرات الداخلية من الأعضاء والأنسجة المختلفة للأورجانزم . هذه المثيرات الداخلية ينبغي أن تكون قابلة للملاحظة إذا عولجت كمتغيرات مستقلة يمكن وصفها بمصطلحات تجريبية (امبريقية) . وإذا كانت المتغيرات المستقلة يمكن وصفها كمثيرات (داخلية وخارجية) ، فإنه يمكن الإشارة إليها بـ « المتغيرات ـ م » (S-variables)

وقد يفضل بعض علماء النفس ، مثل سكنر الاهتمام أساسا بوصف العلاقات الملاحظة بين « المتغيرات ـ م » والسلوك . وتصاغ هذه الأوصاف في بعض الأحيان في قضايا عامة من العلاقات المتكررة والملاحظة بانتظام بين أنماط « المتغيرات ـ م » وأنماط السلوك أو « المتغيرات ـ س » . وغالبا ما تعرف هذه القضايا العامة بـ « القوانين » (أو علاقات م ـ س) . ويعتبر سكنر تكوين وتطبيق تلك « القوانين » على أنه التفسير العلمي الوحيد . لكن معظم علماء النفس يفضل افتراض وجود متغيرات « توسطية » mediating أو « وسيطة » intervening بين « المتغيرات ـ م » و « المتغيرات ـ س » . وهذه المتغيرات الوسيطة لا يمكن ملاحظتها .

جدول (١) : المتغيرات « م ، ف ، س »

في بعض نظريات الدافعية

	المتغيرات – م المتغيرات المستقلة	المتغيرات – ف المتغيرات الوسيطة	المتغيرات – س المتغيرات التابعة
ماكدوجل	مثيرات (خارجية)	الغريزة (١٩٠٨) الميل الطبيعي الميل (١٩٣٢)	سلوك غرضي
فرويد	المصادر الجسمية (السوماتية)	الحوافز الغريزية ، الشحنة الانفعالية ، الهي ، الأنا ، الأنا الأعلى	تداعيات حرة الذكريات الأحلام أعراض عصابية وغير ذلك من السلوك
تولمان	الحالة الفسيولوجية الشروعية (١٩٣٦) الحافز (١٩٥١) المثيرات	الطلب (١٩٣٦) نظام الحاجة (١٩٥١) مصفوفة الاعتقاد – القيمة (١٩٥٦)	سلوك غرضي
يونج	الحاجات المثيرات	الحافز ، الحالة الانفعالية الوقتية –	سلوك
ألبورت	الحوافز المثيرات	السمات الشخصية والوسيلة	السلوك التوافقي والتعبيري
ليفين	الحاجات المثيرات (خاصة موضوعات الهدف)	القوة ، التوتر ، القيمة الثانية	سلوك
موراي	ضغط الفا (١٩٣٨) ، والمثيرات الأخرى للسائر الداخلية للحاجات	الحاجات (١٩٣٨) ضغط بيتا (١٩٣٨) الحالة الفعالية الاستعداد للموضوع (١٩٥٦) –	الأفعال « الثون » : ١ – الفعلية « فريون » ٢ – الحركة « موتون »
هل	الحاجة المثيرات الخارجية	الحافز دافعية البواعث جهد الاستجابة قوة العادة	الاستجابة

تابع جدول (١)

	المتغيرات ـ م المتغيرات المستقلة	المتغيرات ـ ف المتغيرات الوسيطة	المتغيرات ـ س المتغيرات التابعة
هب	المثيرات الخارجية والداخلية	قوة العادة لجميعات الخلايا تتابعات الاطوار (١٩٤٩) وظيفة الاثارة والاستثارة (١٩٥٥)	سلوك منظم
تنبرجن	المثيرات المفرجة العوامل الدافعية	ميكانزمات الافراج الفطري ميكانزمات الغريزة	السلوك الشهوى الافعال الاستهلاكية
ماكيلاند	الامارات الحرمان من مستوى الواقعة	الدافعية الدافع الاستثارة الوجدانية	استجابات « الثبات » وغيرها من السلوك
كاتل	المثيرات الحالة الفسيولوجية	الارج الانتباه العاطفة	الاستجابات للاختبار وغيرها من السلوك
سكنر	الحرمان الدعم المثيرات التقورية	قوة الاستجابة او الاحتمال !	السلوك الاستجابي وسلوك المعطية
اتكنسون	المثيراته	الميل ، الدافع ، التوقع الباعث ـ القيمة	استجابات الثبات وغيرها من السلوك
برلاين	المتغيرات الموازية	الاستثارة (المنظومة الاستثارية الشبكية)	السلوك الاستطلاعي والمعرفي
	جهد الاستثارة	التطلع	

بطريقة مباشرة ، ولكن نستنتج أو نفترض ، ولذا يمكن تسميتها بـ « المتغيرات » الفرضية Hypothetical variables او « المتغيرات ــ ف » .

وقد قدم « تولمان » ، بهدف تفسير السلوك الغرضي خاصة ، تلك المتغيرات الوسيطة ، مثل « الحافز » و « المعرفة » cognition وعلى اساس طراز تولمان « م ــ ف ــ س » يمكن تقديم تصنيف اساسي للمتغيرات النفسية وتطبيقها على المتغيرات الدافعية في اهم النظريات التي عرضنا لها ، كما يتضح ذلك من الجدول (١) ، (الجداول الواردة في هذه الدراسة مأخوذة عن أعمال « مادسن » ١٩٥٩ ، ١٩٦٨ ، ١٩٧٣) .

ويتضح من هذا الجدول ان ثمة استخداما للمصطلحات يشيع في علم النفس يتم عن عدم اتساق وفوضى بالتبي . ويتضح ذلك خاصة في التفسيرات المختلفة المتعلقة بالمصطلحين الهامين : « الحاجة » و « الحافز » . لذلك يستخدم هل وتولمان (١٩٥١) المصطلحين بطرق متناقضة ، واستخدم موراى « الحاجة » بطريقة مختلفة تماما . وهذه الفوضى هي في الواقع اعظم مما يبينه هذا الجدول ، والتي سوف تصبح واضحة من الجداول الاخرى .

الاستعدادات والوظائف :

أعد تولمان أيضا تصنيفا للمتغيرات وفقا لطول مدة وجود المتغيرات : فبعض المتغيرات النفسية توجد لفترة طويلة ، قد تستغرق كل حياة الفرد من الميلاد حتى الموت ، وهي الاستعدادات الموروثة . والبعض الآخر يكون مكتسبا بعملية التعلم في فترة او اخرى من حياة الفرد ، وتوجد لفترة اقصر او اطول ، ولكنها بعد ان تكتسب تلعب نفس الدور الذي تلعبه الاستعدادات الموروثة . لذا يمكن ان نستخدم مصطلح « الاستعدادات » او « متغيرات الاستعداد » disposition variable المتغيرات الموروثة وكذلك المكتسبة . وبدلا من « الاستعداد » قد يفضل البعض مصطلحات « العامل » او ربما « التركيب » .

وخلافا لهذه المتغيرات توجد فئة اخرى من المتغيرات النفسية ذات فترة اقصر للوجود ، وتتضمن هذه الفئة فئتين فرعيتين : العمليات ، التي ربما توجد فقط لثوان او دقائق ؛ والحالات ، التي ربما توجد فقط لساعات او حتى لايام . ولما كان من الصعب التمييز بين العمليات الاقصر والحالات الاطول ، يمكن ان نستخدم المصطلح العام « وظائف » (او « متغيرات الوظيفة » function variable .

ويولي علماء النفس المختلفون اهتماما بفئة من هذه المتغيرات اكثر من الاخرى .

فمتغيرات الاستعداد قد درست اساسا باستخدام طرق الاختبارات في علم النفس الفارقي ، متضمنا سيكولوجية الشخصية والذكاء . (يوضح مصطلح «التحليل العاملي» الاهتمام « بالعوامل » او « الاستعدادات ») . ومن ناحية اخرى ، درست متغيرات الوظيفة اساسا باستخدام الطرق التجريبية في علم النفس العام ، متضمنا التعلم والمعرفة والدافعية .

ومع ذلك ، توجد علاقة وثيقة بين الاستعدادات والوظائف ، حيث ان الاستعدادات تؤثر في مسار الوظائف وتخلق الفروق الفردية في السلوك الذي يتحدد مباشرة بالوظائف . ومن ثم ، غالبا ما استخدم المصطلح الواحد للاشارة الى الاستعداد والوظيفة المتعلقة به . وقد يخلق هذا في بعض الاحيان فوضى وسوء فهم بين علماء النفس . لذا غالبا ما يشير مصطلح « الحاجة » في سيكولوجية التعلم الى الوظيفة (على نحو اكثر دقة : الى الحالة) . ومن ناحية اخرى ، غالبا ما تستخدم «الحاجة» في نظرية الشخصية

لتغطية كل من الوظيفة الدافعة للسلوك والاستعداد الذي يحدد الفروق الفردية في القوة والفترة وغير ذلك من هذه الوظائف . وقد تنبه موراي لذلك وغير مفهومه الاساسي باستبدال مصطلح « حاجة » الى المصطلح الجديد « الاستعدادات للموضوع » thematic dispositions . وهذا الاستخدام ، الذي يبعث على الارتباك والحيرة لمصطلحات الاستعدادات والوظائف يمكن ان يتضح من الجدول (١) .

المتغيرات الديناميه والتوجيهية :

ربما تعتبر هذه الفئة من تصنيف المفاهيم اكثر اهمية لنظرية الدافعية ، بقدر ارتباطها الوثيق بالمتغيرات من : « السلوك الموجه نحو الهدف » .

يمكن ان تعتبر « ليفين » اول من قدم تحليلا متعمقا للمفاهيم الدافعية (١٩٣٨) ؛ حيث ميز بين القوى والقيمة الذاتية . فالقوى forces تتميز بكل من القوة والاتجاه ؛ ولذا يمكن ان تمثل رياضيا بواسطة المتجهات vectors ؛ اما القيمة الذاتية فهي ، على العكس من ذلك ، يمكن تحديدها فقط قياسا الى قوتها ، ولذا يمكن ان تمثل رياضيا بواسطة العياريات Scalars .

ولم يكن ليفين هو الوحيد الذي ادرك ذلك التحديد للمفاهيم . فقد ميز « وودورث » (١٩١٨) بين الحافز والميكانزم . ويذهب العالم البارز « بول توماس يونج » الى تحديد مشابه في تقريره ان : « علم النفس الدافعي يمكن تعريفه على انه دراسة لكل الشروط التي تستثير وتنظم سلوك الكائن الحي » (يونج ، ١٩٣٦ ، ص ٤٥) .

وفي نفس الوقت ، سعت « دوفي » (١٩٣٦) الى الفصل بين « الشدة » و « الاتجاه » كمفاهيم وصفية اساسية في علم النفس .

ويذهب « فاربر » فيما بعد الى التمييز بين الجوانب « ديناميه الاصل » والجوانب « التوجيهية » للمتغيرات السيكولوجية (١٩٥٥) .

وعلى اساس كل هذه التحديدات ، قدم « مادسن » (١٩٥٩) تصنيفا للمتغيرات السيكولوجية يستند الى التمييز بين التأثيرات المختلفة على السلوك (جدول ٢) :

١ ـ المتغيرات ديناميه الاصل Dynamogenic variables ؛ وهي تقوم بالتحريك او الاستثارة والتنشيط ، ولذا يكون لها تأثير الشدة intensity effect على السلوك .

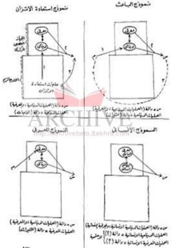
٢ ـ المتغيرات التوجيهية directive variables ؛ وهي تقوم بالتوجيه والتنظيم ، ولذا يكون لها تأثير توجيهي على السلوك .

٣ ـ المتغيرات المتجهة Vector variables وهي متغيرات محددة لكل من الشدة والاتجاه .

ويتضح من التصنيف (جدول ٣) مرة اخرى مصدر للارتباك بين النظريات النفسية لمصطلح « حافز » يستخدم في نظام هل كمتغير ديناميه الاصل ، بينما في نظام فرويد كمتغير متجه . ويستخدم مصطلح « حاجة » كمتغير ديناميه الاصل عند هل ، ولكن كمتغير متجه في نظرية موراي (١٩٣٨) وفي نظريات اخرى كثيرة للشخصية .

وبالاضافة الى ذلك ، توجد فروق بين المتغيرات المتجهة ، مثل « الغريزة » عند ماكدوجل و « الحافز » عند فرويد ، من ناحية ؛ و « جهد الاستجابة » عند هل و « الميل » عند الكنسون من ناحية اخرى . لذا يعتبر مصطلح « غريزة » عند ماكدوجل غامضا شموليا (ومن لم ينبغي تصنيفه كمتغير متجه) ؛ بينما يتحدد بوضوح مفهوم « جهد

شكل (٢)
نماذج الدافعية



جدول (٢) : تصنيف الاستعدادات والوظائف
وفقا لمدة وجود المتغيرات النفسية

	متغيرات الاستعداد « العوامل » أو « التركيبات »	متغيرات الوظيفة الحالات والعمليات
ماكدوجل	الغريزة الميل الطبيعي العاطفة	الميــل
فرويد	الهي ، الانا ، الانا الاعلى ميكانزمات الدفاع	العمليات الاولية والثانويــة الحوافز والطاقة
تولمان	القدرات والسمات المزاجية (١٩٣٢) استعداد الغاية ــ الوسيلة (١٩٣٢) مصفوفة الاعتقاد ــ القيمة (١٩٥١)	التوقعــات المطالب (١٩٣٢) الحاجات (١٩٥١) الحوافز (١٩٥٩)
يونج	الاتجــاه	الحافز ، الحاجة ، الحالة ، الرغبة ،
ألبورت	السمات الدافعية والوسيلية	السمات الدافعية والوسيلية
ليفين	تركيبات الشخصية والبيئة	التوتر ، القيمة الذاتية ، القوة
موراي	الحاجات (١٩٣٨) الاستعـدادات للموضــوع (١٩٥٩) الشحنــة الانفعالات (١٩٥٩)	الحاجة (١٩٣٨) الضغط والشحنة الانفعالية (١٩٣٨)
هل	قوة العــادة	الحافز جهد الاستجابة دافعية الباعث
هب	تجميعات الخلايا	تتابعات الاطوار (١٩٤٩) وظيفة الاثارة الاستثارة (١٩٥٥)
تنبرجن	ميكــانزمــات الغريزة ميكــانزمــات الافراج الفطري	الدافعية العوامل الدافعية
ماكليلاند	مستوى الواسمة	الدافــع الاستثارة الوجدانية

تابع جدول ٢

	متغيرات الاستعداد العوامل او التركيبات	متغيرات الوظيفة الحالات والعمليات
كاتل	الارج العاطفة الاتجاه	تنشيط الارجات : العواطف والاتجاه
سكنر	احتمال رد الفعل او قوة الاستجابة	الحرمان التدعيمية الاستثارة التنفورية
اتكنسون	الدافع	قيمة الباعث التوقع الميل
برلاين	المنظومة الاستثارية الشبكية والتركيبات العصبية الاخرى	المتغيرات الوازية الاستثارة ، التطلع

جدول (٣) : تصنيف المتغيرات : الدينامية ، والتوجيهية والمتجهة وفقا لتأثيراتها على السلوك

	المتغيرات دينامية الأصل	المتغيرات التوجيهية	المتغيرات المتجهة
ماكدوجل	الميل الطبيعي الميل		الغريزة العاطفة
فرويد	الشحنة الانفعالية	الأنا ، الأنا الأعلى العمليات الأولية والثانوية	الحوافز الهي
تولمان	الطلب (١٩٣٢) الحافز (١٩٥١) الحاجة (١٩٥١) الحافز (١٩٥٩)	استعدادالغايات ـ الوسيلة والتوقعات (١٩٣) مصفوفةالقيمة ـ الاعتقاد (١٩٥١) المعتقدات (١٩٥٩)	الحافز (١٩٣٢) حيز السلوك المباشر (١٩٥١)
يونج	الحاجة الحافز	الحالة الاتجاه	الرغبة (١٩٢٦) الدافع (١٩٦١)
ألبورت	الحافز السمات الدافعية	السمات الوسيلية	
ليفين	الحاجة التوتر القيمة الذاتية		القوة
موراي	الضغط الشحنة الانفعالية		الحاجة (١٩٣٨) الاستعدادات للموضوع (١٩٥٩)
هل	الحاجة الحافز دافعية الباعث	الاستجابةالوقوتة للهدف الحافز ـ المثير قوة العادة	جهد الاستجابة
هب	الاستثارة (١٩٥٥)	التتابع الطوري (١٩٤٩) تجميعات الخلايا (١٩٤٩) وظيفة الإثارة (١٩٥٥)	

تابع جدول ٢

	المتغيرات ديناميةالأصل	المتغيرات التوجيهية	المتغيرات المتجهة
تلبرجن	المثيرات المفرجة العوامل الدافعية الدافعية	ميكانزمات الانفراج الفطرى ميكانزمات الغريزة	
ماكيلاند	الاستثارة الوجدانية	الامارات	الدافع
كاتل	الارج		الاتجاه
سكنر	الحرمان		العاطفة
			المثيرات التقوية المدعمات قوة الاستجابة
الكنسون	قيمة الباعث الدافع	التوقع التفكير	الميل المتغيرات الوازرية
برلاين	الاستثارة	والعمليات المعرفية الأخرى	التطلع

الاستجابة » هنا هي كمزيج للمتغير دينامي الاصل (« الحافز ») والمتغير التوجيهي (« قوة العادة ») على النحو التالي : جهد الاستجابة = دالة (الحافز × قوة العادة) .

لكن هل وحواريوه قد خلطوا لسوء الحظ — أو على الأقل لم يميزوا بوضوح — بين البعدين المفهومين : « الاستعداد في مقابل الوظيفة » و « الدينامي الاصل في مقابل التوجيهي » . فلما يكون جهد الاستجابة والحافز وظائف ، بينما قوة العادة في الواقع استعداد (تنشط بالحافز ومن ثم فهي أيضا وظيفة ، ولكن لا يملك هل وحواريوه مصطلحا لقوة العادة كوظيفة) . وربما يعزى سبب هذا الاختلاط الى ان الاستعدادات غالبا ما تكون توجيهية (مثلما تكون قوة العادة) ، وان الوظائف غالبا ما تكون دينامية الاصل (مثلما يكون الحافز) . لكن هناك استعدادات تكون دينامية الاصل (مثل العوامل الراجحة) ووظائف تكون توجيهية (مثل الادراك وتفسيره من العمليات العرفية) . ولذا تتضمن معادلة اتكنسون : م = دالة (ع × و × ث) تمييزا بين البعدين . م (الميل) ، « و » (التوقع) وكذلك « ث » (قيمة الباعث incentive-value تكون كلها وظائف ، فيها « م » كوظيفة متجهة « و » كوظيفة توجيهية ، « ث » كوظيفة دينامية الاصل ، « ع » (الدافع) يتحدد في نظرية اتكنسون (١٩٦٤) بوضوح كاستعداد — ولكن ليس بوضوح وفقا لتأثيراته على السلوك — ومن ثم ربما يمكن تصنيفه كاستعداد متجه وكذلك كاستعداد دينامي .

واهمية التمييز بين هذين البعدين ربما تتضح أكثر اذا وجدناهما في تصنيف واحد ، يتبين منه لماذا كان المفهوم القديم للغريزة (مثل مفهوم الغريزة عند ماكدوجل) عقيما علميا ، حيث لم يقم اطلاقا بالتمييز والتحديد بين ابعاد المفاهيم ، فالغريزة كانت مصطلحا يشير الى كل من الاستعداد والوظيفة ، وكانت الوظائف تعتبر وظائف متجهة غير محددة .

ويتصف مسار النمو في نظريات الدافعية بتزايد التمايز في المفاهيم بين الابعاد المختلفة للمفاهيم ، ويرتبط هذا النمو ، بطبيعة الحال ، ارتباطا وثيقا بالنمو التجريبي .

ربما يمكن ان نستخدم تصنيف « دينامي في مقابل توجيهي » على أنه يعطي وصفا تقريبيا لنظريات الدافعية : كانت النظريات الأقدم (ماكدوجل ، فرويد ، والى حد ما الاشكال الاولى من نظريات موراي وأولمان) نظريات تستخدم مفاهيم المتجهات . اما النظريات الاحدث فتنقسم الى مجموعتين : تلك التي تؤكد على المتغيرات دينامية الأصل (خاصة هل وحواريوه) ، وتلك التي تؤكد على المتغيرات التوجيهية (خاصة نظريات ماكيلاند واتكنسون) .

والنتيجة الهامة لهذه الدراسة التحليلية المقارنة تكشف عن الميل المتزايد بين علماء النفس الى استخدام المصطلحات المختلفة للاشارة الى مختلف جوانب المفاهيم من المتغيرات النفسية التي يتناولونها في نظرياتهم .

واحراز خطوة اكبر في نمو التنظير السيكولوجي يتم بتقبل نظام عام من المصطلحات طالما انها مفاهيم عامة مشتركة بين علماء النفس يعبرون عنها بمصطلحاتهم . وبطبيعة الحال ينبغي ان يكون هناك مجال لاستخدام مصطلحات جديدة ومختلفة حينما يبتدع المنظر مفهوما جديدا أو يكتشف متغيرا .

• • •

من هذا التحليل المقارن لنظريات الدافعية وتناولها للمتغيرات الدافعية بمفاهيم مختلفة ، يمكن ان نخلص الى تصنيف لنظريات الدافعية خاصة وعلم النفس عامة الى الانماط التالية (جدول رقم ٥ ، ٦) :

١ — **نظريات « م — س » (S—R)** ، وهي تتضمن كل النظريات الوصفية ذات الفعاليات السلوكية . وهذه النظريات قد تتضمن اوصافا

جدول (٤) تصنيف جامع للمتغيرات الفرضية

المتغيرات التوجيهية	المتغيرات الديناميه	المتغيرات المتجهة
الاستعدادات : « الأنا » و « الأنا الاعلى » عند فرويد قوة العادة عند هل	« الدافع » عند الكنسون	« الهى » عند فرويد
		« الحاجة » عند موراى (ـ عوامل الشخصية)
الوظائف : « التوقع » عند الكنسون	« القيمة » عندالكنسون	« الميل » عند الكنسون
« الحالة » عند يونج	« الطاقة » عند فرويد	« الحافز » عند فرويد
	« التوتر » عند ليفين	« القوة » عند ليفين
	« الحافز » عند هل	« جهد الاستجابة » عند هل
		« الحاجة » عند موراى (ـ الحافز)

جدول (٥) : انماط نظريات الدافعية (مادس ١٩٧٣)

نظريات « م ـ س »	نظريات « م ـ ر ـ س »	نظريات م ـ ض ـ س	نظريات «م ـ ق ـ س»
سكنر	بافلوف	فرويد	اولبورت
بولز	يونج	وودورث	ماسلو
	هب	ليفين	
	تنبرجن	تولمان	
	دوفى	هل	
	فريمان	ميلر	
	برلاين	سبنس	
	لندرا	براون	
	مورجان	موراى	
	ستيلار	كاتل	
	كولورسكي	ماكيلاند	
		الكنسون	
		ماك ف هنت	
		كوش	
		فستنجر	
		بريرام	

جدول (٦) : تصنيف موحد للنظريات الدافعية (مادسن ، ١٩٧٢)

انماط النظريات

الفروض الاساسية	نظريات « م ـ س »	نظريات « م ـ ر ـ س »	نظريات « م ـ ف ـ س »	نظريات « م ـ ق ـ س »
فروض استعادة الاتزان		بافلوف ؛ دوق فريدمان	فرويد هـل موراى (١٩٣٨)	
فروض الباعث	سكنر بولز	يونج التبرجن هب برلاين بندرا	موراى (١٩٥٩) ليفين ماكليلاند الكنسون كاغن ميلر سبنس	
الفروض المعرفية			براون تولمان وودورث ماك لف هنت كوش فستنجر	
الفروض الانسانية				اولبورت ماسلو

علاقات أشبه بالقوانين Law - like relationships بين المتغيرات « م » والمتغيرات « س » ، لكن لا يقوم أي تفسير لهذه القوانين على فروض أساسية .

٢ ـ نظريات « م ـ و ـ س » (S-O-R) ، وهي تتضمن كل النظريات التي تفسر علاقات « م ـ س » باستخدام متغيرات فرضية (ض) ذات معنى فسيولوجي . (« و » (O) وتعني الاورجانزم) .

٣ ـ نظريات « م ـ ض ـ س » (S-H-R) وتتضمن كل النظريات التي تفسر العلاقة « م ـ س » باستخدام متغيرات فرضية لها معنى « محايد » لا يشير الى أي شكل من واقع أو مادة (يقول آخر ، التكوينات genuine constructs « الاصلية » .

ويتضمن هذا النمط أيضا كل النظريات التي تفسر باستخدام النمط الشكلي « التفسيرات الوسيطة » (مثل ، النماذج الرياضية) .

٤ ـ نظريات « م ـ ق ـ س » (S-M-R) وتتضمن كل النظريات التي تفسر العلاقات « م ـ س » باستخدام متغيرات فرضية ذات معنى عقلي (« ق » (M) تعني « عقلي » أو « العقل ») .

٥ ـ نظريات « ق » (M) ، وتتضمن النظريات التي تعبر من فهم لا يقوم على وصف موضوعي ودقيق بلغة البيانات السلوكية ، وانما قد تقوم على لغة البيانات الظاهرية (الفينومينولوجية) . لكن اصحاب هذه النظريات لا يتضحون بجلاء في هذا بقدر ما يظهرون في فلسفتهم عن الانسان .

(٢) نمذجة الدافعية

الدافعية ، اذن ، كانت ولا تزال موضوعا لفيض هائل من الدراسات النظرية والتجريبية تمخضت عن رؤيات ومفاهيم وفروض ومتغيرات جديدة .

ومن طبيعة الظاهرات المعقدة ان تخضع لمزيد من التحليل وتبني العلاقات ، وبالتالي تعدد النظريات والتصورات . وهنا يتوفر « بالتحليل » بينة متعددة ، قد تكون حتى متناقضة .

ويفرض منطق التناول العلمي لمثل هذه البينة العارمة محاولة تبينها وتبصرها في إطار تصورات جديدة تكشف عن العلاقات بين النظريات وما بينها من تناقضات . وبقول آخر ، عندما تصل الدراسات والبحوث الظاهرة الى حد التشبع الزائد بالبيانات والنتائج ، يستلزم النمو في دراسة هذه الظاهرة « تركيب » Synthesis هذه البينة الوفيرة في تصورات ونماذج اخرى تعمد الى جمع الشتات واستقلاد النظريات المختلفة ، وتسعى الى الكشف عما يجري بينها من علاقات والتناقضات ، وما اتصف به من ابهام او ايهام ، وما يشيع فيها من وصل وفصل .

يتمثل ذلك في بعض اتجاهات الفكر السيكولوجي المعاصر التي تعرف بـ « نمذجة النشاط النفسي » (Psychic Modelling)

« تتحدد أهمية « النماذج » (Models) في انها تسمح بأن تخضع للاختبار والمراجعة تلك الأسس التي تقوم عليها مفاهيمنا وفروضنا عن الظاهرة النفسية ، وبأن تبين امكانات التطبيق العملي لهذه المفاهيم والفروض . ويكشف التطبيق العملي لدرس قوانين النشاط النفسي بنجاح يمكن ان نستخدم ليس فحسب المنظومات البيولوجية biological systems ولكن أيضا منظومات مبتدعة اصطناعا لمعالجة المعلومات information processing

وهذا الاتجاه الرامي الى مزيد من التقدم في بناء النظريات النفسية آخذ في النمو بتعميق

الشبه بين « النموذج » و « الطراز الأصلي » (prototype) ويعتبر استخدام طريقة النمذجة فى بحث النشاط النفسي ليس «موضة» ولكن حتمية تفرضها طبيعة المشكلات المعاصرة لعلم النفس ، ومن ثم تمثل النمذجة فى جوهرها حلقة بالغة القيمة ، ناقصة فى نطاق الطرق المستخدمة فى علم النفس والطب النفسي تمكننا من التحقق والمراجعة من البينة التي تتمخض عنها البحوث ، ومن بناء نظرية علمية وعملية متقنة ونافعة . . » (١١)

ولعل هذا الاتجاه يتبدى خاصة فى علم النفس الدافعي ، وأبرز رواده الآن ، مادسن العالم الدنمركي .

يقدم « مادسن » لعلم النفس العلمي عدة نماذج للدافعية ، ويقرر : « لقد وجدنا انه من المقنع تصنيف الفروض الأساسية ـ البديهيات والمسلمات ـ للدافعية الى أربع فئات نطلق عليها « نماذج الدافعية » Models of motivation لأنها غالبا ما تكون نظما من التغيرات الفرضية ذات العلاقات المتبادلة ، يمكن تمثيلها بـ « نموذج » ووفقا للمضمون الأساسي للفروض الأساسية فى النماذج ، يصنفها مادسن على النحو التالي (شكل ٢) (١٢) :

(١) نموذج « استعادة الاتزان » "Homeostatic" model

(٢) نموذج « الباعث » "Incentive" model

(٣) النموذج « المعرفي » "Cognitive" model

(٤) النموذج « الانساني » "Humanistic" model

نموذج استعادة الاتزان : وهو أقدم النماذج فى تاريخ علم النفس الدافعي . وقد أدخل مفهوم « الاتزان العضوي » Homeostasis فى علم النفس ، السيكولوجي الأمريكي « والتركانون » (١٩١٥) عن الفسيولوجي الفرنسي « كلود برنار » فى تصوره « الوسط الداخلي » internal milieu وقد قدم فرويد كذلك (١٩١٥) تصورا مشابها فى نفس الوقت .

يتصور هذا النموذج ان **كل المعطيات البيولوجية ـ بما فيها السلوك ـ محتومة** باختلال « الاتزان العضوي » ـ أي الشروط العضوية للاتزان فى الاورجانزم ، وتستمر هذه المعطيات حتى يعود « الاتزان » الى حالته الأصلية . ويؤلف اختلال الاتزان **حاجة** تحدد بدورها **حافزا** رئيسيا . وهذا الحافز ، بالاشتراك مع عمليات معرفية ، يحدد **السلوك** الذي يشترك ـ أو « يشبع » ـ الحاجة ، ومن ثم يعيد اقرار الاتزان العضوي .

ويوجد هذا النموذج فى تلك النظريات المؤثرة مثل نظريات فرويد وهل . وقد تبنى كثير من علماء النفس هذا النموذج لأنه يتصف بعدة مزايا ، من أهمها :

(١) انه نموذج بسيط .

و (٢) انه نموذج بيولوجي ، وهو مايعتبر هاما بالنسبة لعلماء النفس فى فترة ما بعد الداروينية .

وقد أدت شهرة هذا النموذج بعلماء النفس الى سوء استخدامه والى تجاهل الحقائق لفترة

---

(١١) ا. ا. براكو وآخرون (باللغة الروسية) : نمذجة النشاط النفسي موسكو ، ١٩٦٩ ، ص ٢٥٥ ـ ٢٥٦ .

(١٢) K.B. Madsen. Patterns of preferences and models of motivation. Paper presented at the Symposium on Pleasure, Reward and Preference. June 5. - 9., 1972, Korsør, - Denmark.

طويلة لم تتلاءم في النموذج . ولقد تعرض هذا النموذج لنقد شديد الوطأة بحيث انه لم يعد قادرا على استبقاء مكانته على انه النموذج الدافعي الثابت الوحيد ، الامر الذى ادى الى ابتداع نماذج اخرى كبدائل له .

نموذج الباعث : استمرت « فترة لنموذج استعادة الاتزان » من عام ١٩١٥ (وهو العام الذى خرج فيه كانون بنظريته) حتى عام ١٩٥٢ (وهو العام الذى عقدت فيه « ندوة نبراسكا عن الدافعية Nebraska Symposium on Motivation وقد انتقد « هارلو (H.F. Harlow) في هذه الندوة نموذج الاتزان على انه ضيق للغاية ، وانه توجد دافعيات اولية بيولوجية اخرى بجانب حافز الاتزان . ولقد اشار خاصة بوجود « حافز استطلاعي بصرى »
visual exploratory drive

ولقد اتضح من التجارب الكثيرة فيما بعد ان حتى ما يعرف بحوافز الاتزان homeostatic drives (بصفة خاصة : الجوع ، العطش الجنسي) لا يمكن تفسيرها كلية بواسطة استخدام نموذج الاتزان . ومن اقوى الانتقادات الموجهة ضد النموذج الضيق للاتزان تلك التى قدمها « بول توماس يونج » (١٩٤١ ، ١٩٦١، ١٩٦٨) ، وهى تقوم على بينة تجريبية تتعلق بتفضيلات الطعام لدى الحيوانات ، وهذه التفضيلات لم تقم على الاتزان العضوى .

ويمكن تلخيص القضايا الرئيسية المتضمنة في « نموذج الباعث » كما يلى : يكون لمثيرات خارجية معينة تأثيراً **ديناميا** ، اى تحدد حالة التنشيط state of activation او تعبئة الطاقة energy mobilization في الاورجانزم . وهذه الحالة الدينامية ، بالاشتراك مع العمليات المعرفية ، تحدد سلوك الاورجانزم . وغالبا ما يتمخض عن هذا السلوك اختزال للمثيرات الدينامية الخارجية) انظر الشكل (ولهذه المثيرات اصلها في موضوعات

المثيرات المعروفة بـ « البواعث » اى موضوعات المثيرات الدافعة motivating stimulus objects (الدينامية ، التنشيطية ، المعبئة للطاقة) . وتتضمن البواعث في بعض النظريات « المدعمات » (reinforcers) و « موضوعات الهدف » goal objects

ويوجد نوعان من البواعث : الاولية والثانوية

البواعث الاولية ، وهى المثيرات « م (S) » التى لها تأثير دينامى **فطرى** . وهذه البواعث الاولية تلعب دوراً هاما فيما يعرف بالنظريات « الوجدانية » او نظريات « اللذة » (hedonistic theories) التى تتشابه بينها نظرية « بول توماس يونج » حيث يوضح ان الاستثارة الخارجية نتائج وجدانية ، وكذلك حسية ؛ وان « الاستثارة » الوجدانية (affective arousal) توجه الاورجانزم نحو او ضد موضوع المثير وفقا لدوره في الاختيار والتفضيل . ومن النظريات الدالة الصيت في هذا الصدد ، نظريات : هب (١٩٤٩) ؛ ماكيلاند ، واتبوجين .

ومما تجدر الاشارة له ان النظرية الوجدانية قديمة للغاية ـ حتى اقدم من نظرية الاتزان . فهى تعود الى فلاسفة الاغريق القدامى مثل ابقراط ، و « اصحاب المذهب النفعى » (مثل بنتام) في القرن الثامن عشر . ويكمن التصور الوجداني ايضا في « قانون الاثر » عند ثورنديك وفي « مبدأ اللذة » عند فرويد .

اما البواعث الثانوية ، فهى المثيرات « م » التى لها تأثير دينامى مكتسب . ولقد اصبحت البواعث دوراً هاما في نظرية التعلم الحديثة . وكان بفضل دافعية الباعث عند « سبنس » ان تضمنتها نظرية هل (يشار اليها بالرمز « ك » (K) تكريما لـ (K. W. Spence) وتحدد « دافعية الباعث » ك «
(incentive motivation, K)

هذه ، بالاشتراك مع « الحافز » (ف) و « قوة العادة » (م ع س) ، « جهد الاستجابة » (م ج س) والسلوك المتتابع . اذن « ك » متغير فرضي يتحدد بالمتغير « م » : حجم ونوع الاثابة (مثل ، الطعام) المستخدمة في تجارب التعلم التي تشير النظرية اليها .

طور سبنس تصور دافعية الباعث على اساس مفهوم هل عن « استجابة الهدف السابقة الجزئية » (fractional antedating goal response) او المعروفة بـ « ميكانزم

$r_g - s_g$ »

« والخاصية المميزة ، بل الوظيفة الوحيدة لهذه الاستجابة السابقة الجزئية ، هي انها تنتج مثيرات مميزة للحصول على الهدف . ويسمى هل هذا المثير « مثير الهدف الجزئي » fractional goal stimulus (s_g)

ونلاحظ ان حرف صغير دليل على انه مثير جزئي ، وان هل يربط بين $r_g - s_g$ بخط متقطع اشارة منه الى ان الرابطة بينهما داخلية . وتتطلب نشأة استجابة الهدف السابقة الجزئية ان ترتبط هذه الاستجابة (r_g) ارتباطا وثيقا بالحصول على الاهداف اي بالتعزيز » (١٢)

ولميكانزم استجابة الهدف السابقة الجزئية في نظام هل تأثير **توجيهي** فحسب ، لكن يشير سبنس الى احتمالية ان يكون لاحباط استجابة الهدف الكاملة complete goal response (RG) (r_g) تأثير **تنشيطي** مشابه للحافز . هذا التأثير التنشيطي **او الدينامي** لميكانزم

$r_g - s_g$

فصل عن التأثير **التوجيهي** بالرمز « ك » .

وقد صار « ك » في تعديلات سبنس (١٩٦٠) الاخيرة لنظريته ، اكثر اهمية من « ف » (الحافز) كمحدد للسلوك ، حيث افترض هنا انهما يتفاعلان بطريقة الاضافة ، ومن ثم كان تعديل سبنس لمعادلة هل المشهورة على النحو التالي :

م ج س = م ع س × (ف + ك)

او جهد الاستجابة = دالة قوة العادة × (الحافز + دافعية الباعث)

وقد افترض ان « ك » تكتسب **بالتدعيم** ، وتتحدد كالحافز ، بينما تكون « م ع س » (قوة العادة) مكتسبة **بالتجاور** contiguity وفقا لما يذهب اليه سبنس .

ومن بين النظريات الحديثة في الدافعية التي تنتمي الى « نموذج الباعث » : نظرية الكنسون ومن بين النظريات المبكرة : نظرية ليفين ، لانها تتضمن مفهوم « القيمة الذاتية » valence الذي تأثر به الكنسون بعمق ، كذلك يشبه مفهوم « الشحنة الانفعالية » cathexis عند فرويد المفهوم الحديث للباعث .

النموذج المعرفي : يدخل هذا النموذج تماما في كثير من النظريات المبكرة عن الادراك والعمليات المعرفية ، لكن بدون احكامها كنظريات للدافعية .

---

(١٢) سيد عثمان : القلق الثي الخالص ، الكتاب السنوي الاول للجمعية المصرية للدراسات النفسية ، القاهرة ، ١٩٧٤ .

ومن هنا ، تضمنت نظرية الجشطلت الكلاسيكية فروضا دافعية (ف . هيبدر ، ١٩٦٠) . فقد عالج علماء نفس الجشطلت « الميل الى الاغلاق » او « الى خلق شكل جيد » على انه متغير دينامي ، « قوة » . وهذا التصور لم يحكم ابدا في فروض دافعية صريحة ، وربما قصد فحسب بالميل الى الاغلاق تفسير دافعية العمليات المعرفية . لكن استطاع ليفين حيث نظرية عامة في الدافعية والشخصية ، تعتبر نظرية باعثية incentive theory اكثر منها نظرية معرفية .

وقد الهمت اعمال السيكولوجيين الجشطلت كذلك ، من خلال ليفين ، العالم « تولمان » . تضمنت نظرية تولمان (١٩٣٢) كلا المتغيرات المعرفية والدافعية لكي يفسر السلوك الغرضي لدى الحيوانات والانسان . وكانت بعض المتغيرات ــ خاصة « التهيؤ لدلائل الجشطلت » (sign - gestalt - readiness) عند تولمان ــ متغيرات دافعية معرفية مختلطة وقد احكم تولمان بعد ذلك (١٩٥١) هذه المتغيرات المختلطة في « مصفوفة الاعتقاد ــ القيمة (Belief - Value Matrix) التي تحدد السلوك ، بالاشتراك مع « نظام الحاجة » (Need System) و « حيسز السلوك » (Behavior Space) . وقد طبق تولمان نفسه على نظريته (١٩٥٢) « النموذج المعرفي للدافعية » (A Cognition Motivation Model)

وتتضمن النظريات الحديثة الدافعيةشكلين مختلفين بدرجة بسيطة للنموذج المعرفي :

يذهب الشكل الاول الى ان **العمليات المعرفية تحدد العمليات الدينامية** ، وان العمليات المعرفية الى تأثير **توجيهي** وكذلك **دينامي** (بطريقة غير مباشرة) . وخير مثال لهذا النمط نظرية « ليون فستنجر » عن « التنافر المعرفي » .

اما الشكل الآخر للنموذج المعرفي في الدافعية فيفترض ان **العمليات المعرفية « دافعيتها الذاتية** او الداخلية » (intrinsic motivation)

وافضل ايضاح لهذا نظرية « وودورث » ، التي تتضمن **تعميما لفكرة « الدافعية الذاتية او الداخلية » في « نظرية اولية السلوك »** (Behavior Primary theory) تقرر هذه النظرية ان اكثر انواع الدافعية اساسية يقوم على تناول البيئة بقوة . وهذه النظرية لا تستبعد الحقيقة بأن الدافعية « الخارجية » extrinsic ــ الحاجات والبواعث ــ قد تحدد ايضا السلوك في بعض الحالات . لكن الفكرة الاساسية انه حتى بدون هذه المصادر « الخارجية » للدافعية يكون الاورجانزم نشطا .

قدم « ماك . في . هنت » (١٩٦٥) « صيغة جديدة لنظرية المعلومات » (Information theory version) للنظريات المعرفية المبكرة من الدافعية ، ويبين ان نظرية « جان بياجيه » تتضمن نرضا كاملا عن الدافعية المعرفية « الذاتية او الداخلية » ، وان نظرية « كارل بريبرام » ــ العالم الامريكي السيكونيورولوجي ــ تنتمي الى نفس الفئة .

ولما كانت العمليات المعرفية الراقية تتعلق استئثارا بالانسان ، فان النموذج المعرفي يقترب من النموذج الانساني .

النموذج الانساني : لم يتحدد هذا النموذج بوضوح مقارنة بالنماذج الثلاثة الاخرى ، لكن هناك مجموعة من نظريات الدافعية تنطوي على خصائص مشتركة بحيث يمكن تمييزها عن النظريات الاخرى وتصنيفها في فئة واحدة . ومن المعالم الهامة المشتركة بينها :

(١) التصور الانساني لعلم النفس .

(٢) افتراض وجود فئة خاصة للدافعية الانسانية . وتعتبر فئة الدافعية هذه ـ أو السلوك الانساني ككل ـ « غير » محددة .

ومن أصدق النظريات تعبيرا عن هذا النموذج : نظرية « أولبورت » و « ماسلو » :

عرض « جوردون أولبورت » نظريته في كتابه « الشخصية » (١٩٣٧ ، طبعة معدلة ١٩٦١) . في هذا الكتاب الذائع الصيت ، قدم تحديدا وتمييزا بين العلوم ذات المنحى الفردي (idiographic) والعلوم ذات المنحى الناموسي (nomothetic) ، يقترب من التصورين الخاصين بـ « العلوم الطبيعية » (natural) و « العلوم التفسيرية » (hermeneutic) . وقدم فيه أيضا تصوره عن « الاستقلال الوظيفي » للدافعية (functional autonomy) الذي يرتبط بالفكرة التي عرض لها وودورث في كتابه الأول (١٩١٨) . ووفقا لهذا التصور توجد بينة تؤيد وجود فئة من الدافعية لدى الراشدين الناضجين والمتمتعين بالصحة النفسية تكون مستقلة وظيفيا عن الدافعية الاولية الاساسية التي توجد لدى الحيوانات والاطفال .

ويوضح أولبورت ان نظريات الدافعية المتضمنة في نظريات التعلم تستند بطريقة ضيقة للغاية على التجريب على الحيوانات ، وان نظرية الدافعية المتضمنة في نظرية التحليل النفسي تستند أيضا بطريقة ضيقة للغاية على دراسة العصابيين ، وهم أكثر طفلية في دافعيتهم من الراشدين الناضجين الاصحاء (مادس ، ١٩٥٩) .

وقد تأثر « ابراهام ماسلو » في نظريته بأولبورت وغيره . ويعتبر ماسلو امام « علماء النفس الانسانيين (humanistic psychologists) حيث نادى بالحاجة الى تصور انساني آخر العام خلافا للتصور الطبيعي الذي سيطر حديثا على الفكر السيكولوجي الامريكي . وارتباطا بذلك ايضا تبنى تصورا انسانيا خاصا للانسان خلافا للتصور البيولوجي السائد . ويتضمن تصور ماسلو للانسان فرضه المتعلق بنوع رائد انساني خاص للدافعية يعرف بـ « الحاجة الى النمو » (growth need) أو « دافعية التغير » (metamotivation) .

ويمكن الاشارة الى نظرية « توماس مور » (١٩٤٨) كمثال آخر ، وان كان أقل ذيوعا ، تفترض هذه النظرية تصورا انسانيا للعالم ونظرية في « حرية الارادة » اللاحتمية للدافعية الانسانية .

• • •

من هذا العرض لنمذجة النشاط الدافعي يتضح الى اي حد تطول النمذجة الكثير من نظريات الدافعية الى نماذج محددة تسكن فيها مفاهيمها ومتغيراتها . لكن يسعى بعض العلماء الى مزيد من الربط والوصل بين هذه النماذج المختلفة في تصورات تركيبية synthesis أكثر عمومية ووظيفية . من هذه التصورات ما قدمه « مادس (١٩٧٤) من « نموذج متكامل » ، يحاول فيه اقرار التكامل بين هذه النماذج ، وان كان يقرر انه لم ينجح في تضمين النموذج الانساني داخل « النموذج المتكامل » ، وبالتالي يسمى هذا النموذج الاخير الى التكامل بين النماذج الثلاث الاولى : « نموذج الاتزان » ، « نموذج الباعث » « النموذج المرق » .

يقوم التصور التركيبي لهذا النموذج الموحد كما يقرر مادس ، على فرضين : الاول يقرر ان كل النماذج الثلاث « صادقة جزئيا » بقدر ما تتناول فئات مختلفة من الدافعية . ويقول آخر ، نماذج الدافعية صادقة كلها ، لكنها قد حدث من امكانية تطبيقها . لذا يفترض ان كل نموذج صادق لفئة خاصة من الدافعية .

اما الفرض الثاني ، فمؤداه ان كل فئةللدافعية تتضمن بنية معينة في الدماغ (بالاضافة الى « منظومة الاستثارة الشبكية » التي تتضمن كل انواع الدافعية) . وفي ضوء ذلك ، يقترح مادسن (١٩٧٢) الفئات التالية للدافعية :

١ الدوافع دون سريرية المخ
hypothalamic motives

وهي الفئة من الدافعية التي يفترض وجودها في مراكز دون سريرية المخ hypothalamic centres وكذلك في منظومة الاستثارة الشبكية(RAS) . وهذه الفئة تكون اكثر صدقا بالنسبة لنموذج استعادة الاتزان . ولكن حتى في هذه الحالة لا نستطيع اعتبار نموذج الاتزان على الصادق تماما ، حيث ان دوافع الاتزان تتضمن : مثلا الدافع الجنسي الذي لا يعتبر كلية تابعا للاتزان العضوي . وربما تحدد البواعث ايضا هذا النوع من الدوافع وكذلك الدوافع العضوية الاخرى : الجوع ، العطش ، تجنب الالم ، تجنب البرد ، الخ . ولذا يمكن ان يطلق على هذه الفئة من الدافعية « الدوافع العضوية » ، او « دوافع استعادة الاتزان » او « الدوافع دون سريرية المخ » .

٢ ـ الدوافع الحرفية limbic motives

وهي تلك الفئة من الدافعية التي يفترض ان تتضمن « المنظومة الحرفية » limbic system في المخ ، وكذلك منظومة الاستثارة الشبكية . وهنا يتبين مادسن فروض « كونورسكي » بأن « الدوافع الانفعالية » تتضمن « مراكز الحوافز الحرفية » limbic drive centers وان «الدوافع الاجتماعية» مشروطة بالدوافع الانفعالية . وهنا ينطبق خاصة « نموذج الباعث » على هذه الدوافع ، لذا يمكن ان نسمي ايضا الدوافع «الانفعالية» و « الاجتماعية » بالدوافع « الحرفية » (الفصوص الحرفية ، وهي المحيطة بالجسم الجاسىء في الدماغ) أو « الباعث » .

٣ ـ الدوافع اللحائية : Cortical motives

وتتضمن اللحاء المخي cerebral cortex وكذلك منظومة الاستثارة الشبكية . وهي تلك الفئة من الدوافع التي تقوم بوظيفتها وفقا للنموذج المعرفي : فالعمليات المعرفية تحدد دافعيتها . ومن ثم يمكن ان تسمى هذه الفئة بالدوافع « المعرفية » او « اللحائية » .

٤ ـ دوافع منظومة الاستثارة الشبكية
Reticular Arousal System

وهي الدوافع التي يفترض ان تتضمن فقط منظومة الاستثارة الشبكية (RAS) وهي الدوافع التي يصدق عليها النموذج « الذاتي او الداخلي » intrinsic ـ مثل نظرية اولية السلوك عند وودورث . ومن ثم ، يمكن ان نعرف بالدوافع « الذاتية او الداخلية » او « دوافع الاستثارة او التنشيط » (activation motives) .

• • •

والخلاصة : لقد عرف علم النفس لسنوات عديدة بحقيقة تقرر بأنه ذلك العلم الذي ينتج نظريات متعارضة كثيرة . وربما يستمر هذا الاتجاه في المستقبل ، لذا ، من الأهمية بمكان بالنسبة لعلماء النفس ان يكونوا قادرين على ان ينموا في انفسهم القدرة على ترشيدتناولهم لهذه النظريات المختلفة ، وعلى استخدامها بوعي يتفتح على علم النفس كعلم ، لا على نظرية بعينها ، وان يكونوا على بصيرة من انفسهم ليخففوا من دفاعاتهم الرامية الى فرض محرمات نظرية theoretical taboos على الظاهرة النفسية الحية النامية ..

وحسبنا تبصر « علم النفس العلمي » !

المراجــع

ALLPORT, G. W. **Personality : a psychological interpretation.** New York : Holt, Rinehart & Winston, 1937.
Pattern and growth in personality. New York : Holt, Rinehart & Winston, 1961.

ATKINSON, J.W. **An introduction to motivation.** Princeton, N. J. : Van Nostrand, 1964.
(ed.) **Motives in fantasy, and society.** Princeton, N. J. : Van Nostrand, 1958.
and Feather, N. T. (eds.) **A theory of achievement motivation.** New York : John Wiley, 1966.

Bash, K.W. An investigation into a possible organic basis for the hunger drive. **J. Comp. Physiol. Psychol.**, 1939, 28, 109 - 135.

BERLYNE, D. E. Conflict, arousal, and curiosity. New York : McGraw Hill, 1960.
Motivation problems raised by exploratory and epistemic behaviour. In S. Koch (ed.), Psychology - a study of a science, Vol. 5. New York : Mc Graw-Hill, 1963.
Reinforcement and arousal. In David Levine (ed.), **Nebraska symposium on motivation.** LLincoln : Nebraska University Press, 1967.

BINDRA, D. **Motivation : a systematic reinterpretation.** New York : Ronald Press, 1959.

BOLLES, R. C. **Theory of motivation.** New York and London : Harper & Row, 1967.

BROWN, J. S. **The motivation of behavior.** New York : McGraw-Hill, 1961.

CATTELL, R.B. Description and measurement of personality. New York : Harcourt, 1946.
Personality ; a systematic theoretical and factual study. New York : McGraw-Hill, 1950.
Personality and Motivation structure and measurement. New York : World BBook World Book Co., 1957.
The scientific analysis of personality . Baltimore : Penguin, 1965.
(ed.) **Handbook of modern personality theory.** Chicago : Aldine, forthcoming.

COLEY, K.M. **Energy and structure in psychoanalysis.** New York : Ronald Press, 1955.

DOLLARD, J., and MILLER, N.E. **Personality and psychotherapy.** New York : McGraw-Hill, 1950.

DUFFY, ELISABETHI, **Activation and behavior.** New York : John Wiley, 1962.

EYSENCH, H. J. **The biological basis of personality.** Springfield, Ill. : Charles C Thomas, 1967.

EYSENCK, H. J., (ed.) **Experiments in motivation.** Oxford : Pergamon Press, 1964.

FARBER, I. E. Anxiety as a drive state. In M. R. Jones (ed.), **Nebraska symposium on motivation.** Lincoln : Nebraska University Press, 1954.

FEATHER, N. T. An expectancy-value model of information-seeking behaviour. **Psychological Review**, 1967, 5 (74), 342-60.

FRANKEL, Y.E. **Man's search for meaning : an introduction to logotherapy.** New York : Washington Square Press, 1963.

HEBB, D.O. **Organization of behaviour .** New York : John Wiley, 1949.

Drive and the CNS (conceptual nervous system). **Psychological Review**, 1955, 62, 243-54.

A Neurophysiological theory. In S. Koch, **Psychology-a study of science**, vol. I. New York : McGraw-Hill, 1959.

A textbook of psychology. Philadelphia : Saunders, 1966.

HULL, C. L. **Principles of behavior.** New York : Appleton-Century-Crofts, 1943.

A behaviour system. New Haven : Yale University Press, 1952.

JONES, M.R. (ed.) **Nebraska symposiums on motivation.** Lincoln : Nebraska University Press, 1953-1963.

LAWRENENCE, D.H. & W. A. MASON. Food intake in the rat as a function of deprivation intervals and feeding rhythms. J. Comp. Physiol. Psychol. 1955, 48, 267-271.

A dynamic theory of personality. New York : McGraw-Hill, 1935.

Principles of topological psychology. New York : McGraw-Hill,a1936.

A conceptual representation and the measurement of psychological forces. Durham N.C. : Duke University Press, 1938.

Field theory in social science. D. Cartwright (ed.) New York : Harper & Row,19 1952.

LINDSLEY, D. B. Psychoophy siology motivation. In M.R. Jones (ed.), **Nebraska symposium on motivation.** Lincoln : Nebraska University Press, 1957.

LURIA, A. R. **Human brain and psychological processes.** New York : Harper, 1966.

MC CLELLAND, DAVID C. **Personality.** New York : Drydan Press, 1951.

The achieving society. Princeton, N. J. : Van Nostrand Reinhold, 1961.

(ed.) **Studies in motivation** : New York : Appleton-Century-Crofts, 1955.

ATKINSON, JOHN W., CLARK, RUSSELL A., and LOWELL, L. **The achievement motive,** New York : Appleton-Century-Crofts, 1953.

MC CIELLAND, D. and WINTER, D. **Motivating economic achievement.** New York : Free Press, 1969.

MC DOUGALL, W. **An introduction to social psychology.** London : Methuen, 1908. 1908. The 1960 edition is used here. The energies of men, London : Ethuen, 1932.

MADSEN, K.B. **Theories of motivation,** 4th ed. Copenhagen : Munks-gaard, 1959. 4th ed., 1968.

Integration through meta-science. Exemplified by a comparative study of psychological theories. **Proceedings of the XIV International Congress of Philosophy,** Vienna &s1968 b.

Modern theories of motivation. Copenhagen : Munksgaard, 1973.

MASLOW, A. H. Motivation and personality. New York : Harper and Row, 1954.

New knowledge in human values. New York : Harper and Row 1959.

Toward a psychology of being. Princeton, N.J., : Van Nostrand Reinhold, 1962.

The psychology of science. New York : Harper & Row, 1966.

A theory of meta-motivation : The biological rooting of the value-life. **Journal** of Humanistic Psychology, 1967, 93-127.

MILLER, N.E. An experimental investigation of acquired drives. **Psychological Bulletin,** 1941, 38, 534-35.

Studies of fear as an acquirable drive. **Journal of Experimental Psychology.** 1948, 38, 89-101.

Learnable drives and rewards. In S. S. Stevens (ed.), **Handbook of experimental psychology.** New York : John Wiley, 1951.

Liberalization of basic S-R-concepts : extension to conflict behaviour, motivation, and social learning. in S. Koch (ed.), **Psychology - A study of a science** vol. 2. New York : McGraw-Hill, 191959.

And DOLLARD, J. **Social learning and imitation.** New Haven, Conn : Yale University Press, 1941.

MORGAN, C. & J. T. MORGAN, Studies in hunger : II the relation of grastic deservation and dietary sugar to the effect of insulin upon food intake in the rat. **J. Genet. Psychol.,** 1940, 57, 153-163.

MORUZZI, G., and MAGOUN, H.W. Brain stem reticular formation and activation of EEG. **EEG Clinical Neurophysiology,** 1949, 1, 455-73.

MOWRER, O. H. A stimulus-response analysis of anxiety and its role as a reinforcing agent. **Psychological Review**, 1939, 46, 553-65.

Learning theory and personality dynamics. New York : Ronald Press, 1950.

Motivation. **Annual Review of Psychology**, 1952, 3, 419-32.

Learning theory and behaviour. New York and London : John Wiley, 1960a.

Learning theory and the symbolic processes. New York and London; John Wiley, 1960b.

MURPHY, G. **Personality : A biological approach to origins and structure.** New York : Harper, 1947.

MURRAY, H. A. **Explorations in personality.** New York : Oxford University Press, 1938.

Toward a classification of interaction. In T. Parson and E. A. Shil (eds.),

Towards a general theory of action. Cambridge, Mass : Harvard University Press, 1951.

PETERS, R.S. The concept of motivation. London : Routledge & Kegan Paul, 1958.

RAPAPORT, D. The structure of psychoanalytic theory : a systematic attempt. In S. Koch (ed.), Psychology a study of a science, vol. 3. New York : McGraw-Hill 1959.

On the psychoanalytic theory of motivation. In M.R. Jones ed.) **Nebraska symposium on motivation.** Lincoln : Nebraska University Press, 1960.

SKINNER, B.F. **Science and human behavior.** New York : Macmillan, 1953.

Technology of teaching, New York : Appleton-Century-Crofts, 1968.

SOKOLOV, E.N. **Perception and the conditioned reflex.** Oxford : Pergamon Press, 1963.

SPENCE, K. W. **Behaviour theory and conditioning.** New York, Conn. : Yale University Press, 1956.

Behaviour theory and learning. Englewood Cliffs, N.J. : Prentice-Hall, 1960.

and JANET TAYLOR SPENCE (eds.) The **Pschology of learning and motivation.** New York and London : Academic Press.

THOMAE, H. (ed.) Allgemeine Psychologie II : **Motivation."** Göttingen : Hogrefe's Verlag Für Psychologie, 1965.

THORNDIKE, E. L. Animal intelligence. **Psychological Review**, 1898, Monograph Supplement 2, 8.

Animal intelligence, New York : Macmillan, 1911.

TINBERGEN, N. **The study of instinct.** Oxford ; Oxford University Press, 1951.

TOLMAN, E. C. **Purposive behaviour in animal and men.** New York : Appleton-Century-Crofts, 1932.

Drives towards war. New York : Appleton-Century-Crofts, 1942.

A Psychological model. In T. Parson and E.A. Shill (eds.), **Toward a general theory of action.** Cambridge, Mass : Harvard University Press, 1951.

Principles of purposive behaviour. In S. Koch (ed), **Psychology, A study of a science**, vol. 2, New York : McGraw-Hill, 1959.

TSANG, Y. C. Hunger Motivation in gastrectomized rats. **J. Abnorm. Physiol. Psychol.**, 1938, 26, 1-17.

WANGENSTEEN, O.H. & A.J. CARLSON., Hunger sensations in a patient after total gastrectomy. **Proceedings of the Society of Experimental Biology**, 1931, 28, 545 - 547.

* * *

ابن شرف القيرواني

وآراؤه النقدية في رسالته « اعلام الكلام »

محمد سلامة يوسف

ابن شرف افريقي أو بالاحرى مغربي المولد والنشأ والمربى ، وقد كان معاصرا لدولة بني زيرى خلفاء العبيديين على المغرب وعمالهم عليه ، بعد أن فتحوا مصر واتخذوا من القاهرة عاصمة لملكهم ، وما ان جلا العبيديون من المغرب حتى تنفس أهل السنة الصعداء بعد أن لقوا على أيدي العبيديين ضروبا من الاذى وصنوفا من العسف والوانا من الاضطهاد زهاء ستين عاما أو اكثر ، حاولوا فيها بشتى الوسائل ومختلف الاساليب فرض المذهب التشيعي وقمع المذهب السني والقضاء على أهله ، ولاسيما المالكية منهم .

ولما ولي المعز بن باديس — واسطة عقد بني زيرى واشهر ملوكهم وربيب المالكية وربيع ليائها — بدا له أن يقطع الصلة الواهية التي تربطه بالعبيديين الشيعيين النحلة ، فأعلن انفصاله منهم ، وخلع طاعتهم ، ولعنهم على اعواد المنابر ، وحمل المغاربة على اعتناق مذهب مالك والاستمساك به دون سواه متأسيا في ذلك بملوك بني امية بالاندلس ، يقول ابن الأثير : « وهذا المعز اول من حمل الناس بافريقية على مذهب مالك ، وكان الاغلب عليهم مذهب ابي حنيفة » (1) ويقول ابن خلدون : « وكان المعز منحرفا عن مذاهب الرافضة، ومنتحلا السنة، فأعلن بمذهبه لأول ولايته ، ولعن الرافضة ، ثم صار الى قتل من وجد منهم » (2) .

---

(1) الكامل ٩ : ٩٥ .

(2) تاريخ ابن خلدون ٦ : ١٥٦ .

بيد ان المعز لم ينعم طويلا بالاستقلال ، فقد اغضب العبيديين ، واحفظهم وأثار موجدتهم عليه ، فأخذ الخليفة المستنصر الموتور يفكر كيف يثأر لنفسه من المعز الذى انشق عليه ، وخلع طاعته ، فأشار عليه وزيره اليازورى ان يشرعوا فى ارسال العرب الى المغرب ، فأصلحوا بين زغبة ورياح وكانت بينهم حروب وحقود واعطوهم مالا ، وامروهم بقصد القيروان ، وملكوهم كل مايفتحونه ، ووعدوهم بالمدد والعدد فدخلت العرب افريقية ودارت رحى الحرب على ارض المغرب حتى عجز المعز عن رد عادية الأعراب المغيرين ، وسقط فى يده ، واضطر الى ان يشير على رعيته بالارتحال من القيروان الى المهدية سنة ٤٩ هـ وهكذا نجحت المكيدة التى بيتت بليل ، وخربت القيروان دار العلم بالمغرب ، وانحسرت موجة العلم والأدب من القيروان الى المهدية العاصمة الثانية لأمراء بنى زيرى ، وارز اليها العلماء والادباء والشعراء .

وقد عاش ابن شرف فى ظلال المعز بن باديس ، واتصلت اسبابه بأسبابه ، وانخرط فى سلك خدمته ، ولقى حظوة كبيرة فى بلاطه ، حتى اصبح شاعر المعز المقدم عنده الأثير لديه على سائر من فى بلاطه من الادباء والشعراء باستثناء ابن رشيق .

حياته :

هو **ابو عبد الله محمد بن ابى سعيد احمد بن شرف الجذامى القيروانى** ، هذا ماورد فيما اثر لنا من كتب التراجم والطبقات التى ترجمت له ، وعرفت به قديما وحديثا ، **فياقوت** يقول فى ترجمته له : [محمد بن ابى سعيد محمد المعروف بابن شرف الجذامى القيروانى] (٣) **ويقول الصفدى** : « محمد بن ابى سعيد بن احمد بن شرف القيروانى ابو عبد الله الجذامى(٤) ويقو **ابن شاكر الكتبى** فى فواته : « محمد بن سعيد بن احمد بن شرف القيروانى الجذامى » (٥) ويقول **ابن بشكوال** : « محمد ابن ابى سعيد بن شرف الجذامى القيروانى يكنى ابا عبد الله » (٦) ويقول **السيوطى** : « محمد بن ابى سعيد بن شرف الجذامى » (٧) ويكتفى **ابن بسام** فى ترجمته بقوله : « وكان ابو عبد الله بن شرف بالقيروانى من فرسان هذا الشأن » (٨) ويغفل الدباغ فى **معالم الايمان** (٩) ذكر نسبه ويهمله ، ولا يشير اليه ، اما **ابن دحية** فى كتابه المطرب فقد اورد سلسلة نسبه ، وانتهى به الى قحطان نقلا عن **ابن الكلبى** أول من راد علم الانساب ، والف فيها حيث يقول فى بداية ترجمته له : [من ولد جذام بن عدى بن الحارث بن مرة بن ادد بن زيد بن يشجب بن عريب بن زيد بن كهلان بن سبا بن يشجب بن يعرب بن قحطان كذا نسبه ابو المنذر هشام بن محمد السائب الكلبى (١٠) اما المحدثون فقد

---

(٣) معجم الادباء ١٩ : ٣٧ .
(٤) الوافى بالوفيات ٢ : ٩٧ .
(٥) فوات الوفيات ٢ : ١٠٠ .
(٦) الصلة ٢ : ٥٧١ .
(٧) بغية الوعاة : ٤٦ .
(٨) الذخيرة القسم الرابع المجلد الاول : ١٣٢ .
(٩) معالم الايمان ٣ : ٢٣٩ .
(١٠) المطرب : ٦٦ .

ليعوا الجذامي عند ترجمتهم لابن شرف ، فالبغدادي في هدية العارفين يعرف به وينسبه بقوله : « محمد بن سعيد بن أحمد بن شرف الجذامي القيرواني » (١١) ويقول **محمد كرد علي** : « أبو عبد الله محمد بن أبي سعيد بن شرف الجذامي القيرواني » (١٢) ويقول **صاحب معجم المطبوعات** : « أبو عبد الله محمد بن سعيد بن أحمد بن شرف القيرواني الجذامي » (١٣) .

ومن عرضنا لما ورد عن أصحاب التراجم **والطبقات** قديما وحديثا في نسبه عند ترجمتهم له ، وتعريفهم به نجدهم قاطبة يجمعون على أنه عربي صليبة وليس ولاء ، وانه سليل قبيلة جذام تلك القبيلة العربية القحطانية التي نزحت الى افريقية **ليمن** نزح اليها من القبائل العربية إبان الفتوح الاسلامية لهذا الصقع ، والقت به عصا التسيار وطاب لها المقام بمدينة القيروان فهو اذن عربي صريح ينتمي الى الأرومة العربية القحطانية ، وقد كان نسبه العربي أمرا متصلا مشهورا، حتى ان ابن رشيق، قرينه ومنافسه في بلاط المعز بن باديس ، لم يستطع ان يغمزه في نسبه او يطعن في عروبته ، وينال منها عندما استحكم العداء بينهما ، فعندما نقرأ في ترجمة ياقوت لابن رشيق : « وكان بينه وبين ابن شرف الأديب مناقضات ومحاقدات ، وصنف

في الرد عليه عدة تصانيف ، كان أبوه رشيق روميا ذكر ذلك هو في الرد على ابن شرف بعد ذكره نسب ابن شرف : هو اسم امرأة نائحة ، ثم قال : وأما أنا فلا نضر الله وجه هذا الشيخ في ، والام به النعمة علي ، فما أبقى به أبا ، ولا أرضى بملدعيه ملدعيا ، رشيق به روميا لادعيا ولا بدعيا » (١٤) فيبدو لنا من هذا النص أن ابن شرف ربما كان ينبز ابن رشيق بأرومته الرومية ، ويغمزه في نسبه في الأعاجم ، ويطعن عليه ، ويتنقص منه بذلك ، وينال منه في زمن كان العربي يعتز فيه بعروبته ، ويستشعر فيها العزة والشمم وكان الموالي المنتمون الى أصول غير عربية لايالون جهدا في الانتماء من الولاء الذي وسمهم بميسم الذلة والصغار ، ومن لم اخذوا يصطنعون الانساب العربية ، ويلتفون جهدهم من أصولهم غير العربية التي تعلهم ، حتى انا نجد أبا مسلم الخراساني وهو من هو يصطنع لنفسه نسبا عربيا يزعم فيه أنه من نسل سليط بن عبد الله بن عباس ، وقد قرنه بذلك أبو جعفر المنصور ، وأنكر عليه هذا النسب المزعوم عندما هم بالايقاع به وقتله على مايروى لنا الطبري في تاريخه : (١٥) وترى ياقوت في ترجمته للجاحظ يورد لنا قصة تدل على سخرية الجاحظ (١٦) بهذه الصناعة التي راجت في عصره ، الا أننا نرى ابن رشيق في رده على ابن شرف يصرح برضاه عن نسبه في الأعاجم ، ويفخر بأرومته الرومية ، ويعرض

(١١) هدية العارفين ٩ : ٧١ .

(١٢) رسائل البلغاء : ٣٠٢ وانظر ترجمة حسن حسني لابن شرف في مجلة المقتبس المجلد السادس : ٣٥١ .

(١٣) معجم المطبوعات ١ : ١٣٩ .

(١٤) معجم الأدباء ٨ : ١١١ .

(١٥) تاريخ الطبري ٩ : ١٦٦ ــ ١٦٧ .

(١٦) معجم الأدباء ١٦ : ٩٤ .

بابن شرف الذي قالوا عنه : ان شرفا اسم امه (١٧) ، وانه ليس له اب معروف، كما غمزه بذلك مرة أخرى حيث يقول :

انـا ابـن ترشيـق لسـت أنكـره
قل لي أبوك وصوره مـن الخشـب

وهكذا نرى ان اصحاب التراجم والطبقات يجمعون على ان ابن شرف عربي صريح ، وانه سليل قبيلة جذاع تلك القبيلة العربية اليمنية (١٨) التي ينتهي نسبها الى قحطان .

ولم يشر احد ممن ترجموا له ، وعرفوا به الى مكان ولادته ومسقط رأسه ، ويغلب على **الظن انه ولد بالقيروان** ، اما سنة مولده فاننا لانكاد **نجد** احدا اشار اليها ممن ترجموا له من اصحاب التراجم القدامى ، اما المحدثون **فقد حددها الاستاذ محمد كرد علي وحسن حسني بنحو سنة ٣٩٠ هـ (١٩)** ، اما سنة وفاته فانهم يكادون يتفقون على **انه توفي سنة ٤٦٠ هـ (٢٠) ولم يشذ عن هذا الاتفاق سوى الصفدي** وابن بسام والسيوطي اما الصفدي فانه أورد تاريخ وفاته بأسلوب الشك والاحتمال ، ولم يقطع بان وفاته كانت في هذا التاريخ حيث يقول : « وتوفي سنة ستين وأربعمائة ، او فيما قبلها » (٢١) ، اما ابن بسام فقد أورد في اخبار ابن شرف انه توفي سنة ٣٦٢ هـ نقلا من ابن رشيق حيث يقول : « حكى ابو علي في رسالة قراضة الذهب انه مات سنة اثنتين وستين وثلثمائة (٢٢) وهو خبر غريب ووهم واضح ، اذ انه لم يكن ولد ، وخرج الى الوجود في هذا التاريخ ، وقراضة الذهب التي بين ايدينا الآن لا نجد فيها اشارة الى هذا الخبر الغريب ، ولعل ابن بسام كان يعني سنة اثنتين وستين واربعمائة لا اثنتين وستين وثلثمائة ، اما السيوطي فقد ذهب الى انه توفي سنة ٥١٨هـ وهو خبر غريب ووهم واضح ، ولا ندري من اين اتى بهذا التاريخ مع ان ترجمته له لا تعدو سطرين استقاهما ونقلهما من الصلة لابن بشكوال ، وبالرجوع الى المصدر الذي استقى منه ، ونقل عنه ، لا نجد ابن بشكوال يذكر تاريخ وفاة ابن شرف بل اغفله تماما واهمله ولم يشر اليه ، على هذا فتحديد تاريخ وفاة ابن شرف بسنة ٥١٨ هـ من اختراع السيوطي ، وليس كما زعم من انه نقله عن ابن بشكوال حيث يقول : « مات سنة ثمان عشرة وخمسمائة ذكره ابن بشكوال في زوائده على الصلة (٢٣) اما مكان وفاته فنحن

---

(١٧) يقول الصفدي : « قيل ان شرف اسم ام احمد فلهذا لايعرف ، واسم ابيه فيعرف » الوافي بالوفيات ٢ : ٩٧ وبعد ان يعدد رسائل ابن رشيق في هجاء ابن شرف وذكر الفاظه يقول : « وانشدني في بعضها :

بنـو شـرف شـرف امكـم — وليسـت اباكـم فـلا تكـذب
ولكنهـا انقلبـت شيخكـم — فكيـف في ذلـك التعصـب
اينبـوا لنـا امكـم اولا — ونحسـن نسامحكـم بالاب

انظر الوافي بالوفيات ٢ : ٩٧ .

(١٨) في كشف الظنون ١ : ٤٦ « جذام باسم الجيم والذال قبيلة من اليمن » .

(١٩) « رسائل البلغاء : ٣٠٢ وانظر مجلة القبس ٦ : ٢٥١ .

(٢٠) انظر معجم الادباء ١٩ : ٣٨ وفيات الوفيات ٢ : ١٠، وكشف الظنون ١ : ٤٦ وهدية العارفين ١ : ٧٢ وظهر الاسلام ١ : ٢٠٨ والاعلام الزركلي ٢ : ٩٠٠ .

(٢١) الوافي بالوفيات ٢ : ٩٧ .

(٢٢) الذخيرة القسم الرابع المجلد الاول : ١٨٠ .

(٢٣) بغية الوعاة : ٤٦ .

نعلم انه توفى في دار غربته بالاندلس متنقلا بين ملوك الطوائف . الا اننا لا نكاد نجد احدا من اصحاب التراجم القدامى حدد لنا مكان وفاته اللهم الا ياقوت الذي يكاد ينفرد بين القدامى بتقرير أن وفاة ابن شرف كانت باشبيلية (٢٤) ، كما ذهب الى ذلك من المحدثين حسن حسني عبد الوهاب حيث يقول: « واجتاز ابن شرف وحده الاندلس ، وسكن المرية وغيرها ، وتردد على ملوك الطوائف كآل عباد باشبيلية وغيرهم وبهذه المدينة الاخيرة كانت وفاته سنة ٤٦٠ هـ » (٢٥) وتبعه في ذلك طائفة من المحدثين . (٢٦) ونحن نشك في هذا الخبر ولا نكاد نطمئن الى انه توفى باشبيلية ، وانه اتصلت أسبابه بأسباب المعتضد بن عباد صاحب اشبيلية وعاش في كنفه الى أن ادركته منيته ، لاننا نجد ابن بسام في ذخيرته يقول عن ابن شرف : « واستقر آخرا عند المأمون بن ذي النون فطيه خلع آخر لبوسه ونشر كيسه ، وكانت لعباد همة في اصطناع الاحرار واستجلاب ذوي الاخطار ينصب لذلك الحبائل ويعمل فيه الحق والباطل ، حتى اذا غشوا الى سرجه ، واشتروا بزبرجه سامهم رد قبيس على ابيه ، واطمعهم بالسعاية بين الفرقد واخيه » (٢٧) ثم يذكر بعد ذلك ان ابن شرف كان يتجنب عبادا ، ويتحاماه فيقول : « وكان ابن شرف هذا ممن فهم منحاه ، وصم عن رقاه ، فلم يجتمع مع عباد في صعيد ، ولا اهدى له السلام الا من بعيد » (٢٨) ثم يذكر بعد ذلك أن أول ما بعث به ابن شرف الى المعتضد باشبيلية خمس قصائد من شعره مع رقعة خاطب بها وزيره ابن زيدون ، وانه اجيب على ذلك برسالة من انشاء ابن عبد البر يستحثه على القدوم على حضرة المعتضد الذي وجه اليه بما يعينه على رحلته اليه (٢٩) فامتنع ابن شرف من القدوم على حضرته واكتفى بأن اهدى اليه كتابه « ابكار الافكار » يقول ابن بسام : « فتوقف ابن شرف عن القدوم بنفسه ، وكلف ذلك من تليه ، وطرد تأليفه « ابكار الافكار » « باسم عباد » وبعث به اليه على البعاد » (٣٠) فلما وصل الكتاب والخطاب الى المعتضد لم يجد بدا من انفاذ صلته اليه » (٣١) ورد على ابن شرف برسالة من انشاء ابن عبد البر ايضا ، ثم يقول ابن بسام بعد ذلك : « ومع وصول هذه الصلة الى ابن شرف لم يزل على ملوك الطوائف يومئذ يتطوف ويتنقل في الدول من منزل الى منزل ، ومن بلد الى بلد الا حضرة المعتضد فانه كان يخاطبه ، وينشده :

احبك في البتول وفي ابيها
ولكني احبك من بعيد (٣٢)

---

(٢٤) معجم الادباء ١٩ : ٣٨ .

(٢٥) مجلة الفتيس المجلد السادس : ٢٧٤ .

(٢٦) انظر الدولة الصنهاجية لاحمد بن عامر : ٨٤ وعنوان الرواية : ١٠٨ والاعلام ٢ : ٩٠٠ .

(٢٧) الذخيرة القسم الرابع المجلد الاول : ١٣٣ .

(٢٨) نفس المصدر السابق والصفحة .

(٢٩) المصدر السابق : ١٣٥ .

(٣٠) المصدر السابق : ١٣٨ .

(٣١) المصدر السابق : ١٤١ .

(٣٢) المصدر السابق : ١٤٢ .

ثم يورد له ستة ابيات طريفة خاطب بها المعتضد ، وإياسه من لقائه والوقوع في حبائله ، ولا بأس من أن نوردها لطرافة معانيها وهي :

ان تصيدت غيري صيد طائرة
اوسعتها الحب حتى ضمها القفص
حسبي قرصة اخرى ظفرت بها
هيهات ما كل حين تمكن الفرص
وظاهر حسن أيضا لقصتها
لكن لها باطن في طيها قصص
تلك الموائد للقصاد مترعة
تروي وتشبع لكن بعدها غصص
ولست اعجب من قوم اذا انتشبوا
لكنما عجبي من معشر خلصوا
ولو يطب قط لي من بعد ولا
سلوى اذا كان في تناهيها مختص (٣٣)

ثم يعلق ابن بسام على هذه الابيات بقوله : « قال هذا لتواتر الخبر عن المعتضد بازورار ركنه ، وخشونة حزنه فاشرب من شربه ، ولم يتعرض للنشبة في حبال تشبه ، خوفا ان يورطه في الهوان ، ويسقط العشاء به على سرحان ، ويطيح في جملة ما طاح على يديه من الخلطاء والندماء » (٣٤) وهكذا يخالجنا الشك ولا يمكننا ان نطمئن الى ان ابن شرف انتهى به المطاف الى اشبيلية ، وانه توفي بها كما يقول ياقوت من القدامى ، ومن ذهب الى ذلك من المحدثين ، ونرجح أنه أدركته منيته بطليطلة في كنف ابن ذي النون .

اما اسرته فقد سكت عنها المترجمون ، واغفلوها ولم يشيروا اليها ادنى اشارة ، ولم يحفلوا بها شأنه شأن غيره من العلماء والأدباء، فلا تكاد تعرف من اسرته الا ولده جعفرا ، وكان كأبيه اديبا شاعرا ، وقد ترجم له ابن بشكوال في صلته ترجمة موجزة ذكر فيها ان له رواية عن ابيه ، وانه اخذ عنه ديوانه حيث يقول : « جعفر بن محمد بن ابي سعيد بن شرف الجذامي القيرواني ، واصله منها ، وبها ولد سنة اربع واربعين واربعمائة ، وخرج منها عند اشتداد الفتنة عليها سنة ٤٧هـ الى الاندلس ، واستوطن برجة من ناحية المرية ، يكنى ابا الفضل له رواية عن ابيه ، واخذ ديوان شعره ، وعن القاضي ابي عبد الله بن المرابط وابي الوليد الوقشي وابي سعيد الوراق وغيرهم » (٣٥) ويقول **محمد كرد علي** : « وخلف ابنا يدعى ابا الفضل جعفرا كان اديبا ونجيبا ايضا اورد له العماد في خريدته والفتح في قلائده فصولا تشهد له بطول الباع » (٣٦) وفي الفصل الذي عقده ابن بسام بعنوان « ما اخرجته من شعر ابن شرف في اوصاف شتى » نجد ابن شرف قد فصل القول واجاد في تصوير نكبة القيروان حاضرة افريقية، وما اصابها على أيدي اعراب الصعيد من صنوف التخريب والتدمير ، وما لحق بأهلها من الوان العسف والاضطهاد ، وما حل بهم من فتون الاذى وضروب التعذيب ولا غرابة في هذا فقد هزته مأساة القيروان ، وافرمته الكارثة ، وازعجته من حرمه الآمن ، فلا عجب ان انطقته بعدة قصائد تعد من عيون الشعر العربي في رثاء المدن والامصار ، ويعنينا هنا انه يصف في احدى مراثيه القيروان حال افراخه الصغار ـ

(٣٣) نفس المصدر السابق والصفحة .

(٣٤) المصدر السابق : ١٤٢ .

(٣٥) الصلة ١ : ١٢٩ كما ترجم له الفتح بن خاقان في قلائده : ٢٨٦ ـ ٢٨٨ وافاض في الثناء عليه ونقل شعره الرقيق والمطرب .

(٣٦) رسائل البلغاء والنظر مجلة المقتبس المجلد السادس : ٣٥٤ .

وما تجشموه من صعاب واهوال في الصحارى والقفار وعلى متون البحار فرارا بأنفسهم من عسف الاعراب واذاهم فيقول :

كأني وافراخي اذا الليل جننا
وبات الكرى يجفو جفونا ويطرق
حمائم اضللن الوكور فضمها
تجالسها حتى ترى الفرق
اذا افزعتهم نبوة زاحموا لها
ضلوعي حتى ودهم لو تفلق
وصغر جسمي عن جميع احتضانهم
فيثبت ذا فيه وذا عنه يزهق
كأنهم لم يسكنوا ظل نعمة
لها بهجة مل العيون ورونق
الى ان غدوا في الفيافي فتارة
ابساع وفي بعض الاحايين تعنق
وطورا على موج البحار كأنما
فلذ قد وتتبعنا اذا البحر الغرق
ونحن نفوس تبعة ليس بيننا
وبين الردى الا مويسد معلق (٣٧)

كما تجده في مدحة اخرى بعث بها الى المعتضد يشير الى طفلين له : احدهما ابن اربع سنوات والآخر ابن ست سنوات؛ وما تجشماه في هذه السن الغضة من صعاب فيقول :

اجشمهم ليل القفار وظلمة ال
بحار وكم ربعوا والستر الرخاء

ولي منهما سهمان هذا ابن اربع
وهذا ابن ست كلما كان الفداء
اسومهما والليل داج كأنما
هما لقطا بماء وجسمي هو الماء
فطورا يغشيهم على ذكراه الكرى
فتصبح اصواء عليهم ولألاء
وطورا يمجسون الفجي ومطالة
وما كان للغايات مطل وارجاء
فتضجر منهم النفس ربما بكت
بكى هو للصم الجلامدة إبكاء (٣٨)

ويكاد هذا هو كل ما نعرفه عن اسرة ابن شرف ، وما اثر لنا من اشارات اليها ، في الاثار الشعرية التي وصلت الينا .

•••

كان ابن شرف شخصية خصبة متعددة المواهب ، فهو اديب ناقد كاتب شاعر صاحب منظوم ومنثور ، فياقوت يبدأ ترجمته له بقوله : « الاديب الكاتب الشاعر » (٣٩) ويعده الصفدي احد فحول شعراء المغرب (٤٠) ، ويقول عنه ابن شاكر الكتبي : « احد فحول شعراء الاندلس والمغرب » (٤١) . ويقول فيه ابن بشكوال : « وكان من جلة الادباء وفحول الشعراء ، وله كتب مصنفة في معنى ذلك كله » ويشير ابن خلدون في مقدمته الى علو مرتبته في الشعر هو وقرينه ابن رشيق فيقول : « ما كان بافريقية من مشاهير الشعراء الا ابن رشيق

(٣٧) الذخيرة القسم الرابع المجلد الاول : ١٨١ .
(٣٨) المصدر السابق : ١٧٩ .
(٣٩) معجم الادباء ١٩ : ٣٧ .
(٤٠) الوافي بالوفيات ٢ : ٩٢ .
(٤١) فوات الوفيات ٢ : ١٥٥ .

وابن شرف ، واكثر ما يكون فيها من الشعراء طارئين عليها » (٤٢) وحين عرض له ابن رشيق فيمن عرض لهم من شعراء عصره قال فيه كما نقل لنا ابن فضل الله العمري : « شاعر حاذق متصرف كثير المعاني والتوليد ، جيد القطعات والتقصيد ، اشعر اهل زمانه من شق غباره ، واحذقهم من اقتفى آثاره ، وما منهم الا اغنى نجيب » (٤٣) فابن رشيق في موقفه من ابن شرف هو موقف الرجل المنصف الذي يعرف له قدره ، وينصفه ولا يغمطه حقه ، ولا يبخسه فيما يعلم ، ولا ينتقص من قدره الذي يعرفه له ، وهو موقف يحمد لابن رشيق الا عرفنا ما كان بينهما من منافسة ، والواقع ان ابن شرف كان من الشعراء المجيدين ، وقد اتسم شعره بقوة التراكيب وسلاسة المعاني ، ودقة الوصف ، ووضوح الافكار ، كما هو واضح من اشعاره التي اوردنا طرفا منها ، ويقول فيه ابن بسام : « من فرسان هذا الشأن ، واحد من نظم قلائد الآداب ، وجمع اشتات الصواب ، ولاعب بالمنظوم والمنثور ملاعب الرماح باطراف الغصون » (٤٤) وقد اورد ابن بسام طائفة كبيرة من شعره ونثره ، وبسط القول في اخباره الادبية وافاض فيها حتى كثر عليها مايزيد عن خمسين صفحة ؛ بل ان لابن شرف **رواية عن ابي الحسن القابسي وابي عمران الفاسي الفقيهين** يقول ياقوت : « روى ابن شرف عن ابي الحسن القابسي وابي عمران الفاسي » (٤٥) ويقول الصفدي : وروى ابن شرف عن ابي الحسن القابسي (٤٦) ويذكر ابن بشكوال ان لابن شرف رواية عن ابي الحسن القابسي وابي عمران الفاسي وصحبة لهما ، وان ابا الوليد [illegible] عليه ، ووصفه بالعلم والذكاء ، لم [illegible] اخبرنا عنه ابنه الاديب ابو الفضل جعفر [illegible] بجميع مجموعات [illegible] ، وكتب بذلك الي [illegible] رحمه الله » (٤٧) ويقول الدباغ : « ولابي عبد الله محمد [illegible] رواية عن الشيخ ابي الحسن [illegible] عمران الفاسي ، وذكره الشيخ ابو الوليد الباجي ، واثنى عليه ، ووصفه بالعلم والذكاء ، وان على الادب من بعض علومه » (٤٨) ويبدو ان صلة ابن شرف بالفقهاء والفقه كانت قوية متينة ، وان روايته عن الفقهاء كانت معروفة مشهورة ، حتى رأينا الدباغ يسلكه في جملة الفقهاء ، ويعده منهم ، فيترجم له ، ويعرف به في كتابه « معالم الايمان » وكأنه كان مشهورا بالعلم والفقه في عصره ، معدودا من جملة الفقهاء العلماء ، بل انه يبدو ان شخصيته الفقهية العلمية كانت أغلب عليه من شخصيته الادبية ، وان شهرته بالفقه والعلم طغت على جانب شهرته بالأدب وفاقتها ، حتى اننا نجد الدباغ في نهاية ترجمته له ينقل لنا ثناء ابي الوليد الباجي عليه ، ووصفه بالعلم والذكاء ، وان

---

(٤٢) المقدمة : ٥٦٨ ولا نوافق ابن خلدون على مذهب اليه من انه لم يكن بافريقية من مشاهير الشعراء الا ابن رشيق وابن شرف ، وان اكثر من فيها من الشعراء طارئون عليها ، الا انه وجد بافريقية من الشعراء من هم في مرتبة ابن رشيق وابن شرف ، بل ربما وجدنا من الشعراء المعاصرين لهما من هو اشعر منهما مثل عبد الكريم النهشلي والرقيق القيرواني وعلي بن عبد الغني الحصري وغيرهم .

(٤٣) مسالك الأبصار جـ ١١ قسم ٢ : ٢٢٨ .

(٤٤) الذخيرة القسم الرابع المجلد الاول : ١٢٢ وقد نقل الدباغ في ترجمته لابن شرف عن ابن بسام انظر معالم الايمان ٣ : ٢٢٦ .

(٤٥) معجم الأدباء ١٩ : ٣٧ .

(٤٦) الوافي بالوفيات ٢ : ٩٧ .

(٤٧) الصلة ٢ : ٥٧١ .

(٤٨) معالم الإيمان ٣ : ٢٢٩ .

علم الادب من بعض علومه (٤٩)» ويقول الدكتور بالي : « وكان ابن شرف قد كان مشهورا بالعلم والفقه في زمنه ، ولهذا فلسنا نجد له ترجمة لدى ابن خلكان أو ياقوت بخلاف ابن رشيق فله ترجمة لديهما » (٥٠) ونرى ان الدكتور بالي قد جانبه الصواب فيما ذهب اليه من انه لم يجد ترجمة لابن شرف لدى ابن خلكان ، او ياقوت بخلاف ابن رشيق ، ورده ذلك الى ان شهرة ابن شرف في زمنه بالفقه قد غلبت على جانب الادب بخلاف ابن رشيق ، فالواقع اننا نجد ترجمة لابن شرف عند ياقوت في معجمه ، واذا كانت ترجمته قد سقطت من ابن خلكان فليس ذلك بسبب شهرته بالفقه ، لان ابن خلكان لم يقصر وفياته على الترجمة للادباء وحدهم دون غيرهم ، بل ترجم لشتى الطبقات ومختلف الطوائف والفئات من خلفاء ووزراء وقضاة وفقهاء ومحدثين وقراء ومفسرين ونحاة ولغويين وادباء وشعراء وكتاب ومؤرخين ودعاة ووعاظ وصوفية ومتكلمين .

وقد توطدت العلاقات بينه وبين معاصره ابن رشيق ، وتوالت الصلات بينهما بفضل ان يجمعهما بلاط المعز بن باديس وانعقدت عقد بينه كما يقول ابن خلكان (٥١) والذي كانت القيروان في عهده كما يقول ياقوت « وجهة العلماء والادباء ، تشد اليها الرجال من كل فج ، لما يرونه من اقبال المعز على اهل العلم والادب ، وعنايته بهم » (٥٢) كما كانت حضرته محط بني الآمال ومنتجع الادباء كما يقول ابن خلكان (٥٣) ، وقد حدثنا ابن رشيق كيف كان يشهد مرارا لدته ومعاصره ابن شرف وهو يكتب القصيدة في غير مسودة كانه يحفظها ثم يقوم فينشدها ، ويذكر انه لا يستطيع ان يحصي ما كان بينهما والروابط المتينة التي تجمع بينهما تدفع بابن شرف الى ان يحضر كل يوم صاحيا حينا ، وفي سكر حينا آخر على ما يروي الصفدي حيث يقول : « وقال ابن رشيق في حقه في الانموذج : لقد شهدته مرات يكتب القصيدة في غير مسودة كانه يحفظها ، ثم يقوم فينشدها ، واما القطعات فما احصي ما كان يصنع منها كل يوم بحضرتي صاحيا كان او سكرانا » ، ثم يأتي بعد ذلك اكثرها مخترعا بديعا » (٥٤) .

وبعد ان اتصلت اسبابهما بأسباب المعز بن باديس ، وجمعهما بلاطه ، وتهيأ لهما ان يكونا شاعري حضرته وملازمي ديوانه ، حتى اصبحا متقدمين عنده اثيرين لديه على سائر من في بلاطه من الادباء يقول ياقوت « وكان ابن شرف وابن رشيق صاحب العمدة متقدمين عنده على سائر من في حضرته من الافاضل والادباء » (٥٥) .

ويقول حسن حسني : « وقد خصص المعز لصحبته من بين هؤلاء الزعماء المتقدمين ابن شرف هذا وابن رشيق فكان يلتفت تارة الى الاول ، واخرى الى الثاني ، وجرى بسبب ذلك بين هذين الاديبين مناقضات ومهاجاة رسمها كل منهما في رسائل مستقلة ومقامات متنوعة لم يصل الينا منها شيء فنعلم بها(٥٦).

(٤٩) معالم الايمان ٣ : ٢٤١ .

(٥٠) حياة القيروان وموقف ابن رشيق منها : ٢٠٢ .

(٥١) وفيات الاعيان ٤ : ٣٦١ .

(٥٢) معجم الادباء ١٩ : ٣٧ .

(٥٣) وفيات الاعيان ٤ : ٣٢٥ .

(٥٤) الوافي بالوفيات ٣ : ٩٨ .

(٥٥) معجم الادباء ١٩ : ٣٧ .

(٥٦) مجلة المقتبس المجلد السادس : ٣٥٢ .

ويبدو انهما كانا اقرب الى نفس المعز من سائر الشعراء ، واكثر استجابة لما يطلبه منهما ولهذا رأيناه كثيرا ما كان يستدعيهما ويخلو بهما حين يطيب له ان يلهو ، وكان على ما يظهر لنا يرغب في اثارة اسباب المنافسة بينهما في مجالسه الادبية ، ويقوم هو بدور الحكم احيانا في المفاضلة بينهما ، يقول ابن ظافر : « ان الاتفاق والتوارد بين الشاعرين يقع اكثر مايقع عندما يضيق المقترح عليهما بأن يعين لهما الوزن والقافية(٢٧) ثم ينقل عن « ابكار الافكار » لابن شرف ما يؤيد ماذهب اليه فيقول: « اكثر ما يقع هذا الاتفاق الغريب والتوارد العجيب اذا ضيق المقترح على الشاعرين بأن يعين الوزن والقافية .

ذكر ابو عبد الله بن شرف القيرواني في كتاب (ابكار الافكار) قال : استدعاني المعز بن باديس يوما ، واستدعى ابا علي الحسن بن رشيق ، وكنا شاعري حضرته وملازمي ديوانه ، فقال : احب ان تصنعا بين يدي قطعتين في صفة الموز على قافية الغين ، فصنعنا حالا من غير ان يقف احدنا على ما صنعه الآخر ، فكان الذي صنعته :

يا حبذا الموز واسعاده
من قبل مضغ الماضغ

لان حتى ان لا مجس له
فالفم ملآن به فارغ

سيان قلنا ماكل طيب
فيه والا مشرب سائغ

والذي صنعه ابن رشيق :

موز سريع أكله
من قبل مضغ الماضغ

مأكله لآكل
ومشربة لسائغ

يخال وهو بالغ
الحلق غير بالغ

فامرنا الوقت ان نصنع فيه على حرف الذال ، فصنعنا ، ولم ير احدنا صاحبه ما عمل ، فكان ماصنعته :

مسك لنا في موز اذا
ذقناه قلنا حبذا

فيه شراب واغتذاء
مريء الغذاء القذى

لو مسه من لسفه
بالقبل : لا بدا

وما صنعه ابن رشيق :

لله موز لذيذ
بحيلة المستعيذ

فواكه وشراب
به يغذى الوقيذ

ترى القذى العين فيه
كما يريها النبيذ

قال ابن شرف : فانت ترى هذا الاتفاق لما كانت القافية واحدة والقصة واحدة

(٢٧) بدائع البداءة : ١٢٢ ، ويقول ابن دحية : « وستدعاني ابي عبد الله محمد بن شرف قال : اكثر مايكون توارد الخواطر ووقوع الاتفاق ومايقاربه اذا طلب الشاعران او اقترحا معنى واحدا في قافية واحدة » المطرب : ٦٧ ثم يورد بعد ذلك شعري ابن رشيق وابن شرف في وصف الموز،وفي مدح الراكب على سوق بعض مطايا المعز .

والقصد واحدا ، ولقد قال من حضر ذلك اليوم : ماندري مم نتعجب أمن سرعة البديهة، أم من غرابة القافية، أم من حسن الاتفاق(٥٨)، ثم ينقل ابن ظافر بعد ذلك عن ابن شرف قوله: « استخلانا المعز يوما ، وقال : أريد أن تصنعا شعرا تمدحان به الشعر الرقيق الخفيف الذي يكون على سوق بعض النساء فإني استحسنه وقد عاب بعض الشعراء بعضا به ، وكلهن قارئات كاتبات ، فأحب أن أريهن حسنا ، والذي أنه قديم لاحتج به على من عابه ، وأمر به من عيب عليه ، فانفرد كل منا ، وصنع في الوقت ، فكان الذي قلت :

وبلقيسية زينت بشعر
يسير مثل ما يهب النسيم
رقيق في خدالجة رياح
خفيف مثل الجسم فيه روح
حكى زغب الخدود وكل خد
به زغب فمعشوق مليح
فإن يك صرح بلقيس زجاجا
فمن حدق العيون لها صروح

وكان الذي قال ابن رشيق :

يعيبون بلقيسية أن رأوا بها
كما قد رأى من قبلهم صرحها الصرحا
وقد زادها التزغيب ملحا كمثل ما
يزيد خدود الغيد أن تزغبها ملحا

فانتقد المعز على ابن رشيق قوله «يعيبون» وقال : قد أوجدت لخصمها حجة بأن بعض الناس عابه ، وهذا غلط ما فعلت له(٥٩) . وهكذا رأينا المعز بن باديس الذي كان حريصا على أن يقرب الكتاب والشعراء وأن يلحقهم بحاشيته ، ويجمعهم في ديوانه ، حتى اجتمع في بلاطه مائة شاعر بليغ كما يقول حسن حسني(٦٠) يطلب له أن يبعث في الشعراء روح التنافس ، وأن يدفعهم إلى التسابق في الإجادة ، والمباراة في الإحسان فيما يقترحه عليهم من المواضيع ، وأن يساجل بعضهم بعضا ، ويناظره فيما يعرض عليهم ، ويطلب إليهم القول فيه ، وأن يغري بعضهم ببعض [illegible] للتراجم ، وليستخرجوا أجود ما عندهم ، حتى عادت تلك الساجلات والمناظرات على الأدب بأطيب الأثر وأحسن النتائج بقول حسن حسني « وكثيرا ما كان المعز يقترح الليل إلى أديبين آخر [illegible] يشبه بين شاعرين فيوقع بينهما تنافسا أدبيا يتخذ

---

(٥٨) بدائع البداهة : ١٢٧ – ١٢٨ والغرب : ٦٢ – [illegible] في اتفاقهما هذا ما يدعو إلى التعجب ، أو [illegible] الاستغراب في [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] ... [illegible] وليس [illegible] الشعر [illegible] ..

(٥٩) بدائع البداهة : ١٢٧ – ١٢٨ والغرب : ٦٨ – ٦٩

(٦٠) بساط العقيق : ٥١

عنه تسابق اختراع المعاني وتوليد المبتكرات، وحصل بسبب هاته المنافسات نوض في سوق الادب ؛ وظهرت حركة نامية وفكرية اجتنت افريقية من ثمراتها اليانعة ما يحق لها الافتخار به »(٦١) .

ويغلب على الظن ان ما اثر لنا عن ابن رشيق وابن شرف من مساجلات ومناظرات وما قام بينهما من مناقشات حررها وسجلتها كتب الادب ، كان لا يعدو أن يكون لونا من الوان المباريات ، وضربا من ضروب المناقشات لايتصادمان فيها عن داخل نفسيهما ، وكان الناس من حولهما يتلقون ما يصدر منهما ، ويغرون احدهما بصاحبه ، ويحرضونه عليه ، ويهيجونه به ... بينهما استخراجا لما عندهما ، واستمتاعا بما يصدر منهما ، ثم يحكون ... ولم يكن كل ذلك ليصل بهما الى ... المداولة ... والخصام ... وتقطع اسباب الصداقة بينهما ... تحفظ هذه المناقضات احيانا احدهما على ... وتثير حميته عليه ، فينصرف مغاضبا ، ولكنه سرعان ما يعود اليه، وتتصل اسباب الصداقة والمودة بينهما ، ولا يبقى للحفيظة والغضب مكان في نفسه ، وقد فطن لذلك ياقوت ، ونبه اليه حيث يقول : « وكان ابن شرف وابن رشيق صاحب العمدة متقدمين عنده على سائر من في حضرته من الافاضل والادباء فكان يقرب هذا تارة ، ويدني ذاك تارة أخرى فتنافسا وتنافرا ثم تهاجيا ؛ ولكن لم يتغلب احدهما على الآخر بما جرى بينهما في المناقضات (٦٢) نعم لم يتغلب احدهما على الآخر بسبب هذه المساجلات والمناقضات ؛ وليس ادل على ذلك من ان المكاتبات والمخاطبات ظلت متصلة بينهما ، يكتب كل منهما لصاحبه ويجيبه حتى بعد ان انخرطا في سلك خدمة المعز ، واشتد التنافس بينهما ، فها هو ذا ابن شرف يسبق ابن رشيق الى صقلية ، وحين يصل اليها يتذكر ايامه مع ابن رشيق ، فيكتب اليه وهو بالمهدية بقصيدة يتشوقه فيها ، ويجيبه ابن رشيق بقصيدة اخرى على ما يروى لنا القفطي حيث يقول : « وكان بين ابن رشيق وابن محمد بن شرف الشاعر مباينة بعد مواصلة ... شاعري ابن باديس، ودخلا اليه ، واتصلا بخدمته في وقت واحد ، وكان ابن شرف ... لا ينكر حذقه ، ولا يدفع في هذا النوع صدقه ؛ ولم يزل بينهما مكاتبات ومخاطبات ، فمن شعر ابن شرف قصيدة كتب بها الى ابن رشيق وهو بالمهدية يتشوقه اولها :

خدعناك من بعد وان زدتنا قربا
على ان فيما بيننا سببا سهبا

---

(٦١) يساف العقيق : «« كما يقول في موضع آخر عن التنافس بين ابن رشيق وابن شرف ، وحرص المعز على اذكاء جذوة التنافس بينهما : « فانه (أي ابن شرف) كان يترصد الزلات للوثوب على صاحبه ، وجرى بسبب ذلك تنافس ادبي ومكافحة اقلام ، وتسابق الى الاختراع والابتداع ، اجتنى منها سوق الادب فوائد فكرية رسمها كل واحد منهما في تآليف كانت احسن اثر لنتائج قرائح شاعرينا ، وربما كان الامير المعز يحرص على هذا التنافس بين ابن رشيق وابن شرف بالتفاته تارة الى الاول ، واخرى الى رفيقه سعيا منه وراء تنشيط الآداب وترويج موادها .... » يساف العقيق : ٥٩ ويقول احمد امين : « وقد كانا صديقين ، ثم دبت بينهما الخصومة فتساجلا في الادب كتلك المساجلة التي كانت بين الخوارزمي وبديع الزمان الهمذاني » ظهر الاسلام ١ : ٢٠٨ .

(٦٢) معجم الادباء ١٩ : ٣٧ كما اشار ياقوت الى ما كان بينهما عند ترجمته لابن رشيق حيث يقول : « وكان بينه وبين ابن شرف الاديب مناقضات ومحادثات ، وصنف في الرد عليه عدة تصانيف : » معجم الادباء ١١٠ ومن ذلك ما ذكره ابن رشيق في الرد على ابن شرف من انه منسوب الى امراة ...

وكتب اليه ابن رشيق قصيدته التي اولها :

عتابا عسى ان الزمان له عتبى
وشكوى فكم شكوى الانتله قلبا(٦٣)

ولعل هذا هو ما دفع الصفدي في ترجمته لابن شرف الى ان يشير الى ان ما جرى بينه وبين ابن رشيق من مهاجاة ومعاداة انما هو امر يحدث عادة بين المتعاصرين(٦٤) حيث يقول : « وكانت بينه وبين ابن رشيق مهاجاة وعداوة جرى الزمان بعادتها بين المعاصرين » ، ثم يتبع ذلك بسرد اسماء عدة رسائل لابن رشيق يهجو فيها ابن شرف ، ويعدد اغلاطه ومساوئه ، فيقول : « ولابن رشيق فيه عدة رسائل يهجوه فيها ، ويذكر اغلاطه وقبائحه منها « رسالة ساجور الكلب » و « رسالة قطع الانفاس » و « رسالة نجح الطلب » ، « رسالة رفع الاشكال ودفع المحال » و « [illegible] المع والشيخ القمح»(٦٥) ويقول الوزير السراج في [illegible] ابن رشيق : « وكان بينه وبين عبدالله بن ابي سعيد بن احمد المعروف بابن شرف القيرواني مناقضات ومهاجاة » ، وصنف عدة رسائل في الرد عليه منها رسالة سماها « ساجور الكلب » ورسالة « نجح الطلب » و « رسالة قطع الانفاس » ورسالة نقض الرسالة الشعوذية » و « القصيدة المذهبية » و « الرسالة المنقوضة » و « رسالة رفع الاشكال ودفع المحال »(٦٦) اما العمري في مسالك الابصار فقد ذهب الى ان ما وقع بينهما انما هو من قبيل ما وقع بين الخوارزمي وبديع الزمان»(٦٧) ويؤكد ملاحظته اليه انهم كانوا في هذا العصر كثيرا ما يلجأون الى الهجاء لا لشيء الا للتندر والتسلية وازجاء اوقات الفراغ ، ومن ذلك ما يرويه الصفدي وابن شاكر الكتبي(٦٨) من ان ابن شرف قال بيتين على قافية القاف في ذم حمام ، فبلغ ذلك ابن رشيق ، فقال مجيزا لهذين البيتين ببيت هجا فيه ابن شرف ونبزه بالعور والصلع وهو :

وثت بعض العور اصلع
لساقه التشبيه تحقيق

---

(٦٣) انباه الرواة : ١ : ٢٠١ واللفظي وان كان يحدثنا ان الذي بعث منه ابن شرف قصيدته الى صاحبه يتشوقه فيها الا انه يغلب على الظن انه بعث بها من صقلية ، لاسمى المعروف ان ابن شرف سبق صاحبه اليها ، ثم يقول القفطي بعد ذلك ان المنافسة اوقعت بينهما ، وتعاديا في الهجاء ، وعمل ابن رشيق عدة تصانيف في الرد عليه واخراج معايب اقواله سانسوق نحوا منها في كتابي الذي اسميته الابريق في اخبار ابن رشيق « بمشيئة الله وعونه انباه الرواة ١ : ٢٠٢ فالقفطي هنا يعد باخراج كتاب يشتمل على رسائل ابن رشيق ومصنفاته في الرد على ابن شرف وابراز اغلاطه ومعايب اقواله » ولا ندري ان كان القفطي قد وفي بوعده فاخرج هذا الكتاب ام لا .

(٦٤) الوافي بالوفيات ٢ : ٩٧ وانظر فوات الوفيات ٢ : ١ .

(٦٥) الوافي بالوفيات ٢ : ٩٧ وفوات الوفيات ١ : ١ويقول ابن بسام : « وبينه وبين ابي علي بن رشيق ماع بعد البراعة ودام ، ورجع نجم هذه الصناعة فاستقام وذهب من المناقضة مذهبا تنازعاه شرا طويلا ، وتقاذفا ذكرا مجهولا » واحتفلا ان لم يسمح الله وزرا ثقيلا . وكان ابو علي اوسعهما نفسا واقربهما ملتمسا ، ولابن شرف اصالة ملازمة وجلالة منظمة ومتانة لفظه وسعة حفظه ، فتسمع بشعره طنين وعوبة وجمجمة ، وكلاهما اجد ما يرويه وابدعه » الذخيرة القسم الرابع المجلد الاول : ١٣٢ .

(٦٦) الحلل السندسية في الاخبار التونسية الجزء الاول القسم الاول : ٢٧٩ ويقول ابن خلكان : « وكانت بينه وبين ابي عبد الله محمد بن ابي سعيد بن احمد المعروف بابن شرف القيرواني وقائع وجرت بينهما مناقضات يطول شرحها » وفيات الاعيان ١ : ٣٦٨ .

(٦٧) الكتبة الصقلية : ١٥١ نقلا من مسالك الابصار جـ ١١ ويقول حسن حسني « وقع بينهما بالقيروان ما وقع بين جرير والفرزدق او بين الخوارزمي وبديع الزمان » مجلة المقتبس المجلد السادس : ٤٥١ وانظر بساط العقيق ٢٠٥ .

(٦٨) الوافي بالوفيات ٢ : ٩٨ والغيث المسجم ٢ : ٤٧٥ وفوات الوفيات ٢ : ٤١٠ .

بل انهم كثيرا ماكانوا يهجون انفسهم ، ويتندرون عليها حين لا يجدون من يهجونه ويتندرون عليه ، فقد اجتمع ابن رشيق يوما مع بعض اصحابه وكان فيهم ابن شرف وكان اعورا ، والطوسي وكان اعمى وكان ابن رشيق احولا ، فقال في صاحبيه وفي نفسه :

لابد في العور من تيهومن صلف
لانهم يبصرون الناس انصافا

وكل احول يلقى ذا مكارمة
لانهم ينظرون الناس اضعافا

والعمي أولى بحال العور لوعرفوا
على القياس ولكن خاف من حافا(٦٩)

ولم يزل ابن شرف ملازما لخدمة المعز بن باديس مقدما عنده اثيرا لديه ، ولم تزل المناقضات والمساجلات والمناظرات متصلة بينه وبين ابن رشيق ، ولم يزل الهجاء والتنفير قائما بينهما ، وهكذا مضت الحياة بهما وبغيرهما من الشعراء الذين ضمهم بلاط المعز بن باديس الى ان هاجم اعراب الصعيد القيروان ، فاضطر المعز الى الخروج منها ومغادرتها الى المهدية سنة ٤٤٩ هـ ولحق به من شعراء بلاطه وكتاب ديوانه ، ومن بين من لحق به ، واتصل بخدمته بالمهدية ابن شرف وابن رشيق يقول ياقوت : « ولم يزل ابن شرف ملازما لخدمة المعز الى ان هاجم عرب الصعيد القيروان ، واضطر المعز الى الخروج منها الى المهدية سنة سبع واربعين واربعمائة ، فخرج ابن شرف وسائر الشعراء معه اليها ، واستقروا بها »(٧٠) ولكن المعز في المهدية كان مهموما محزونا ضيق الصدر منقبض النفس ، فقد سقطت القيروان حاضرة ملكه وقصبة افريقية في ايدي الاعراب الذين عاثوا في الارض فسادا ، وانتقصوا مملكته من اطرافها ، واشاعوا في جنباتها الخراب والدمار ، فلم يعد يعقد المجالس الادبية ، ويدعو اليها الشعراء ، ويقترح عليهم الاغراض التي تخطر بباله ، وانما هو منقبض النفس ، ضيق الصدر ، متبرم بكل شيء ، فاذا حدث وعقد مجلسا من تلك المجالس التي كان كثيرا ما يعقدها بالقيروان ، ودعا اليه الشعراء لا يلبث ان يضيق ذرعا به وبمن فيه من الشعراء ، كما فعل حين مزق الرقعة التي فيها قصيدة ابن رشيق ، ولم يكتف بتمزيقها ، حتى قدمها طعمة للنيران . يقول العمري في مسالك الابصار نقلا عن ابن بسام : « ولما طلع لنجوم النحوس بسماء المعز بن باديس خرج الى المهدية بسماء كاسفة الاقمار ، وذماء قسره من القضار ، وكان ابو علي معسن المشي في زمرته المحروبة ، ومحيز الى فئته النكوبة اقام معه ، وغشى المهدية فما بعد اصطول الروم ، فاصبح البحر ثنايا تطلع المنايا ، وآكاما تحمل موتا زؤاما ، فدخل على المعز حين وضح الفجر ، فوجده في مصلاه ، والرقاع عليه ترد ، والشموع بين يديه تتقد فقام ينشده قصيدته التي اولها :

تثبت لا يخامرك اضطراب
فقد خضعت لعزتك الرقاب

فقال له : مه ، متى عهدتني لا اتثبت ، اذا لم تجئنا الا بمثل هذا فمالك لا تسكت عنا ؟ ثم امر بالرقعة التي كانت فيها القصيدة فمزقت ، ولم يقنعه حتى ادناها الى الشمع فاحرقت »(٧١) .

---

(٦٩) الفيست النسجم ٢ : ١٥٥ وديوان ابن رشيق ١١٦ ـ ١١٧ .

(٧٠) معجم الادباء ١٩ : ٣٧ .

(٧١) الكتبة الصقلية : ٦٥ نقلا من مسالك الابصار الجلد السابع عشر .

ويضيق ابن شرف بالمقام في المهدية ، ويتبو بها منزله ، ولا يطيب له العيش بها بعد ان لقي من المعز انقباضا عن كل شيء ، وضيقا بالشعر ، وانصرافا عنه ، وعزوفا عن الادب ، وازورارا عن الشعراء ، ونفورا منهم ، وعزوفا عنهم ، وعدم ارتياح لهم ، وانحرافا عمن لحق به من الادباء ، وجفاء لهم ، فلم يلبث بالمهدية الا قليلا حتى ركب لج البحر ، وولى وجهه شطر صقلية وافدا على اميرها القائد ابي محمد الحسن بن عمر بن منكود ، وكأنما ترامى الى سمعه ، ونمى الى علمه ان الشعراء يصيبون حظوة كبيرة في بلاط هذا الامير ، وانه يقدمهم ويؤثرهم ، ويحبوهم ، ويجزل لهم العطاء ، ويقول ياقوت : « فاقام ابن شرف مدة بالمهدية ملازما خدمة المعز بن باديس وابنه تميم ، ثم خرج منها قاصدا صقلية ، ولحق به رفيقه ابن رشيق فاجتمعا بها ، ومكثا بها مدة »(٧٢) وقد اشار العمري الى ان ابن شرف سبق ابن رشيق الى صقلية حيث يقول بعد ان اورد خبر ابن رشيق مع المعز ، وتمزيق المعز الرقعة التي كانت بها قصيدته التي لم يرقه مطلعها ، ولم يعجبه ابتداؤها واستهلالها واحراقها ، والجفوة التي وقعت بينهما نتيجة لذلك : « فخرج ابن رشيق يومئذ من عنده على غير طريق ، وكانت وجهته الى صقلية ، وكان ابن شرف قد سبقه اليها وقد قتله عليها »(٧٣) ويقول حسن حسني : « واقام ابن شرف مدة بالمهدية مع زمرة شعراء الملك يخدم الامير المعز وابنه تميما الى ان رحل عنها قاصدا جزيرة صقلية لما سمع من كرم اميرها »(٧٤) .

وكأني بابن شرف وقد وصل الى صقلية ، واطمأن مقامه بها تذكر عهدا سلف ، وأياما مضت مع ابن رشيق في ربوع القيروان والمهدية ، وفي بلاط المعز بن باديس ، فيبعث اليه وهو بالمهدية بقصيدة يتشوقه فيها ويجيبه ابن رشيق بقصيدة أخرى على ما يروي لنا القفطي حيث يقول : « فمن شعر ابن شرف قصيدة كتب بها الى ابن رشيق وهو بالمهدية يتشوقه ، اولها :

عدمناك من بعد وان زدتنا قربا
على ان فيما بيننا سببا سهبا

وكتب اليه ابن رشيق جوابا عنها قصيدته التي اولها :

حنانا عسى ان الزمان له عتبى
وشكوى فكم شكوى الانت لعقبى(٧٥)

ويركب ابن رشيق لج البحر الى صقلية في اثر صاحبه ابن شرف « ونزل بمازر احدى مدنها على اميرها ابن منكود ، فيؤثره ويقربه ويسلكه في عداد خاصته ، ويصيب عنده حظوة كبيرة ، حتى انه قرأ عليه كتبه ، ومن بين ما قرأه عليه من كتبه العمدة ، وما في كتبه ، ولم يزل عنده حتى ادركته الوفاة يقول القفطي » ونزل مازر احدى مدنها على اميرها ومتوليها ابن منكود ، فاكرمه واختصه ، وقرأ عليه كتبه ، ومن جملة ما رأيته من قراءته عليه كتاب العمدة في صنعة الشعر ، وهو اجل كتبه واكبرها ، ورأيت خط ابن رشيق على نسخة منها ، ولم يزل عنده الى ان مات بمازر « (٧٦) بيد ان الاستاذ احمد امين ذهب الى انهما فرا عند غزو الهلاليين

---

(٧٢) معجم الادباء ١٩ : ٣٨ .

(٧٣) المكتبة الصقلية : ٥٠ – ١٥١ نقلا عن مسالك الابصار المجلد السابع عشر .

(٧٤) مجلة المقتبس المجلد السادس : ٤٥٤ وانظر رسائل البلغاء : ٢٠٥ .

(٧٥) انباه الرواة ٢ : ٣٠١ .

(٧٦) انباه الرواة ١ : ٣٠٢ .

مدينة القيروان ، وان ابن رشيق قصد الى صقلية ، بينما ولى ابن شرف وجهه شطر الاندلس . (٧٧) ولم يشر الى انهما خرجا مع المعز بن باديس بعد خراب القيروان الى المهدية ، واقاما بها معه مدة ، ثم ذهب ابن شرف الى صقلية ، ولحق به رفيقه ابن رشيق ، ثم شخص ابن شرف وحده الى الاندلس تاركا صاحبه بصقلية ، وان ابن رشيق قد رام بعد ذلك الشخوص الى الاندلس فلم تطاوعه نفسه على ركوب البحر ، فاقام بمازر حتى ادركته منيته بها .

ويبدو ان ابن رشيق اصاب حظوة كبيرة عند ابن مطكود امير مازر ، وكان اقرب الى نفسه وآثر عنده من ابن شرف ، وليس في هذا غرابة ، فقد كان لابن رشيق اثر بعيد في النهضة الادبية بصقلية فقد ذاعت شهرته بها ، وترامت اليها اخباره الادبية ، وطنت اشعاره في جنباتها ، وتناول اهل صقلية اخباره ، وتلقفوا اشعاره ورووها وتداولوها ، حتى غدا مطمح انظار بعض الصقليين ، وامامهم الذي يتأسون به في اتجاههم الادبي ، كما كان له اصدقاء كثيرون معجبون به بهذه الجزيرة ، وقد اتصلت اسباب الصداقة بينه وبينهم ، وكانوا على اتصال دائم به ، ويدل على ذلك اننا نجد واحدا منهم وهو ابو عبدالله **الصفار** يصرح بذلك حيث يقول : « كنت ساكنا صقلية ، واشعار ابن رشيق ترد على ، فكنت اتمنى لقاءه ، حتى قدم الروم طبنا ، فخرجت فاراً بمهجتي ، تاركا لكل ماملكت يدي»(٧٨)

هذا من ناحية ، ومن ناحية اخرى نراه ذا اثر في النهضة الادبية بجزيرة صقلية ، فبعد ان رحل اليها ، والقى بها عصا التسيار ، واطمان مقامه بها اخذ يدرس كتابه العمدة ، والتفت حوله طائفة من اهل الادب ، واقبلوا عليه يأخذون عنه ويتلقون عليه ، وغير بعيد ماسبق ان ذكرناه من ان ابن مطكود امير مازر نفسه قرا على ابن رشيق كتابه العمدة ، وقد كلف اهل صقلية بكتاب العمدة ، وشغفوا به ، واقبلوا عليه يتدارسونه ، وممن كلف به من اهل صقلية ابو عمر عثمان بن علي بن عمر الصقلي ، فقد قرأه ، واعجب به ، واختصره ، يقول حاجي خليفة : « واختصره الصقلي وسماه العمدة » (٧٩) .

وهكذا يتبين لنا من خبر ابي عبدالله الصفار مع ابن رشيق ان اشعار ابن رشيق قد سبقته الى صقلية ، وذاعت بها ، وانه كان بالجماعة الادبي والمنتدى موضع الاعجاب والتقدير من ادبائها ، بالغ التأثير فيهم ، حتى اننا نرى ابن حمديس الصقلي مع انه ابعد حظا منه في الشاعرية يتناول شعره بالمعارضة .

ويبدو ان خاصة ابن مطكود وجلساءه كان يحلو لهم ان تقوم المناظرات بين ابن رشيق وابن شرف ، وان تتصل المساجلات والمناقضات بينهما ، كما كانت في القيروان ، فقد ترامت اليهم اخبارهما الادبية ، وسمعوا بما كان بينهما من مناقضات ومساجلات ، ووصلت اليهم اخبار ابن رشيق واشعار وعبرت البحر

---

(٧٧) ظهر الاسلام ١ : ٢٠٨ .

(٧٨) بدائع البداية على هامش معاهد التنصيص ٢ : ٣٦ وورد الخبر مع بعض تصرف في مسالك الابصار المجلد السابع عشر والمكتبة العربية الصقلية : ٦٥١ وما بعدها وفي الخريدة قسم شعراء المغرب : ٨٢ ـ ٨٤ في فصل بعنوان « جماعة من شعراء جزيرة صقلية عند الحديث عن ابي عبد الله محمد بن علي الصباغ الكاتب : (وكان في عهد ابن رشيق ، وبينهما مراسلات » ...... وكتب اليه ابو علي بن رشيق عند وصوله من القيروان الى مازر في اول رسالة ..) ثم يورد ثلاثة ابيات من الشعر اجابه عليها ابن الصباغ بثلاثة ابيات اخرى .

(٧٩) كشف الظنون ٢ : ١٦٩ والمكتبة الصقلية : ٧٠٤ ويقول القفطي في ترجمة لعثمان بن علي : « ومن مصنفاته مختصر عمدة ابن رشيق وشاهدت هذا المختصر بحسب بخطه عند ابن القيسراني ، وقد زاد فيه ابوابا اخل بها ابن رشيق وهي واقعة موقعها من التصنيف » ، انباه الرواة ٢ : ٢١٣ .

الى صقلية قبل ان يعبرها هو اليها ، وكأنما طاب لهم أن تقوم تلك المناقضات والمساجلات والمناظرات بينهما في ربوع صقلية ، كما قامت بينهما من قبل في ربوع القيروان ، وان يعيدها سيرتها الأولى حتى ينشط الشاعران ، ويروج سوق الأدب ، ويطيب المشهد ، ويسر من يحضر عنهما . يقول العمري : « و... قد وقع بينهما بالقيروان ما وقع بين ... الزمان . فلما اجتمعا يوما بجزيرة صقلية ... بعضهما لبعض ، وتشوق أهل العلم لما كان بينهما من ابرام ونقض » (٨٠) وكان أهل صقلية سعوا بين الشاعرين وحرشوا بينهما ، واغروا احدهما بالآخر ، الا أنه يبدو انه كان بصقلية من أهل القيروان من يخشى مغبة الخصومة بين الشاعرين ، ويدرك سوء عاقبتها ، لو دبت عقارب السعاية بين الشاعرين ، والأذكى القوم نار العداء بينهما ، فأخذ نفسه باصلاح ذات بينهما ، حتى لا يصبحا في دار غربتهما موضعا لتندر أهل صقلية وسخريتهم يقول العمري : « تقصد ابن رشيق بعض اخوانه ، وقال له : انشدك على الاحسان وشيمة أهل القيروان ، وقد استخفنا بحال جلاء وبين الاعداء ، والاشبه بكما الا تقربا اديكما ، ولا تطمعا الاعداء لحومكما ، فقال له : ايت ابن شرف ، فوجده أجنح للسلم ، وأدنى الى الحلم ، برىء اليه من صبيه وصعفه ، وأعطاه بذلك صفقتي لسانه ويده » (٨١) بيد أن ابن رشيق كان يتحرش احيانا بابن شرف ، وينال منه ، ويتعرض له ، ويسعى به ، ولعله كان يفعل ذلك مدفوعا بمكانته من ابن مطكود امير مازر ، وبمنزلته الرفيعة التي احتلها من نفوس أهل جزيرة صقلية ، ودالته عليهم ، فكان كما يقول العمري : « ربما اعترض وعرض ، ونطف والمظ ، واما ابن شرف فلم يحل عاقده ، ولا حال عاهده » (٨٢) .

ويطيب لابن شرف المقام بجزيرة صقلية ، فقد هادنه ابن رشيق ، واستتبت الهدنة فيما بينهما والسلت ، واصلح من بالجزيرة من أهل القيروان ذات بينهما ، واستقامت الامور بينهما ، حتى عادا الى الصفاء والإخاء والسماح ، يقول حسن حسني : « فلما اجتمعا بصقلية تسامحا » (٨٣) ثم تهيأت الظروف لابن شرف وابيحت له الفرصة ، فركب ثبج البحر ، وعبر الى عدوة الأندلس وولى وجهه شطر ملوك الطوائف ، وتردد عليهم ، وانتهى به المطاف عند المأمون بن ذي النون صاحب طليطلة يقول ابن بسام : « تردد على ملوك الطوائف بالاندلس بعد مقارنة أهوال ومباشرة خطوب طوال ... واستقر اخيرا عند المأمون بن ذي النون ، فطبه خلع اخر لبوسه ، ونثر بقية كنسه » (٨٤) ويقول الدباغ : « وقدم الاندلس ، وسكن المرية وغيرها وتردد على ملوك الطوائف » (٨٥) حتى سلكه ابن شاكر في عداد فحول شعراء الاندلس والمغرب ، فقد استهل ترجمته بقوله : « محمد بن سعيد بن احمد بن شرف القيرواني الجذامي احد فحول شعراء الاندلس والمغرب » (٨٦) ويعده الصفدي احد شعراء المغرب (٨٧) .

---

(٨٠) المكتبة الصقلية : ١٨٦ نقلا من مسالك الابصار المجلد السابع عشر .

(٨١) نفس المصدر السابق والصفحة .

(٨٢) نفس المصدر السابق والصفحة .

(٨٣) مجلة الثريا المجلد السادس : ٣٥٤ ورسائل البلغاء : ٢٠٥ .

(٨٤) الذخيرة القسم الرابع المجلد الأول : ١٢٢ .

(٨٥) معالم الايمان ٣ : ٢٣٩ .

(٨٦) فوات الوفيات ٢ : ٤١٠ .

(٨٧) الوافي بالوفيات ٣ : ٩٧ .

ويؤكد ماذهبنا اليه ــ من ان المهادنة التي تمت في جزيرة صقلية بين ابن رشيق وابن شرف قد امتدت واتصلت ، وان الأمور بينهما قد استقامت وصلحت ــ ماتقرأ في كتب التراجم من ان ابن شرف حين عقد النية على مغادرة صقلية ، وازمع الرحلة الى الاندلس استنهض صاحبه ابن رشيق في ان يجتمعا بالطريق ، وان يجوزا معا الى الاندلس ، ويبدو ان ابن رشيق تباطأ عنه ، ولم ينهض معه ، بل تردد واعتذر عن عدم النهوض ، فمضى ابن شرف وحده ، يقول ياقوت : « لم استنهضه ابن شرف على دخول الاندلس ،فتردد ابن رشيق، وانشد » :

مما يزهدني في أرض اندلس
أسماء معتضد فيها ومعتمد

ألقاب مملكة في غير موضعها
كالهر يحكي انتفاخا صولة الأسد

فاجابه ابن شرف على الفور :

ان ترمك الغربة في معشر
قد جبل الطبع على بغضهم

فدارهم مادمت في دارهم
وأرضهم مادمت في أرضهم (٨٨)

ثم شخص ابن شرف منفردا الى الاندلس ، وتنقل في بلادها ، وسكن المرية بعد مقارعة اهوال ومقاومة خطوب ، وتردد على ملوك الطوائف كآل عباد وغيرهم ، وتوفي باشبيلية سنة ستين واربعمائة كما يقول ياقوت ، وقد سبق ان ذكرنا انه يخالجنا الشك ، ولا يمكننا ان نطمئن الى انه توفي باشبيلية ، وانه اتصلت اسبابه بأسباب المعتضد ، وعاش في كنفه الى ان ادركته منيته . وقد سبق ان بسطنا القول في هذه المسألة ، وانتهينا الى ترجيح انه توفي بطليطلة في كنف ابن ذي النون لأننا نجد ابن بسام يقول : « فتردد على ملوك الطوائف بالاندلس بعد مقارعة اهوال ومباشرة خطوب طوال ... واستقر اخيرا عند المأمون بن ذي النون فعليه خلع آخر ابوسه ونثر بقية كيسه » (٨٩) .

آثاره ومصنفاته :

خلف لنا ابن شرف مؤلفات كثيرة سقطت من يد الزمن ، ولم يصل الينا منها الا القليل ويشيد ابن بسام بمؤلفاته وينوه بها حيث يقول : « ولأبي عبد الله عدة تواليف اقاضها بحارا واطلعها شموسا واقمارا » ويقول حسن حسني : « اما تآليف ابن شرف فكثيرة على ماتنقله الينا الأوراق ... ومن هذه المؤلفات .

ابكار الافكار :

ويشتمل هذا الكتاب على مختارات مما انتجه ابن شرف من شعر ونثر يقول فيه ياقوت « ابكار الافكار جمع فيه ما اختاره من شعره ونثره » (٩٠) ويقول الصفدي : « وهو كتاب حسن في الادب يشتمل على نظم ونثر من كلامه » (٩١) ويقول ابن دحية : « ولابن شرف مصنفات عديدة واوضاع مفيدة منها « ابكار الافكار » في سفرين ، وهو اختراع كله في الحكم والامثال والنظم والنثر » (٩٢) ويقول حاجي خليفة: « ابكار الافكار لمحمد بن سعيد الجذامي

(٨٨) معجم الادباء ١٩ : ٣٨ .

(٨٩) الذخيرة القسم الرابع المجلد الاول : ١٣٢

(٩٠) معجم الادباء ١٩ : ٣٤

(٩١) الوافي بالوفيات ٣ : ٩٣ وانظر فوات الوفيات ٢ : ٤١

(٩٢) المطرب : ٦١

القيرواني .. جمع فيه من نظمه ونثره » (٩٣) ويقول البغدادي : « له إبكار الأفكار نظماً ونثراً » (٩٤) ويقول حسن حسني : « أما تآليف ابن شرف فكثيرة على ماتقله الينا المؤرخون فمنها كتاب » إبكار الأفكار « جمع فيه ما اختاره من نظمة ونثره ؛ وهو النفس مصنفاته ، مفقود وقد يوجد شيء منه في كتب الأدب » (٩٥) ويحدثنا ابن شرف نفسه عن كتابه هذا ، فيذكر أنه اشتمل على مائة نوع من مواعظ وأمثال وحكايات قصار وطوال حيث يقول : « وقد كنت حاولت منه مالم أسبق اليه ، ولم أجعل سوى ناظري معيني عليه ، فصنعت الكتاب الملقب « إبكار الأفكار » يشتمل على مائة نوع من مواعظ وأمثال وحكايات قصار وطوال » (٩٦) ثم يشير الى أنه من اختراعه ، ومما أنتجته قريحته ؛ وأنه اشتمل على الجد والهزل فيعقب ذلك بقوله : « مما عزوتها الى من لم يحكها ، وأضفتها نسجاً الى من لم يحكها ، قد خرجت بلمح الجد والهزل ؛ وحسنت بمقابلة الضد المثل ، وليس لي ذلك كله رواية رويتها عن قديم ولا حديث ؛ ولا حديث بها من قريب ولا بعيد ... » (٩٧) .

وقد أهدى ابن شرف هذا الكتاب الى المعتضد ؛ وبعث به اليه . يقول ابن بسام : « وطرز تأليفه (إبكار الأفكار) باسم عباد ؛ وبعث به اليه على البعاد ، وقد كان وسمه قبل باسم باديس بن حبوس » وهذا الكتاب مفقود يكون كل ما وصل الينا منه هو ما نقله ابن ظافر في كتابه « بدائع البدائه » (٩٨) .

أعلام الكلام :

وقد حدثنا ياقوت عن هذا الكتاب وموضوعه ، حيث يقول وهو بسبيل تعداد مؤلفات ابن شرف : « وأعلام الكلام مجموع فيه فوائد ولطائف وملح منتخبة » (٩٩) ثم يشير عقب ذلك مباشرة الى أن لابن شرف كتاباً آخر بعنوان « رسالة الانتقاد » ويحدثنا عنه بقوله : « ورسالة الانتقاد وهي على طراز مقامة نقد فيها شعر طائفة من شعراء الجاهليين والاسلام » (١٠٠) فهل هما كتابان مختلفان أو انهما اسمان لكتاب واحد ، ونحن نرجح أن رسالة أعلام الكلام هي رسالة الانتقاد ، وأنهما اسمان لكتاب واحد .

وقد نشر هذا الكتاب حسن حسني في مجلة المقتبس تحت عنوان « رسائل الانتقاد » على نسخة في خزانته وأخرى في خزانة الاسكوريال برقم ٥٣٦ (١٠١) من القسم العربي ؛ كما نشر ضمن « رسائل البلغاء » كما نشره الخانجي مستقلاً سنة ١٩٢٦ م وصدره بمقدمة جاء فيها : « كتاب أعلام الكلام الذي ننشره اليوم بين يدي القارىء الكريم وقد سبق لأحد الأفاضل التونسيين ، وهو حسن أفندي عبد الوهاب

---

(٩٣) كشف الظنون ١ : ٦

(٩٤) هدية العارفين ٢ : ٧٢

(٩٥) مجلة المقتبس المجلد السادس : ٣٥٤ والنظر رسائل البلغاء : ٢٠٥

(٩٦) الذخيرة القسم الرابع المجلد الأول : ١٤٠

(٩٧) المصدر السابق : ١٤٠ – ١٤١

(٩٨) بدائع البداية : ١٢٦ – ١٢٨

(٩٩) معجم الأدباء ١٩ : ٤٢

(١٠٠) نفس المصدر السابق والصفحة

(١٠١) انظر حديثه عن النسخ التي اعتمدها في « رسائل الانتقاد » مجلة المقتبس المجلد السادس : ٣٥٠

ان نشره في مجلة المقتبس تحت اسم « رسائل الانتقاد » وقد خيل لحضرته ان رسائل الانتقاد هذه غير اعلام الكلام ، كما أشار بذلك في مقدمته » (١٠٢) ويحدثنا الدكتور ياغي عن رسالة اعلام الكلام وانها هي بعينها « رسائل الانتقاد » كما انها تسمى ايضا « مقامة من الشعراء » فيقول : « أعلام الكلام نشرها الخانجي وهي هي رسائل الانتقاد » ، كما هي في الاسكوريال برقم ٥٣٦ وعليها اسم « مقامة من الشعراء » وقد صورتها لي الجامعة العربية، وبينها وبين نسخة الخانجي بعض الاختلافات القليلة » (١٠٣) وهكذا نرى ان « اعلام الكلام » و « رسالة الانتقاد » و « مقامة من الشعراء » كلها اسماء اطلقت على كتاب واحد ومسمى واحد .

وتكاد هذه الرسالة تكون هي الأثر الوحيد الذي وصل الينا من مصنفات ابن شرف وآثاره التي امتدت اليها يد الضياع ، وقد كتبها بأسلوب السجع المعروف في المقامات ، والتقها بالمحسنات البديعية ، واتخذ لها شخصا خاليا دعاه (أبا الريان الصلت بن السكن) وتحدث على لسان هذا الشخص الخيالي أو البطل من مشاهير الشعراء القدامى والمحدثين فوصف كل واحد باختصار ، وعرض لمزاياه وعيوبه في ايجاز ، واغفل المغمورين منهم والمجاهيل ولم يذكر اليهم ، ويقول ياقوت : « وهي على طراز مقامة نقد فيها شعر طائفة من شعراء الجاهلية والاسلام » (١٠٤) ويحدثنا عنها ابن بسام بقوله : « ولابن شرف مقامات عارض بها البديع في بابه وصب فيها على قالبه ، منها مقامة فيها بعض طول لكنه غير مملول ، آخذة بطرف مستطرف من اخبار الأدباء وذكر الشعر والشعراء » (١٠٥) ويقول احمد امين : « كما وضع ابن شرف كتابه (اعلام الكلام) وموضوعه مقامة طويلة كمقامات الحريري ، تعرض بطلها لمشهوري الشعراء من المتقدمين والمحدثين يصفه في قول قصير ، ويبين مزاياه وعيوبه في ايجاز » (١٠٦) ويقول حسن حسني : « وهي من اجمل ما وضع الواضعون في هذا الفن الجليل الذي كاد ان يكون مفقودا في التصانيف العربية » (١٠٧) كما ذهب في مقدمته لها الى انه يبدو ان ابن شرف كان يهدف من ورائها الى معارضة كتاب « العمدة » لابن رشيق وانها ربما كانت اطول مما وجده وحققته ونشره، وقد استند في رأيه هذا الى ما جاء في سياق كلام ابن شرف في مقدمته للمجلس الاول يقول حسن حسني : « ويلوح لي ان مؤلفنا قصد بتدوين هذه الرسائل معارضة كتاب «العمدة» .... الا ان الرسائل المعارض بها كانت اطول واكثر مما وجدناه واوردناه هنا يؤيد ذلك ما جاء في سياق كلام ابن شرف في مقدمته للمجلس الاول حيث يقول : « فاقمت من هذا النحو عشرين حديثا » فالمظنون انه يقصد بالحديث مجالسه مع الاستاذ الموهوم الذي سماه « أبا الريان » كما اختلق الحريري في مقاماته شخص

(١٠٢) انظر مقدمة رسالة اعلام الكلام ، وممن ذهب من المحدثين الى ان رسالة « اعلام الكلام» كتاب آخر غير « رسائل الانتقاد » حسن حسني حيث يقول وهو يعدد مرفي مؤلفات ابن شرف : « ومنها كتاب « اعلام الكلام » به تخيب وملح مطرد ايضا » ، ثم رسائل الانتقاد » والمظنون انه الفها بمدهجرته القطر التونسي كما يستفاد من سياق كلامه في مقدمتها » مجلة المقتبس المجلد السادس : ٢٥٤ ـ ٢٥٥ وانظر رسائل البلغاء : ٣٠٦

(١٠٣) حياة القيروان وموقف ابن رشيق منها : ٢٠٥

(١٠٤) معجم الادباء ١٩ : ٣٤

(١٠٥) الذخيرة القسم الرابع المجلد الاول : ١٥٤

(١٠٦) ظهر الاسلام : ١ : ٨ : ٢٠٨

(١٠٧) بساط العقيق : ٥١

الحارث بن همام واخترع الهمداني عيسى بن هشام ، فعسى ان يساعدني الحظ بالعثور على بقية هذا التأليف النفيس ان كان في عالم الموجودات » (١٠٨) .

هذه هي رسالة اعلام الكلام واقوال العلماء القدامى والمحدثين فيها وفي موضوعها ويجدر بنا قبل ان نتحدث عنها ان نقارن بينها وبين « كتاب العمدة » و رسالة قراضة الذهب » لابن رشيق .

واذا قارنا بين رسالة « اعلام الكلام » لابن شرف ، والعمدة ورسالة قراضة الذهب لابن رشيق وجدنا تشابها بينهما في كثير من الموضوعات ، فابن شرف مثلا يقول عن ابن الرومي : « واما ابن الرومي فشجرة الاختراع وثمرة الابتداع ، وله في الهجاء ماليس له في الاطراء فتح فيه ابوابا ، ووصل منه اسبابا ، وخلع منه اثوابا وطوقه رقابا »(١٠٩) ويقول ابن رشيق « وكان ابن الرومي شديد بالمعاني ، حريصا عليها ، يأخذ المعنى الواحد ويولده ، فلا يزال يقلبه ظهرا لبطن ، ويصرفه في كل وجه الى كل ناحية ، حتى يميته ، ويعلم انه لا مطمع فيه لاحد »(١١٠) وترى ابن شرف في الرسالة يحدثنا عن الشعراء القدامى والمحدثين ويحمل على اتجاه الرواة وعلماء اللغة ومقاييسهم في تقسيمهم الشعراء الى طبقات ، وتفضيلهم القديم لمجرد قدمه وسبق الزمن بصاحبه حيث يقول :« واحفظ من شيئين : احدهما أن يحملك اجلالك القديم المذكور على المحبة باستحسان ما تسمع له ، والثاني : ان يحملك اصغارك العاصر المشهور على التهاون بما انشدت له ، فان ذلك جور في الاحكام وظلم من الحكام ، حتى تمحص قوليهما ، فحينئذ احكم لهما او عليهما»(١١١) ثم يقول : « وقد وصف تعالى في كتابه الصادق تثبت القلوب بسيرة القديم ،ونفارها عن المحدث الجديد ، فقال حاكيا لقولهم « انا وجدنا آباءنا على امة » وقال تعالى « لن نعبد الا ما وجدنا عليه اباءنا ...» فلا يرعك ان تجرى الحق في جميع الخلق ، فيه قامت السماوات والارض ، وبه احكم الابرام والنقض ، وسأمثل لك في هذا امثالا ، واملا اسماعك مقالا ، وافهمك عدلا واعتدالا ، هذا امرؤ القيس اقدم الشعراء عصرا ، ومقدمهم شعرا وذكرا ، وقو اسمعت الاقوال في يشله الصالة لم يفز غيره بمثله، حتى ان العامة تظن بل توقن ان جواد شعره لا يكبوا ، وان حسام نظمه لا ينبو وهيهات من البشر الكمال ودون الآدميين الاستواء والاعتدال»(١١٢) ثم يمضي يعقد على بعض الشعراء القدامى كثيرا من السقطات والهنات ، وينعى عليهم ما وقعوا فيه من اخطاء وعيوب ويجرحهم ويشهر بهم بادئا بامرئ القيس اقدم الشعراء عصرا ، ومقدمهم ذكرا وشعرا ويرى انه كسائر الشعراء لا يخلو من العيوب ولايسلم من الهنات والمآخذ ؛ ثم يعرض لطائفة من عيوبه وسفساف شعره وساقطه .

واذا كان ابن شرف يحدثنا عن القدامى والمحدثين كما رأينا في النص السابق ايراده من هذه الرسالة الذى حمل فيه على مقاييس الرواة وعلماء اللغة في تفضيلهم القديم لمجرد قدمه وسبق الزمن بصاحبه ، فاننا نجد ابن

(١٠٨) مجلة المقتبس المجلد السادس : ٣٥١

(١١٠) العمدة ٢ : ٢٣٦ – ٢٣٧

(١٠٩) اعلام الكلام : ٢٤

(١١١) اعلام الكلام : ٢٨

(١١٢) اعلام الكلام : ٢٨

رشيق يعقد لهم بابا مستقلا وقالما يشابهه في كتابه العمدة بعنوان « القدماء والمحدثين » .

واذا كان ابن شرف يحدثنا في رسالته عن امرىء القيس، ويذكر انه « مؤسس الاساس، وبنيانه عليه الناس » كانوا يقولون : أسيلة الخد ، حتى قال امرؤ القيس : أسيلة مجرى الدمع ، وكانوا يقولون : تامة القامة وطويلة القامة واشباه هذا وجيداء ، وتامة العنق ، حتى قال امرؤ القيس : « بعيدة مهوى القرط » وكانوا يقولون في الفرس السابق يلحق الغزال ، ويسبق الظلام ، أو الظليم ، وامثال هذا ، حتى قال : بمنجرد قيد الأوابد هيكل » ومثل هذا له كثير(١١٣) فاننا نرى ابن رشيق يحدثنا في رسالته « قراضة الذهب » عن امرىء القيس بقوله : «وانا اقتصر من جميع الشعراء اكثر ما اورده على امرىء القيس ، لانه المتقدم لا محالة ، وان وقع في ذلك بعض الخلاف فالمبرّ الحاذق بطرق البلاغة يجد كلامه من الفضيلة في نفسه ملا يجده العراء من كلام الشعراء بالبحث والتفتيش برهانه جلالة ، ويوجبان له على ما سواه مزية ، ويشهد الطبع وذوق الفطرة شهادة بينة واضحة لا تعركها شبهة الا قصد الانسان العادل ، وترك التعصب واول ما ابدأ من ذلك ماكان من جهة الاستعارة كقوله : « بمنجرد قيد الاوابد هيكل » فانه اول من قيدها ، وسبق الى الاستعارة البديعة فاتبعه الناس »(١١٤) فهل لنا بعد هذه المقارنة بين اعلام الكلام لابن شرف ، وقراضة الذهب والعمدة لابن رشيق التي اوردنا اطرافا منها ان نقول : ان احدهما تاثر بصاحبه ، وتأسى به ، او نقول : ان اتفاقهما وتشابههما هو مجرد توارد خواطر كالذي رأينا في الاشعار التي حملهما عليها المعز بن باديس ، ودفعهما اليها دفعا مثل اشعارهما في صفة الموز او في وصف شمر السوق .

وقد بدا لي بعد كل هذا ان استنتج ان ابن رشيق اخذ من ابن شرف ، واميل الى انه تأسى به ، وارجح انه تأثر به خاصة اننا نجد ابن شرف يستهل رسالته،ويفتتحها بقوله : « هذه احاديث صغتها مختلفة الانواع، مؤتلفة في الاسماع ، مربيات الوائم غريبات التراجم ، وعزوتها الى ابي الريان الصلت بن السكن من سلامان ، وكان شيخا هما في اللسان ، وبحرا لما في البيان ، قد بقي احقابا ، ولقي اعقابا ، لم الفته الينا مزيادته الايمان وأورده علينا العزمات فامتحنا من علمه بحرا جاريا، ومن فهمه زندا واريا ، وابدينا من بره طرفا ، واجتنينا من ثمره طرفا ، ولم يحل الا ذلك والشباب مقتبل ، وغلمة الزمان تهتبل(١١٥) ... » فابن شرف يصرح في هذا النص انه كتب هذه الرسالة في مقتبل الشباب وصدره ، واذا عرفنا ان ابن شرف ولد في سنة ٣٩٠ هـ كان لنا ان نزعم انه الفها بين سنتي ٤١٠هـ و ٤٢٠هـ اي في العقد الثالث من عمره في مقتبل الشباب وشرخه وصدره ، فاذا اضفنا الى ذلك انه يمكننا ان نقول : ان ابن رشيق الف كتابه « العمدة » في الفترة ما بين سنتي ٤١٢هـ و ٤٢٥هـ(١١٦) خلافا لما نجده يورد خبر هجاء دعبل بن علي الخزاعي للمعتصم وهروبه من وجهه ، فارا بمهجته

(١١٣) اعلام الكلام : ١١٦
(١١٤) قراضة الذهب لتحقيق الشاذلي بو يحيى ط تونس سنة ١٩٧٢ م ص ٢٠ ـ ٢١ .
(١١٥) اعلام الكلام : ١٢
(١١٦) العمدة ١ : ٥٧

منيه ، بعد أن طلبه المعتصم وشاطر دمه ، وإبعاده في الهرب حتى أدركته منيته ، وهو قضاؤه بالمغرب بزوبلة بني الخطاب حيث دفن الى جوار قبر عبدالله ابن شيخه القزاز حيث يقول : « والى جانبه قبر عبد الله بن شيخنا أبي عبد الله محمد بن جعفر النحوي رحمه الله » (١١٦) فهو يذكر قبر ابن شيخه القزاز ويقرن اسم شيخه بقوله : « رحمه الله » فاذا ذهبنا الى أن الدعاء بالرحمة انما هو لشيخه القزاز وأنه كان قد توفى اثناء كتابة طبقة ابن رشيق قصة دعبل وخبره مع المعتصم لمكننا أن نقول : أن ابن رشيق انتهى تأليف كتابه هذا في سنة ٤١٢هـ وهناك قرينة ثانية تدل على أن هذا الكتاب ألف في الفترة آنفة الذكر ، وهي أن أول ما يطالعنا من هذا الكتاب أن ابن رشيق يرفعه الى أبي الحسن علي بن أبي الرجال رئيس ديوان المعز بن باديس والوجيه أيام ، فيقول : « السيد الأمجد والملك الأوحد عمدة الدنيا وعلم العليا وبانى المكارم وأبي المعالم رجل الخطب وفارس الكتب أبي الحسن على ابن أبي الرجال الكاتب زعيم الكرم وواحد الفهم ، الذى نال الرياسة وحاز السياسة » (١١٧) ولم يكن ابن رشيق في صنيعه هذا ، واهدائه كتابه الى ابن أبي الرجال بدعا من المؤلفين والمصنفين وانما كان يجرى على سنة العصر الذى عاش فيه ، فقد جرت عادة العلماء والأدباء حينذاك أن يرفعوا كتبهم ومصنفاتهم الى الأمراء والوزراء وكبار رجالات الدولة ، ويهدونها اليهم ابتغاء المثوبة والمنفعة ، والتماسا لجزيل عطائهم ونوالهم وصلاتهم وطلبا للشهرة وذيوع الصيت فلا على أن ابن رشيق اذ يجرى على سنة

حضره ، فيهدى كتابه الى ابن أبي الرجال ، وأن يسرف في مدحه ، ويغالى في اطرائه شأنه شأن غيره ممن هم على شاكلته من الأدباء والكتاب حتى يقول : « ولم أرسم كتابى هذا باسم السيد زاده الله تعالى سموا لأكون كجالب التمر الى هجر ، ومهدى الوشى الى عدن ، ولكن اردنا باسمه الشريف وذكره الطيب : واستسلاما بين علمه الطائل وأدبه الكامل ... » (١١٨) فاذا عرفنا أن ابن أبي الرجال هذا الذى أهداه ابن رشيق كتابه « العمدة » توفى سنة ٤٢٥ هـ فان من المقطوع به أن يكون هذا الكتاب قد تم تأليفه قبل هذا التاريخ وعلى هذا يكون ما ذهبنا اليه ، والذى نشاه من أن ابن رشيق أخذ من رسالة أعلام الكلام لابن شرف ، وأفاد منها ، وتأثر بها أمر جائز يقبله العقل ، ولا يحيله فولايمنع من ذلك أن يحلى ابن رشيق من نفسه في كتابه العمدة لهمة الأخذ من نظر معاصريه ، وذلك لتعيين اثار كتابه العمدة ، واخراجه الناس يقرون أنه ظفر باعجاب الجمهور ، والساب المطوخ تقدم الأمر الذى أوقر صدور خصومه فنالوا من الكتاب ، وانتقصوا من قدره ، وبخسوه حقه ، وتقمعوا على صاحبه ، وغمطوه حقه ، وادعوا عليه الأخذ والانتحال والسرقة ، فقال معرضا بهم في بداية باب التضمين والاجازة : « وهذا باب يخالط على كثير من الشعراء ممن ليس له الثوب في العلم ولا حلق بالصناعة كجماعة ممن وسم في بلدنا بالسرقة ، وينسب اليها مكتوبا عليه فيها ، كأنما فيما ادعاه منها ، واتهرقهم في لحسن القول » (١١٩) كما يعرض بهم في موضع آخر حيث يقول : « وكم في بلدنا هذا من الحمقات

(١١٧) العمدة ١ : ٣

(١١٨) العمدة ١ : ٥

(١١٩) العمدة ٢ : ٨٠

قد صاروا تمابين ، ومن البغاث قد صاروا شواهين » ان البغاث في ارضنا يستنسر ، ولولا أن يعرفوا بعد اليوم بتخليد ذكرهم في هذا الكتاب ، ويدخلوا في جملة من يمدحطه» ويحصى زلله لذكرت من لحن كل واحد منهم وتصحيفه وفساد معانيه وركاكة لفظه مايدلك على مرتبته من هذه الصناعة التي ادعوها باطلا ، وانتسبوا اليها انتحالا ، وقد بلغني أن بعض من لا يتورع من كذب ، ولا يستحي من فضيحة زعم الى اخذت مسائل من هذا الكتاب لو سئل عنها الان ما علمها » (١٢٠) وربما كان يقصد بمن لا يتورع من الكذب ، ولا يستحي من الفضيحة ابن شرف القيرواني قريعه وغريمه ومنافسه في بلاط المعز بن باديس .

وقد ذهب حسن حسني الى قريب مما ذهبنا اليه ، فقد ذكر ان ابن رشيق الف كتابه « العمدة » في حدود سنة ٤٣٠هـ او قبلها بقليل حيث يقول : « واشتهر تأليف لابن رشيق في الادب هي كتاب العمدة في صناعة الشعر ونقده الفها في حدود سنة ٤٣٠ هـ او قبلها بيسير» (١٢١) وانه لمن القريب حقا ان يذهب اليمني الى ان ابن رشيق الف هذا الكتاب بعد سنة ٤٤٩هـ معتمدا في ذلك على خبر أبيات لابن رشيق وردت في هذا الكتاب وهي :

وذيالة لـه رجـل طحـون
لما نزلت بـه وبـد زجوج
يطير بأربع لا عيـب فيهـا
لظهـران الصفا منهـا عجيج
خرجت به الى الاوهام سبقا
وقيل له عـن الوهم الخروج
الى الملك المعـز أبي تميم
امـر بمن سواه فـلا اعيج

فابن رشيق يحدثنا عن هذه الابيات بقوله : « ومن قصيدة صنعتها بديهة بالمهدية ساعة وصولي اليه ــ ادام الله عزه ــ عن اقتراح بعض شعراء وقتنا هذا » (١٢٢) فاليمني يرى أن ابن رشيق انما ذهب الى المهدية ، ولحق بالمعز بن باديس بها بعد خراب القيروان على ايدي الاعراب سنة ٤٤٩ هـ وهي سنة جلاء المعز من القيروان الى المهدية، ولنا أن نسائل اليمني وان نناقشه فيما ذهب اليه ، فمن ذا الذي زعم او قال : ان المعز بن باديس لم يذهب قط الى المهدية الا في سنة ٤٤٩ هـ بعد خراب القيروان ؟ ومن يستطيع ان ينكر ان المعز قد ذهب اليها ، وزارها قبل هذا التاريخ ابان ازدهار ملكه لتفقد احوال رعيته فيها ، اليست احدى المدن الكبار الواقعة في نطاق دولته ؟ اليس المعز قد ولى عليها ابنه تميما ، وعهد اليه بامرها ؟ ثم الم يحدثنا المؤرخون القدامى والمحدثون ان المعز كان بالمهدية في صحبة جده يوم مات ابوه باديس واله ولي الملك ، وآلت اليه الامارة وهو بها سنة ٤٠٦ هـ ؟ على ما يحدثنا ابن ابي دينار حيث يقول عن وفاة باديس : « فادركه اجله على مدينة المحمدية آخر ليلة من ذي القعدة سنة ستواربعمائة، فكتم اكابر دولته موته ، وتشاوروا فيما بينهم، فاتفق رأيهم على تولية ولده المعز وكان صغيرا اذ ذاك لم يبلغ عشر سنين ، فجعلوا باديس في تابوت .... واوصلوه الى المهدية

(١٢٠) العمدة ٢ : ٢٢٨
(١٢١) بساط العقيق : ٨٧
(١٢٢) العمدة ١ : ١٠٣

وكان ولده المعز بها خرجت به جدته للنزاهة وجعلتها حرزاً لاموالها ، لما كانت ترى من الفتنة في دولة ولدها باديس»(١٢٣) .

على أن قصة هذه الابيات التي اعتمد عليها الميمني في تحديد زمن تأليف كتاب «العمدة» وردت برواية اخرى في النسخة الخطية اقدم نسخ الكتاب تقول هذه الرواية : « قبل وصولي اليها » فهو يصرح فيها انه قال هذا الشعر قبل أن تتصل اسبابه باسباب المعز بن باديس ، وينخرط في سلك خدمته ، ويصطنعه المعز ، ويصطفيه لنفسه ، ويصبح شاعر بلاطه المقدم منده الاثير لديه ، وليس ادل على ذلك من انه قال هذا الشعر عن اقتراح احد شعراء الوقت ، ولو كان قد قاله بعد سنة ٤٢٩ هـ - كما ذهب الميمني - ما كان بحاجة الى اقتراح غيره عليه أن يقول شعراً وانما يكون الاقتراح قبل ان يصل حبله بحبل المعز ، فيدفعه المقترح الى أن يقول شعراً في هذا الغرض او ذاك ، وبهذا يكون الزمن الذي حددناه لتأليف الكتاب اقرب الى الصحة والصواب الا ولا يكون ابن رشيق الفه بعد سنة ٤٤٩هـ بحال من الاحوال كما ذهب الميمني .

على اننا لو تركنا هذا الموضوع جانباً ، ونظرنا الى سن ابن رشيق حين رحل الى المهدية ولحق بالمعز بن باديس بها سنة ٤٤٩هـ لرأيناه قد ناهز الستين اذ انه ولد سنة ٣٩٠هـ على ارجح الروايات ، فكيف نستسيغ أو نتقبل أن يسلخ ابن رشيق من عمره ستين عاماً ، وان يقضي حياته الا أقلها لا يؤلف شيئاً ، حتى اذا ما أصبح في خريف العمر ، وغدا شيخاً هرماً ، واضطربت أمور الدولة، والتاثت احوال الرعية ، وحدثت مأساة سقوط القيروان في أيدي الاعراب ، وازعج من حرمه الامن ، واجلي عنه مرغماً ، ونزح الى المهدية على كره منه ، راح يكتب واخذ يؤلف مثل هذا الكتاب ، والميمني نفسه يقول عنه « ولكن لما انتقل المعز من سبيل أعراب مصر الى المهدية ، وتبعه صاحبنا ، طاش فكره وفال رأيه ، فكان يتمضمض من أدنى نلة ، ويتجه على أحقر بادرة ، ويسيء الظن بصديقه الوفي وصاحبه الحفي ، فارتحل الى صقلية وهو كاره .. مع أنها لم تكن أحسن حالاً من افريقية »(١٢٤) لشيخ هرم مثل ابن رشيق هذه حاله وتلك نفسيته وتلك ظروفه يزعج من حرمه الامن ، ويجلو عن موطنه القيروان مرغماً ، ويطرده على ضياعه دموعاً صادقة ، ويصور لنا مأساته أروع تصوير وأصدقه في مرثية من أصدق شعر ابن رشيق عاطفة وأعمقه أثراً في النفس ، ثم يعاني في هذه السن آلام الوحشة والاغتراب ويتجرع مرارة نبو المعز عنه ، وجفوته له ، لا يمكنه بحال من الاحوال ان يؤلف مثل هذا الكتاب في ذلك الحين ، وانما المستساغ والمقبول والاقرب الى الصواب ان يكون قد الفه قبل ذلك في

(١٢٣) المؤنس : ٧٩ - ٨٠ وفي بساط العقيق : ٤٢ : « وتاتركه الثية والده باديس آخر ليلة من ذي القعدة سنة ٤٠٦ هـ بمدينة المحمدية ، فالوالي مديرو الدولة بينهم ، فاتفق رأيهم على تولية المعز ، وكان وقتئذ في التنزه صحبة جدته بالمهدية » ويفهم من كلام ابن عذارى ان المعز كان في صحبة جدته ثم نقل عنه توليه الامارة بالمهدية ، وليس في صحبة جدته انظر البيان المغرب ١ : ٢٨٦ وقد ذهب الى ذلك احمد بن طاهر في كتابه « الدولة الصنهاجية » حيث يقول عن ام ملال : « وهي سيدة بنت الامير المنصور وشقيقة الامير باديس نشأت وتدرجت في كنف والدها وأخيها ، واشتهرت برجاحة العقل وسعة التفكير وثقب الرأي وعلو الثقافة ... وبعد ... [illegible] الامير المعز [illegible] ثمانية اعوام .. » الدولة الصنهاجية : ٦٢ - ٦٣ وذكر ابن الاثير ان ولاية المعز كانت بالمهدية ، ولم يشر الى وصاية عمته عليه حيث يقول : « ووصلوا الى المهدية ، والمعز بها ثامن المحرم ، فركب المعز ووقف حبيب يقطعه إليهم ، وهنأ له استماعهم ، ويعرفه بقواعدهم والتيرحم ، فرحل المعز من المهدية ، فوصل الى المنصورية منتصف المحرم » الكامل ٩ : ٩٥

(١٢٤) ابن رشيق : ٥٠

شرخ شبابه ومقتبل عمره ، والدنيا عليه مقبلة والسلطان عنه راض ، والظروف مهيأة له ومتاحة ، والزمان موات له ومساعد ، ومن العجيب ان اليمني يقرر بعد ذلك ان ابن رشيق سنة ٤٤٩ هـ كان في عهد هرمه وشيخوخته ، وانه لم يصنف فيه شيئا جديرا بالذكر حيث يقول : « ان هذا العهد كان عهد هرمه وهمومه ، وانه لم يعمل فيه عملا يصلح للذكر اصلا او على ما بلغنا »(١٢٥)

فهل لنا بعد كل هذا ان نركن الى ما ذهبنا اليه ، وافترضناه ، واستنتجناه من ان ابن رشيق اخذ من ابن شرف ، وتأثر به ، وكان من الممكن ان نطمئن الى ما انتهينا اليه لولا اننا رأينا ابن شرف يورد في مقدمة رسالته ما ينقض كل ما افترضناه واستنتجناه وذهبنا اليه ، ويأتي عليه من القواعد ، ويجعلنا لا نطمئن الى ما انتهينا اليه حيث يقول : « ولعمري ما الشكر من نفسي ، ولا اتكل على شيء من حسن الا ظفري بالاقل مما حاولته ، على ما اشربته نيران الغربة من قولي ، وثلمته صفحات الغثة من لبي ، وقطعت اهوال البر والبحر من خواطري ، واضعفت الوحشة والوحدة من غرائزي وبصائري »(١٢٦) فهذا النص يدل على ان الرسالة كتبت بعد معاناة اهوال في البر والبحر ، وبعد غربة وفتنة ، وليست هناك الا فتنة سقوط القيروان التي هزته فخلد مأساتها في عدة قصائد تعد من عيون شعر رثاء المدن ، هذا اللون الذي شاع في الاندلس والمغرب العربي قبل أن يعرفه المشارقة ولا تكاد تعرف الا غربته في صقلية ، ثم الغربة والوحدة في الاندلس كما سبق ان بينا ، واذا كان الامر كذلك وكانت كتابة الرسالة بعد هذا كله فلا يمكننا ان نزعم ان ابن رشيق تأثر بابن شرف أو اخذ عنه لا في (العمدة) ولا في (قراضة الذهب) ، ولعل هذا النص هو الذي دفع حسن حسني الى ان يرجح أن ابن شرف الف هذه الرسالة بعد هجرته من القطر التونسي حيث يقول وهو بصدد تعداد مصنفات ابن شرف : « ثم رسائل الانتقاد ، والمظنون انه الفها بعد هجرته القطر التونسي كما يستفاد من سياق كلامه في مقدمتها» (١٢٧) »

ومن هنا نرى انه لم يكد يصل الينا من مؤلفات ابن شرف الكثيرة التي يقول فيها ابن بسام : « ولابي عبدالله عدة تواليف اطلعها بدورا ، واطلعها شموسا واقمارا »(١٢٨) والتي يحدثنا عنها حسن حسني بقوله : « اما تآليف ابن شرف فكثيرة على ما نقله الينا الاخباريون منها سوى رسالته أعلام الكلام»(١٢٩) اما باقي مؤلفاته فقد فقدت ، وامتدت اليها يد الضياع ، الا انه ينبغي ان نشير هنا الى انه توجد آثارات من نثره وشعره مبثوثة في ثنايا كتب الادب ، ولا سيما (الذخيرة) لابن بسام ، فقد احتفظ لنا فيها بجملة صالحة من آثاره تكفي لابراز قيمتها ، وأورد لنا طائفة كبيرة من نثره وشعره ، وبسط القول في اخباره الادبية وافاض فيها حتى كثر عليها ما يزيد عن خمسين صفحة ، فمن نثره الذي

---

(١٢٥) ابن رشيق : ٩٧

(١٢٦) رسالة اعلام الكلام : ١٤

(١٢٧) مجلة المقتبس المجلد السادس : ٢٥٤ ــ ٢٥٥ وانظر رسائل البلغاء : ٣٠٦

(١٢٨) الذخيرة القسم الرابع المجلد الاول : ١٣٤ .

(١٢٩) مجلة المقتبس المجلد السادس : ٢٥٤ وانظر رسائل البلغاء ٣٠٦ وقد عد البغدادي ضمن مؤلفات ابن شرف حجج النصح وسر البر ، ولا نعرف شيئا عن موضوع هذين الكتابين ولا المصادر التي استقيتها الا انني ذكرتهما دون ان يشير الى موضوعهما ولا الى المصادر التي اعتمدها في هذين الكتابين .

اورده ابن بسام رسالة الى المعتضد التي خاطب في احداها وزيره ابن زيدون ، وفصل من رسالة بعث بها الى المظفر بن الافطس ، وفصول من النثر في مختلف المعاني وشتى الموضوعات ، ثم ختمها بقصة قصيرة سماها مقامة ، وقد التزم السجع ، وكلف بالمحسنات البديعية في كل كتاباته ، فاثقل نثره بالمحسنات البديعية ، واسرف في استعمالها ، وغالى في تزيين الالفاظ وتزويق العبارات ، وحشد فيها كل ما يستطيع ان يأتي به من الوان المحسنات حتى انك لاتكاد تجد عبارة واحدة لا تثقلها المحسنات ، وقد كان هذا شأنه في كل ما اثر لنا عنه من نثر سواء أكان نثرا شخصيا ام نثرا فنيا كالرسائل والفصول التي اوردها ابن بسام ، وحفظنا منها اثنا ، ام كان نثرا تناول فيه الابحاث الادبية مثل رسالة « اعلام الكلام » تلك الرسالة الوحيدة التي وصلت الينا من بين مؤلفاته ، والتي تناول فيها الشعراء بالنقد ، فقد حشد فيها كل المحسنات البديعية ، وكلف بالسجع الركيك ، واحتفل به ، والتزمه من اول الرسالة الى آخرها كما اولع بالالفاظ الغريبة لا حتى كانت الافكار والاحكام العامة الخالية من الضبط ، والتحليل المشتملة عليها هذه الرسالة تضيع في امواج السجع والالفاظ الغريبة ، وتغيب في خضم الصنعة المفرطة المغالى فيها ، فهو يعرض فيها للشعر والشعراء ومنازلهم في الجاهلية والاسلام ، ويبين رأيه فيهم وموقفه منهم سالكا في ذلك سبيل المقامات .

ومستخدما اسلوبها ، فعني بتزيين الالفاظ واهتم بتزويق العبارات ، وكلف بالسجع ، واحتفل بالمحسنات والصنعة ، حتى انك لاتكاد تجد عبارة واحدة في هذه الرسالة لا تنوء باثقال المحسنات البديعية والصنعة المفرطة المغالى فيها .

اما الاشعار التي اوردها ابن بسام فهي في موضوعات شتى منها المقطوعة الطويلة التي خاطب فيها المعتضد ، وبعث بها اليه يولسه من لقائه ، والوقوع في حبائله ، وهي تصور خوفه من المعتضد واشفاقه من القدوم عليه ادق تصوير واروعه ، ومنها عدة مقطوعات في النسيب وقصائد في مديح المنصور حفيد ابن ابي عامر وابن طاهر امير مرسية وابن ابي الرجال رئيس ديوان الانشاء في بلاط المعز بن باديس ، وعدة قصائد في رثاء القيروان ووصف نكبتها وتصوير مأساتها تعد من عيون الشعر العربي في رثاء المدن والامصار ، ومنها مقطوعة تعد من رائع الشعر وجيده يصف فيها ما كان من صيانة الحريم واستتارهن وتصونهن قبل حدوث مأساة القيروان وما صرن اليه بعدها من الانكشاف والتنقل في الحل والترحال ، وما عانينه من خطوب واهوال يقول في هذه المقطوعة :

بعد خطوب خطبت مهجتي ... وكان وشك البين الهارها

وا كبد اتلدتها حولها ... تسمت العذرية اعشارها

العاقل منا مستعصم بالقلا ... لم تعاين القلا دارها

ولا رأت ابصارها شاخصا ... ثم جلت بالليل ابصارها

وكانت الاستار آفاقها ... فصارت الآفاق استارها

ولم تكن تعلو سريرا علا ... الا انا وافق مقطورها

ثم جلت كل عثور الخطا ... ترسي بها الاوش واسوارها

ولم تكن تلحظها مقلة ... لو كطت بالشمس اشفارها

فاصبحت لا تتقي لحظة ... الا بأن تجمع اطمارها

وفي البيت الخامس من هذه المقطوعة تلميح، يقول ابن بسام معلقا على هذه المقطوعة «قوله «وكانت الاستار اغلاقها» من الكلام الفصيح والقلب المليح»، ويشبه منحاه وان لم يكن في معناه قول الاول:

فرد شعورهن السود بيضا
ورد وجوههن البيض سودا

وكقول الآخر:

لديهني جارية ساقية
ونزهتي ساقية جارية(١٣٠)

وقد بسط ابن شرف القول، واجاد كل الاجادة في تصوير نكبة القيروان حاضرة الافريقية، وما اصابها على أيدي الاعراب من صنوف التخريب والتدمير وما لحق باهلها من الوان العسف والاضطهاد، وما حاق بهم من فنون الاذى وضروب التعذيب، وما لحق بهم من الذلة والهوان، وكان ابن شرف قد احس لذع المصيبة وحرها، وذاق مرارة النكبة، وتجرع غصص الكارثة في نفسه واهله وولده، وعرف المأساة وازعجته من حرمه الامن، وعانى من ويلاتها ما عانى فانطقته بشعر صورها فيه تصويرا دقيقا، حتى انه قلما نجد عند غيره من الشعراء من صور مأساة القيروان مثل هذا التصوير الدقيق المتمثل، ونحس مثل هذه اللمسات الحزينة التي تشيع في كل مراثيه للقيروان ووصف مأساتها وما حل باهلها، ومن ثم كانت مراثي ابن شرف للقيروان، وتصويره لمأساة سقوطها، وما حل باهلها من اصدق الشعر عاطفة، واعمقه اثرا في النفوس وخاصة حين يصور حال اسرته واطفاله الصغار، وما تجشموه في هذه التي القضة من صعاب في الصحارى والقفار وعلى متون البحار فرارا بانفسهم من عسف الاعراب ومحنتهم واذاتهم.

يقول ابن شرف:

كانني وافراشي اذا الليل جنسا
وبات الكرى يجفو جفونا وطرق

حمائم اضللن الوكور فضمها
تجانسها حتى تراءى الفرق(١٣١)

الى آخر هذه المقطوعة التي سبق ان اوردناها عند حديثنا عن اسرته. ومن اشعاره قصيدة يندب فيها القيروان، ويبكي فيها وطنه الضائع، ويذرف على ضياعه دموعا صادقة ويسترجع ذكرياته بالقيروان في مرارة واسى وحسرة ولوعة، ويتشوق حياته الماضية بها، وعهوده السالفة في ربوعها ومغانيها فيقول:

بالقيروان وددت انـي طائـر
فـاراك رؤيـة طائـر متأمـل

آهـا وايـة آهـة تشفي جـوى
قلـب بنيران الصبابـة مصطلي

ابـدت مغاليـق الغيـوب مصائبـا
كانـت كوامـن تحت غيب مقفـل

زعموا ابـن آوى فيك يعوي والصدى
بـفنائك يصـرخ كالحـزين المثكـل

يا بيـت روضـة والشوارع حولهـا
مقصـورة ابـدا لقـس والمتلـي

يا الربعي في القطب منهـا كيف لـي
بيعاد يـوم فيـك لـي ومن اين لـي

(١٣٠) الذخيرة القسم الرابع المجلد الاول : ١٨٠ والخريدة/مسالك الايمان ١ : ١٤

(١٣١) الذخيرة القسم الرابع المجلد الاول : ١٨١

يالو شهدت اذا رايتك في الكرى
كيف ارتياع صباي بعد تكمل
لاكثرة الاحسان تنسي حسرة
هيهات تذهب طية بتعلل
واذا تجدد لي اخ ومسلام
جددت ذكر اخاء خل اول
لو كنت اعلم ان آخر عهدكم
يوم الرحيل فعلت مالم افعل (١٣٢)

كما توجد مقطوعات من شعره في كل الكتب التي ترجمت له مثل (معجم الادباء) (والواقي بالوفيات) و (المطرب) (معالم الايمان) ، كما توجد آثار من شعره ونثره في ثنايا الكتب الادبية الاخرى مثل (الغيث المسجم) ففيه عدة مقطوعات من شعره ، كما توجد قطعة من نثره في مدح الشطرنج وهذه القطعة موجودة ايضا في (نزهة الجليس ومنية الاديب الانيس) .

ونستطيع ان نقول ان اجود اشعار ابن شرف هي قصائده التي رثى فيها القيروان وطنه الضائع وبكاها فيها ، وندب ايامه بها ، واسترجع ذكرياته فيها ، وصور حال اسرته واطفاله الصغار ، وما تجشموه من صعاب بعد ان هزتهم المأساة وازعجتهم الفتنة عن حرمهم الامن ، وتلك التي صور فيها اجلاء العرب لاهلها بعد ان روعوهم في حرمهم الامن ، واوقعوا بهم ، ووصف خروج نساء القيروان وسفورهن من هول الكارثة وابتذالهن وامتهانهن، وما لقينه من اهوال واخطار ، وما تجشمنه من صعاب بعد رغد عيشهن ، وتقلبهن في اعطاف النعيم مصونات ممتنعات .

ونود ان نشير هنا الى ان المغاربة قد كلفوا بتقليد المشارقة ، وان ابن بسام قد ادرك ذلك، واحس تعلق بني وطنه بالمشارقة ، وولوعهم بتقليدهم ، والتأسي بهم ، فاحفظه ذلك ، واغضبه واثار حميته ، فراح ينعى على قومه تطلعهم الى المشرق وعلمائه وادبائه ، وافتتانهم بهم ، واحتفالهم بآثارهم ، وكلفهم بتقليدهم والتأسي بهم حيث يقول : « ان اهل هذا الافق ابوا الا متابعة اهل المشرق يرجعون الى اخبارهم المعتادة رجوع الحديث الى قتادة ، حتى لو نعق بتلك الافاق غراب ، او طن باقصى الشام والعراق ذباب لجثوا على هذا صنما ، وتلوا ذلك كتابا محكما ، فغاظني منهم ذلك ، وانفت مما هنالك فرة لهذا الافق القريب ان تعود بدوره اهلة ، وتصبح بحاره ثمادا مضمحلة، وليت شعرى من قصر العلم على بعض الزمان واختص اهل المشرق بالاحسان » (١٣٣) .

اما في مجال الشعر فقد كان غاية ما يطمح اليه احد الشعراء المغاربة او الاندلسيين وتصبوا اليه نفسه ان يشبه باحد شعراء المشرق ويلحق به ، ويقرن اسمه باسمه ، فالثعالبي يعجب بابن دراج القسطلي ، ولايتجاوز في تعبيره عن اعجابه به ان يشبهه بالمتنبي في المشرق ، ولا

---

(١٣٢) الذخيرة القسم الرابع المجلد الاول : ١٨١ – ١٨٢وانظر معالم الايمان ١ : ١٥ مما اورد له الدباغ قصيدة يصف فيها خلاء القيروان ، وجلاء اهلها منها ، منها :

الا منزل فيه انيس مخالط
لري ميتات القيروان تحافظ
تراهما امينة بالقيالر وجعهما
ارحل منها فاقتوها فلا تري
التلفت الاشتار منهم وربعها

الا منزل فيه انيس مجاور
فجلت عن القيروان والقه قاهر
الم تك قدما في البلاد الكبائر
سوى سائر او قاطن وهو سائر
اليهم تشوود منهم وسائر

وانظر الذخيرة القسم الرابع المجلد الاول : ١٨٢ – ١٨٤

(١٣٣) الذخيرة القسم الاول المجلد الاول : ٢

يعدو ان يلحقه به فيقول : « وكان يصقع الاندلس كالمتنبي بصقع الشام » (١٣٤) ولم يكن ابن شرف بدعا من شعراء عصره من المغاربة في التعلق بالمشارقة والافتنان بهم ، فنراه ونحن نطالع الذخيرة لابن بسام مفتونا بالمتنبي ، كلفا بمجاراته ومعارضته ، وكأنى به وقد زهى بشاعريته ، واحس انه نظير للمتنبي ، وقرين له حتى حدثته نفسه ان يجاريه ويعارضه ، وسولت له ان يطاوله ويساميه ، يقول ابن بسام ان ابن شرف « قال يوما للمامون بن ذى النون ايام خدمته اياه ، واستشفافه سبابة عمره في ذراه ، وقد اجروا ذكر ابي الطيب ، فذهبوا في تأنيبه كل مذهب : ان رأى المامون – لافارق العزة والعلا – ان يشير الى اى قصيدة شاء من شعر ابي الطيب حتى اعارضه بقصيدة تنسى اسمه ، وتمحى رسمه فتثاقل ابن ذى النون من جوابه علما بشق جنابه ، واشفاقا من فضيحته والتشابه والح ابو عبد الله حتى احرج ابن ذى النون واقراه ، فقال له : دونك قوله « لعينيك مايلقى الفؤاد وما لقى » فخلا بها ابن شرف اياما لا توجد مراتبها ومرا ... ومريرتها شزرا ، ولكنه ابلى عذرا ، واريح نفسه من امرها حسرا فما قام ولا قعد ، ولاحل ولا عقد » (١٣٥) .

كما يذكر ابن بسام في موضع اخر ان ابن الاشرف كان في وصفه نكبة القيروان ومآسيها متأسيا بابن دراج ، ومقلدا له ، ثم ينال منه ، ويغمطه حقه ، ويصفه بالقصور عن شأو ابن دراج كأنه دالمأق التعصب لبنى وطنه وانتقاص من عداهم وغمط حقوقهم ، والغض من شأنهم ، حيث يقول مقارنا بين بيتين لابن شرف وابن دراج :

« قوله [اى ابن دراج] :

فمن حرة جليت بالجلاء
وعذراء نصت بنص الرحيل

ثم يتبع ذلك بقوله : « انتحى ابن شرف فيما وصف فتنة قيروانه منحى القسطلي في شكوى زمانه ، والحديث عن الفتن ، فكالسر البحر يوشل مشفوه ، وجارى الريح يكودن لافضل فيه » (١٣٦) الا انه ينبغي الا نغمط ابن شرف حقه في الشعر ، فهو يعد من الشعراء المغاربة المجيدين ، وشعره يمتاز بوضوح المعانى والافكار والدقة في الوصف وجزالة الالفاظ والتراكيب كما رأينا من اشعاره التى تناولناها وعرضنا لها .

هذه هى آثار ابن شرف التى فقدت وامتدت اليها يد الضياع ، والتى لم يبق لنا منها الا اثارات مبثوثة في ثنايا الكتب ، وقد عرضنا لنثره وشعره حسبما اسعفتنا النصوص ، ولنعرض لآرائه النقدية المتمثلة في رسالته « اعلام الكلام » .

آراؤه النقدية :

تتمثل آراء ابن شرف في النقد الادبي في رسالته « اعلام الكلام » تلك الرسالة التى ضمنها آراءه النقدية ، وبين فيها موقفه من كثير من القضايا الادبية التى كانت تشغل بال معاصريه ، وهى باشتمالها على عديد من القضايا النقدية ، واحاطتها بكثير من المسائل الادبية ربما تعد متنا في النقد الادبي .

---

(١٣٤) اليتيمة ٢ : ٤٠

(١٣٥) الذخيرة القسم الرابع المجلد الاول : ١٤

(١٣٦) الذخيرة القسم الاول المجلد الاول : ٧٤ على ان ابن شرف كان معجبا بشعر ابن دراج وخاصة اشعاره التى قالها في محنته انظر اعلام الكلام : ٣٦

وقد سبق أن عرضنا لها ، وبينا آراء العلماء فيها، ومواقفهم منها وقارنا بينها وبين قراضة الذهب والعمدة لابن رشيق ، وذكرنا انه كتبها بأسلوب المقامات،ذلك الاسلوب الملتزم السجع، والمثقل بالمحسنات البديعية ، والمتسم بتزيين الالفاظ وتزويق العبارات ، والحافل بحوشي الالفاظ وغريبها ، وانه اتخذ لها شخصا خاليا او بطلا دعاه ابا الريان الصلت بن السكن ، وتحدث على لسان بطله عن مشاهير الشعراء القدامى والمحدثين والمغفل المغمورين منهم واهملهم ولم يشر اليهم .

وقد ابتدأ هذه الرسالة واستهلها بقوله : « هذه أحاديث صنعتها مختلفة الأنواع مؤتلفة في الاسماع، غريبات المراسيم، عربيات التراجم، واختلقت فيها أخبارا فسيحات الكلام بديعات النظام لها مقاصد ظراف ، واسانيد طراف ، يروق الصغير معناها ، والكبير مغزاها ، وعزوتها الى ابي الريان الصلت بن السكن من سلامان » (١٣٧) .

ثم يذكر انه لم يكن مبتدعا لهذه الاحاديث على غير مثال سابق ، ولم يكن سابقا الى اختراعها وابتكارها ، وانما هو متبع لمن سبقه في امثالها ، وحاذ حذوهم وناسج على منوالهم، ولاسيما بديع الزمان الهمداني في مقاماته التي بلغ عددها على مايرويه الرواة في ذلك الحين عشرين مقامة ، وان كان هذا العدد لم يكد يصل اليه فيقول : « واحتذيت فيما ذهبت اليه ، ووقع تعريضي عليه من بث هذه الاحاديث مارايت الأوائل قد ضمنته في كتاب « (كليلة ودمنة) فاضافوا حكمه الى الطير الحوائم ، ونطقوا به على السنة الوحوش والبهائم،لتتعلق به شهوات الأحداث ، وتستعذب بثمرة الفاظ الحداث وقد نحا هذا النحو سهل بن هارون الكاتب في تأليفه كتاب « النمر والثعلب » وهو مشهور الحكايات بديع المراسلات ، مليح الكتابات ، وزور ايضا بديع الزمان الحافظ الهمذاني وهو الاستاذ ابو الفضل احمد بن الحسين مقامات كان ينشئها بديها في اواخر مجالسه وينسبها الى راوية رواها له يسميه عيسى بن هشام ، ويزعم انه حدثه بها عن بليغ يسميه ابا الفتح الاسكندري ، وعددها فيما يزعم رواتها عشرون مقامة ؛ الا انها لم تصل هذه العدة البتة، وهي متضمنة معاني مختلفة، ومبنية على معان شتى غير مؤتلفة ؛ لينتفع بها من الكتاب والحاضرين من صرفها من هزل الى جد ومن ضد الى ضد ، فاقمت من هذا النحو عشرين حديثا ، أرجو ان يتبين فضلها ، ولا تقتصر عما قبلها » (١٣٨) .

ويحدث ابن خلكان عن بديع الزمان ومقاماته بقوله : « صاحب الرسائل الرائعة والمقامات الفائقة على منواله نسج الحريري مقاماته ، واحتذى حذوه ، واقتفى اثره ، واعترف في خطبته بفضله ، وانه الذي ارشده الى سلوك ذلك المنهج » (١٣٩) .

وقد اقر الحريري لبديع الزمان بالفضل حيث يقول في خطبة المقامات : « فأشار من اشارته ، وطاعته غنم الى ان انشيء مقامات اتلو فيها تلو البديع ، وان لم يدرك الظالع شأو الضليع » (١٤٠) .

---

(١٣٧) رسالة اعلام الكلام : ١٢ وسلامان بفتح اوله صادايني شيبان على طريق مكة الى العراق ، وبه مات نوفل بن عبد مناف . معجم ما استعجم ٣ : ٧٤٥ ويبدو ان ابن شرف اختار سلامان الذى هو منزل قبيلة شيبان اشادة بهذه القبيلة والتنويه بشأنها ، اذ ينتسب اليها ولي نعمته ابو الحسن على بن ابي الرجال الشيباني رئيس ديوان الانشاء في بلاط المعز بن باديس .

(١٣٨) رسالة اعلام الكلام : ١٢ ـ ١٤

(١٣٩) وفيات ١ : ١٠٩

(١٤٠) وفيات الاعيان ٣ : ٢٦٨ وانظر مقدمة مقامات الحريري : ٤ ط الحلبي .

ومقامات بديع الزمان تبلغ اربعمائة مقامة عارض بها احاديث ابن دريد على ما ذكره الحصرى في زهر الآداب حيث يقول : « ولما رأى أبا بكر محمد بن الحسين بن دريد الازدى اغرب باربعين حديثا ، وذكر انه استنبطها من ينابيع صدره ، واستنتجها من معادن فكره وابداها للابصار والبصائر ، واهداها للافكار والضمائر في معارض اعجمية والفاظ حوشية فجاء اكثر ما اظهر تنبو عن قبوله الطباع ، ولا ترفع له حجبها الاسماع ، وتوسع فيها اذ صرف الفاظها ومعانيها في وجوه مختلفة وضروب متصرفة فعارضها باربعمائة مقامة في الكدية تذوب ظرفا ، وتقطر حسنا ، لا مناسبة بين المقامتين لفظا ولا معنى ، وعطف مساجلتها ووقف مناقلتها بين رجلين سمى احدهما عيسى بن هشام ، والآخر ابا الفتح الاسكندرى وجعلهما يتهاديان الدر ، ويتنافثان السحر في معان تضحك الحزين ، وتحرك الرصين ، يتطلع منها كل طريفة ، ويوقف منها على كل لطيفة ، وربما افرد احدهما بالحكاية وخص احدهما بالرواية » (١٤١)

بيد أن المتداول منها الآن بين أيدينا احدى وخمسون مقامة فقط ، ويغلب على الظن انه لم يصل الى افريقية في عصر ابن شرف سوى عشرين منها ، ويقول برو كلمان : «بديع الزمان يفتخر في احدى رسائله بأنه صنف أربعمائة مقامة ، وطبيعى انه لا ينبغى فهم العدد هنا على معناه الحرفى ، فهذا محمد بن شرف القيروانى المتوفى سنة ٤٦٥هـ لم يكد يعرف في كتابه « اعلام الكلام » سوى عشرين مقامة للبديع ، ولكن ينبغى ان يكون عدد المقامات التى الفت وبقيت لنا وهو احدى وخمسون مقامة قد ثبت منذ زمن طويل ، لان الحريرى عارض هذا العدد بمثله » . (١٤٢)

وابو الريان الصلت بن السكن الذى اجرى ابن شرف على لسانه هذه الاحاديث انما هو رجل استعاره ، أو شخص جرده من نفسه ، وانتزعه منها ، فكان ابن شرف يخاطب أبا الريان هذا البطل الموهوم ويسائله ، وأبو الريان يجيبه بما يعرفه عن كل شاعر الا انه قصر حديثه على الشعراء المشهورين في العصور الجاهلية والاسلامية ، واغفل المجاهل والمغمورين منهم ، واهملهم ولم يشر اليهم وعلل ذلك بعدم قدرته على استقصائهم ، والاحاطة بهم ، ومن ثم اجتزأ بالمشهورين وقصر حديثه عليهم ، يقول ابن شرف : « وجاريت أبا الريان في الشعر والشعراء ومنازلهم في جاهليتهم واسلامهم ، واستكشفته عن مذهبه فيهم ومذاهب حذقه في قديمهم وحديثهم فقال : الشعراء اكثر من الاحصاء ، واشعارهم ابعد من شقة الاستقصاء فقلت : لا احتك بأكثر من المشهورين ، ولا اذاكر رايك الا في المذكورين مثل الضليل والقتيل ... (١٤٣) » ومضى يسرد اسماء المشهورين من الجاهليين والمخضرمين والاسلاميين والمولدين ، كما سرد اسماء طائفة من مشاهير شعراء الاندلس والمغرب مثل : احمد بن عبد ربه ، وابن هانيء وابن دراج القسطلى وعلى بن العباس الايادى التونسى ، حتى انتهى من سرد اسماء المشهورين وتسميتهم طالبا من ابى الريان ان يبين رايه فيهم واحدا واحدا ، فاجابه ابوالريان بقوله : « لقد سميت مشاهير وابقيت الكثير . قلت : بلى ولكن ما عندك فيمن سميت لك قال:

---

(١٤١) زهر الآداب ١ : ٣٦١

(١٤٢) تاريخ الادب العربى ٢ : ١١٣ ـ ١١٤ وهو يقصد بالمائة التقريبية فان عدد مقامات الحريرى خمسون مقامة ، وقد اشار الحريرى نفسه في مقدمته الى ذلك حيث يقول :« وانشات على ما اعانيه من قريحة جامدة وفطنة خامدة ... خمسين مقامة » مقدمة المقامات ص ٥

(١٤٣) رسالة اعلام الكلام : ١٤

لما القليل مؤسس الاساس ، وبنيانه عليه الناس ، كانوا يقولون : اسيلة الخد ، حتى قال امرؤ القيس « اسيلة مجرى الدمع » وكانوا يقولون : تامة القامة وطويلة القامة ، واشباه هذا ، وجيداء وتامة العنق ، حتى قال امرؤ القيس : « بعيدة مهوى القرط » وكانوا يقولون في الفرس السابق : يلحق الغزال ، يسبق الظليم او الظلام وامثال هذا حتى قال : بمنجرد قيد الاوابد هيكل » ومثل هذا له كثير .... (١٤٤) »

وحدثنا عن الحارث بن حلزه اليشكري بقوله : « واما ابن حلزه اليشكري فسهل الحزون ، فام خطيبا بالموزون ، والعادة ان يسهل شرح الشعر بالنثر ، وهذا اسهل السهل بالوعر ، وذلك مثل قوله :

اجمعوا امرهم عشاء فلما
اصبحوا اصبحت لهم ضوضاء

من مناد ومن مجيب ومن
تصهال خيل خلال ذاك رغاء

فلو اجتمع كل خطيب سائر من اول وآخر يصفون سفرا نهضوا بالاسحار ، وعسكرا تنادى بالنهوض الى طلب الثار لما زادوا على هذا ان لم ينقصوا منه ، ويقصروا عنه ، وسائر قصيدته على هذا السلك شكاية وطلاب لصفة وعتاب في عزة وانفة ، وهو من شعراء والسل واحد الستة هالك القبائل ... (١٤٥) » وهكذا مضى ابو الريان على هذا الاسلوب ، واخذ يصف طائفة من شعراء الجاهلية ، ثم عرض المخضرمين ممن ادركوا الجاهلية والاسلام كالنابغة الجعدي ، ثم مضى الى الشعراء الاسلاميين واتبعهم بالحديث عن

شعراء بني امية ، ثم ذكر جملة من الشعراء المولدين ، ومضى يحدثنا عمن تلاهم ، والذي يمدحهم ، ثم ختم حديثه بالعرض لطائفة من شعراء المغرب والاندلس مثل : ابن عبد ربه وابن هانيء وابن دراج وابن علي الايادي حيث يقول : « هذا ما عندي في شعراء المشرق ، وقد سميت لي من متأخري شعراء المغرب من لعمري لا يبعد من معاصره ، ولا يقصر عن سابقه واذا ابن عبد ربه الاندلسي وان بعدت عنا دياره فقد صاحبتنا اشعاره .. (١٤٦) » .

ومن الامثلة التي اوردناها نجد ان ابا الريان كان يقف عند كل شاعر ليقدم ما عنده ، وما يعرفه ، ويقرر وضعه ومايعرف به والمميز به ، ويبرز سماته وخصائصه ومميزاته ، وما تفرد به منها .

وبعد ان احسب باحاديثه عن الشعراء المشهورين من الجاهليين الى المولدين ، ومن المغاربة الى المشارقة والتي اوردنا اطرافا منها اخذ يسأله عن النقد ، ويبدى رغبته الشديدة في ان يقف على رايه فيه ، وان يقتبس من علمه ... ، فيجيبه بان النقد موهبة تولد مع الانسان من وهبه ومنحه وحظي بنصيب منه كان قادرا على التمييز بين جيد الشعر ورديئه واستحسان الحسن منه ، واستقباح القبيح منه ، اما من لم يرزق هذه الموهبة ولم يحظ بها فهو غير قادر على التمييز بين جيد الشعر ورديئه والتفرقة بينهما ، ويؤيد رأيه وماذهب اليه من ان النقد موهبة ومنحة يحظى بها اناس دون آخرين انه رأى كثيرا من علماء الشعر ورواته ممن لم يؤتوا هذه الموهبة لانقاد لهم في نقد الشعر ، ولا فطنة عندهم ولا بصيرة في التمييز بين جيده ورديئه ، بينما رأى كثيرا ممن لا علم لهم بالشعر ممن منحوا هذه الموهبة لهم نقدا وبصيرة وادراك

(١٤٤) رسالة اعلام الكلام : ١٥ - ١٦

(١٤٥) رسالة اعلام الكلام : ١٧

(١٤٦) رسالة اعلام الكلام : ٢٦

لغامض الشعر ، وقدرة فائقة على الميز بين جيده ورديئه يقول ابن شرف : « قلت لأبي الريان في مجلس عقب هذا المجلس : يا أبا الريان لقد رأيت لك نقدا مصيبا ومرمى عجيبا، ولقد أرغب في أن أنال منه نصيبا ، فقال : النقد جبلة في الولد ، وفيه زيادة طارفة الى تالد ولقد رأيت علماء بالشعر ورواة له ليس لهم نفاذ في نقده ، ولا جودة فهم في رديه وجيده ، وكثير ممن لا علم له يفطن الى غوامضه والى مستقيمه ومتناقضه » . (١٤٧) باستحسان ولا استقباح ، والا تبادر الى استملاح ولا استبراد الا بعد انعام نظر وطول روية وأناة ، فالاستحسان والاستهجان تابعان للروية وطول النظر وحسن المران والدربة ، فيجب أن ننعم النظر ونستخدم الفكر في نقد الشعر، والا ما كنا قادرين على النفاذ الى كنهه وحقيقته وجوهره لمعرفة محاسنه ومساوئه وادراك غوامضه ومتناقضه ، والوقوف على مستقيمه والمعوج من جميع الوجوه ، فالخطأ موكل بالعجلة ، ومع المستعجل الزلل ، ثم يعلل ما ذهب اليه من ضرورة التزام الاناة والروية وحسن المران والدربة في الشعر ، وأن الاستحسان والاستهجان تابعان للروية وطول النظر وحسن المران والدربة بأن الشعر منه ما يملأ لفظه المسامع فتخطيء فيه ، وتتوهم في معناه وتغلط في حقيقته، ولا تلتفت الى كنهه ومفهومه ، فتحكم باستحسانه لما فيه من قعقعة وجلبة والفاظ تملأ المسامع دون نظر الى معناه ، وهو غير جدير بالاستحسان ، كما أنه لا ينبغي أن نتعجل باستهجان الشعر واستقباحه اذا اشتمل على الفاظ مألوفة معتادة وكلمات مبتذلة مطروقة كثر استعمالها ودورانها على الالسنة ، حتى ننعم النظر في معناه ، فكم من معنى طريف غريب في لفظ مبتذل مألوف ، فالمعنى الذي هو الغاية المنشودة ، يقول ابن شرف : « قلت : أنا شديد الرغبة الى فضلك في أن تسهمني من ميزك وعقلك ما أستهدي بسراجه على مستقيم مناهجه ، فأقف من سرائره على بعض ما وقفت ، وأعرف من مفاخره ومعانيه جزءا مما عرفت ، قال : نعم أول ما عليه تعتمد ، وإياه تعتقد ألا تستعجل باستحسان ولا باستقباح ، ولا باستبراد ولا باستملاح ، حتى تنعم النظر وتستخدم الفكر، واعلم أن العجلة في كل شيء مركب زلوق وموطيء زهوق ، وأن من الشعر ما يملأ لفظه المسامع ، ويرد على السامع قعاقع ، فلا ترعك شماخة مبناه ، وانظر الى ما في سكناه من معناه ، فان كان في البيت ساكن فتلك المحاسن، وان كان خاليا فاعدده جسما باليا ، وكذلك اذا سمعت ألفاظا مستعملة وكلمات مبتذلة ، فلا تعجل باستضعافها حتى ترى ما في أضعافها ، فكم من معنى عجيب في لفظ غير غريب» . (١٤٨)

ثم يعرض ابن شرف لقضية اللفظ والمعنى ، ويبدو أنه كان يقف من هذه القضية موقفا وسطا ، فهو يرى أن الالفاظ قوالب وأجسام للمعاني هي الارواح فهو الآن لا يفضل اللفظ على المعنى ولا المعنى على اللفظ بل يجمع هذين الركنين في وحدة كاملة لا تتجزأ ولا تنقسم ، ومن ثم فهو ينادي بضرورة الموازنة بين اللفظ والمعنى والعناية بكل منهما ، فان حسنا بلغ الشعر الغاية المنشودة ، وان قبح أحدهما انحط الشعر عن مكانته المرجوة ، ونزل عن مستواه المطلوب ، الا أنه كان يفضل المعنى على اللفظ ، ولعل ذلك راجع الى شيوع هذا المذهب وسيادته في المغرب وميل المغاربة الى اعتناقه والاخذ به ، يقول ابن شرف : « والمعاني هي الارواح ، والالفاظ هي الاشباح فان حسنا فذلك الحظ الممدوح ، وان قبح أحدهما فلا يكن الروح » (١٤٩) ويكاد ابن

---

(١٤٧) رسالة أعلام الكلام : ٢٧

(١٤٨) رسالة أعلام الكلام : ٢٧

(١٤٩) رسالة أعلام الكلام : ٢٧ ـ ٢٨

شرف في هذه القضية قضية اللفظ والمعنى يتفق مع ابن رشيق الذي يقف منها أيضا موقفا وسطا لا يفضل احدهما على الآخر ، ولا يفصل بينهما ، بل يشبههما ايضا بالروح والجسد الا ان ابن رشيق بسط القول في هذه القضية ، وفصله في كتابه العمدة : « اللفظ جسم ، وروحه المعنى وارتباطه به كارتباط الروح بالجسم يضعف بضعفه ، ويقوى بقوته ، فاذا سلم المعنى ، واختل بعض اللفظ كان نقصا للشعر وهجنة عليه ، كما يعرض لبعض الاجسام من العرج والشلل والعور وما اشبه ذلك من غير أن تذهب الروح ، وكذلك ان ضعف المعنى واختل بعضه كان اللفظ من ذلك أوفر حظا كالذي يعرض للاجسام من المرض بمرض بعض الارواح ، ولا تجد معنى يختل الا من جهة اللفظ وجريه فيه على غير الواجب قياسا على ما قدمت من ادواء الجسوم والارواح ، فان اختل المعنى كله وفسد بقي اللفظ مواتا لا فائدة فيه : وان كان حسن الطلاوة في السمع كما ان الميت لم ينقص من شخصه في رأي العين الا انه لا ينتفع به ولا يفيد فائدة ، وكذلك ان اختل اللفظ جملة وتلاشى لم يصح له معنى لأنا لا نجد روحا في غير الجسم البتة » (١٥٠) فابن رشيق في هذا النص يشير الى الارتباط الوثيق والتلاحم التام بين اللفظ والمعنى ، وتلازمهما وتلاحمهما فاللفظ جسم روحه المعنى ؛ ومن هنا كان ما يوصف به أحدهما يعد وصفا للآخر ، وما يعتري أحدهما من ضعف او يطرأ عليه من اختلال ينعكس على الآخر .

ثم يتحدث ابن شرف عن طبقات الشعراء القدامى والمحدثين ، ويحمل حملة عنيفة على مقاييس علماء اللغة والرواة فيما ذهبوا اليه من تفضيلهم القديم واستحسانه لا لشيء الا لمجرد قدمه ، وسبق الزمن بصاحبه ، ولعلهم كانوا مدفوعين فيما ذهبوا اليه من تفضيلهم الشعر القديم وايثاره واستحسانه الى انه كان موضع الاستشهاد والاحتجاج به للغة ؛ فالشعر القديم حتى الرديء منه صالح للاحتجاج والاستشهاد به في اثبات اللغة وقواعدها وضوابطها وتفسير كتاب الله تعالى وسنة رسوله ؛ اما الشعر المحدث فغير صالح لشيء من ذلك ؛ فالاحتجاج به ساقط ولا يجوز الاستشهاد به ، وانما يؤتى به على سبيل التمثيل والاستئناس ، يقول ابن شرف منبها الى خطأ هذه القضية ، وحاملا على انحياز الرواة وعلماء اللغة في تفضيلهم القديم لمجرد قدمه ، ومفندا مقاييسهم ، ومحذرا من الوقوع فيها : « وتحفظ من شيئين : احدهما : ان يحملك اجلالك القديم المذكور على المجلة باستحسان ما تسمع له ؛ والثاني : ان يحملك اصغارك المعاصر المشهور على التهاون بما انشدت له ، فان ذلك جور في الاحكام ، وظلم من الحكام ؛ حتى تمحص قوليهما ؛ فحينئذ تحكم لهما او عليهما ؛ فقد باب في اخلاقه استصعاب ، ولي صرف العامة وبعض الخاصة عنه الصاب » (١٥١)

فهو ينبه في هذا النص الى خطأ هذه القضية قضية تفضيل القديم لمجرد قدمه وينظر الى الشعر بعين النصفة ، ويدعو الى التزام الحيدة في الحكم عليه ، وتقويمه من حيث هو اثر فني دون نظر الى قائله وزمنه ، ثم يقول : « وقد وصف تعالى في كتابه الصادق تشبث القلوب بسيرة القديم ، ونفارها عن المحدث الجديد ، فقال حاكيا لقولهم : « انا وجدنا آباءنا على امة » وقال تعالى : « بل نتبع الا ما وجدنا عليه آباءنا » ... فلا يرعك أن تجري على منهاج الحق في جميع الخلق ؛ فيه قامت

(١٥٠) العمدة ١ : ١٠٣ – ١٠٤

(١٥١) رسالة اعلام الكلام : ٢٨

السماوات والارض ، وبه احكم الابرام والنقض » - (١٥٢)

ثم طفق ينعى على بعض الشعراء القدامى كثيرا من الهنات ، واخذ يعدد عليهم طائفة من السقطات ، وما وقعوا فيه من اخطاء واغلاط. وتعقبهم مشهرا بهم ، ومجرحا اياهم بادئا بنقد امرىء القيس اقدم الشعراء عصرا ، ومقدمهم شعرا وذكرا وتعداد سقطاته واخطائه وسرد عيوبه وهناته ، وما اخذ عليه مع اتساع الاقوال في فضله اتساعا لم يحظ به غيره ، حتى ان عامة الادباء والنقاد يظنون بل يوقنون ان جواد شعره لا يكبو ، وان حسام نظمه لا ينبو ، وهيهات من البشر الكمال ، ومن الادميين الاستواء والاعتدال ، ثم اخذ ينقده ويعدد عليه سقطاته واخطاءه في معلقته اعظم ما اثر لنا عنه من شعر حيث يحدثنا عن هذه العيوب وتلك الهنات في هذه المعلقة بقوله : « يقول في قصيدته القدمة ومعلقته المحة :

ويوم دخلت الخدر خدر عنيزة
فقالت لك الويلات انك مرجلي

كما كان اقتداه من الاقرار بهذا ، وما اشد لفظتهما ادركه من الوصمة به » (١٥٣) وعدد ما ترتب على فعلته هذه من العيوب والهنات والسقطات والمآخذ فيقول: « وذلك ان فيه اعدادا كثيرة من النقص والبخس منها: دخوله متطفلا على من كره دخوله عليه ، ومنها قول عنيزة له : « لك الويلات » ومن قوله لا تقال الا للخسيس ، ولا يقابل بها رئيس.. » وهكذا يمضي بسرد عيوبه وسقطاته وهناته الى قوله :

فمثلك حبلى قد طرقت ومرضع
فالهيتها عن ذي تمائم محـول

فينقده بقوله : « وانما المعروف للعاشق الانفراد بمعشوقه ، واطراح سواه كالقيسين في ليلى ولبنى ، وغيلان بمية وجميل وبثينة وسواهم كثير ، فلم يكن لهما عاشقا بل فاسقا » (١٥٤)

ويمضي في نقده على هذا النحو ، ثم يجره ذلك او يسوقه الى ذكر ابيات ثلاثة من قصيدة له اخرى غير المعلقة وهي :

سموت اليها بعد ما نام اهلها
سمو حباب الماء حالا على حال

فقالت : لحاك الله انك فاضحي
الست ترى السمار والناس احوالي

حلفت لها بالله حلفة فاجر
لناموا فما ان من حديث ولا صال

وانقد هذه الابيات ، وعدد ما فيها من عيوب وهنات وسقطات بقوله : « تأخيرها هنا انه حين الفدر عند النساء وفقد نفسه ويرضاه قولها : « لحاك الله » فيدل على « لك الويلات » من تلك ، ودل « لحاك الله » من هذه ، فشهد على نفسه انه مكروه مطرود غير مرغوب في مواصلته ، ولا محروص على معاشرته ، ولا مرضي بمشاكلته ، ثم اخبر عن نفسه انه يرضى بالحنث والفجور ، وهذه اخلاق لا خلاق لها » (١٥٥)

ثم يأخذ على امرىء القيس انه اقر واعترف بما يكتمه الاحرار حيث يقول : « ثم اقر في مكان آخر من شعره بما يكتمه الاحرار ، ولا ينم بقبحه الا الاوضاع الاشرار ، فقال :

ولما دنوت تسديتها
فثوب نسيت وثوب اجر

---

(١٥٢) رسالة اعلام الكلام : ٢٨
(١٥٣) رسالة اعلام الكلام : ٢٨ ـ ٢٩
(١٥٤) رسالة اعلام الكلام : ٢٩
(١٥٥) رسالة اعلام الكلام : ٣٠

وأي فجر في الاقرار بالفضيحة على نفسه وعلى حبه ، وأين هذا من قول يعقوب الخريمي :

ولا اسأل الولدان عن وجه جارتي
بعيدا ولا ارداه وهو قريب (١٥٦)

ثم يعلل ابن شرف اعتراف امرىء القيس بهذه المنديات واقراره بما كان يأتيه من فحش وفجور بأنه كان مبغضا للنساء مفروكا من حلائله وازواجه لاسباب كثيرة ذكرت ، وكل من حرص على نيل شيء فحرمه ، ومنع منه فعلا ادعاه كذبا وزورا ، شأنه شأن غيره من الشعراء ممن كانوا مبغضين للنساء كالفرزدق مثلا فيقول : « وانما سهل عليه كل هذا حرصه على ما كان ممنوعا منه ، وذلك انه كان مبغضا للنساء جدا ، ومفروكا ممن ملك عصمتها لاسباب كثيرة ذكرت ، وكل من حرص على نيل شيء فمنع منه فعلا ادعاه قولا ، وله اشباه فيما اتاه يدعون ما ادعاه افكا وزورا وكذبا وفجورا ، ومنهم الفرزدق » (١٥٧)

وهكذا يمضي ابن شرف في نقده لامرىء القيس ذلك الشاعر الذي ساد الاعتقاد فيه عند العامة وبعض الخاصة انه لا ينتقد ، وكان نقده في مواضعه فنعى عليه عيوبه ، وما أتاه من فحش وفجور وتعهر ، وعدد عليه هناته وسقطاته .

ثم ختم حديثه عن امرىء القيس بأن قرر أن هذه العيوب والمآخذ وتلك السقطات والهنات والاستدراكات نزرة قليلة بالنظر لما اقر له به من الفضائل الادبية التي تفرد بها ، وسبق اليها ، وبالقياس الى محاسنه ومزاياه التي خصها بحديث سابق ، ونوه بها ، وانه مؤسس الاساس ، وبنيانه عليه الناس ، فاذا كان قد سما اسلوبه ، وعلا في امور عديدة ومواضع كثيرة فقد انحط وتسفل في سلوكه ونهجه في اخرى ، فيقول : « ولسنا ننكر هذه العيوب ونزارتها وما اقررنا له به من الفضائل وندارتها » (١٥٨)

ثم يعرض لحال المتعصبين للقديم لمجرد قدمه وسبق الزمن بصاحبه ويرى انهم خلق سذج ، وانه من الأولى بهم الا يتعرض لهم ، وان يتركهم وشأنهم يتخبطون في عمايتهم وضلالتهم وجهلهم فيقول : « وستجد ناصرا لا يصدق معاصرا ولا يفضل على متقدم عصر متأخرا يبني على ضعفه اسمه ، ويغذيه من الجهل والعجب بنفسه فاذا اعترضك من هذا النمط معترض فاعرض عنه ، ودعه على اخلاقه .... واتبع المنهج الذي اوضحته لك (١٥٩) » ثم يذكر أن فضلاء الشعراء كثيرون جدا الا انه قلما يسلم واحد منهم من هنات وعيوب وسقطات واخطاء ، فلكل منهم سقطاته وعيوبه ، ثم يرى ان يجتزىء بالعرض لبعض هذه العيوب ، اذ ليس في وسعه ان يحيط بها وان يأتي عليها مستهدفا من وراء ذلك ايضاح منهج من مناهج النقد ، والتدريب عليه لا حرصا على انتقاص الفصحاء ، ولا رغبة في غمط حقوقهم والنيل منهم ؛ وليس الغرض التنديد بالادباء دون عرض المحاسن والفضائل وبيان نواحي النقص فمنهجه مبني على القصد والاعتدال يقول : « وفضلاء الشعراء كثير جدا ، ولكل سقطات ، وسأقفك على بعضها لعدمي القوة في الاحاطة بها ليس الا لأوضح لك بذكرها منهجا من مناهج النقد ؛ لا حرصا على نقص الفصحاء ؛ ولا قصدا الى تهجين الصرحاء ؛ واية رغبة لنا في ذلك وهم جرثومة

---

(١٥٦) رسالة اعلام الكلام : ٢٠
(١٥٧) رسالة اعلام الكلام : ٢٠
(١٥٨) رسالة اعلام الكلام : ٢٢
(١٥٩) رسالة اعلام الكلام : ٢٢

قروضنا ، ويهم افتخارنا جميعنا» (١٦٠) ومثل لذلك بزهير بن أبي سلمى ، وحمل عليه ، واورد جملة من سقطاته وطائفة من هناته وعيوبه في معلقته مع اعترافه برفعة مكانته في الشعر وسمو منزلته فيه ، فيقول : « قال زهير على ما وسقناه به ، ووصفه غيرنا من العلو والرفعة في هذه الصناعة من مذهبته الحكمية ومعلقته العلمية :

رأيت المنايا خبط عشواء من تصب
تمته ومن تخطيء يعمر فيهرم

وقد غلط في وصفها بخبط العشواء على أننا لا نطالبه بحكم ديننا ، لأنه لم يكن على شرعنا ، بل نطلبه بحكم العقل فنقول : « انما يصح قوله لو كان بعض الناس يموت وبعضهم ينجو ، وقد علم هو ، وعلم العالم حتى البهائم أن سهام المنايا لا تخطيء أحدا من الحيوان حتى يعمها رشقها ، فكيف يوصف بخبط العشواء ... (١٦١) فهو لا يعيب على زهير هذا البيت ، ولا يأخذ عليه ما فيه من مخالفة لعقيدتنا وخروج على دياناتنا ، لما كان عليه من جاهلية ؛ فهو غير مطالب بحكم ديننا وشريعتنا ؛ لأنه لم يكن على شريعتنا ولم يكن يدين بديننا فلا تثريب عليه من هذه الناحية، وانما عاب عليه أنه عارض العقل وخالف المنطق فيما رآه ، وذهب اليه من أن المنايا خبط عشواء ، فرأيه في هذه القضية فائل ومذهبه باطل ، ثم عاب عليه بيتا آخر ورد في معلقته هو :

ومن لم يذد عن حوضه بسلاحه
يهدم ومن لايظلم الناس يظلم

بأنه أسرف وتجاوز حدود الحق والعدل ، وقد كانت له مندوحة عن ذلك فيقول في تعليقه على هذا البيت : « وقد تجاوز في هذا الحق الباطل وبنى قولا ينقضه جريان العادة وشهادة المشاهدة ، وذلك أن الظلم وعرة مراكبه ، ملمومة عواقبه في جاهليته واسلامنا ، فحرض في شعره عليه » (١٦٢)

وهكذا مضى ابن شرف في نقد زهير ، وعاب عليه ابياتا أخرى في قصائد أخرى له غير المعلقة ، وبعد أن عرض لطائفة من هناته ، وعيوبه ختم حديثه عنه بأن له سقطات وهنات أخرى غير ما سردها وعددها ، وأنه لولا المشقة والكلفة لأتى عليها وعرض لها مع ما عرف عنه واشتهر به من أنه أمدح الشعراء وأجولهم ، ثم ذكر أن التعصب له من الأمور المستقبحة التي لا تحسن بالناقد المتصف ، لكن النقد الوجيه له لا يغمط حقه ، ولا ينال منه ، ثم ذكر أن ما جاء في شعره من هنات وسقطات لا يحل بما عرف عنه من حكمه الأخرى الرائعة وحسن اسلوبه ورقته وما أثر لنا عنه من أقوال مستحسنة وعبارات مليحة وان المستحسن لا ينكر ، والقبيح لايهمل فيقول : « ولزهير غير هذا من السقطات لولا كلفة الاستقصاء هذا على اشتهاره بأنه امدح الشعراء ، وأجول الوافدين على الاشراف والأمراء ، ويتعامى المتعصب له عن وضوح هذا البيان ، وسيتكر جميع هذا البرهان ، ويجعل التفتيش عن غوامض الخطأ والصواب استقصاء وغلما ومطالبة وعضما ، ويزعم أن جميع الشعر لو طلب هذه الطالبة لبطل صحيحه ، والعجم فصيحه ، والباطل الذي زعم ، والمحال الذي به تكلم ، فالسليم سليم والكليم كليم ، وانما سمع المسكين أن املح الشعر ما قلت عبارته ، وفهمت اشارته

(١٦٠) رسالة أعلام الكلام : ٢٢

(١٦١) رسالة أعلام الكلام : ٢٣ ـ ٢٤

(١٦٢) رسالة أعلام الكلام : ٢٤

ولمحت لمحه ، وملحت ملحه ، ورقت حقائقه، وحققت رقائقه ، واستغنى فيه باللمحة الدالة من الدلائل المتطاولة ، وامثال هذا الكلام في استعمال لطائف النظام ؛ فتوهم ان خلل الشعر زلله وضعف اركانه ، وتناقض بنيانه وانقلاب لفظه لغوا ، وانعكاس مدحه هجوا داخل فيما قدمنا من الاوصاف المستحسنة ومن لمح اشاراته وملح عباراته » (١٦٣)

ثم يقرر بعد ذلك ان فيما ذكره وأورده من شعر هذين الشاعرين الفحلين المتقدمين القديمين ما يغني عن التفتيش من سقطات سواهما ، ويجزىء عن تسقط عثرات غيرهما ومن عداهما والبحث عنها فليقس عليها ما لم يقله ، فقد اوضح امرا خطيرا يتصل بسلوك الشاعر ومنهجه ونفسيته وانه تناول شعره ونقده من ناحية اتصاله بالمجتمع وتعلقه به ؛ فيقول : « وفيما اطلعتك عليه من شعري هذين الفحلين والمتقدمين القديمين ما يغني عن التفتيش من سقطات سواهما ؛ فقس على ما لم تره بما ترى ، واعلم ان كل الصيد في جوف الفرا ... » (١٦٤)

ونراه يتعصب للمتنبي، وينتصر له، فيقول: « واما ابو الطيب المتنبي فقد شغلت به الالسن وسهرت في اشعاره الاعين ، وكثر الناسخ لشعره والآخذ لذكره ، والغائص في بحره ؛ والمفتش عن جمانه ودره ؛ وقد طال فيه الخلف وكثر عنه الكشف ، وله شيعة تغلو في مدحه ؛ وعليه خوارج تتعايا في جرحه ، والذي اقول : ان له حسنات وسيئات ، وحسناته اكثر عددا ، واقوى مددا ، وغرائبه طائرة وامثاله سائرة ؛ وعمله فسيح ، وميزه صحيح ، فيقدر ويدريها يورد ويصدر (١٦٥)

ويظهر من حديثه عن قدامى الشعراء واشعارهم ؛ وعن الشعراء المحدثين ونتاجهم، وما جادت به قرائحهم ؛ وموازنته بين الفريقين القدامى والمحدثين ان شغفه كان مع المحدثين وميله اليهم وهواه معهم وتعصبه لهم ؛ كما يبدو لنا ذلك في ثنايا الرسالة .

ثم اخذ في سرد عيوب الشعر وانتقادها مبتدئا باللحن اظهر عيوب الشعر ؛ اذ تضيق عنه اللغة العربية ولا تتسع له ؛ وحذر من ارتكابه والوقوع فيه ؛ وان تحيل له بعض النحويين بشتى الحيل ، واعتذر له بمختلف الاعذار فيقول : « ومن عيوب الشعر اللحن الذي لا تسعه فسحة العربية كقول جرير : »

وإن ولدت لعشرة جرو كلب
لسب بذلك الجرو الكلابا

فنصب الكلاب بغير ناصب ، وقد تحيل له بعض النحويين بكلام كالضريع لا يسمن ولا يغني من جوع ، وكقول الفرزدق :

وعض زمان يا ابن مروان لم يدع
من المال الا مسحتا او مجلف

فرفع مجلفا وحقه النصب . وقد تحيل بعض النحويين ايضا للفرزدق على وجه الاقواء احسن منه ؛ فاحذر مثله ، وإياك وما يعتذر منه بفسيح من العذر فكيف بضيق » (١٦٦)

ثم عد من عيوب الشعر ايضا خشونة حروف الكلمة كلفظة « يوزع » التي وردت في بيت من قصيدة لجرير تعد من عيون شعره واحسن قصائده واجزلها وافصحها فثقلت

---

(١٦٣) رسالة اعلام الكلام : ٣٦ – ٣٧
(١٦٤) رسالة اعلام الكلام : ٢٧
(١٦٥) رسالة اعلام الكلام : ٢٥
(١٦٦) رسالة اعلام الكلام : ٣٧ – ٣٨

القصيدة ، واستبردت بهذه اللفظة التي لاتكاد تجد لها نظيرا في شعر جرير كله وذكر ان الفرزدق قد كثرت في شعره الفاظ كثيرة خشنة كقول ابن شرف : « ومما يعاب به الشعر ، ويستهجنه النقد خشونة حروف الكلمة كقول جرير :

وتقول بوزع قد دببت على العصا

هـلا هـزئت بغيرنا يا بوزع

وهذا البيت في قصيدة من احلى قصائد جرير واملحها واجزلها وافصحها ، فقتلت القصيدة كلها بهذه اللفظة ، وللفرزدق لفظات كثيرة خشنة الحروف تجدها ان استقصيتها وقستها على لفظة جرير هذه ، ولا تكاد ترى اختا لها في شعره » (١٦٧)

ثم عد من عيوب الشعر ايضا التعقيد اللفظي وتقديم آخر الكلام وتأخير اوله ، وذلك امر يكرهه النقاد ، ولا يستحسنونه ، وانما لا تكاد ترى هذا العيب في شعر جرير ومثل تعقيد الفرزدق :

وما مثله في الناس الا مملكا

ابو امه حي ابوه يقاربه

ويعلق عليه بقوله : « وهذا غاية التعقيد والتنكيد ، وليس تحته سوى انه شريف كابي اخته ، ولا تكاد ترى في شعر جرير شيئا من هذا » (١٦٨)

ثم ذكر ان من عيوب الشعر ايضا الكسر وهو وصف شامل لكل عيوب الشعر ، وعده من اشد عيوب الشعر ، وانه لايمكن ارتكابه والوقوع فيه ، اذ انه اذا وقع في الشعر اخرجه من اسمه فلا يسمى الشعر الذي وقع فيه

هذا العيب حينئذ شعرا ، وليس هذا العيب مما يقع لمن وصف بالشعر وعد شاعرا من الشعراء وسلك في عدادهم ، اما سائر عيوب الشعر المتصلة بالوزن او القافية أو الضرورات الشعرية كالاقواء والايطاء والسناد والاكفاء والزحاف وصرف ما لا ينصرف ، فكل هذه العيوب محتملة ويمكن للشاعر ارتكابها ، والوقوع فيها واستعمالها ولا يخرج الشعر معها عن كونه شعرا الا ان السلامة من هذه العيوب وتجنبها وعدم الوقوع فيها وارتكابها افضل واجمل ، فيقول : «ومن عيوب الشعر كلها الكسر ، لانه يخرجه من نعته شعرا ، وليس مما يقع لمن نعت شاعرا ، فأما الاقواء والايطاء والسناد والاكفاء والزحاف وصرف ما لا ينصرف فكل ذلك يستعمل الا ان السالم من جميع ذلك افضل واجمل » (١٦٩) ثم عد من عيوب الشعر المذمومة مجاورة الكلمة ما لا يناسبها ولا يقاربها مثل مجاورة كلمة «الفل» لكلمة «التسنيد» واقترانها بها في قول الكميت :

حور كأمثال فيها الفل والتسنيد

وكقول بعض المتأخرين في مرثية له :

فـانك نبيت في حفـرة

تراكم فيها نعيـم وحور

وان كان النعيم والحور من مواهب اهل الجنة فليس بينهما في النفوس تقارب ولا لفظة تراكم مما تجمع بين الحور والنعيم ، وكقول بعض المتأخرين :

والله لولا ان يقـال تغيـرا

وصبا وان كان التصابي اجدرا

لأعاد تفاح الخدود بنفسجا

لثما وكافور الترائب عنبـرا

(١٦٧) رسالة الجام الكلام : ٣٨

(١٦٨) رسالة الجام الكلام : ٣٨

(١٦٩) رسالة الجام الكلام : ٣٨

فأجاد الوصف وأحسن الرصف لكون الورد من قبيل البنفسج ، وهكذا نجد ابن شرف قد بسط القول ، وأفاض في الحديث عن العيب الذي سماه « مجاورة الكلمة ما لا يناسبها » (١٧٠) وعد هذا العيب من عيوب الشعر المذمومة .

ثم ذكر أن الفضلاء الشعراء الوادين سقطات وهنات مختلفات في أشعارهم ؛ ووصفه بأنه سيذكر أطرافا منها لا رغبة في طلب الزلات والهفوات ولا شهرة في التفتيش عن العثرات واستقصائها وتتبعها ، وإنما لنستدل بها على أغراضنا ونقف منها على منهجنا ؛ ويضرب مثلا لذلك ببشار فقد كانت طبقات شعره تتفاوت وتتباين « فيسمو ويرتفع أكثرها ، وينحط ويسفل قليلها » ؛ وكذلك شعر أبي تمام حتى يبلغ من تفاوت طبقات شعر هذين الشاعرين وتباينهما الى هذا الحد أنك لو سمعت جيدهما لأنكرت أن رديئهما لهما ، ولو صح عندك وثبت أن هذا الرديء لهما لأنكرت جيدهما ، ولحلفت يمينا لا تستثني أنه ليس لهما ، وإنما هو لغيرهما فيقول : « والفضلاء الوادون سقطات مختلفات في أشعارهم ، فالأكثر منها في أشياء نستدل بها على أغراضك ، ولا لطلب الزلات ولا لاقتفاء العثرات ، كان بشار متباين طبقات شعره فيصعد كثيرها ، ويهبط قليلها كثيرا ، وكذلك كان حبيب الطائي فإذا سمعت جيدهما كذبت أن رديئا لهما ، وإذا صح عندك أن ذلك الرديء لهما أقسمت أن جيدهما لغيرهما » (١٧١)

ثم عد من عيوب الشعر الافتتاحات الثقيلة والإبتداءات المستبردة المسمجة وضرب لهذا العيب أمثلة كثيرا مثل قول أبي تمام :

هن عوادي يوسف وصواحبه

ومثل قول ديك الجن :

كأنها وكأنها حبل القبلة
وقف الحلول الا ينعما

ووجه العيب في افتتاحي أبي تمام وديك الجن أنهما ابتدأا قصيدتيهما بضمائر لم يسبقها اسم ظاهر تعود عليه .

كما عاب أيضا الافتتاحات التي يتطير بها ، ويتشاءم منها ، والكلام الفساد الغرض المطلوب ويضرب مثلا لذلك بإنشاد قصيدة أبي نواس التي أنشدها جعفر بن يحيى البرمكي يهنئه ببنائه دارا جديدة ، فدخل عليه عند كمالها وقد جلس للهناء والغناء ، وعنده وجوه الناس فابتدأ الإنشاد بقصيدة مطلعها :

أربع البلى إن الخشوع لبادي
عليك وإني لم أخنك ودادي

فتطير جعفر من رائيته ، وتطير الناس بعضهم الى بعض ثم تلافى الأمر بختام الشعر بقوله :

سلام على الدنيا إذا ما فقدتم
بني برمك من رائحين وغادي

فتمثل جهله ، وأسر خطاه ، وزاد القلوب الكوفية لخطوب سرعة توقع ، وأصاف النفوس المتوجعة بذكر الموت شدة توجع ، وأراد أن يمدح فهجا ، ودخل أن يسر فشجى » (١٧٢)

ثم يضرب مثلا آخر لهذا العيب بما وقع للمتنبي في أول الشعر الذي أنشده كافورا الاخشيدي وهو :

كفى بك داء أن ترى الموت شافيا
وحسب المنايا أن يكن أمانيا

(١٧٠) تحدث ابن شرف عن هذا العيب في ص ٣٨ ، ص٣٩ من رسالة أعلام الكلام .

(١٧١) رسالة أعلام الكلام : ٣٩ .

(١٧٢) رسالة أعلام الكلام : ٤٠ .

ووجه العيب في هذا المطلع انه خاطب كافورا بالكاف ، وهذا امر مستهجن ، وخاصة في اول لقاء له معه وفي ابتداء استجداء واستعطاف ... » (١٧٣)

ثم يضرب مثلا آخر لقبح مطلع القصيدة واستفتاحها وقع لاحد الشعراء العاصرين له، فيذكر ان بعض الشعراء انشد بعض الامراء في يوم المهرجان :

لا تقل بشرى ولكن بشريان
غرة الداعي ووجه المهرجان

فأمر الامير باخراج الشاعر، واستطار بافتتاحه وحرمه احسانه ، ثم علق على هذا المطلع المستقبح بأنه لو كان هذا الشاعر حاذقا لكان اصلاح هذا الفساد ايسر الاشياء عليه ،وذلك بأن يعكس البيت فيقول :

وجه من أهوى ووجه المهرجان
اي بشرى هي لاول بشريان (١٧٤)

ثم يذكر ان من عيوب القافية البلاغية في الاستهجان والاستقباح ان تأتي بكلمة القافية معجمة لا ترتبط بما قبلها من الكلام ، وانما هي مفردة بحشو القافية كقول بعض الشعراء:

فبلغت المنى برغم اعاديك
وأبقاك سالما رب هود

يقول ابن شرف : « فانت ترى ثقالة هذه القافية ، والله تعالى رب جميع الخلق وكل شيء ، فخص هودا عليه السلام وحده لضعف نقده ، وعجز من الاتيان بقافية تليق وتحسن » (١٧٥)

ثم يذكر ان مما يقبح في النسيب الجفاء على الحبيب والقسوة عليه والتضجر ببعده ، والغلاظ العقاب على هجره وصدوده ،ويضرب مثلا لذلك بقول ابي نواس في اول قصيدته المشهورة التي مدح بها الخصيب بن عبد الحميد عامل مصر :

اجارة بيتينا ابوك غيور
وميسور مايرجى لديك عسير

فان كنت لا خلا ولا انت زوجة
فلا برحت منا عليك ستور

وجاورت قوما لا تزاور بينهم
ولا قرب الا ان يكون نشور

يقول ابن شرف : « فلم اسمع باوحش من هذا النسيب ، ولا باخشن من هذا التشبيب وذلك قوله ان لم تكوني لي زوجة ولا صديقة فلا برحت منا ستور التراب عليك ، ولا كان جاورتوما بعشا لمن الا الموتى الذين لا يتزاورون ولا يتواصلون الى يوم النشور مع ان كلامه يشهد عليه بانه عاشق ، وانما المعروف في اهل الرقة والظرف ، والمعهود من اهل الوفاء والعطف ان يفدوا احبابهم بالنفوس من كل مكروه وبوس ، فاين ذهبت ولادته البصرية وادابه البغدادية حتى اختار القدر على الوفاء وطلبت به طباعه الى اجفى الجفاء » (١٧٦)

ثم عرض للسرقات الشعرية ، وعدها من عيوب الشعراء ، وذكر ان انواعها كثيرة واقسامها متعددة ، فمنها سرقة الفاظ ،ومنها سرقة معان ، وبين ان سرقة المعاني اكثر من سرقة الالفاظ لانها اخفى ، وسرقة المعاني متعددة : فمنها سرقة المعنى كله ، ومنها سرقة

---

(١٧٣) رسالة اعلام الكلام : ٤٠ .
(١٧٤) رسالة اعلام الكلام : ١٠ .
(١٧٥) رسالة اعلام الكلام : ٤١ .
(١٧٦) رسالة اعلام الكلام : ٤١ ـ ٤٢ .

المعنى ، ثم ذكر ان احسن السرقات السرقة باختصار في اللفظ وزيادة في المعنى ، وان اقبح السرقات هي السرقة بزيادة الفاظ مع قصور من المعنى ، وهناك سرقة محضة بلا زيادة ولا نقص ، والفضل في مثل هذه السرقة راجع للمسروق منه ، ولا شيء للسارق ، ومثل لها بسرقة ابي نواس معنى بيت ابي الشيص بتمامه وهو :

وقف الهوى بي حيث انت فليس لي
متأخر عنه ولا متقدم

فسرق ابو نواس معنى هذا البيت بكماله فقال :

فما جازه جود ولا حل دونه
ولكن يسير الجود حيث يسير

يقول ابن شرف : « فبيتا على ان بيت ابي الشيص احلى واطبع ، وبيت حكمه سرقة وقد ذكر عن الحسن انه قال : ما زلت احسد ابا الشيص على هذا البيت حتى اخذته منه ، وسرقة الشاعر قصور همة » (١٧٧)

ثم ختم حديثه عن عيوب الشعر بالحديث عن الاخلال بالتناسب في المعنى والأبيات ، او تعقيد الكلام ومثل له بقول المتنبي :

« كفى بك داء أن ترى الموت شافيا »

وهذه العيوب التي عرض لها ابن شرف اوسعها علماء البلاغة والبيان بحثا ودراسة ، وافاضوا في الحديث عنها ، فالاخطاء اللغوية معيبة يؤاخذ عليها الشاعر واللحن ينتقص من قدرة الشاعر ، ويقلل من شأنه ، والخلل اللفظي في المفردات وفي التراكيب معيب على الشاعر ، ويستوجب توجيه النقد اليه .

ثم ختم الرسالة بالحديث عن احسن الشعر واجوده ، فقال : «فاما المستحسن فتمثيله الك يعظم ويتسع لكثرته فلا يسعنا ايراده ، وكفى ما سلم في جميع ما اوردناه فهو في حيز السالم ، ثم تتسع طبقات الجودة فيه ، واحسن الحسن منه ما اعتدل مبناه ، واقرب معناه ، وزاد من محمودات الشعر على سواه ثم يمدح الأدون فالأدون بمقدار انحطاطه الى حيز السلامة ، ثم لا مدح ولا كرامة » (١٧٨)

ثم بدا لابن شرف ان يسأل ابا الريان السؤال الاخير بعد ان طوف معه كل هذا التطواف ، فسأله عن مذهبه في انتقاء الاشعار واستقصى عن منهجه وطريقته في اختيارها ، وعزم عليه الا يغيره عما سأله عنه ، واقترح عليه ان ينشده ولا يمل من مستحسن الاشعار واجودها ، وان يملي عليه ولا يمل من منتقاها ومتخيرها ، ومنتخبها ، فاجابه ابو الريان الى طلبه ؟! وحقق رغباته ومبتغاه . وهكذا نجد ابن شرف يختتم رسالته بايراد عدة امثلة من اجود الاشعار وانتقاها ومتخيرها في شتى الموضوعات وفي مختلف الاغراض ، فابتدأ بايراد طائفة منها في الحكمة وما جرى مجرى المثل ، ثم عرض لامثلة اخرى من منتخب شعر الغزل ، ثم اتبع ذلك بايراد مختارات من المراثي مبتدئا بمرثية قتيلة بنت النضر بن الحارث في اخيها النضر بن الحارث وقد قتله الرسول صلى الله عليه وسلم صبرا ، وتعد هذه المرثية من احسن المراثي وافصحها واوجعها واقرحها ، ثم عرض لمنتخبات من اشهر المدائح وبذلك تنتهي هذه الرسالة .

هذه هي رسالة اعلام الكلام لابن شرف التي تمثل آراءه النقدية ، ومن حديثنا عنها وعرضنا لآرائه فيها يتبين لنا ان آراءه النقدية قد عرض لها كثير من النقاد السابقين عليه والمعاصرين له كالجاحظ وابن قتيبة وابن رشيق

---

(١٧٧) رسالة اعلام الكلام : ٢)

(١٧٨) رسالة اعلام الكلام : ٦)

وان ابن شرف لم يأت بجديد في هذه القضايا النقدية التي عرض لها كما يتبين لنا من آرائه النقدية في هذه الرسالة انه بالرغم من الجهد الذي بذله في اصدار احكام صحيحة على الشعراء وبيان منازلهم وتقويم ادبهم ، فان هذا الجهد قد ضاع في خضم التعابير اللغوية المتخيرة ، وغاب في امواج الالفاظ المنتقاة ، كما نلاحظ انه يهمل التدقيق في الافكار التي يبنى عليها احكامه كما فعل قرينه ومنافسه ابن رشيق في كتابه « العمدة » ومن ثم جاءت احكامه عامة خالية من التحليل والتدقيق ضائعا ما فيها من صواب محدود في خضم السجع الركيك وحواشي الالفاظ وغريبها ، وغالبا ما اشتملت عليه من افكار في أسلوب المقامات التي التزمه في هذه الرسالة ذلك الأسلوب المعنى بتزيين الالفاظ ، وتزويق العبارات والحافل بالمحسنات البديعية والصنعة اللفظية ، حتى انه لا وجه للمقارنة والموازنة بين احكام ابن شرف وآراء ابن رشيق التي بلغت درجة الكمال اذ لا يوجد اي تشابه بينهما ، فابن شرف ـ فضلا عن اسلوبه الذي هو دون أسلوب ابن رشيق في كتابه « العمدة » ، لم يبلغ منزلة ابن رشيق في النقد الأدبي ، وانجتزىء بعرض آرائهما في قضية القديم والمحدث ، فابن شرف يقول : (وتحفظ من شيئين : احدهما ان يحملك اجلالك القديم المذكور على المجلة باستحسان ما تسمع له ، والثاني : ان يحملك اصغارك المعاصر المشهور على التهاون بما انشدت له ، فان ذلك جور في الاحكام وظلم من الحكام ، حتى تمحص قوليهما فحينئذ تحكم لهما او عليهما ، فهذا باب في اطلاقه استصعاب ، وفي صرف العامة وبعض الخاصة عنه العاب ، ولقد وصف تعالى في كتابه تشبث القلوب بسيرة القديم ونفارها عن المحدث الجديد ، فقال حاكيا لقولهم : « انا وجدنا آباءنا على امة » ..... فلا يرعك ان تجري على منهاج الحق في جميع الخلق ، فيه قامت السموات والارض ، وبه احكم الابرام والنقض (١٧٩) وابن شرف لم يأت بجديد في هذه القضية ، ولم يعد ان يكون مرددا لكلامهم . فمعاصره ابن رشيق أدلى بدلوه في هذه القضية وتكلم فيها بأسلوب أوضح من اسلوب ابن شرف ، وعالجها على نحو أكمل وأوفى مما عالجها به صاحبنا ، فهو مثلا يستهل الباب الذي عقده في العمدة بعنوان « باب في القدماء والمحدثين بالحملة على المقاييس البالية التي اصطنعها الرواة واللغويون في تفضيلهم القديم لمجرد قدمه وسبق الزمن بصاحبه ، ويبين ان القدم والحداثة امران نسبيان ، فيقول : « كل قديم من الشعراء فهو محدث في زمانه بالاضافة الى من كان قبله (١٨٠) ..... » كما يقول في موضع آخر : « وانما مثل القدماء والمحدثين كمثل رجلين : ابتدأ هذا بناء فأحكمه واتقنه ، ثم اتى الآخر فنقشه وزينه فالكلفة ظاهرة على هذا وان حسن ، والقدرة ظاهرة على ذلك وان خشن » (١٨١) كما نجد لابن قتيبة السابق عليهما في هذه القضية رأيا أكثر دقة ووجاهة وصوابا من رأييهما ، فقد بسط القول في هذه القضية وفصله ، وافاض فيه حيث يقول : « ولا نظرت الى المتقدم منهم بعين الجلالة لقدمه ، والى المتأخر منهم بعين الاحتقار لتأخره ، بل نظرت بعين العدل للفريقين ، واعطيت كلا حظه ، ووفرت عليه حقه ، واني رأيت من علمائنا من يستجيد الشعر السخيف لقدم قائله ، ويضعه في متخيره ، ويرذل الشعر الرصين ولا عيب عنده الا انه قيل في زمانه ،

---

(١٧٩) رسالة انتقاد الكلام : ٢٨

(١٨٠) العمدة ١ ـ ٧٢

(١٨١) العمدة ١ : ٧٤

او انه رأى قائله ، ولم يقصر الله الشعر والعلم والبلاغة على زمن دون زمن ، ولا خص به قوما دون قوم » (١٨٢) كما يقول بعد ذلك : « فكل من اتى بحسن من قول أو فعل ذكرناه له ، واثنينا به عليه ، ولم يضعه عندنا تأخر قائله او فاعله ، ولا حداثة سنه ، كما ان الردىء اذا ورد علينا المتقدم او الشريف لم يرفعه عندنا شرف صاحبه ولا تقدمه » (١٨٣) ويردد ابن قتيبة رأيه هذا في القديم والمحدث مرة اخرى في مقدمة كتاب « عيون الأخبار » حيث يقول : « وكذلك مذهبنا فيما نختاره من كلام المتأخرين واشعار المحدثين اذا كان متخير اللفظ لطيف المعنى لم يزر به عندنا تأخر قائله، كما انه اذا كان بخلاف ذلك لم يرفعه تقدمه ، فكل قديم حديث في عصره ، وكل شرف فأوله خارجية ، ومن شأن عوام الناس رفع المعدوم ووضع الموجود ورفض المبذول وحب الممنوع وتعظيم المتقدم وطرح رأيه وبخس المتأخر والتجني عليه ، والعاقل من ينظر بعين العدل لا بعين الرضا ، ويزن الأمور بالقسطاس المستقيم » (١٨٤) ومن الواضح في قضية التي عرضنا لها في قضية القديم والحديث نجد أن رأيه في هذه القضية كان اكثر دقة ووضوحا ووجاهة من رأي ابن شرف، وابن رشيق .

وهكذا يتضح لنا اتجاه ابن شرف في النقد الادبي وطريقته في تناول القدامى والمحدثين والموازنة والمقارنة بينهم وقضية القديم والحديث حظيت باهتمام كبير من النقاد العرب ، وكانت الشغل الشاغل للأوساط الادبية في الشرق والمغرب على السواء وفي جميع العصور ومختلف البيئات ، وقد بينا موقف معاصره ابن رشيق منها ، وموقف ابن قتيبة السابق عليهما من هذه القضية ايضا .

كما يتضح لنا كيف تناول ابن شرف في رسالته « اعلام الكلام » الشعر والشعراء ومنازلهم في جاهليتهم واسلامهم ومطابعهم قديمهم وحديثهم ، وكيف كانت الاشعار قبل امرىء القيس سوانح حتى جدد فيها ، ووضع الأساس الذى بنى عليه الناس ، وكيف اقام الصوى والأعلام التى اهتدى بها كل من جاء بعده ، فقد كانوا يقولون : « اسيلة الخد » حتى قال امرؤ القيس : « اسيلة مجرى الدمع » وكانوا يقولون : « تامة القامة وطويلة القامة واشباه هذا حتى قال امرؤ القيس : « بعيدة مهوى القرط » واشباه هذا من الاستعارات والاشارات التى لم يفطن لها من قبله ، وتلقى بها وبنى عليها من اتى بعده ، تحسنت بها اشعارهم ، وكيف اخذ يتناول كل شاعر على حدة ، ويعرض لاخباره المشهورة وسماته ومميزاته الخاصة به ، وكيف مضى في ابداء رأيه على هذا النحو في مشاهير شعراء المشرق، ثم انتقل بعد ذلك إلى مشاهير الشعراء المغاربة والاندلسيين بعرض لهم ، ويبدى رأيه فيهم دون التقيد بمنهج نقدى شامل ودون تحليل أو تعليل ، وكيف عرض بعد ذلك لطائفة من عيوب الشعر ، وكيف اختتم رسالته بإيراد نماذج وعرض امثلة من اجود الاشعار ومتخيرها في شتى الموضوعات ومختلف الاغراض مبتدئا بعرض أبيات من شعر الحكمة وما جرى مجرى المثل ، ثم عرض لامثلة اخرى متخيرة من شعر الغزل ، ثم أورد منتخبات من المراثي مبتدئا بمرثية قتيلة بنت الحارث في اخيها النضر بن الحارث احسن المراثي وافصحها واوجعها ثم عرض ذلك لمنتخبات لعجيبه من الشعر الذائع .

هذه هي طريقة ابن شرف في النقد الادبي ، وهي كما رأينا لا تتقيد بمنهج نقدى يقوم على الاستقصاء والاستقراء والتحليل والتعليل

---

(١٨٢) مقدمة الشعر والشعراء : ٦ - ٧

(١٨٣) مقدمة الشعر والشعراء : ٧

(١٨٤) مقدمة عيون الأخبار : ٧

والتدقيق وانما تتناول طائفة من الاخبار النقدية والاشارات متفرقة هنا وهناك ، وتبدى آراء جزئية في هذا الشاعر او ذاك ، وتصدر احكاما عامة متناثرة في الادب . يقول احمد امين : « وظهرت في المغرب حركة جيدة في النقد الادبي وردت اول الامر نتفا في كتب الادب كقول عبد الكريم النهشلي : قد تختلف المقامات والازمنة والبلاد ، فيحسن في وقت ما لا يحسن في آخر ، ويستحسن عند اهل بلد ما لا يستحسن عند اهل غيره .... ومثل قول ابراهيم الحصري : الشعر مطبوع ومصنوع ، فالمطبوع الجيد الطبع مقبول في السمع قريب المثال بعيد المنال أنيق الديباجة رقيق الزجاجة .... ثم ارتقى هذا النقد حتى صار موضوعا قائما بنفسه » (١٨٥) وظل هذه الطريقة في النقد الادبي سائدة في المغرب الى ان يجيء ابن رشيق فيتخصص في نقد الشعر عامة ، وينفرد به ؛ ويوليه عنايته واهتمامه ويشمله برعايته ، وياخذ لهذا الأمر اهبته ، ويعد له عدته ، فيبوب البحث وينظم منهجه ، ويفرد لذلك كتابه « العمدة » الذي توج به حركة النقد الادبي التي ظهرت في المغرب ، فقد نقل فيه فن النقد الادبي كما يقول الأستاذ احمد امين : « من نقد شاعر خاص أو شعراء معينين كما فعل صاحب الموازنة والوساطة الى نقد الشعر عامة » (١٨٦) ويقول ابن خلدون : « وهو الكتاب الذى انفرد بهذه الصناعة واعطاها حقها ، ولم يكتب فيها احد قبله ولا بعده مثله » (١٨٧) ويقول فيه القفطي : « وهو اجل كتبه واكبرها ، وانه اشتمل على ما لم يشتمل عليه تصنيف من نوعه ، واحسن فيه غاية الاحسان » (١٨٨) .

* * *

---

(١٨٥) ظهر الاسلام ١ : ٢٠٦ ــ ٢٠٧

(١٨٦) ظهر الاسلام ١ : ٢٠٧

(١٨٧) مقدمة ابن خلدون : ٥٧٤

(١٨٨) انباه الرواة ١ : ٣٠٣

مراجع البحث

١ ـ الأعلام للزركلي ط ثانية سنة ١٩٥٥م .

٢ ـ أعلام الأعلام لابن شرف القيرواني ط مكتبة الخانجي سنة ١٣٤٤هـ .

٣ ـ إنباه الرواة على أنباه النحاة للقفطي تحقيق أبي الفضل ط دار الكتب ج ١ سنة ١٩٥٠م ، وج٢ سنة ١٩٥٢ ١٩٥٦ وج٣ سنة ١٩٥٥م وج٤ سنة ١٩٧٣م .

٤ ـ بدائع البداهة لعلي بن ظافر ط بولاق سنة ١٢٧٨هـ .

٥ ـ بساط العقيق لحسن حسني عبد الوهاب ط المطبعة التونسية سنة ١٣٣٠هـ .

٦ ـ بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة للسيوطي ط السعادة سنة ١٣٢٦هـ .

٧ ـ البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب لابن عذارى ط بيروت بدون تاريخ .

٨ ـ تاريخ الأدب العربي لبروكلمان ترجمة عبد الحليم النجار ط دار المعارف سنة ١٩٥٩م .

٩ ـ تاريخ الأمم والملوك لابن جرير الطبري ط الحسينية المصرية سنة ١٣٢٦هـ .

١٠ ـ حياة القيروان وموقف ابن رشيق منها لعبد الرحمن ياغي ط بيروت سنة ١٩٦١م .

١١ ـ الخريدة ، قسم شعراء المغرب للعماد الأصفهاني ط تونس سنة ١٩٦٦م .

١٢ ـ ديوان ابن رشيق جمع وتحقيق الدكتور عبد الرحمن ياغي ط بيروت .

١٣ ـ الذخيرة لابن بسام ط لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٩٤٥م .

١٤ ـ رسائل البلغاء اختيار وتصنيف محمد كرد علي ط لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٩٤٦م.

١٥ ـ ابن رشيق القيرواني للدكتور عبد الرؤوف مخلوف سلسلة أعلام العرب ط لجنة التأليف والترجمة والنشر .

١٦ ـ زهر الآداب للحصري تحقيق علي محمد البجاوي ط الحلبي سنة ١٩٥٣م .

١٧ ـ الشعر والشعراء لابن قتيبة تحقيق الشيخ أحمد شاكر ط الحلبي سنة ١٣٦٦هـ .

١٨ ـ الصلة لابن بشكوال ط مكتب نشر الثقافة الإسلامية سنة ١٩٥٥م .

١٩ ـ ظهر الإسلام لأحمد أمين ط لجنة التأليف والترجمة والنشر .

٢٠ ـ العمدة لابن رشيق القيرواني تحقيق محيي الدين ط مصر سنة ١٩٣٤م .

٢١ ـ عيون الأخبار لابن قتيبة ط دار الكتب سنة ١٩٢٥م .

٢٢ ـ الغيث المسجم في شرح لامية العجم للصفدي ط الوطنية بالإسكندرية سنة ١٢٩٠هـ .

٢٣ ـ فوات الوفيات لابن شاكر الكتبي تحقيق محيي الدين ط النهضة سنة ١٩٥١م .

٢٤ ـ قراضة الذهب في نقد أشعار العرب لابن رشيق تحقيق الشاذلي بو يحيى ط المطبعة الرسمية بتونس سنة ١٩٧٢م .

٢٥ ـ الكامل لابن الأثير ط مصر سنة ١٢٩٠ هـ .

٢٦ ـ كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون لحاجي خليفة ط استانبول سنة ١٣١٠هـ .

٢٧ ـ مجلة المقتبس المجلد السادس .

٢٨ ـ مسالك الأبصار ج ١١ قسم ٢ مصورة معهد المخطوطات بالجامعة العربية .

٢٩ ـ المطرب من أشعار أهل المغرب لابن دحية تحقيق الأبياري وزميله ط المطبعة الأميرية بالقاهرة سنة ١٩٥٤م .

٣٠ ـ معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان للدباغ ط تونس سنة ١٣٢٠هـ .

٣١ ـ معجم الأدباء لياقوت الحموي ط دار المأمون .

٣٢ ـ معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع للبكري تحقيق السقا ط لجنة التأليف سنة ١٩٤٥م .

٣٣ ـ مقدمة ابن خلدون ط المكتبة التجارية بدون تاريخ .

٣٤ ـ المكتبة الصقلية لأماري ط ليبسك سنة ١٨٥٧م .

٣٥ ـ المؤنس في أخبار أفريقية وتونس لابن أبي دينار ط تونس سنة ١٢٨٦هـ .

٣٦ ـ المنتخب من شعر ابن رشيق وزميله ابن شرف للميمني ط السلفية سنة ١٣٤٣هـ .

٣٧ ـ هدية العارفين بأسماء المؤلفين وآثار المصنفين لإسماعيل البغدادي ط استانبول سنة ١٩٥٥م .

٣٨ ـ الوافي بالوفيات للصفدي ج ٣ ط الهاشمية بدمشق سنة ١٩٥٣م .

٣٩ ـ وفيات الأعيان لابن خلكان تحقيق محيي الدين ط السعادة سنة ١٩٤٨م .

* * *

عرض الكتب



مقدمة السكان

تحليل سوسيولوجي

عرض وتحليل الدكتور مصطفى شاكر

يتكون الكتاب من ثلاثة اجزاء رئيسية مقسمة الى سبعة عشر فصلا بالاضافة الى اربعة ملاحق ولمالي صفحاتس البيلوجرافيا وفهرس . وتبلغ مجمل صفحاته ٤٥٢ صفحة . يقسم الجزء الاول خمسة فصول ويعالج بصفة اجمالية التصورات المختلفة عن الناس والسكان والمجتمعات

(Perspectives on People, and Societies)

وفيه استعرض المؤلف تاثير التغيرات السكانية على التنظيم الاجتماعي والاقتصادي والسياسي بصفة اجمالية وفي المجتمع الامريكي بصفة خاصة .

الجزء الثاني من الكتاب (الفصل السادس ـ العاشر) يتضمن مناقشة عوامل التركيب السكاني ومتغيراتها ـ الوفيات (Mortality) ـ الولادات (Fertility)والهجرة (Migration) .

الجزء الثالث والاخير يشتمل على ستة فصول تتعلق بالنتائج التي تترتب على التغيرات السكانية وانماطها الديموجرافية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية ، كذلك السياسات السكانية .

Prentice-Hall, Inc., Englewood Cliffs, New Jersey 07632.

بدأ الفصل الاول باحصائيات توضح مدى الانفجار السكاني الذي حدث في العالم خلال القرن العشرين ، حيث ازداد عدد السكان من بليون ونصف في بداية القرن الى ما يقارب اربعة بلايين في عام ١٩٧٥ ، مع احتمالية وصول هذا العدد الى ستة بلايين في نهاية القرن المذكور اي بمعدل نمو يوازي اربعة اضعاف .

رغم الحديث الكثير عن الانفجار السكاني* والوعي الذي بدأ يتزايد من ابعاد المشكلة يعتقد المؤلف ان ذلك لا يعني بالضرورة وجود فهم علمي للمشكلة او اتفاق على النتائج التي تترتب على الزيادة السريعة في السكان ، وقد لخص الآراء المتداولة الى : ـ

أ ــ ظاهرة الانفجار السكاني تمثل كارثة على الجنس البشري حيث ان النقص في الغذاء والمصادر الاولية والتلوث والتلف الذي يحدث في البيئة كلها يشكل ظواهر تنبيء بوقوع كارثة ، وان مجرد تخفيض معدل نمو الزيادة السكانية لن يؤخر وقوع مثل هذه الكارثة ، ولذا فهناك ضرورة حتمية وملحة لتوقف النمو السكاني تماما ، اي الوصول الى معدل للسكان معادل للصفر (Zero Population Growth)

ب ــ التزايد السكاني يوفر فرصة ذهبية للنمو والتوسع الاقتصادي والاجتماعي وذلك بتطويره فرص العمل ، ومساعدته في اكتشاف واستغلال المواد الاولية عن طريق استعمال الابتكارات التكنولوجية والتنظيمية .

جـ ــ الانفجار السكاني يعتبر عاملا مضاعفا للمشاكل الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ويؤدي الى قصور الخدمات الاجتماعية بصورة عامة ، ومن مسلمات هذا الرأي ان حل كثير من المشاكل الاجتماعية والاقتصادية سيكون ميسرا لو تناقصت معدلات نمو السكان المرتفعة في كثير دول العالم الثالث .

تطرق المؤلف في الفصل الثاني الى منشأ وتطور الحركة المنادية بتوقف النمو السكاني ، كما استعرض نشاطات المنظمات القائمة بالدعوة لهذه الفكرة ، وناقش الوسائل التي اتبعتها لتحقيق اهدافها . لقد ظهرت هذه الحركة في اوائل الستينات من خلال انشطة بعض منظمات القطاعين العام والخاص في الولايات المتحدة بهدف التأثير على برامج تنظيم الاسرة وتشجيع تحديد النسل . وما لبثت ان تطورت اهداف الحركة من اهتمام اولي بسعادة الافراد كمبرر لتحديد النسل الى ابراز خطورة النمو السكاني على النواحي الاجتماعية والديموجرافية والاقتصادية والسياسية كمبرر اساسي يستوجب ايقاف النسل . واشار المؤلف الى عدم وضوح كيفية التوصل الى الاهداف المنادى بها ، خاصة وانه من المسلم به ان تنظيم الاسرة الاختياري لن ينتج عنه توقف اوتوماتيكي في الزيادة السكانية . وان لتحقيق معدل نمو سكاني معادل للصفر يستوجب اعتبار برامج اخرى اجبارية .

رغم استمرار الجدل العلمي حول خطورة النمو السكاني وافضل الوسائل المتبعة « لتحديد » او « إيقاف » النسل (اختيارية أو اجبارية) ودور الزوجين أو الافراد في مقابل مسئولية الدولة ، نبه المؤلف الى حقيقتين :

(١) معدل الولادات في الدول الغربية بما فيها الولايات المتحدة قد اخذت بالانخفاض الواضح حتى وصلت في السبعينات الى مستوى منخفض يضمن بالكاد الاستبدال (Replacement)

* خصصت مجلة عالم الفكر العدد الرابع من المجلد الخامس (يناير ــ مارس ١٩٧٥) لمناقشة المشكلة السكانية .

(٢) معدلات النمو السكاني في بعض الدول النامية وخاصة في دول شرقي آسيا كالصين وتايلند واندونيسيا وكمبوديا والجمهوريات الاسيوية في الاتحاد السوفييتي قد بدأت بالتناقص بشكل ملحوظ ، مما حدا بكثير من علماء الديموجرافية بدراسة احتمال توقف النمو السكاني عند هذه الدول خلال القرن العشرين وتحليل النتائج المحتمل وقوعها .

من النماذج المستخدمة في شرح النمو السكاني التي قام المؤلف بمناقشتها في الفصل الثالث نموذج التحول الديموجرافي (Demographic Transition) والتي تصف تجربة العالم الغربي والصناعي في تخفيض معدل نمو السكاني منذ بداية حركة التصنيع ويمكن وصف مراحل هذا النحو كالآتي :ـ

١ ـ مرحلة ما قبل التصنيع وهي الفترة التي تكون فيها معدلات كل من الولادات والوفيات مرتفعة .

٢ ـ مرحلة بداية التصنيع وفيها تنخفض معدلات الوفيات بينما معدلات الولادات ثابتة ومرتفعة ، وهذه المرحلة هي التي ينتج عنها ما يسمى بالانفجار السكاني .

٣ ـ مرحلة التصنيع وفيها تبدأ معدلات الولادات بالانخفاض .

٤ ـ مرحلة ما بعد التصنيع وفيها تصل معدلات الولادات الى مستوى منخفض يتناسب مع المعدلات المنخفضة للوفيات وبتمامها تتم مرحلة التحول الديموجرافي .

وفي نهاية الفصل حدد المؤلف ثلاثة انماط من استراتيجية الاستجابة لنمو السكان .

النمط الاول : ويشمل التوسع في الحدود وضم اراضي جديدة ، وهي استراتيجية البحث في كل العصور (الحل السياسي او الغزو) ولو ان احتمالاتها اصبحت ضعيفة في الوقت الحاضر .

النمط الثاني : اقتباس الابتكارات الحديثة في التكنولوجيا والنظم الاجتماعية لرفع استغلال الموارد الطبيعية استغلالا افضل (الحل الاقتصادي) .

النمط الثالث : ويتمثل في تحديد نمو السكان سواء من طريق زيادة الوفيات أو تناقص الولادات (الحل الديموجرافي) . وقد كان اللجوء الى زيادة الوفيات وسيلة منتشرة في بعض المجتمعات .

قدم المؤلف في الفصل الرابع هيكلا عاما (Typology) لتوضيح العلاقة بين العوامل الديموجرافية والتركيب الاجتماعي، وفي شيء من الدقة وصف احتمالات اثر هذه العوامل على البيئة الانسانية والنظم الاجتماعية . وقد قسم السكان حسب المتغيرات الآتية : العدد Size المساحة Area الكثافة السكانية (Population Density) ريف وحضر Rural / Urban والتركيب العمري Age Structure وكذلك خصائص النمو . وكانت تقسيماته المجتمع مقتصرة على : بدائية ـ بسيطة ـ ومتطورة بالنسبة لقدراتها التكنولوجية .

ويعد تعريف المجتمع الانساني على انه مجموعة من السكان المرتبطة بأنماط من العلاقات الاجتماعية بغرض المعيشة والتأقلم للبيئة المحيطة ، تطرق المؤلف الى النظريات الطبيعية البارزة في حقل البيئة الانسانية Human Ecology والتي تصنف المجتمعات حسب طبيعة تكنولوجيا انتاج المواد الغذائية التي تمتلكها . وكذلك نظام تقسيم العمل في هذه المجتمعات . ويذكر المؤلف ان التحول التدريجي المجتمعات من المستوى البدائي

البسيط الى التنظيم المتطور المعقد يعزى الى التوسع الايكولوجي المتأثر بالزيادة السكانية وما ينتج عنها من تكيف اقتصادي واجتماعي وتنظيمي لفرض تحمل المضاعفات التي قد تنشأ في مرحلة النمو والتطور .

وبتطبيق مفاهيم الهيكل العام الذي حدده المؤلف على المجتمع الامريكي (الفصل الخامس) حاول أن يربط بين العوامل الديموجرافية ، وخاصة عامل الهجرة ، وبين التغيرات التي حدثت في التكنولوجيا وانماط الاستيطان والتكيف الايكولوجي المتميز بالاتجاه الظاهر نحو العمران وخاصة في الفترة التي اعقبت الحرب العالمية الثانية .

ويمقارنة امريكا ذات الطابع الريفي في القرن التاسع عشر بامريكا الحضارية في القرن العشرين ، اتصفت الاولى بانتشار المجتمعات الصغيرة Communities المتحولة نوعا ما والمأهولة بالاسر ذات التركيب الممتد والوظائف المتعددة ومنها : المهنية والترفيهية والتربية التنشيء ، هذا بالاضافة الى كونها وحدات انتاجية واقتصادية كانت تمثل حلقة الوصل الرئيسية ما بين الفرد ونشاطاته واتصالاته في المجتمع .

يتصف المجتمع الامريكي حاليا بالتركيز الشديد في الكثافة السكانية في جزء بسيط من مساحته الشاسعة وفي التزايد الحضري والعمراني الهائل المتميز بالمجتمعات الاجتماعية التي يغلب عليها نمط الاسر الصغيرة التي تغير كثيرا من وظيفتها التربوية والاقتصادية والترفيهية وفقدانها لمعظم هذه النشاطات .

وابرز المؤلف اهمية عامل الهجرة (الخارجية منها او الداخلية) في : ١) تشكيل انماط توزيع السكان وتطورها في المجتمع الامريكي والتي ادت في النهاية الى ظهور المدن الضخمة Megalopolis . ٢) احلال روابط اجتماعية متصفة بالحضارية محل الروابط التقليدية مثل رابطة الدين ، الجنسية ، المنشأ ، كذلك الروابط العائلية .

بدا المؤلف الجزء الثاني من الكتاب بتعريف للتحليل الديموجرافي على انه وصف كمي للطاقة البشرية ولمكوناتها بالمجتمع ، تلا ذلك استعراض اولي (الفصل السادس) لطرق دراسة النمو السكاني وكيفية حساب مؤشرات النمو ، وبين كذلك استعمالات ابرز هذه المؤشرات وهي معادلة الموازنة السكانية ($P_2=P_1+B-D+M$) حيث (P_2) حجم السكان في وقت (2) يساوي حجم السكان (P_1) في وقت سالف زائدا حجم الولادة (B) ناقصا حجم الوفيات (D) زائدا او ناقصا حجم الهجرة (M) ، كذلك اشار الى بعض مصادر البيانات عن السكان مثل التعدادات والمسوحات وسجلات الظواهر الحيانية .

ومن الواضح ان الهدف من هذا الفصل هو تزويد القارىء المبتدىء بقليل من الخلفية العلمية من مفاهيم ومصطلحات ومؤشرات .

في الفصول الاربعة التي تلت قام المؤلف بمناقشة علاقة التركيب الاجتماعي وكلا من الوفاة والبقاء (الفصل السابع) والزواج وصنع الزواج Match Making (الفصل الثامن) والولادات (الفصل التاسع) والهجرة (الفصل العاشر) .

تتبع المؤلف في الفصل السابع التطورات التي حدثت في معدلات الوفيات في اوروبا وغيرها من القارات المسكونة بالعنصر الاوروبي حيث شهدت تناقصا تدريجيا ومستمرا منذ القرن الثامن عشر وحتى الحرب العالمية الثانية ، وكان ذلك التناقص نتيجة لتحسن الاحوال الاجتماعية والتعليمية والاستجابة لتطور الاقتصادي والاستقرار السياسي الذي

ادى الى اصلاحات اجتماعية وارتفاعات في مستوى المعيشة وكذلك في تحسين طرق الوقاية العامة ، اما في الدول النامية فان الانخفاض السريع في معدلات الوفيات الذي حدث عقب الحرب العالمية الثانية فيرجع الى ادخال وسائل الصحة العامة والصحة الوقائية والطب الحديث اكثر مما هو ناتج من اي تغير اجتماعي او اقتصادي .

بالرغم من ان علماء الديموجرافية قد ابدوا اهتمامهم بدراسة الحالة الزوجية للسكان وتأثيرها على معدلات الولادات ، الا انهم ، وفي رأي المؤلف ، اقل رغبة في دراسة العلاقة ما بين الزواج من ناحية وتركيب الاسرة وتكوين القرابات والطبقات الاجتماعية من ناحية ثانية حيث ظلت هذه المواضيع موضوع اهتمام علماء الاجتماع والانثروبولوجي. وعند مقارنة الدول الاوروبية والغير اوروبية نجد ان ظاهرة الزواج المتأخر او الامتناع الكلي عنه منتشرة في معظم الدول الاوروبية منها في الدول الاخرى ، وتفسير هذه الظواهر انها ناتجة عن التصور المتأصل بالفردية Individualism وباهمية احساس الفرد بالاستقرار الشخصي والمالي كخلفية لازمة للزواج والانجاب .

ان ظاهرة رواج الزواج Marriage Boom التي وقعت بعد الحرب العالمية الثانية في الولايات المتحدة واوروبا حدثت بين مجموعات من السكان كانت تتحاشى الزواج كليا او تختار الزواج المتأخر ولذا ادت حركة رواج الزواج هذه الى تخفيض سن الزواج وكذلك الى تخفيض نسبة غير المتزوجين في المجتمع مما نتج عنه تقارب معدلات الزواج في المجتمعات الاوروبية وبين الريف والحضر وكذلك بين الطبقات الاجتماعية المختلفة .

وفي تحليل وصفي انثروبولوجي لظاهرة الزواج ، اختيار الزوج ، والزواج المبكر اشار المؤلف الى التغيرات التي حدثت في الزواج كنظام اجتماعي وركز بشكل محدد على اختلاف طبيعة الزواج في المجتمعات الاوروبية او التي من اصل اوروبي عنها في المجتمعات الاخرى . ومن خصائص المجتمعات الاوربية :

١ – وجود فائض من النساء في سن الزواج بالمقارنة بالمجتمعات الاخرى .

٢ – انتشار الفكرة القائلة بان الزواج يجب ان تسبقه فترة طويلة من التعارف بين الطرفين .

٣ – اللجوء الى تأجيل الزواج نتيجة لشعور الفرد باهمية الضمانات المالية وطمعه الى مستوى معيشة افضل .

٤ – عملية اختيار الزوج او الزوجة تتصف بانها اقل تأثرا بعوامل السن او العنصر او الدين او مستوى التعليم والقرابة واللغة عنها في المجتمعات الاخرى .

هذا بالاضافة الى ان عوامل اخرى ذات طابع ديموجرافي يمكن ان تسبب حالات من الضغوط على الزواج Marriage Squeeze وذلك بجعلها العرض والطلب بفقدان التناسق فيما بينهما ، ومن امثال هذه العوامل الهجرة المتزايدة لاحد الجنسين وكذلك اختلاف سن الزواج ما بين الزوج والزوجة المنتشر في الدول النامية . هذا بالاضافة الى بعض التقاليد التي تحتم الزواج من نفس الطبقة الاجتماعية .

ان مسؤولية اختيار او تحديد ظروف الخطبة وكذلك مكان الاقامة وطبيعة الاحوال المعيشية للمتزوجين الجدد ما زالت في يد الآباء او الاقارب ، ولم تترك كاملا للاشخاص انفسهم حتى في الزواج العصري ما زال للآباء قدرة التحكم في مكان وكيفية تقابل الطرفين .

من المتفق عليه بين علماء الديموجرافيا ان عامل الولادات هو العامل الرئيسي المؤثر في النمو السكاني . ولدراسة هذا التغير يتبع الباحث عادة في تحليله احد المستويين التاليين أو كليهما : ـ الاول Macro وهو عبارة عن تحليل العوامل الهيكلية الرئيسية المؤثرة على الخصوبة والولادات . الثاني Micro أو التحليل الدقيق المتعلق بدراسة العوامل السلوكية والفردية المؤثرة على الظاهرة .

ورغم وصول معدلات الولادة في أوروبا والدول الغربية عموما الى مستوى منخفض نسبيا في بداية الحرب العالمية الثانية ، عادت الزيادة في الفترة التي تلت الحرب مباشرة Baby Boom ، وكان هناك نمطان لهذه الظاهرة (الاول) استمر لفترة زمنية قصيرة لتعويض حالات الولادات المؤجلة خلال فترة الحرب . (الثانية) امتد لفترة اطول خاصة في الولايات المتحدة واستراليا ونيوزلندا وكان محصلة تعويض الولادات المؤجلة في فترة الحرب بالاضافة الى زيادة حقيقية في معدلات الولادة والاتجاه نحو الولادات على فترات زمنية متقاربة . بدأت الولادات في دول أوروبا الشرقية وجنوب أوروبا ودول امريكا اللاتينية مثل الارجنتين بالتساقط تدريجيا في ابان الحرب العالمية الاولى ولكنها اخذت بالانخفاض السريع حتى الحرب العالمية الثانية .

عند بداية الحرب العالمية الاولى كان معدل الولادات في الدول الاقل تطورا (النامية) عاليا نسبيا (اعلى من ٣٥ بالالف) ، وتتصف معدلات الولادة بالانخفاض الملحوظ في مجموعة منها بعد الحرب العالمية الثانية بينما استمرت معدلات الولادة العالية في البعض الاخر .

كما ابرز حقيقة ظاهرة وهي ان الدول التي اتجهت فيها معدلات الولادة بالانخفاض السريع لم تتبع الا القليل مما يوصف بسياسة سكانية محدودة ، وفي الواقع لم تحظ برامج تحديد النسل في الغالبها بالتشجيع المباشر . ولذا استخلص المؤلف بأن منشأ الاسرة الصغيرة والعودة الى معدلات الولادة المنخفضة في الدول الغربية ليس له علاقة وطيدة بأي سياسة سكانية حكومية بوجه عام .

لقد اتجه علماء الديموجرافية حديثا الى التحليل الدقيق Micro لموضوع الخصوبة والولادات والاختلافات في كل منها كالتباين في عدد الولادات وفي توقيت المواليد . هذا وبالاضافة الى ذلك يرجع الباحثون الى الكثير من النظريات الاجتماعية والنفسية والاقتصادية لتفسير حجم الولادات واختلافاتها ومن امثلة ذلك نظرية العلاقة ما بين المنزلة الاجتماعية والحراك الاجتماعي

Social Status and Social Mobility

ومستوى الخصوبة وكذلك نظرية الكلفة ـ المنفعة ـ Cost/Benefit القائلة بأن العامل الاقتصادي يتحكم في تقديرات الزوجين وبالتالي في لجوءهما الى استعمال اساليب منع الحمل أو عدم استعمالها .

ذكر المؤلف ان دراسة الهجرة تتطلب وجهة نظر اكثر من خلفية علمية واحدة لم تطرق الى شرح تاريخي للهجرة العالمية وخاصة الهجرة من أوروبا والتي اتجه معظمها الى الولايات المتحدة ، ورغم ذلك فان نسبة المهاجرين الى المولودين في الشعب الامريكي لم تزد في دورها عن ١٢٪ . وقليل جدا من دول العالم التي يبلغ فيها المهاجرون نسبة عالية من السكان تصل في بعض الحالات الى النصف مثل الكويت وهونغ كونغ واسرائيل .

كان الهجرة الداخلية تأثير كبير على توزيع السكان في الولايات المتحدة وعلى حركتهم الى الغرب التي صاحبت الاسكان بالولايات الغربية وخاصة ولاية كاليفورنيا . كما ادت الى التزايد السريع في درجة العمران بالولايات المتحدة في فترة زمنية قصيرة . وتظهر آثار التحرك

السكاني ايضا في ظاهرة نمو الضاحية Suburbanization الذي ترايدت بشكل ملحوظ من بعد الحرب العالمية الثانية .

رغم ان معظم العوامل الطفيفة التي ينبغي دراستها بالنسبة لظاهرة الهجرة ما زالت غير واضحة ومتغيرة التأثير فان معظم النظريات التي توضح اسباب الهجرة تركز حول ضرورة فهم تأثير العوامل الاقتصادية على الميل للهجرة وكذلك علاقة الصفات الاجتماعية والديموجرافية كالعمر والحالة الزوجية والجنس وخلافه على الاستعداد للهجرة .

هذا ورغم الاعتراف بوجود عدة عوامل غير اقتصادية مؤثرة على ظاهرة الهجرة الا انه ما زال ينظر الى حركات القوى البشرية على انها متعلقة بصورة رئيسة بالعوامل الاقتصادية خاصة فرص التوظيف ، اختلاف الاجور ، وهيكل سوق العمالة والبطالة بأنواعها .

ان الهجرة تأثيرا واضحا ليس فقط على المجتمع بل ايضا على الفرد وهناك علاقة ما بين هجرة الافراد وصفاتهم الديموجرافية وغير الديموجرافية كالخصوبة والانحرافات والمرض العقلي وخلافه . بالاضافة لذلك فان للهجرة تأثيرا آخرا مباشرا على العلاقات والمنظمات الاجتماعية وكذلك على الميول السياسية والانفصال العنصري او التفاق ونظم التعليم وخلافه .

وباختصار ان معظم المجتمعات التي تشتد بها حركة الهجرة يجب ان تطور منظماتها ومؤسساتها لكي تضمن الاستقرار والاستمرارية في الصلات والتفاعلات الاجتماعية على جميع المستويات .

في الجزء الثالث من الكتاب يناقش المؤلف انماطا مختلفة من الاستجابات الاجتماعية والديموجرافية والاقتصادية والسياسية للتغير السكاني . ويبتديء الفصل الحادي عشر بمناقشة تأثير التغير السكاني على النظم الاجتماعية مثل تقسيم العمل Division of Labor وتوسيع المحيط الاجتماعي وكذلك تبني المبتكرات والاستفادة منها مستعينا في شرحه بالنظريات العلمية المفسرة لهذه الظواهر ومشيرا الى ان النمو السكاني على نطاق واسع يجعل مستحيلا على التركيب الاجتماعي ان يستمر بصورته الاولى . هذا بالاضافة الى ان التزايد في الكثافة السكانية يؤدي بدوره الى تكثيف النشاطات المتعلقة بانتاج المواد الاساسية كما حدث في ظاهرة الانقلاب الزراعي Agriculture Revolution

لقد حدد المؤلف نمطين من استراتيجية الاستجابة الديموجرافية للنمو السكاني وتتلخص في : (أ) زيادة الاتجاه العمراني بما فيه زيادة وتعقد المناطق المتصلة بالحضر والعمران وانتشار المدن الكبيرة Megalopolis ب) اتجاه بعض المجتمعات الى تشجيع الهجرة الخارجية . ونظرا لان احتمالات الهجرة الخارجية اصبحت في عالمنا الحاضر محدودة ، فان النمط الرئيسي للتجاوب ينحصر في الاتجاه نحو العمران وفي استعمال الزراعة المكثفة . ولظاهرة العمران صفات اجتماعية مميزة منها تباين صفات السكان Heterogeneous والتنوع وتعقد الاتحادات والنظم الاجتماعية . هذا بالاضافة الى الميل للتخصص Specialization الوظيفي والبنائي .

ونظرا لعدم وجود سياسة تحكم الهجرة الداخلية في معظم الدول باختلاف بعض الدول الاشتراكية ، فان المؤلف يتساءل عما اذا كان من المستطاع التأثير في الحراك السكاني عن طريق سياسة سكانية محددة . ويستخلص بان الموضوع ما زال يحتاج الى بحث اكثر لتحديد ابعاده .

في الفصل الثالث عشر انتقل المؤلف الى مناقشة اشكال الاستجابة الديموجرافية وابتدأ بذكر مبدأ قديم من الضوابط الايجابية Positive Check لمالتوس والقائلة بحتمية ارتفاع الوفيات في حالة زيادة السكان عن الموارد الغذائية . وتساءل المؤلف عما اذا كان من الممكن ان تسمح اخلاقيات المجتمعات الحديثة بمعدلات اعلى للوفيات كوسيلة لمجابهة اية زيادة في السكان غير متوازنة مع الزيادة في الموارد الغذائية وبالتالي هل تلجأ الى تخفيض معدلات الوفيات في حالة نقص السكان ، استخلص من الدراسات التي قام بها كل من Clark و Krezlok عن اتجاهات معدلات الوفيات بين الاطفال في المجتمعات الريفية والغير صناعية الى انه من الجائز ان تكون التغيرات التي تحدث في مستوى الوفيات وفي معدلاتها حسب العمر استجابات من المجتمع لظاهرة نمو السكان بغرض التكيف والبقاء .

كما نبهنا المؤلف الى فكر آخر من افكار مالتوس عن اهمية التحكم في سن الزواج كوسيلة من وسائل الحد من النمو السكاني والذي لا شك فيه ان انماط الزواج والطلاق واعادة الزواج والقيم المتحكمة في هذه الظواهر لها ارتباط بمحاولات المجتمع التحكم في معدلات نمو سكانه ، ولو ان نوعية هذه الارتباطات غير مدروسة . وقد اشار المؤلف على سبيل المثال الى الاتجاه الحديث نحو انخفاض سن الزواج وزيادة نسبة السكان المتزوجين وارتباط كل منها مع التوسع في استعمالات وسائل منع الحمل بما فيها الاجهاض وخاصة في الدول الغربية لا سيما في الولايات المتحدة .

وفي نبذة تاريخية عن تطور وسائل منع الحمل اشار المؤلف الى تواجد العديد من وسائل منع الحمل في مختلف العصور وانه رغم ما نشر عن الموضوع في القرن التاسع عشر تطورت الى حركة نسائية كان الغرض منها هو الاصلاح الاجتماعي لحالة المرأة وليس التحكم في السكان وتحديد النسل ، ان مجهودات مسز (Singer) منذ عام ١٩١٢ في الولايات المتحدة وفي مدينة نيويورك بالذات تشكل بداية الحركة المنادية باستعمال وسائل منع الحمل وتحديد النسل ، لقد تطورت الحركة بشكل ملحوظ بعد الحرب العالمية الثانية على يد مستر John D. Rockfeller III وانبثق منها مجهودات هيئة الامم المتحدة ومنظماتها وبرامجها في العالم النامي ، كما تكونت في الدول الاوروبية ولا سيما الولايات المتحدة بعض المنظمات حديثا التي تطالب بوقف نمو السكان وتؤكد بضرورة استخدام جميع الوسائل الممكنة بما فيها العمليات الجراحية Sterilization وذلك للاعتقاد بعدم كفاية وسائل منع الحمل التقليدية مثل استعمال حبوب منع الحمل .

ان العلاقة التي تربط العوامل الاقتصادية والعوامل الديموجرافية علاقة متشعبة ودقيقة، ومن ابسط مظاهرها احداث التغير السكاني ردود فعل في كل من حجم ومعدل نمو كل من القوى العاملة والعمالة وسوق العمل ، وكذلك في حجم كل من الادخار والاستثمار ومستوى الانتاجية . وعند مناقشة هذه الموضوعات (الفصل الرابع عشر) فرق الكاتب ما بين انماط الاستجابات الاقتصادية للزيادة السكانية في كل من الدول النامية وفي الدول الاقل نموا .

ولنستعرض فيما يلي آراء المؤلف حول نوعية الارتباط بين النمو السكاني والعوامل السالف ذكرها .

النمو في القوى العاملة : تعتبر كل من معدلات النمو السكاني وهيكل التركيب العمري السكان ومعدلات الهجرة بانواعها من المتحكمات الاساسية في نمو القوى العاملة وفي تحديد نسبتها في السكان . من المعروف ان حجم

القوى العاملة يتأثر بمعدلات الاشتراك في سوق العمل لكل من المجموعات العمرية والبيئية المختلفة ، وتلك تتأثر بدورها بعوامل ذات طبيعة ديموجرافية كحجم الاسرة والهجرة من الريف الى الحضر وزيادة حجم السكان الذين يبلغون سن التقاعد وخلافه .

من الظواهر التي تتضارب حولها الآراء هي العلاقة المحتمل وجودها بين النمو السكاني من جهة وبين مستوى البطالة من جهة اخرى وارتكز المؤلف في شرح هذه العلاقة على آراء كل من Spengler و Keynes فمن رأي الاول مثلا ان النمو السكاني ولو بمعدل قليل يعتبر امرا ضروريا لملاحقة البطالة المتزايدة .

وفي حالة غياب معدل نمو سكاني مناسب فان على الحكومة ان تزيد من نفقاتها لتعويض النقص في الاستثمار الحاصل نتيجة ، هذا طبعا يناقض كثيرا من آراء Spengler التي ترى في تناقص معدل نمو السكان خلفية متجهة لمستويات اعلى العمالة .

ورغم ان المؤلف لم يلتزم برأي معين في هذه المسألة الا انه اوضح ان العلاقة ما بين النمو السكاني وكل من البطالة والعمالة تختلف بالدول النامية عنها في الدول الصناعية . فمعظم الدول النامية تتصف بارتفاع معدلات النمو السكاني وبالتالي ترتفع فيها معدلات الزيادة السنوية في القوى العاملة ، وبالتالي معدلات كل من البطالة والبطالة المقنعة بالذات .

هذا بالاضافة الى ان الهجرة السكانية في الدول الصناعية عادة ما تحدث تكاملا بين الموارد البشرية والموارد الاقتصادية في حين انها في الدول الاقل نموا تعبر عن نقص دائم في الطلب على العمل الناتج من انخفاض الاجور في الزراعة كذلك ارتفاع الزيادة السكانية في المناطق الزراعية .

اشار المؤلف الى اهمية دراسة تأثير التركيب العمري للسكان والتغيرات التي تحدث فيه على معدلات الادخار ، ورغم انه فيما يبدو ينتمي الى المدرسة القائلة بان الزيادة في عدد الاطفال في حد ذاتها ليس لها تأثير كبير على القدرة على التوفير حيث ان :

١ – معظم الادخارات التوقف على حجم الضرائب في القطاع العام اكثر من توقفها على الادخارات التوجية في الاسرة .

٢ – عدم وجود الادلة الكافية على ان ادخارات الاسرة تشكل المصدر الرئيسي للاستثمارات .

أورد المؤلف عدة نماذج توضح اختلاف الآراء حول تأثير النمو في السكان على مستوى الانتاجية Productivity منها : اولا) قوانين مالتوس عن تناقص العوائد في قطاع الزراعة Laws of Diminishing Returns التي تنتج عن ازدياد كثافة العمل وحدود الرقعة الزراعية . ثانيا) افكار آدم سميث عن الاقتصاد حتى نطاق واسع Economies of scale والتي تعكس نوعية العلاقة بين الحجم والانتاجية ، ومن مضمونها انه كلما زاد حجم الوحدة زادت كفاءتها الانتاجية . كذلك قام المؤلف بشرح آراء كينز المشهورة عن الركود الاقتصادي Stagnation وينتج من نقص في النمو السكاني وللاسباب الآتية : –

١ – في المجتمعات الغنية برأس المال التي تتصف بمستوى دخل مرتفع ونمو بطيء في السكان عادة ما يكون صعبا فيها زيادة فرص الاستثمارات .

٢ – في المجتمعات الغنية برأس المال ، نسبة صغيرة من الدخل المرتفع يستهلك فقط تاركا نسبة اكبر للاستثمارات .

٣ ـ في حالة ثبات أو نقص معدل النمو السكاني تزداد معدلات البطالة لعدم كفاية الطلب على الخدمات والبضائع .

٤ ـ تغيب التأثير الايجابي الذي يحدثه النمو السكاني في تشجيع ارتباطات التعاقد وتشكيلها لنمو كل من الاتباع والناجحة الفرد .

وقد اشار المؤلف الى انه لا يوجد نتائج علمية ثابتة تحدد العلاقات الرئيسية ما بين كمية العمل والقدرة الانتاجية ، وكيف تتأثر كل منها بازدياد السكان وان عدم نجاح الاقتصاديين أو بالاحرى تجاهلهم لمعالجة هذه العلاقة يرجع عادة الى انها تحدث في اطار اجتماعي وسياسي وطبيعي فان نوع الاستجابة تختلف باختلاف الظروف السياسية والاجتماعية وان هذه الظروف تتوقف على ثلاثة متحكمات :

١ ـ قرارات الجهة المنظمة للاقتصاد .

٢ ـ الشرائط والمتغيرات التي يمكن تطبيقها على الوحدات الاقتصادية .

٣ ـ تركيب هيكل الجزاءات والتقديرات وكذلك العقوبات المنظمة للنشاطات الاقتصادية .

من المسلم به ان اي تغير ملحوظ في السكان غالبا ما ينتج عنه اعادة تركيب لكثير من المؤسسات والمنظمات والعلاقات الاجتماعية .

من اشكال الظواهر الاجتماعية التي تنتج عن التغير السكاني وخاصة عن الهجرة التغيرات التي تطرأ على التركيب الوظيفي والبيئي والعنصري في بعض الحالات مما حدا ببعض علماء الاجتماع القول بان مقدارا من الصراع يصاحب غالبا التغير في العلاقة بين المجموعات السكانية وبين مؤسساتها الاجتماعية وان الاستجابة الاجتماعية لنمو السكان تأخذ عادة عدة اشكال منها :

١ ـ خلق النمط من السلوك الذاتي والفردي ومن التطلعات الشخصية ذات الفائدة المحدودة في فهم او تكييف التطلعات الجماعية .

٢ ـ زيادة الاختلافات الموجودة في المهارات وفي احتياجات الافراد .

٣ ـ امكانية التغاضي عن او السماح لبعض السلوك المنحرف عن التقاليد بالتواجد مع السلوك العرفي .

٤ ـ تشكيل قوى اجتماعية يهدف تنظيم او استغلال او تجنب الخلافات الفردية وخاصة الناشئة عن قصور في بعض الامكانيات والمجهودات مما يضاعف امكانية المجتمع نحو الانتاج والاستهلاك بل والبقاء ، وفي مقدمتها قدرته على التكيف .

ومن رأي المؤلف انه اذا كان للنمو السكاني القدرة على ازدياد احتمالات الاختلافات والتنازع الاجتماعي فانه من الواضح أن ازدياد الكثافة السكانية يخلق حاجة للتمييز الطبقي وكذلك التباين في النظم الاجتماعية وذلك يرجع لان ارتفاع الكثافة السكانية يصاحبه عادة :

أ ـ ارتفاع معدلات الاتصالات الانسانية الناتجة من القرابة الجسمانية .

ب ـ التنافس لحسم الاولوية في جذب الاهتمام وفي المشاركة .

جـ ـ التنافس لحرية الوصول الى المؤسسات والاماكن وفي المجهودات الاجتماعية .

وباختصار فمن الجائز ان يقلل النمو السكاني من قيمة بعض الارتباطات الاجتماعية ويجعلها قليلة الفائدة في نفس الوقت يمكن ان ينمي مزايا ارتباطات اخرى . ولذا فانه من الطبيعي ان تأتي الاستجابة الاجتماعية لمثل هذه التغيرات السكانية في صورة إشكالات اجتماعية بما فيها من تغير في القيم وقواعد

التبادل وكذلك في تعريف الموارد بل والحوافز الاجتماعية .

أختتم المؤلف هذا الفصل (الخامس عشر) بمناقشة سطحية لتأثير الهجرة على الارتباطات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية واستعمل التقسيمات الآتية المقارنة: المهاجر باستمرار ، المهاجر أحيانا ، الغير مهاجر أو الثابت ، وبين كيف أن عملية الهجرة ينتج عنها اعادة صياغة الصفات الاجتماعية للمنظمات والمؤسسات وحتى للمجتمعات الصغيرة نتيجة الحركة السكانية .

إبتدا المؤلف (الفصل السادس عشر) بقوله أن موضوع الاستجابة السياسية للزيادة السكانية ما زال حديثا ولم يحظ بالدراسة المناسبة الا مؤخرا - لو وجه اهتمامه الى ثلاثة موضوعات ذات علاقة : أولا – الضغوط السياسية والادارية التي يتعرض لها المجتمع نتيجة الزيادة السكانية . وثانيا – التكامل السياسي المرتبط بظاهرة تغير الخواص Variation الصفة التي تلازم عادة التغيرات السكانية . وثالثا الحراك السكاني على الانضمام والاشتراك في الاحزاب والمنظمات السياسية والنخبة القيادية .

استخلص المؤلف : أولا – أن المجتمعات ذات الكثافة السكانية العالية والنمو السكاني المتزايد تتطلب نسبة مرتفعة من الخدمات الحكومية بشتى أنواعها مثل الخدمات الصحية والترفيهية والتعليمية وخلافه . وثانيا – التركيبات العمرية في حد ذاتها تؤثر في نوعية وتخصص الخدمات الحكومية اللازمة ، فمثلا ازدياد الاعمار في سن الشباب يتطلب التوسع في بناء المدارس وفي فرص العمل في حين أن زيادة نسبة كبار السن في السكان تتطلب التوسع في برامج العلاج الطبي والضمان الاجتماعي وخلافه . ثالثا – يصاحب الزيادة السكانية عادة ازدياد حجم الهيئات التشريعية في المجتمع وازدياد تعقيداتها وتحول العملية التشريعية الى تنظيم شبه بيروقراطي نظرا لازدياد ظاهرة تعدد الخواص التي تصاحب الزيادة السكانية . وأخيرا يتأثر التوازن السياسي بين المجموعات المهنية والدينية والثقافية والعنصرية ليس فقط بالزيادة السكانية ولكن بحركة وهجرة السكان الداخلية وقدرة الاحزاب والمنظمات السياسية على توضيح مواقف معينة وقيم أيدولوجية محددة لكل الجماعات والمجموعات المختلفة من السكان .

وأخيرا يتساءل الكاتب في الفصل الاخير عن امكانية تواجد مدينة الاحلام Utopia ذات الصفات الاجتماعية والديموجرافية المتكاملة وكذلك تساءل عن دور السياسة السكانية في تحقيق ذلك الحلم . فصل بين مفهوم كل من السياسة السكانية والنظرية السكانية حيث عرف الاولى على أنها تتكون من لبن' واضح المعالم أو جهة ذات سلطة لبعض الاهداف السكانية التي تخدم المنفعة العامة ، وكذلك التحكم في الموارد المتاحة بشأن تحقيق هذه الاهداف اما بواسطة تدخل مباشر أو غير مباشر في عوامل الوفيات والولادات والهجرة .

وقد رأى المؤلف أن السياسة السكانية يجب فصلها عن السياسات الاخرى المحتملة التأثير على حجم ونمو وانتشار السكان ولكن من خلال تشكيلها لعوامل اخرى غير العوامل الديموجرافية . هذا بالاضافة الى الكلاسيكي بصفة عامة تحديد تركيب محدد للسياسة السكانية يكون له صفة الدوام وانما هي عادة اقل تحديدا وغالبا ما تشمل فترة زمنية معينة .

قام المؤلف باستعراض التجربة الامريكية واستنباط الخلفيات التي صاحبتها وخاصة ظاهرة الهجرة من أوروبا والعوامل التي ادت الى اقفال سياسة الباب المفتوح وظهور نظام الحصة Quota System المنظمة للهجرة في أوائل العشرينات والتي استبدلت

بقانون الهجرة الصادر في ١٩٦٥ والسارى المفعول حتى الآن .

وتطرق الى شرح برنامج المساعدة الامريكية للدول النامية في تنظيم الاسرة وكيف انه بعد تردد طويل توسعت الحكومة الامريكية في هذا المضمون عن طريق برامج المساعدات ـ الخارجية وبرامج المساعدة لغرض التنمية منذ منتصف الستينات . اشار ايضا الى نتائج الدراسة التي قامت بها الهيئة المشكلة بأمر من الرئيس السابق نيكسون في عام ١٩٧٥ لدراسة النمو السكاني ومستقبل امريكا واستعرض باختصار اهم النتائج التي توصلت اليها اللجنة بعد دراسات مستفيضة لاكثر من عامين والتي اثرت في المفهوم العام للمشاكل السكانية .

وبمقارنة الولايات المتحدة والدول الاوروبية وجد ان اهتمام الدول الاوروبية يختلف من دولة الى اخرى حسب طبيعة المشكلة السكانية في كل منها ومع ذلك فان الخلاف الرئيسي بين التجربة الامريكية والتجربة الاوروبية هو حداثة فكرة السياسة السكانية في الولايات المتحدة وتواجدها تاريخيا في كثير من الدول الاوروبية التي توصف بالمقارنة بانها :

١ ـ تقبل مبدأ مسئولية الدولة في تجميع البيانات وتنظيمها بل وفي التدخل لحل كثير من المشكلات الاجتماعية بما فيها مشاكل الهجرة وتوزيع السكان .

٢ ـ شهدت ظواهر سياسية كثيرة مترتبة على تغيرات ديموجرافية مثل الحروب، تصارع القوميات الاوروبية ، انهيار النظام الاقطاعي وخلافه .

٣ ـ تبنت حكوماتها في بعض الاوقات مبادىء اقتصادية وفلسفية ذات محتوى شمني بفضل الزيادة في حجم السكان Mercantilism .

ورغم وجود هذه الخلفية التاريخية للمسألة السكانية في اوروبا فان الخطوات التي ادت الى انخفاض الولادات في تلك القارة لم تكن في الواقع ضمن سياسة سكانية وانما تطورت تماما دون تدخل حكومات الدول المعنية وجاءت استجابة لاصلاحات اجتماعية . وحتى القوانين التي لها تأثير مباشر على الولادات كالسماح بالاجهاض في الاتحاد السوفيتي ودول اوروبا الشرقية التي اعقبت الحركة الاشتراكية نشأت من مفهوم القوانين المتعلقة بحماية حقوق المرأة وبرامج العمل الاجتماعي .

تبنت كثير من الدول النامية حديثا مبادىء عامة يمكن وصفها بانها تشكل سياسة سكانية والغرض الواضح في خطط معظم هذه البلدان هو تخفيض معدلات النمو السكاني . في عام ١٩٧٤ ـ تبنت ٣٣ من الدول النامية سياسة سكانية الغرض منها تخفيض معدلات النمو في حين تبنت ٣٠ دولة اخرى برامج تنظيم الاسرة لغرض تحسين المستوى الصحي والاجتماعي وخلافه .

وفي هذا المضمار (برامج تنظيم الاسرة) كان لكثير من المنظمات العالمية والمؤسسات الخاصة ولبعض الحكومات الغربية كالولايات المتحدة والسويد نشاط ملحوظ مما كان له اثر واضح في انخفاض معدلات الولادة وخاصة في بعض دول الشرق الاقصى كتايلند وتايوان وكوريا والفلبين .

ومع ذلك فان بعض الانتقادات قد وجهت لهذه البرامج على انها تحاول ان تحل محل برامج الاصلاح الاجتماعي والاقتصادي والتي هي في نظر الناقدين أهم بكثير في المدى البعيد لسكان هذه الاقطار .

وفي اعتقاد المؤلف انه كلما ازدادت معرفتنا عن الخصوبة والولادة وعلاقتها بالنواحي الاجتماعية والاقتصادية والسياسية فان درجة كبيرة من الاستقرار في معدلات النمو السكاني ستحدث تدريجيا عن طريق التحكم في الولادات

سواء تم ذلك عن طريق سياسة سكانية محدودة أم لا .

ويختم الموضوع بقوله ان اتباع سياسة سكانية واضحة من شأنه ان يساعد المجتمعات على سرعة وسهولة وصولها الى مرحلة الاستقرار السكاني .

قبل توجيه اهتمامنا لمناقشة بعض آراء المؤلف أود ان أورد قليلا من السلبيات واغلبها يقع في نطاق التنظيم والعرض اكثر منها في مجال المعلومات .

من الواضح ان الكتاب غني بالافكار والنظريات العلمية المتعلقة بموضوع السكان، غير ان المؤلف قدم الكثير منها بطريقة الحشر ولم يعطها حقها من التفصيل . هذا بالاضافة الى احساس القارىء بان المناقشة لم تتبع مستوى واحدا في كل الفصول ، فمثلا يظهر المؤلف كثيرا من العمق ودقة التحليل في الجزء الثالث من الكتاب والذي في اعتقادي هو اقوى جزء فيه في حين اتصف بعض فصول الجزء الثاني بكثير من اللاحظات السطحية وبدائية التحليل .

ان اهتمام الكتاب موجه بصورة خاصة السوق الاكاديمية الامريكية لتوزيع الكتاب . لذا فان كثيرا من تحليلاته انصبت على الولايات المتحدة بالذات رغم انه حاول بين الحين والآخر مقارنة الولايات المتحدة الامريكية بالدول النامية .

كالعادة في كل الكتب الدرسية ، معظم المعلومات الاحصائية الواردة في الكتاب تتوقف عند فترة زمنية معينة ، حتى عام ١٩٧٥ . معظمها ايضا متداول في كتب اخرى عن علم السكان اكثر استعمالا وانتشارا في جامعات الولايات المتحدة واخص بالذكر كتاب William Peterson بعنوان السكان Population و Ralph Thomlinson عن ديناميكية السكان Population Dynamics

ولذا فان الكتاب لم يأت بجديد من ناحية التحليل الديموجرافي البحت Formal Demography

اما من جهة ربط العوامل الديموجرافية بالتركيب الاجتماعي وانماطه فلا شك ان المؤلف قد قدم محاولة لا بأس بها في ابراز تشعب ودقة هذه العلاقة . لذا فان معالجته للموضوع من وجهة نظر سوسيولوجية بحتة ولو انها لم تفسح له المجال للاهتمام بوجهة نظر الفروع العلمية الاخرى عن طبيعة السكان ، الا انها اتاحت له التركيز على التركيب الاجتماعي بمضمونه الاوسع وبصورة منظمة ، وكذلك الرجوع الى كثير من النظريات والنماذج العلمية من كل من فرعي الاجتماع والبيئة الانسانية ، مما يجعل الكتاب اكثر تشويقا لمتخصصي فروع الاجتماع والانثروبولوجي منه لمتخصصي الديموجرافيا البحتة .

لم يقدم المؤلف كتابه على انه كتاب مدرسي الغرض منه اعطاء تحليل دقيق لنقط الالتقاء والتداخل ما بين العوامل السكانية والتركيب الاجتماعي . واتبع في تحليله ما اسماه بالمنهج الاستكشافي وليس المنهج الجامع ، اراد عن طريقه ان يثير كثيرا من الجدل بطرح الجديد من الاسئلة اكثر من محاولته حسم الاسئلة المطروحة والوصول الى نتائج علمية ثابتة .

وفي هذا المضمون يمكن تحديد مجموعة من المشاكل والاسئلة العامة الرئيسية والتي يحس القارىء حتى بعد قراءة الكتاب بانها مازالت بحاجة الى توضيح . وفي اعتقادي، وذلك هو الرأي السائد بين معظم دارسي علم السكان ، ان الاجابة عليها ستأتي فقط عن طريق الدراسات العلمية المستفيضة والبحوث الدقيقة ومنها الآتي : ـ

١ ـ مشكلة تحديد الارتباطات المتشعبة بين عوامل النظام الايكولوجي وهي السكان ، البيئة ، التنظيم الاجتماعي والتكنولوجيا . رغم ان المؤلف اهتم اساسا بعاملي السكان

والتنظيم الاجتماعي الا انه من المعروف ان لكل من عاملي البيئة والتكنولوجيا ضغوطها على طبيعة العلاقات المذكورة ، وفي الواقع مازال هناك كثير من الاختلاف بين مدارس علمى الاجتماع والبيئة حول اولوية اي من العوامل الداخلية في هذا النظام حيث يتجه كثير من التحليل الحديث الى ابراز اهمية عامل التكنولوجيا كعامل مؤثر .

٢ ـ رغم أن المؤلف ناقش الاستجابة الاقتصادية لنمو السكان في فصل منفرد فان تحديد طبيعة العلاقة بين النمو السكاني والتقدم الاقتصادي لم تتوفر . ومازال هناك اختلاف بين مؤيدي الحل الديموجرافي لمسالة التخلف ومحبذي طريقة التنمية الاجتماعية والاقتصادية مع ظهور رأى ثالث مشابه باعتبارهما سياستين متكاملتين في مرحلة النمو .

٣ ـ جدوى استعمال النماذج العلمية المبنية على تجارب الغرب والدول الصناعية في تفسير ظاهرة التحول الديموجرافي في الدول النامية حيث تمر هذه الدول بظروف تاريخية مختلفة وحيث التركيب الاجتماعي والاقتصادي والسياسي والديموجرافي في هذه الدول اي الدول النامية يعطي لها انماطا معينة .

٤ ـ الجدل القائم حاليا بين مؤيدي تحديد النسل والراغبين في ايقاف النسل تماما وامكانية اتباع كل منهما بل وشرعية كل منهما وخاصة على ضوء ومحاولة استعمال الطرق الاجبارية كما حدث في الهند اخيرا .

يتبع المؤلف الرأى القائل بأن المعدلات العالية للزيادة السكانية ، وخاصة اذا اقترنت بظاهرة الهجرة الداخلية او الخارجية تولد جوا من التنافس والصراع الداخلي في النظم الاجتماعية والسياسية ، وأن الحركة السكانية المرتفعة تؤثر في قيم المجتمع .

بالمقارنة نجد ان اهتمام الباحثين حاليا هو دراسة احتمالات توقف النمو السكاني والوصول الى حالة الثبات السكاني Stationary Population في بعض الدول بوقع الاثار المترتبة على تضخم قيمة الهرم السكاني وتحوله باتجاه كبار السن والشيخوخة من جمود للتنظيم والعلاقات الاجتماعية واحتمالات انطباعها بالتحفظ ، كذا تقلص الحراك السكاني والوظيفي بل وبعض انشطة النظام الاقتصادي نفسه وبصفة خاصة الانشطة الموجهة لمجابهة نمو السكان والاستجابة لاحتياجات ذوي الاعمار الصغيرة .

باختصار قدم الكتاب كثيرا من الوصف والتحليل لتالي زيادة السكان على العلاقات الاجتماعية والسياسية والبيئية وخلافه ، ولكنه لم يتعرض لمناقشة تاثير الوصول الى معدلات نمو معادلة للصفر على طبيعة وتركيب مجتمع المستقبل ، هذا بالرغم من وجود كثير من الاهتمام العلمي بالموضوع . وليس من الواضح ان كان هذا الاغفال هو نوعا من التخلف العلمي أم انه اختصار لما هو متوقع انتاجه علميا في كتاب واحد الطبعة الاخير . ومع ذلك كان يجدر بالمؤلف الاشارة البسيطة الى الاهتمامات الحالية خاصة في نطاق مناقشة تجربة الولايات المتحدة والدول الغربية الاخرى .

رغم الانتقادات التي أشرنا اليها فانه مما لاشك فيه ان كتاب البروفيسور ماترس يعتبر خطوة هامة في طريق توسيع نطاق الدراسات السكانية من مضمونها التقليدي المهتم بالنواحي الكمية والاحصائية فقط : الى مضمون تحليلي أشمل وخاصة في هذا التخصص الاكاديمي الذي يزداد فيه التراث العلمي بسرعة ملحوظة . رغم تخلفه الواضح في جامعاتنا العربية ليس فقط من الناحية الاكاديمية ولكن ايضا في البحث والتطبيق في منطقة من العالم يتوجب أن تجرى بها دراسات ديموجرافية مفصلة . واخيرا ما أحوج المكتبة العربية الى اثراء لمحتوياتها القليلة في هذا التخصص العلمي عن طريق البحث والنشر والترجمة .



مهاجرون سود ومواطنون بيض

عرض وتحليل الاستاذ عبدالله عبدالغني غانم

يحظى موضوع الهجرة في الوقت الحاضر ، وفي ظل مشكلات الانفجار السكاني ، باهتمام متزايد من كثير من علماء الجغرافيا والسكان والاجتماع والانثروبولوجيا والاقتصاد وغيرهم .

وقد حظي **موضوع الهجرة في بريطانيا** بقدر اكبر من الاهتمام خاصة مع وجود مشكلة الوافدين من مهاجري دول الكومنولث الذين يعيشون كاقليات وسط الاغلبية البيضاء من المواطنين الاصليين باعتبارهم ينتمون الى سلالات مختلفة عن ابناء البلاد ، ومن ثم ارتبطت دراسة موضوع الهجرة في بريطانيا بموضوع آخر هو العلاقات بين السلالات . ووجهت ابحاث عديدة نحو دراسة علاقة هؤلاء المهاجرين بالمواطنين البيض وذلك في مختلف مجالات الحياة الاقتصادية والسياسية والاجتماعية .

وكتاب اليوم هو احد هذه الكتب التي تعالج **العلاقات السلالية في مدينة نوتنجهام احدى** المدن البريطانية . ومن الجدير بالذكر ان الموضوع سبق ان تناوله وفي نفس المدينة باحثون آخرون ومنهم اليزابيث بيرلى ، **وايراكيتز لسن وغيرهم .**

* Daniel Lawrence: Black Migrants ; White Nations, Cambridge University Press, 1974.

ومؤلف كتاب اليوم هو دانييل لورانس محاضر علم الاجتماع بجامعة نوتنجهام . ويتألف الكتاب من ثمانية فصول بما فيها المقدمة والخاتمة .

وفي المقدمة التي اعتبرها المؤلف فصلا مستقلا نجده يذكر ان الباحثين الذين درسوا العلاقات بين السلالات في نوتنجهام قد اختلفوا بما بينهم ، فقد قال البعض بأن مدينة نوتنجهام لا تعكس اي صراع سلالي ، وان العلاقات بين السلالات في هذه المدينة تتسم بالوفاق والتسامح . بينما قال البعض الآخر بوجود ازمة في العلاقات السلالية بين الملونين من ناحية والمواطنين البيض من ناحية اخرى . ومؤلف كتاب اليوم يوافق الرأي الثاني، ويرى ان شهرة مدينة نوتنجهام بالوفاق والتجانس بين السلالات قول لا يصمد كثيرا للنقد وان القائلين به اساءوا فهم العلاقات بين السلالات في هذه المدينة، واتهم اعتمدوا في قولهم بالوفاق في العلاقات على عدم وجود ممارسة منظمة ضد الملونين في المدينة . ويعلق على هذا بان فهم العلاقات السلالية يقتضي ان نتعمق بعيدا عن المظهر الخارجي . وان ما نعتقده وما كنا نأمله من الابحاث التي تناولت هذا الموضوع في مدينة نوتنجهام هو ان تقوم هذه الدراسات باعطاء تقييم للدور الذي لعبه العوامل الثقافية والبنائية في علاقات السلالات وفي رؤية كل من المواطنين البيض للمهاجرين والعكس .

كذلك هناك حاجة لربط هذه الرؤية بالظروف التي اتت بالمهاجرين الى بريطانيا . لماذا تركوا بلادهم ؟ لماذا اتوا الى بريطانيا ؟ هل في نيتهم العودة الى مواطنهم الاصلية ؟ ولا بد من معرفة المكانة التي يحتلها المهجرون في كل من مجال السكن والتوظف ، وان نعرف ما هي الاسواق الممكن لهم ان يتنافسوا فيها في هذين المجالين سواء حاليا او مستقبلا . هذه النقاط لابد ان تربط بسياسة التطور العام في بريطانيا والسؤال الآن هو : ماهي المشكلات السياسية اليوم وكيف تؤثر او تصطدم بالعلاقات السلالية، فاذا اجبنا على هذه الاسئلة امكن ان نجيب على التساؤل اذا ماكانت مدينة نوتنجهام تحظى بعلاقات سلالية متوافقة ام لا .

ويذكر المؤلف ان فصول الكتاب توضح ان غياب الصراع الظاهر لا يجب ان يختلط بحالة التوافق السلالي المزعومة، وان هذا هو مانجده في نوتنجهام حاليا. حيث ان عدم غياب الصراع الظاهر والتوافق السلالي هو الذي اوجد حالة من التفاؤل في غير موضعها .

ويضيف المؤلف : ان غياب الصراع الظاهر في العلاقات السلالية لا يرجع الى سيادة التسامح في هذه العلاقات بل انه يرجع الى الطريقة التي يحدد على اساسها المهاجرون وضعهم في البلاد كما ان عدم ظهور الصراع يرجع ايضا الى مجموعة اتجاهات وظروف مئوية (في مجالات الاستخدام او العمل والاسكان) ادت الى تقليل التنافس المباشر بين الاهالي والمهاجرين ومن ثم قللت من فرص الصراع المكشوف ومع ذلك فان هذه الظروف في سبيلها للتغير وذلك يزيد من احتمالات المنافسة والصراع. ويقول انه بعد دراسة ذلك كله يمكن الحكم على العلاقات السلالية بالمدينة. ثم ينهي الفصل باستعراض تيار الهجرة نفسه الى المدينة مؤكدا انه قد بدأ في الخمسينيات بالنسبة لجزر الهند الغربية وان الهنود والباكستانيين قد بدأوا الهجرة اليها في الستينات ويوضح تعداد ١٩٦٦ (بالعينة) انه حوالي ٨٥٠٠ نسمة ممن يعيشون بالمدينة هاجروا اليها من دول الكومنولث ، وذلك بين سكانها البالغ عددهم ٣٠٥ الاف نسمة اغلبهم من الجمايكيين ثم الهنود ثم الباكستانيين .

ويعالج المؤلف **في الفصل الثاني** بعض الظروف التي اثرت في الطريقة التي ينظر بها المهاجر الى وضعه بالمدينة، فيعالج أسباب قيام المهاجر بالهجرة الى بريطانيا . ثم يعالج نقطة لها تأثيرها في دراسة سلوك المهاجر بالمدينة

وهى نظرة المهاجر الى هجرته وهل هى هجرة دائمة ام مؤقتة وقد ثبت ان معظم من تناولهم البحث لاينوون الاستقرار الدائم فى بريطانيا . والنقطة الثالثة التى يعالجها فى هذا الفصل هى مدى اتفاق ما وجدوه فى بريطانيا بالمقارنة مع ماتوقعوه قبل هجرتهم اليها .

وباستعراض اسباب الهجرة التى ساقها المؤلف بالنسبة للجماعات الثلاث (جمايكيون ، هنود ، وباكستانيون) نجد ان اجراء عملية حسابية بسيطة على الجداول الموضحة لهذه النقطة توضح ان اسباب الهجرة تأخذ نفس الترتيب للجماعات الثلاثة . وهذه الاسباب هى : السبب الاقتصادى يليه الرغبة فى السفر واكتساب الخبرة ثم الرغبة فى التعلم او مواصلة التعليم ، ثم مجموعة رابعة وضعها المؤلف تحت عنوان (اسباب اخرى) .

ونجد ان اسباب اختيار بريطانيا كمنطقة مهجر هى الاسباب التالية : لانها المكان الوحيد المتاح — مجرد الرغبة فى المجىء الى بريطانيا — وجود الأهل والاصدقاء بها — اسباب اخرى) . واخيرا يوضح الباحث ان الهجرة عموما الى توتنجهام هى هجرة اختيارية .

كما اوضحت المناقشة التفصيلية حول النظرة للهجرة وهل هى دائمة ام مؤقتة .

قال المؤلف ان هناك عددا كبيرا من الدراسات كلها توضح ان عددا كبيرا من المهاجرين الملونين الى بريطانيا لا ينوون الاستمرار فى بريطانيا وهذه الحقيقة اوضحها كل من فيلبوت ، وشيلابارسون وديفيدسون، وغيرهم. وان هذه الحقيقة قد اوضح بروكس بشأنها امرا هاما عندما قال : ان كثيرا من الذين يوضحون انهم سيعودون لمواطنهم الاصلية لا يفعلون ذلك بالفعل ، ويعلق المؤلف بانه من الافضل الا نركز على هذه النقطة اى قصد الاستقرار او العودة بالفعل وانما يجب ان نركز على اثر هذا القرار على السلوك الحالى لانه حتى لو لم يكن المهاجر يقوم بالادخار فعلا من اجل العودة فان هذا لا يعنى ان سلوكه واتجاهاته فى مجالات اخرى غير متأثرة بعمق بقصده فى العودة . وهنا يوضح ان كلا من الهنود والباكستانيين يرون ان بريطانيا مجتمع غريب عنهم وانهم ليسوا راغبين فى التمثل له ، بعكس الجامايكيين . وليس معنى هذا ان الجامايكيين يشعرون بانهم بريطانيين بل ان ٩٠ ٪ منهم افادوا بانهم يشعرون بعكس ذلك رغم تمثلهم للمجتمع الانجليزى . وقد ثبت ان النسبة الغالبة من المهاجرين يرسلون معونات اقتصادية لاقربهم بمواطنهم الاصلية . كما ثبت ان اصطحاب الزوجة الى منطقة المهجر او الجذب ليس دليلا على نية الاستقرار الدائم بها اذ ثبت ان ٩٣ ٪ من مصطحبى زوجاتهم فى بريطانيا من المهاجرين من الباكستانيين و ٨٩ ٪ من الهنود ينوون العودة لبلادهم ، وعموما فان اعلان الرغبة فى العودة كان اكثر وضوحا بين غير مصطحبى زوجاتهم وبجانب ذلك فان نية العودة لدى المهاجرين لعبت دورا هاما فى مقابلة المهاجرين للظروف غير المرضية بنوع من التسامح . بحيث انهم ينظرون الهجرة كشىء مؤقت فانهم يدخلون هذا فى الاعتبار فى الحكم على مايواجهون من معاملة غير مرضية . اما عن النقطة الثالثة اى التوقعات والواقع فقد اجاب ٨٦ ٪ من المبحوثين انهم لم يجدوا بريطانيا كما كانوا يتوقعون ، فقد اوضحوا صعوبة حصولهم على العمل وكسب المال . والتفرقة العنصرية والاستقبال السىء للملونين والمستوى المنخفض معيشيا ، والاسكان الردىء وغيره .

وتناول المؤلف فى الفصل الثالث مشكلة التعصب بين المواطنين الاصليين فى توتنجهام تجاه الملونين . فيتناول اهالى توتنجهام انفسهم بالدراسة وبخاصة اولئك الذين يعيشون بالقرب من الملونين فى المناطق الداخلية من المدينة ويوضح فى الجزء الاول من هذا الفصل عدم القبول العام لدى الاهالى بالنسبة

للملونين . ويتعرض للدراسة التي قام بها ابراهام على عينة من ٢٥٠٠ حالة في خمس مدن من بينها مدينة نوتنجهام نفسها والتي تناول فيها ابراهام موضوع التعصب . وينتقد المؤلف الاساس الذي وضعه ابراهام في دراسته هذا لتعريف التعصب حيث قال ابراهام ان التعصب كلمة تستخدم فقط لتدل على الاتجاهات العدوانية التي ترجع الى عمليات تقع داخل حامل الاتجاهات العدوانية نفسه . ويعلق المؤلف بأن هذا التعريف لا يميز بين الاتجاهات الناجمة عن مصادر وأسباب مختلفة وهنا يرى المؤلف أن القياس الذي وضعه نيكولاس ديكين ومتفقا على اساسه موقف المبحوثين (عندما درس التعصب الجنسي) الى اربعة اقسام ـ شديدو التعصب ـ متعصبون ـ متوسطو التعصب ـ غير متعصبين يرى ان هذا القياس افضل من تصنيف ابراهام الذي كان تصنيفه للافراد هو (متعصبون ـ ميالون للتعصب ـ متسامحون ـ واخيرا ميالون للتسامح) حيث يرى المؤلف ان عدم وجود العداء لا يعني بالضرورة وجود التسامح مثلا . ويضيف المؤلف انه ليس هناك داع للقول بأن مقولة التعصب هي المحدد الرئيسي او الوحيد للعلاقات السلالية، فهناك القوانين التي تنظم الهجرة والتي تحرم التفرقة العنصرية وغيرها . ويقرر المؤلف هنا ان اغلب الاهالي في نوتنجهام من البيض يعتبرون الملونين قوما مختلفين عنهم وانهم اقل منهم ، ولا يجب ان يتساووا معهم .

ويعالج **الفصل الرابع** الاسكان والعلاقات السلالية ، فيشير الى ان ازمة الاسكان في نوتنجهام ترجع الى القرن الثامن عشر ، فقد بدأ الانفجار السكاني منذ ذلك التاريخ مع التطور الصناعي السريع ويتابع المؤلف التطور في تعداد السكان بالمدينة منذ ذلك التاريخ حتى الآن .

وهو في هذا الفصل يحاول توضيح العلاقة بين الاسكان والعلاقات السلالية في نوتنجهام ، فبالرغم من المشكلة السكانية الواضحة التي تعاني منها نوتنجهام ، فانه لم يظهر صراع واضح في مجال الاسكان ، ولكن هذا مرجعه الى الظروف غير المتعمدة والاتجاهات المغوية، وليس مرجعه وجود التسامح لدى السكان الاصليين في نوتنجهام في مجال الاسكان .

ويوضح المؤلف ان قيام ازمة الاسكان ونقص المسكن يخلق خصومة وعداء بين السود والبيض ، وهو امر يعتمد على عدة عوامل من اهمها مدى التبرم الذي يشعر به اولئك الذين يعيشون في ظروف اسكانية سيئة وهم الآن لما يبدو غير متبرمين بهذه الظروف وان كانوا ليسوا جميعا بالطبع مشتركين في عدم التبرم بها .

وفي هذا الفصل يقوم الباحث بوصف المساكن الخاصة بالملونين موضحا اختلافها عن مساكن ابناء نوتنجهام من حيث ما تتمتع به من تجهيزات كالماء الساخن وغيرها . ويعلق بانه وحتى الآن فان الملايين من البريطانيين عموما يعانون من ازمة اسكان حادة اذ لا زال حوالي ٢ مليون يعيشون بمساكن تنقصها الضروريات مثل ، الحمامات ، كما لا زال البعض يعيش بدون مساكن بالمرة ـ كما لازال مليونا نسمة يعيشون في مناطق متخلفة . وجوهر مشكلة الاسكان في نوتنجهام ليس انعدام المساكن ، بل هو نوع هذه المساكن . فالاف الاسر لا زالت تعيش دون المستوى الملائم ، ولكن حيث لا يوجد تعريف متفق عليه للاسكان غير الملائم فان المرء لا يستطيع تحديد من يعانون منه . ولكن ، على العموم ، فان نوتنجهام تعاني فعلا من ازمة اسكان بالمعنى النوعي ، واغلب المهاجرين الملونين بها يعيشون في هذه الازمة .

ويوضح المؤلف ان علاقات السلالات تتأثر بوضع الاسكان وان تحليله لهذه النقطة قد بناه على التحليل الذى قدمه rex& moor اللذان اوضحا ان العلاقات الاجتماعية فى المجتمعات الصناعية تتحدد بنمط الصراع فى المصالح رغم عدم اعتبارهما ان الصراع على الاسكان هو انعكاس لصراع الطبقات فى الصناعة. فقد لاحظا وجود اختلاف كبير فى تسهيلات الدخول فى مجالات الاسكان بالنسبة للمشتركين فى نفس العلاقة فى مجال ملكية ادوات الانتاج (الطبقة) وهما هنا يتابعان ماكس فيبر عندما يقول (ان الصراع الطبقى يميل للظهور عندما تسمح حالة السوق السائدة بمداخل مختلفة للتملك وهنا يظهر الصراع الطبقى ليس فقط بالنسبة لوسائل الانتاج الصناعي ولكن بالنسبة للملكية العائلية ايضا) ، والقول بأن اكثر من مبدأ من مبادىء السوق يعمل فى عملية توزيع الاسكان فى بريطانيا لا يقتضى اكثر من تغير طفيف فى نظرية فيبر بالنسبة للنظام البيروقراطى لتوزيع المساكن لكى نصل الى فكرة الاسكان الطبقى ، وهى فكرة هامة جدا فى تحليل البناء والعملية الحضرية ، وان العملية الاساسية التى تدعم التفاعل الاجتماعى الحضرى ـ كما يقول ركس ومور هى التنافس من اجل البيوت النادرة فى الضواحى وعلى اساس من عمومية هذه الرغبة فى الحصول على هذه البيوت وعلى اساس من تفرقها والاستقلال النسبى للصراع الطبقى من اجل المسكن عن الصراع الطبقى الصناعى فان ركس ومور قالا انه من المفيد أن تميز الطبقات الاسكانية التالية وقدما سبع طبقات عن السكان طبقا لنوع المسكن ونوع علاقتهم به مثلا (ملاك فى مناطق مرغوبة ملاك ملكية جزئية بمناطق مرغوبة ـ مستأجرون لمساكن المجالس المحلية ـ . . . . الخ) . وكل مجموعة من هذه المجموعات السبع تمثل طبقة مختلفة عن غيرها . وتختلف حالة السكان المهاجرين عن السكان الاصليين فى مجال الاسكان فهو

يواجه التفرقة العنصرية عند محاولته السكنى أو الحصول على مسكن فى الضواحي، كما ان المناطق الداخلية قد شغلت شوارعها بسكان من مناطق البيض ثابتين نسبيا وهنا فان المهاجرين لديهم خيار ضئيل فى ان يصبحوا اما مؤجرين من ملاك افراد او من مؤجرين آخرين . ومركز المهاجرين السيء فى سوق الاسكان لا يجلب عليه عطف السكان الاصليين من البيض بل انه بالاضافة الى العداء الناجم عن العوامل الثقافية والشخصية فانه ينظر الى المهاجرين باعتباره شخصا يعمل على اكتظاظ السكن ، ويقوم بتخريب البيوت التى يسكنها ، ومركزه هذا فى سوق الاسكان يحدد مركزه فى نظر الاهالى البيض. ويوضح المؤلف رفضه للقول بأن سكان انجلترا يتنافسون من أجل السكنى فى الضواحي . كما يوضح أن البحث الميدانى قد أوضح انه لا يوجد تنافس بين المهاجرين والاهالى على الاسكان الا انه أوضح قوله بالتصنيف الطبقى فى مجال الاسكان الذى ساقه كل من ريكس ومور ولكنه اضاف اليه طبقتين آخريين لتصبح الطبقات السكانية عنده تسع طبقات وقد تابع المؤلف هذه الطبقات وتوزيعها مقارنا موضحا فيها بين المهاجرين والسكان الاصليين فى نوتنجهام . كما استعرض الصعوبات التى يواجهها المهاجرون فى مجالات الاسكان ، موضحا انهم يواجهون صعوبة امكانية الحصول على مسكن فى المناطق الراقية ، ولا يمكنهم الشراء فيها ، وانهم يدفعون سعر فائدة عالية ـ او ان الثمن الذى يطلب منهم يبالغ فيه عادة بسبب اللون وضيق السوق امامهم . أو يطلب منهم تأمين عال جدا . . الخ . كما انهم لا يحصلون على اية مساكن من المساكن المملوكة للدولة . وقد أوضح أن ٤١٪ من العائلات المهاجرة التى تركت مسكنها فى مناطق مختلفة قد تحركوا الى مناطق مختلفة ايضا . ويقول ان سبب ذلك هو مواطنهم الاصلية ، ومن ثم فان التكلفة

الاضافية في مسكن افضل لا تبدو استثمارا معقولا لاموالهم من وجهة نظرهم وعموما ورغم هذه الظروف كلها فان الاسكان لا يمثل مثارا لصراع بين السلالات .. أو على الاقل لم يؤد الى صراع ظاهر بينها . فالنسبة المتبرمة من ساكنيها من الملونين قليلة ، ولم يثبت أن هناك تنافسا على المساكن النادرة الغالية ، كما ان بعض البيض في صراع على المساكن في المناطق التي يسكنها الملونون انفسهم وفيما بينهم .

ويناقش المؤلف في **الفصل الخامس العلاقات السلالية والتوظف** – فيقول ان اغلب مهاجرى الكومنولث يقيمون في مناطق ذات طلب على عنصر العمل ويقل اقامة الملونين في المناطق التي يكون فيها الطلب على عنصر العمل خفيفا أو متوسطا ؛ وهم عموما يحلون في مجال **العمل محل** البيض في المناطق التي لم تنجح في جلب عدد كاف من البيض . ويستعرض المؤلف التاريخ السكاني والخدمي لمدينة نوتنجهام موضحا كيف أصبحت تحتوى الآن الصناعات الرأسمالية في مجال التصدير والمجال المحلي ، وان النسبة الغالبة من المهاجرين قد جاءت اصلا للبحث عن عمل ، وان البحث الميداني قد اوضح أن هناك ٢٪ فقط منهم عاطلون حاليا – ثم قام الباحث بمتابعة توزيع المجموعات السلالية على مختلف الصناعات ويوضح ان ثمة زيادة في عدد العمال غير المهرة من المهاجرين عنها بين البيض ، وانهم ، اى المهاجرين ، يعملون بأعمال غير مرضية وغير جذابة عموما للبيض . وعموما فان فجوة التوظف بين الملونين وبين البيض فجوة واضحة . ولم تشكل هجرة الملونين الى المدينة اى خطر على الاهالي البيض من الناحية الاقتصادية ؛ فالعمل متوفر للجميع **ولا يشغل الملونون من الوظائف** ، أو الاعمال عموما ، الا مالا يقبله البيض . ومن ثم لم يشكل مجال العمل مثارا للنزاع السلالي .

ويقرر المؤلف ان كثيرا من الاعمال لا زالت تميز بين الملونين وبين غيرهم من القوى العاملة وان ٦٧٪ من المبحوثين البيض قالوا بوجوب اعطاء البيض اولوية في مجال العمل . وان اهم اسباب عدم رضى الملونين عن اعمالهم هو **التفرقة التي يلاقونها فيه بل ذلك احساسهم** بامكانية اداء افضل مما يقومون به بينما ان المهاجرين ليس لديهم نفس الفرصة للحصول على العمل بنفس المؤهلات التى لدى الانجليزى الابيض وذلك بسبب اللون . بينما قالت نسبة ٤٢٪ من العينة للبيض بوجود التفرقة بين السلالات في مجالات العمل والتوظف .

ويناقش المؤلف في **الفصل السادس** السياسة والعلاقات السلالية – فيناقش السلوك السياسي والبدائل السياسية المتاحة امام الملونين ، موضحا أن كثيرا من أولئك الذين صوتوا منهم في الانتخاب العام لم يفعلوا ذلك بحماسة تذكر وانهم انما فعلوا ذلك بسبب انه لا يوجد اى بديل امامهم . ذلك ان الملونين لا يعتقدون ان أيا من الحزبين الرئيسيين (محافظين وعمال) مختلف عن الآخر ولا يختلف الامر بالنسبة لهم ان يفوز اى منهما ، ذلك انهم اذا كانوا قد صوتوا لصالح المحافظين في الانتخابات الاخيرة فقد فشل المحافظون في الحصول على تأييد كاف لدخول السوق الاوروبية والحقيقة ان الخطوات التي اتخذتها الحكومة اخيرا في مجالات الدخول والاسعار لم ترض الناخبين عموما . كما ان القرارات التي اتخذها كلا الحزبين بصدد الهجرة والمهاجرين لم تقابل بالرضى من كل من المهاجرين انفسهم ، وكذا من المواطنين البيض ، وهذه النظرة تنطبق على قوانين الهجرة التي صدرت في اعوام ١٩٦٢ ، ١٩٦٥ ، ١٩٦٨ ، ١٩٧١ . اذ ينظر **الملونون الى هذه القوانين على انها تؤكد**

التمايز بين السلالات وذلك بالنسبة لقوانين ١٩٦٨ ، ١٩٧١ وانها تحقر من شأنهم . بينما ادت القوانين التي قدمتها حكومة العمال في ١٩٦٥ ، ١٩٦٨ الى تهييج هذا الشعور (وقد لاحظ المؤلف ان اغلب المبحوثين لا يعرفـون ان قوانين وتشريعات منع التفرقة العنصرية قد تمت بالفعل) وعموما فقد نظر الملونون الى قوانين ١٩٦٥ ، ١٩٦٨ ، وما بها من ضعف على انها تعكس تذبذب حزب العمال . كما نظر اليها الكثيرون من البيض على انها تعمل على وضع الملونين في مركز ممتاز . ويقرر المؤلف في النهاية ان مختلف المحاولات التي بذلت في سبيل تحسين العلاقات السلالية لم تنجح بسبب عدم وجود الثقة التي تسائد القوانين التي تصدر في هـذا الشأن وان المبحوثين من الاهالي أي المواطنين البيض ـ أو من المهاجرين الملونين لا يشعرون بأن النظام الحزبي الحالي يقدم لهم الوسائل والطرق وما يحقق مصالحهم . ويشير المهاجرون هنا الى انه لا يوجد في المجالس المحلية أي هندي أو باكستاني أو جمايكي .

ويعالج المؤلف في **الفصل السابع** التنظيمات وعلاقات السلالات موضحا انه يوجد الكثير من التنظيمات المهتمة بعلاقات السلالات في مدينة نوتنجهام سواء من الاشخاص أو الهيئات الرسمية . فثمة ١٤ منظمة رسمية تهتم بالعلاقات السلالية في نوتنجهام تشرف عليها جهات عدة مثل الصليب الاحمر البريطاني والمكتب الاسقفي للشئون الاخلاقية وغيرهما ، وقد ركز المؤلف في هذا الفصل فقط على اللجنة الوطنية الاستشارية للكمنولث وما ترتبط به من علاقات بغيرها من المنظمات ، مبررا ذلك بأنها اللجنة الوحيدة الرسمية في نوتنجهام التي تتلقى المساعدات المالية ، وانها المسئولة مسئولية مباشرة عن تحسين العلاقات السلالية . والسبب الثاني هو ما ذهب اليه الكثيرون من أن هذه اللجنة قد قدمت

الكثير من أجل تحسين العلاقات السلالية بالفعل . والسبب الثالث هو ما ذهب اليه كيتز تلسن من أن هذه اللجنة قد لعبت دورا دقيقا في علاقات بناء المدينة السلالية ، ويزعم المؤلف ان هؤلاء قد غالوا في أهمية هـذه اللجنة ويقول ان ما قدمته لم يؤد الا قليلا من الزج في العلاقات السلالية في هذه المدينة وان الاهتمام الكبير الذي احيطت به اكبر بكثير من دورها الحقيقي . وليس معنى هذا انها لم تقم بعمل شيء مفيد ، الا ان الغالبية الساحقة من الملونين ، وكذا النمط العام للعلاقات السلالية لم يتأثر بمجهودات هذه اللجنة الا في القليل النادر . ويستعرض المؤلف في هذا الفصل دراسة كيتز تلسن لاعمال هذه اللجنة وتاريخها وتطورها . كما يستعرض موقف المهاجرين منها قائلا انها لا تحظى بحماس الكثيرين منهم ، خاصة الباكستانيين والسود .

واخيرا يستعرض المؤلف في **الفصل الثامن** وهو الخاتمة ما انتهى اليه من نتائج ومحددا ان المهاجرين في مجموعهم يشعرون بأنهم غرباء وان اغلبهم لم يأت للاستقرار الدائم بل تحمل ثم العودة لبلده ، ومستعرضا ملخصا سريعا لنتائج الفصول السابقة ، وموقف المهاجرين في مجالات الاسكان والتوظف وغيره مما سبق عرضه تفصيليا .

ومع ان الموضوع الذي يتناوله المؤلف هو الهجرة الا انه يركز على المهاجرين انفسهم بقدر ما ركز على علاقاتهم بالمواطنين الاصليين ، وقد اعطى المؤلف صورة كاملة عن هـذه العلاقة بالفعل الا ان الكتاب لم يظهر العلاقات بين مجموعات المهاجرين من دول الهند وباكستان وجمايكا ، اذ لم يركز المؤلف على العلاقة بين كل جماعة من هـذه الجماعات وغيرها من الجماعات ، ولا شك ان هذه نقطة كانت جديرة بالبحث خاصة اننا سبق ان

اوضحنا ان العلاقات السلالية هي النقطة الاساسية في هذا الكتاب . كما ان المؤلف لم يتناول **بالدراسة العلاقات الداخلية** بين افراد كل جماعة من هذه الجماعات المهاجرة رغم انه ذكر في المقدمة ان فهم العلاقات تلعبه العوامل الثقافية والبنائية في هذه العلاقات في الرؤية المتبادلة بين المهاجرين الملونين من جانب الاهالي من جانب آخر . ولا شك ان عدم اهتمام المؤلف بالعلاقات الداخلية بين مهاجري كل جماعة من الجماعات المهاجرة قد عمل على غياب متصر بالغ الاهمية في تفسير عدد كبير من النقاط والنتائج التي توصل اليها الباحث ، والتي لم يقدم تفسيرا كافيا لها ، مثل قوله بان الملونين لا يتبرمون بظروف السكن السيئة التي يعيشونها ، وقوله بان الملونين عموما غير متحمسين للتنظيمات السياسية ولا للمنظمات الخاصة بالعلاقات السلالية ، وقوله بان الجمايكيين قد تمثلوا نسبيا المجتمع البريطاني بينما لم يتمثل الباكستانيون والهنود ، وقوله بان غياب الصراع الظاهر في العلاقات السلالية يرجع الى مجموعة الحاجات والظروف المعزية وغير مقصودة في مجالات العمل والاسكان . ولا شك ان العلاقات الداخلية بين افراد كل جماعة كانت ستشكل اساسا تفسيريا هاما لهذا كله ... او على الاقل احد الاسس التفسيرية له .

ولعل عدم متابعة العلاقات الداخلية بالتحليل ترجع الى اعتماد المؤلف على المنهج السوسيولوجي كلية ، المتمثل في الاعتماد على الاستمارة واستخدام المقابلة على عينة محددة (٢٠٠ حالة) من مجموع سكان المدينة من البيض ومهاجري الكومنولث الملونين مع استخدام الاسئلة المغلقة .

وعلى اية حاله فان الكتاب يتعرض لموضوع امتدت اليه يد البحث مرات عديدة في المجتمع البريطاني وهو العلاقات السلالية بين الاهالي الملونين من المهاجرين . وقد حصر نفسه تماما في هذه النقطة مما جعل من الكتاب صورة واضحة عن هذه العلاقات دون ان يمس بعمق الصورة التي يعيش عليها المهاجرون انفسهم او المواطنون البيض انفسهم .

* * *

من الكتب الجديدة

كتب وصلت الى ادارة المجلة ، وسوف نعرض لها بالتحليل فى الاعداد القادمة

Abelson, Raziel, "Persons. A Study in Philosophical Psychology," The Macmillan Press Ltd., 1977.

Greeley, Andrew M., "Ecstasy. A Way of Knowing," Prentice-Hall, Inc. 1974.

Jacob, François, "The Logic of Living Systems. A History of Heredity," Translated by Betty E. Spillmann, Allen Lane, 1970.

Milunsky, Aubrey, "Know your Genes", Houghton Mifflin Company, Boston, 1977.

Milunsky, Aubrey, "Know your Genes", Houghton Mifflin Company, Boston, 1977.

Whitby, M. C., Robins, D.L.J., Tansey, A.W., and Willis, K.G., " Rural Resource Development," Methuen & Co Ltd., 1974.

* * *